

نَفْحُ الطَّيِّبِ

غَيْصِنُ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التلياني

حقيقته
الدكتور احسان عباس

المجلد السابع

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ - ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٧



الباب الخامس

(تمة)

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

وأما مَوْشحاته وأزجاله فكثيرة ، وقد انتهت إليه رياضة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعض كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه^١ : وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قُطْرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سَمَوْهُ بالموشح ، ينظمونه أسماً أسماً وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويُسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد ، وتجاوزوا^٢ في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ وحمدوه^٣ الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترعُ

١ انظر مقدمة ابن خلدون : ١٣٢٧ وأصل هذا النص نفسه ورد في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن

سميد ، وراجع أزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ .

٢ المقدمة : وتجاروا .

٣ المقدمة والأزهار : جملة .

لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربّه صاحب العقد ، ولم يُذكر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القراز شاعر المعتصم بن صّماح صاحب المريّة ، وقد ذكر الأعلام البطلانيّ أنّه سمع أبا بكر ابن زُهر يقول : كلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القراز فيما اتفق له من قوله :

بَدُرُ تَمَّ شمس ضُحى غصن نَقا مسك شَمَّ
ما أتمَّ ما أوضحا ما أورقا ما أتمَّ
لا جرَمَ مَنْ لَحَا قَدَّ عَشِقا قد حرم

وزعموا أنّه لم يسبق عبادة وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول :

العودُ قد ترنمُ بأبدعِ تلحينٍ وشقّتِ المذانبُ رياضَ البساتين
وفي انتهائه حيث يقول :

تَخطِرُ ولم تسلمْ عساكَ المأمون مَرُوعَ الكتائبِ يحیی بن ذي النون
ثمَّ جاءت الحلبّة التي كانت في مدة الملتصين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان حلبتهم^١ : الأعمى التطيلي ، ثمَّ يحيى بن بقي ، وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله^٢ :

١ المقتطف : وفرسانهم حلبتهم .

٢ ديوان الأعمى : ٢٧٢ .

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي فِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانُ
وَالرَّكْبُ وَسَطَ الْفَلَاحِ بِالْخُرْدِ النِّسْوَاعِمِ قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل^١ هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها ، فتقدم الأعمى التُّطيلي للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحك عن جُمان سافر عَن بَدْرِ
ضاقَ عَنْهُ الزَّمان وَحوَاهُ صَدْرِي

خرَّق ابنُ بقي موشحته وتبعه الباقر^٢ .
وذكر الأعلام البطلاني^٣ أنه سمع ابن زُهْر يقول : ما حسدت قطُّ
وشاحاً على قول إلا ابن بقي حين وقع له^٤ :

أما تَرى أَحْمَدُ في مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْحَقُ
أُطْلَعُهُ الْمَغْرِبُ فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة .
ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مغلومة ابن تيفلوت^٥ صاحب سَرْقُسطَة فالتقى عليه بعض موشحته :

-
- ١ المتكلم : وسَمِعْتُ غيرَ واحدٍ منَ الأَشْيَاحِ . . . إلخ .
٢ راجع هذه القصة في المجلد ٣ : ٤٠٤ .
٣ المتكلم : وسَمِعْتُ الأَعلامَ البَطْلانِيَّ يَقُولُ . . . إلخ .
٤ انظر هذه الموشحة في ديوان التُّطيلي : ٢٧٠ - ٢٧٢ وهي في دار الطراز : ٦٣ مفسوبة لابن بقي .
٥ المتكلم : أَنَّهُ لَمَّا لَقِيَ عَلَى بَعْضِ قِيَمَاتِ ابْنِ تَيْفَلُوتٍ . . . إلخ .

جرّ الذيلَ أيّما جرّاً [وصيل السكر منك بالسكر]^١

فطرب الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح : واطرباه ! وشقّ ثيابه ، وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشي ابنُ باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف ، إلى أن قال : وابن هرودس^٢ الذي له :

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودي

وابن مؤهل^٣ الذي له :

ما العيد في حلة وطاقٍ وشمّ طيب

ولأنما العيد في التلاقي مع الحبيب

وأبو إسحاق الزويلي^٤ .

١ زيادة من المقتطف .

٢ ترجم له في المغرب (٢ : ٢١٠) وسماه أحمد بن هرودس بتقديم الواو على الدال ؛ وكنيته أبو الحكم ؛ وفي التحفة (٥٤) أنه إبراهيم بن علي بن هرودس ؛ وقال إنه من أهل حصن مرشافة من عمل المرية وتوفي بمراكش سنة ٥٧٢ ؛ وسماه في التكملة أيضاً إبراهيم (ص : ١٥٤) وأورد له صاحب المغرب موشحة (٢ : ٢١٥) هي التي أورد هنا مطلعها ؛ وأغلب الظن أن الصواب في نسبه « هرودس » بتقديم الدال وهي لفظة بربرية ترمز إلى البهولة . والأرجح أن اسمه « أحمد » لقوله يخاطب أحمد بن عبد الملك بن سعيد « يا سميي » (انظر النسخ ٤ : ٢٠١) .

٣ ذكره في المغرب ٢ : ٣٩٠ باسم « ابن موهّد » وأورد له موشحة وقال إنه شاطبي سكن مرسية ومدح ابن مردنيش .

٤ في المقدمة والأزهار : الدويني ، وما أثبتناه هو ما ورد في المقتطف .

قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : إنه دخل على ابن زُهر ، وقد أَسْنَّ ، وعليه زيُّ البادية ، إذ كان يسكن بحصن سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس^١ ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كحلُّ الدجى يجري من مقلّةِ الفجرِ على الصباحِ
ومعصمُ النهرِ في حُلُلٍ خضرٍ من البطاحِ

فتحرك ابن زُهر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبر ، قال : ومن تكون ؟ فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتكَ .
قال ابن سعيد : وسابقُ الحَلْبَةِ التي أدركتُ هو أبو بكر ابن زُهر ، وقد شرقت موشحاته وغرّبت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للمولاه من سكره لا يُفِيْقُ يا لهُ سكران
[مِنْ غَيْرِ خمرٍ ما للكئيبِ المشوّقُ يندبُ الأوطان]
هلْ تُستَعادُ أَيْامُنَا بِالْخَلِيجِ وَلَيَالِينَا
إِذْ يُسْتَفادُ مِنْ النّسيمِ الأريجِ مسكُ دارِينَا
وَإِذْ يَكادُ حَسَنُ الْمَكَانِ الْبَهيجِ أَنْ يُحَيِّينَا
نهرٌ أَظْلَهُ دَوْحٌ عَلَيْهِ أُنَيْقٌ مُؤنِقٌ فِينان
والماءُ يَجْري وَعائِمٌ وَغَرِيقٌ مِنْ جَنَى الرِّيحان

واشتهر بعده ابن حيون ، إلى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرسِية ، ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه ، فأنشده موشحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ، فقال :

١ المقتطف : فجلس حيث وجد .

على مثل ماذا ؟ فقال : على مثل قولي :

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل
أو هل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة ، قال ابن سعيد : كان والذي يعجب
بقوله :

إن سبيل الصباح في الشرق عاد بجرأ في أجمع الأفق
فتداعت نوادب الورق أتراها خافت من الغرق
فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشيلية لذلك العهد أبو الحسن ابن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده :
سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الوشاحين الفضل ،
بقولك :

واحسرتي لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضا
أعانق بالفكر تلك الطلول وألم بالوهم تلك الرسوم

قال : وسمعت أبا بكر ابن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته
غير ما مرة فما سمعته يقول « لله درك » إلا في قوله :

قسماً بالهوى لذي حجر ما لليل المشوق من فجر
خمد الصبح لئس يطرد
ما لليلى فيما أظن غد
صح يا ليل أنك الأبد

أو تقضت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسري

ومن موشحات ابن الصابوني قوله :

ما حالُ صبِّ ذي ضنّى واكتئابُ مرضهُ يا ويلتاهُ الطَّيِّبُ
عامَلهُ محبوبهُ باجتئابُ ثمَّ اقتدى فيه الكرى بالحبيبِ

جفا جفوني النومُ لكنّي لمْ أبكهِ إلّا لفقد الخيال
وذو الوصالِ اليوم قد غرّني منه كما شاء وشاء الوصال
فلستُ باللائم من صدّتي بصورة الحقّ ولا بالمحال

واشتهر ببر العُدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة :

يد الإصباحُ قد قدحتْ زنادَ الأنوار من مجامر الزهرِ

وابن خزر البجائي ، وله من موشحة :

نغرُ الزمانِ موافقُ حيّاك منه يابتسامُ

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها^١ :

هل درّى طبّني الحمى أن قد حمى قلب صبّ حلّه عن مكّنسِ
فهو في حرّ وخفقٍ مثلما لعبت ربحُ الضبّا بالقبسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعرُ
الأندلس والمغرب لعصره فقال :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمان الوصلِ بالأندلسِ
لم يكنْ وصلكُ إلّا حلّما في الكرى أو خلسة المختلسِ

١ انظر ديوان ابن سهل : ٢٨٣ وهي الموشحة التي شرحها الأفراني في كتاب سماء « الملك السهل
في شرح توشيح ابن سهل » . يقول الأفراني : وقد وقفت على أزيد من اثني عشرة موشحة بما
عورض به توشيح ابن سهل .

إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَتَى
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا
وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوْضَ سَنَا
يَنْقُلُ الْخَطْوَةَ عَلَى مَا يَرْسُمُ
مِثْلَمَا يَدْعُو الْوَفُودَ الْمَوْسَمُ
فَتَغُورُ الزَّهْرُ مِنْهُ تَبَسُّمُ

وَرَوَى النِّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ
فَكَسَاهُ الْحَسَنُ ثَوْبًا مُعَلِّمًا
كَيْفَ يَرُوي مَالِكٌ عَنْ أَنَسٍ
يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسٍ

فِي لَيَالٍ كَتَمْتُ سِرَّ الْهَوَى
مَالَ نَجْمٍ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرْتُ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى
بِالدَّجَى لَوْلَا شَمُوسُ الْغُرَى
مُسْتَقِيمَ السَّبِيلِ سَعْدَ الْأَثَرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَلِمَحَ الْبَصَرِ

حِينَ لَدَّ الْأَنْسُ شَيْئًا أَوْ كَمَا
غَارَتْ الشُّهُبُ بَنَا أَوْ رِيحًا
هَجَمَ الصَّبْحُ هَجُومَ الْحَرَسِ
أَثَرْتُ فِينَا عَيُونَ الرُّجَسِ

أَيُّ شَيْءٍ لَامَرْنِي قَدْ خَلَصَا
تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ مَتَى الْفُرْصَا
فَإِذَا الْمَاءُ تَنَاجَى وَالْحَصَى
فَيَكُونُ الرُّوْضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
أَمَنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
وَحَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ

تَبَصَّرُ الْوَرْدَ غَيُورًا بَرِّمَا
وَتَرَى الْأَمْسَ لَبِيًّا فَهِيَا
يَكْتَسِي مِنْ غِيظِهِ مَا يَكْتَسِي
يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسٍ

يَا أَهْلَ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْغَضَا
ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْغَضَا
فَاعِيدُوا عَهْدَ أَنَسٍ قَدْ مَضَى
وَبِقَلْبِي سَكَنَ أَنْتُمْ بِهِ
لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
تُعْتَقُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمَا
حَسَنَ الْقَلْبِ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
يَتَلَاشَى نَفْسًا فِي نَفْسٍ
أَفَرَضُونَ عَفَاءَ الْحَبْسِ

وبقلبي منكم مقربُ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدْ تَسَاوَى مُحْسَنٌ أَوْ مُذْنِبُ
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
شَقْوَةَ الْمُغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدُ

سَاحِرُ الْمُقَلَّةِ مَعْسُولُ اللَّمَى
سَدَّدَ السَّهْمَ وَسَمَى وَرَمَى
جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ
فَقُوَادِي نُهْبَةٍ الْمُفْرَسِ

إِنْ يَكُنْ جَارٌ وَخَابَ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثِلُ
وَقُوَادُ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَنْوِبُ
لَيْسَ فِي الْحَبِّ لِمُحِبِّهِ ذَنْوِبُ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَّاهَا وَقُلُوبُ

حَكَمَ اللَّحْظَ بِهَا فَاحْتَكَمَا
مَنْصَفَ الْمَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَا
لَمْ يَرَأَقْ فِي ضَعَافِ الْأَنْفُسِ
وَمَجَازِي الْبِرِّ مِنْهَا وَالْمُسِي

مَا لِقَلْبِي كَلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مَكْتَبَا
جَلَبَ الْهَمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا
عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ
قَوْلُهُ : « إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدُ »
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدُ

لَاعَجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا
لَمْ يَدْعُ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذَمَا
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبْسِ
كِبْقَاءُ الصَّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ

سَلَّمِي يَا نَفْسُ فِي حَكْمِ الْقَضَا
دَعَاكَ مِنْ ذِكْرِ زَمَانٍ قَدْ مَضَى
وَاصِرِي الْقَوْلَ إِلَى الْمَوْلَى الرِّضَى
وَاعْمُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابُ
بَيْنَ عُنْتِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابُ
مَلْهُمِ التَّوْفِيقِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ

الْكَرِيمِ الْمُتَنَهَى وَالْمُنْتَمَى
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا
أَسَدِ السَّرْحِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدري لِمَ لَمْ يكملها ، وتمامها قوله :

مصطفى الله سَمِيَّ المصطفى الغني بالله عَنْ كلُّ أحدٍ
مَنْ إذا ما عَقَدَ العهدَ وَفَى وإذا ما فَتَحَ الخطبُ عقدَ
من بَنِي قيسِ بنِ سعدٍ وكفى حيثُ بَيَّتُ النصرَ مرفوعُ العمدِ

حيثُ بَيَّتُ النصرَ محمى الحمى وجنى الفضلَ زكيُّ المغرسِ
والهوى ظلُّ ظليلٌ خيما والتدى هبَّ إلى المغرسِ

هاكها يا سبطَ أنصارِ العُلا والذي إن عَشَرَ الدهرُ أقالُ
غادةٌ ألبسها الحسنُ مُلا تبهرُ العينَ جِلاءُ وصقالُ
عارضتُ لفظاً ومعنى وحلى قول من أنطقه الحبُّ فقالُ :

« هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صَبَّ حلَّه عن مكَنَسِ »
« فهو في خفقٍ وحرٍّ مثلما لعبت ربيعُ الصبا بالقبَسِ »

ثمَّ قال ابن خلدون : وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عاثوه من الموشحات ، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وأولها :

[يا] حبيبي ارفع حجابَ النور عَنْ العذار
تَنْظُرُ المسكَ عَلَى كافور في جَلَنار

كلّلي يا سَحْبُ تيجانِ الرُّبى بالحلي
واجعّلي سِوارها منعطفَ الجدول

ولمّا شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق

كلامه وتصريح أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً^١ ، واستحدثوا فنّاً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قرمان ، وإن كانت قبلت قبله بالأندلس^٢ ، لكن لم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقته ، إلا في زمانه ، وكان لعهد الملتئمين ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر ممّا رأيتها بحواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن ابن جحندر الإشبيلي^٣ إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منتره مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

وعريش قد قام على دكان بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق
وفتح فمو بحال إنسان به الفواق

وانطلق من ثم على الصفاح وألقى الصياح

١ يؤخذ من هذا أن ابن خلدون يرى أسقية الموشح على الزجل ، وهو أمر يخالف طبيعة الأشياء ، لأن الزجل في أصله أغنية شعبية ، وإنما يعني ابن خلدون أن الزجل أحرز « مكانة أدبية » بعد شيوع الموشح .

٢ ظهر من الزجالين ابن نمارة وابن راشد قبل ابن قرمان ولكنه خالف طريقة القدامى - كما يسميهم - واختار العودة بالزجل إلى سهولة الأغنية الشعبية ورقتها .

٣ هو علي بن جحندر (المغرب ١ : ٢٦٢ واختصار القدر : ١٧٢) قال ابن سعيد : أكثر اشتهاؤه بالانطباع في الزجل ، وجالسته كثيراً بإشبيلية ، و طال عمره حتى جاوز التسعين ومات سنة ٦٣٨ .

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، ويتتاب
نهرها .

إلى أن قال ابن خلدون : وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس^١ ،
وقعت له العجائب في هذه الطريقة ، فمن قوله في زجله المشهور :

ورذاذٌ دقٌ ينزلُ وشعاعُ الشمسِ يضربُ
فترى الواحدُ يفضضُ وترى الآخرُ يذهبُ
والنبتُ يشربُ ويسكرُ والغصونُ ترقصُ وتطربُ
وتريدُ نجي إلىنا ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

لاح الضياء والنجوم سكارى

ثم قال : وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحدر الذي فضل على الزجالين
في فتح ميسورة بالزجل المشهور الذي أوله :

من يعاند التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع^٢ صاحب الزجل المشهور الذي
أولّه :

ليتني إن ريت حبيبي أقتل أذنو بالرسيل
لش أخذ عتق الغزيل وسرق فم الحجيل

١ اسمه أحمد بن الحاج ، وكان في دولة بني عبد المؤمن ، وهو شيخ الزجالين بعد ابن قزمان (المغرب

٢ : ٢١٤) وقد أورد له ابن سعيد (٢٠ : ٢٢٠) زجلين وله في العاقل الحالي أزجال (١٨ -

٢٥) وأخرى منقولة عن سفينة ابن مباركشاه (العاقل ٢٠٤ - ٢١٤) وانظر النفع ٣ : ٣٨٥ .

٢ ق : البعبع .

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهّل بن مالك إمام الآداب ، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس^١ واملالي نُجَدَد^٢ ما خُلِقَ المال^٣ إلا أن يُبَدَد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى المشتري منهم :

بين طلوع^٤ وبين نزول^٥ اختَلَطَتْ الغزول^٦
ومضى من لَمْ يَكُنْ^٧ وبقي مَنْ لَمْ يَزُول^٨

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعدُ عَنكَ يا ابني أعظم^٩ مصايبي^{١٠} وحين حَصَلَ لي قربك سَيَّبَتْ أقاربي

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا المقصد ، ولمْ أَرِدْ إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الغرض به ، وفيما ذكرته منه كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافع ، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيفية .

[ترجمة ابن باجة من القلائد]

وأبو بكر بن باجة^١ الذي أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر ابن الصائغ التَّجِيبِي السَّرْقُسْطِي ، الذي قال في حقّه لسان الدين في « الإحاطة » : إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب « القلائد » معاداة فلذلك هجاه في القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصّه^١ : الأديب أبو بكر ابن الصائغ ، هو رَمَدُ عَيْن^٢ الدين ، وكَمَدُ نفوس

١ القلائد : ٣٠٠ - ٣٠٦ . ٢ القلائد : جفن .

المهتدين ، اشتهر سُخْفاً وجنوناً ، وهَجَرَ مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرّع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا أظهر مخيلة إنابة ، ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فؤاده بتوارٍ في جدّ ، ولا أقر بياريه ومصوره ، ولا قرّ عن تباريه في ميدان تهوّه ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ثاني عطفه ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهيئة ، وأنكر أن تكون له إلى الله تعالى فيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصر : ٨٥) فهو يعتقد أن الزمان دَوْر ، وأن الإنسان نبات أو ثَوْر ، حِمَامه تمامه ، واختطافه قِطَافه ، قد عحي الإيمان من قلبه فما له فيه رَسْم ، ونسي الرحمن لسانه فما يمرّ له عليه اسم ، وانتمت نفسه إلى الضلال وانسيت ، ونفت ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (غافر : ١٧) ، فقصر عمره على طَرَب وهو ، واستشعر كلّ كبر وزهو ، وأقام سوق المويستقى ، وهام بحادي القطار وسقا ، فهو يعكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلن بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسلس مقاد ، مع منشأ وخيم ، ولؤم أصل وخيم ، وصورة شوها الله تعالى وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها الكلب نبحتها ، وقذارة يؤذي البلاد نفسها ، ووضارة يحكي الحداد دتسها ، وفند لا يعمر إلا كنفه ، ولد لا يقوم إلا الصعاد جنفه ، وله نظم أجاد فيه بعض إجادة ، وشارف الإحسان أو كاده ،

فمن ذلك ما قاله في عبد حبشي كان يهواه ، فاشتمل عليه أنسرٌ سَعَر حشاه^١ ،
ونقله إلى حيث لم يعلم مشواه ، فقال :

يا شائقي حيث لا أسطيع أدركه ولا أقولُ غداً أغدو فأنفاهُ
أما النهارُ فليلي ضمَّ شملته على الصّباح فأولاهُ كأخراهُ
أغرّ نفسي بآمالٍ مزوّرةٍ منها لقاؤك والأيتامُ تأباهُ
وله فيه لما بلغه موته ، وتحقق عنده فوّته :

ألا يا رزقُ والأقدارُ تجري بما شئتَ نشأ أو لا نشأ
هَلْ أَنْتَ مُطارِحِي شجوي فتدري وأدري كيفَ يحملُ القضاءُ
يقولون الأمورُ تكونُ دوراً وهذا فقدّه فمتى اللقاءُ

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم قدس الله تعالى تربته ، وآنس غربته ،
مدائح انتظمت بلبّات الأوان ، ونظمت على كل شئت من الإحسان ، فمن
ذلك قوله :

توضّع في الدجى طرفٌ ضريبُ سنّا بلوى الصريمةِ يستطيرُ
فيا بأبي ولم أبذل يسيراً وإن لم يكفهم ذاك الكثيرُ
بريقٌ لا تقلُّ هو ثغرُ سلمى فتأثم ، إنّه حُوبٌ وزورُ
فكيف وما أطلّ الليلُ منه ولا عبت بساحته الخمرُ
تراعى بالسدير فزاد قلبي من البرحاء ما شاء السديرُ
فلولا أنّ يومَ الحشرِ يقضي عليّ بحكمِ مولى لا يحورُ
دعوتُ على المشقّر أن يجازي بما تجزى به الدار الغرورُ

١ القلائد : جواه .

ومنها :

لقد وسع الزمان عليه عدوى وضرَّ بِشِبْلِهِ اللَّيْثُ الهَـصُورُ
وقلَّبنا الزمان فلا بُطُون تضمّتِ الوفاء ولا ظهور
سوى ذكرٍ أطارحه فلولا أميرٌ لقد عفا لولا الأمير
همامٌ جوده يصفُ السَّواري وسطوته يُعَيِّرُهَا الهجير
وقلَّنا نحن كيفَ وراحته بحورٌ يلتظي فيها سَعير
فهلَّ فيما سمعت بهِ خصام يكون الخضم فيه هو العذير

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المائة ويراها ، ويجود أبداً ثراها ،
فلما ولي الثغر والشرق لم يغفله من رعي ، ولم يكلِّه^١ إلى شفاعة وسعي ،
وحمله على ما كان يعتقد فيه من المقت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خلُقُ
الوقت ، من إقامة الوعد^٢ ، وتسويغه كل نعيم رَغْد ، وتغليب حجة داحضة ،
وإنهاض عثرة غير ناهضة ، فتقلد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوسمي
المبتكر ، وأهدى من النجم في الليل المعتكر ، وألويته تيمسُ زهواً ميسَ الفتاة ،
ورعيته تبتهج بملكه ابتهاج حبي بابن المومة^٣ ، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها ،
وكتائبه لا يكاد العدو يعشرها ، فجاش إليه وانبرى ، وراش في تنكيلهم وبرى ،
وأقطعهم ما شاء من مُقَابَحتِه ، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتيحه ، فوغيرتْ

١ القلائد : لم يغفلها . . . ولم يكلها ؛ والضمير عائد على « المائة » .

٢ القلائد : من إقامة كل وغد . ق : من إقامة وعد .

٣ كذا ؛ وفي القلائد : ابتهاج جابر بعهد البوابة ، وفي النصين خطأ في اسم العلم ، أما البوابة
والمومة فيدلان على شيء واحد هو الأرض المتسعة ؛ وأرى أن الإشارة إلى من اسمه « جرير » وهو
المشهور باسم « المتلمس » إذ يقول في ذكر البوابة :

لن تسلكي سبل البوابة منجدة ما عاش عمرو وما عمرت قابوس
والبوابة هنا ثنية في طريق نجد .

صدورهم السليمة ، واعتلت صحة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ، ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولا يدع ، ويعلن به ويصدع ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد الدولة من ولاتها ، وجردّها من حماتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشرى ، وزأر منه على سرقسطة ليث شرى ، ولما رأى الشر قد ثار قتامه ، وبدا من ليله إعتامه ، ارتحل واحتمل ، وقال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل ، وأقام ببلنسية يشفي نفسه ، ويستوفي أنسه ، ونجوم سعدّها كل يوم غائرة ، والعدو يتربص بها أسوأ دائرة ، ويروم منازلها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيأ لذلك الملك السري ، والليث الجري ، وفي خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المطاولة ، عاجل الأمير أبا بكر حمامه ، واستسّر فيها تمامه^١ ، وأجته الثرى ، وحاز منه بدر دجئة وليث شرى ، فعطلت الدنيا من علاء وجود ، وأطلت عليها بفقده حوادث أجذبت تهائمها والنجود ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيماً ، ويبيت به الأمى لسامعه ضجيجاً :

أيّها الملك قد لعمرى نعى المج د نواعيك يوم قمنا
كم تقارعت والخطوب إلى أن غادرتك الخطوب في الترب رهنا
غير أنني إذا ذكرتك والده ر إخال اليقين في ذاك ظناً
وسألنا متى اللقاء فقيل لا حشر قلنا : صبراً إليه وحزناً

وكثيراً ما يُغير هذا الرجل على معاني الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء ، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب ، ويعوضهم منها كل هم ناصب ، فهذا ممّا أطل به كد أبي العلاء وغمه ، فإنّه أخذه من قوله يرثي أمه^٢ :

١ يريد أنه كان بدمراً كاملاً فأصابه السراة .

٢ شروح السقط : ١٤٦٠ ، ١٤٦٨ .

فيا ركب المنون ألا رسولٌ يبلِّغُ روحَهَا أَرْجَ السلامِ
سألتُ متى اللقاءُ فقليلٌ حتى يقومَ الهامدونَ من الرِّجامِ

ولما فانت سرقسطة من يد الإسلام ، وباتت نفوس المسلمين فرقا منهم في
يد الاستسلام ، ارتاب بقبح أفعاله ، وجرىء من احتذائه بتلك الآراء وانتعاله ،
وأخافه ذنبه ، ونبا عن مضجع الأمن جنبه ، فكراً إلى الغرب ليتواري في
نواحيه ، ولا يتراءى لعين لائمه ولاحيه ، فلما وصل شاطبة حضرة الأمير
إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وجدّ باب نفاذه وهو مبهم ، وعاقه عنه مدلول^١
عليه ملهم ، فاعتقله اعتقالاً شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ،
وفي ذلك يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستاسد :

خَفَضُ عَلَيْكَ فَمَا الزَّمَانُ وَرِيئُهُ	شَيْءٌ يَدُومُ وَلَا الْحَيَاةُ تَدُومُ
وَاذْهَبْ بِنَفْسٍ لَمْ تَضَعْ لِنَحْلِهَا	حَيْثُ احْتَلَّتْ بِهَا وَأَنْتَ عَلِيمٌ
يَا صَاحِبِي لَفْظًا وَمَعْنَى خَلْتَهُ	مِنْ قَبْلُ حَتَّى بَيَّنَّ التَّقْسِيمُ
دَعُ عَنْكَ مِنْ مَعْنَى الْإِخَاءِ ثَقِيلَهُ	وَانْبَذْ بِذَاكَ الْعَبَاءَ وَهُوَ ذَمِيمٌ
وَاسْمَحْ وَطَارِحِي الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ	لَيْلٌ كَأَحْدَاثِ الزَّمَانِ بِهِمِ
نَحْذِنِي عَلَى أَثَرِ الزَّمَانِ فَقَدْ مَضَى	بُؤْسٌ عَلَى أُنْسَائِهِ وَنَعِيمٌ
فَعَسَى أَرَى ذَاكَ النِّعَمِ وَرَبِّهِ	مَرَحٌ وَرَبُّ الْبُؤْسِ وَهُوَ سَقِيمٌ
هِيَاهُ سَاوَتْ بَيْنَهُمْ أَجْدَاثَهُمْ	وَتَشَابَهَ الْمُحْسُودُ وَالْمَحْرُومُ

ولما خلاص من تلك الحباله ونجا ، وأثار من سلامته ما كان دجا ، احتال
في إخفاء ماله ، واستيفاء آماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالثناء له والتأبين ،
وتداهيه في ذلك واضح مستبين ، فإنه وصل بهذه التزعة من الحماية إلى حرم ،

١ القلائد : شيحان مدلول .

وحصل في ذمة ذلك الكرم ، واشتمل بالرَّغِي ، وأمن من كلَّ سَعْيٍ ، فافتنى
 قِيَانًا ، ولقنهن أعاريضَ من القريض وركبَ عليها ألحاناً أشجى من النَّوْحِ ،
 ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبسوح ، فسلك بها أبداع مسلك ، وأطلعها
 نيرات ما لها غير القلوب من قَلْكَ ، فمن ذلك قوله :

إنَّ غراباً جرى بَيْنَهُمْ جاوبَه بالثَّيْبَةِ الصَّرْدُ
 طاروا فها أنت بعدهم جسدٌ قد فارق الروحَ ذلك الجسدُ
 واكتموا صُبْحَةً بَيْنَهُمْ فبَسَّ والله ما الذي اعتمدوا

وكفوله :

سلامٌ والمِلمُ ووسميْ مَزْنَةٌ على الجَدَثِ النَّائِي الذي لا أزوره
 أحَقّاً أبو بكر تقضَى فلا يَـرَى تردُّ جماهيرَ الوفود ستوره
 لئن أنِستَ تلكَ القبورُ بلحده لقد أوحشت أنصاره وقصوره

ومن قفلة عقله وتراوته ، أنه في مدة وزارته ، سَقَرَ بين الأمير أبي بكر
 رحمه الله تعالى وبين عماد الدولة بن هود رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها ،
 وذخائر كانت له على يديه أتلُفها ، فوافاه أوْغَرَ ما كان عليه صَدْرًا ، وأصغر
 ما كان لديه قدرًا ، قال به ذلك الانتقال ، إلى الاعتقال ، فأقام فيه شهوراً
 يغالزله الحِمَامُ بمقلة شوهاء ، وتنازله الأوهام بقطرته الورْهَاء ، وفي ذلك يقول :

لعلَّكَ يا يزيدُ علمتَ حالي فتعلمَ أيَّ خطبٍ قد لقيتُ
 ولأني إن بقيتُ بمثل ما بي فمن عجبِ الليالي أن بقيتُ
 يقولُ الشامِتون شقاءَ بختٍ لَعَمْرُ الشامتين لقد شقيتُ
 أعندهمُ الأمانُ من الليالي وسالمهم بها الزمنُ المَقِيْتُ
 وما يدرون أنهمُ سيَسْقَوُا على كرهٍ بكأسٍ قد سَقِيْتُ

وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، وألزم المرقيين به التحيلَ على ختله ،
فمني إليه الأمر الوعر ، وارتمى به في لجج اليأس الذعر ، فقال :

أقولُ لنفسي حينَ قابلَها الردى فراغتُ فراراً منه يُسرَى إلى يمنى
قيرى تحمدي بعضَ الذي تكرهينه فقدَ طالما اعتدتِ الفرار إلى الأهنا

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ،
ويمهل الفاجر حكمةً من الله تعالى وعلماً ﴿ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا ﴾
(آل عمران : ١٧٨) ؛ انتهى نص القلائد .

[ثناء الفتى على ابن باجة]

وَأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ،
وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت
من طيب ذكره الأمصار ، وقام أوانُ المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فتناً
وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ،
إذا قدح زندُ فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل
شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبُعد الفساد من كونها ، والتحقيق ،
الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يودُّ
عطارده أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبآت
والنحور ، وتدعّيه مع نقاسة جوهرها البحور ، وقد أثبت منه ما تهوى الأعين
النجل أن يكون إثمها ، ويزيل من النفوس حزنها وكدها ، فمن ذلك قوله
يتنزل :

أَسْكَنْ نَعْمَانَ الْأَرَكَ تَيَقَّنُوا بِأَنْتَكُمُ فِي رَجَعِ قَلْبِي سَكَّانُ

ودوموا على حفظِ الودادِ فطالما
 سلوا الليلَ عني إذ تناءتْ دياركم
 هل اكتحلتْ لي فيه بالنومِ أجفان
 وهل جرّدتْ أسيافُ برقِ سمائكم
 بلينا بأقوامٍ إذا استَحفظوا خانوا
 فكانتْ لها إلا جفوني أجفان
 وله :

أتأذنُ لي آتي العقيقَ اليمانيَا
 وهلْ داركم بالحزنِ قفراءِ إنني
 أسألهُ ما للمعالي وما ليا
 تركتُ الهوى يقتاد فضل زاميا
 فيا مكرعَ الوادي أما فيك شربةٌ
 ويا شجراتِ الجرعِ هل فيك وقفةٌ
 لقد سالَ فيك الماءَ أزرقَ صافيا
 وقد فاء فيك الظلُّ أخضرَ ضافيا
 وأورد له في «المطمح» أنه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محجوباً ، فقال :

مَنْ مُبلِّغٌ خيرَ إمامٍ نشأ
 قولَ امرئٍ لو قاله للصفاء
 ذا عزةٍ وسامياً قدراً
 أنبتَ فيه ورقاً خضراً
 عبدك بالبابِ له خجلةٌ
 لو أنّها بالزرجسِ أحمرّاً

وحكي غير واحد أنه مات له سَكَن كان يَهْوَاه ، فبات مع بعض أصحابه
 عند ضريحه ومثواه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ،
 فزور في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت
 الكسوف بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجي ، واللحن يسوق الشوق
 ويُرْجِي ، وهما :

شقيقك غيَّب في لحدِهِ
 فهلاً كسفت فكان الكسوفُ
 وتُشرقُ يا بدرُ من بعده
 حداداً لبست على فقده

فكسف القمر في الحال ، وعدت هذه من نوادره التي جيدُ الأخبار بفرائدها
 حال ، سامحه الله تعالى .

[ابن الحداد الوادي آشي]

ثم رأيت في « الإحاطة »^١ نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ، الوادي آشي ، يكنى أبا عبد الله .

حاله - شاعر مفلح ، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القرين منها في الموسيقى ، مضطلع بفك المعنى ، سكن المرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صُمّادح ، وقال ابن بَسّام : كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة ، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المتهلل ، وضرب فيها بقدرح ابن مُقبل^٢ ، إلى جلاله مقطع ، وأصالة منزع ، ترى العلم ينم على أشعاره ، ويبين في منازعه وآثاره .

تأليفه - ديوان شعره كبير معروف ، وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية .

بعض أخباره - حدثت بعض المؤرخين مما يدل على ظرفه أنه فقد سكناً عزيزاً عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء ، وكان قد رصد الخسوف القمري ، فلما حقق أنه ابتداء أخذ العود وغنى « شقيقك غيب - إلى آخره » وجعل يرددّها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف ، وعظم من الحاضرين التعجب .

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره : وقال^٣ :

أقبلن في الخبرات يقصرن الخطا ويرين في حلل الوراشين القطا
سرب الجوى لا الجوى عود حسنه أن يرتعي حبّ القلوب ويلقطا

١ الإحاطة ٢ : ٢٥٠ .

٢ ينسب القدرح إلى الشاعر ابن مقبل لأنه أجاد وصفه (ديوانه : ٢٨ - ٢٩) .

٣ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة ، وهي في الذخيرة ٢/١ : ٢١٩ .

٤ الوراشين : جمع ورشان وهو من الطيور المفردة .

مالت معافهنّ من سكر الصبا ميلاً يخيف قودها أن تسقطا
وبسقط العلمين أوضح معلّم لمهفّف سكن الحشا والمسقطا
ما أنجّل البدر المنير إذا مشى يخال والغصن^١ النصير إذا خطا
ومنها في المدح :

يا وافردي شرق البلاد وغربها أكرمتما خيل الوفادة فاربطا
ورأيتما ملك البرية فاهنا^٢ ووردتما أرض المربة فاخططا
يدمي^٣ نخور الدارين إذا ارتأى ويذلّ عزّ العالمين إذا سطا

انتهى المقصود منه ، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أولها :

حديثك ما أحلى ، فزيدي وحديثي

وهي طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيخي أبي جعفر
ابن خاتمة بالمرية في سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القباب على أقاحي روضة خطر النسيم بها ففاح عبرا
وتركت قلبي سار بين حمولهم دامي الكلوم يسوق تلك العيرا
هلاً سألت أميرهم هل عندهم عان يفك ولو سألت غيورا
لا والذي جعل الغصون معافاً لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
ما مرّ بي ريح الصبا من بعدهم إلا شهقت له فعاد سعيরা

١ الذخيرة : والحوط ، ق : والحدود .

٢ الذخيرة : قاطباً .

٣ الذخيرة : يرني .

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموماً في باذنجان بمدينة فاس ، وهو تُجِيبِي بضم التاء وفتحها ، وباجّة : بالباء الموحدة ، وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهي القصة بلغة الفرنج ، وسَرَفُسطة - بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة »^١ إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف في الرياضات والمنطق ، ولأنه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَفُسطة ، ووزر أيضاً ليجيى بن يوسف ابن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وإن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتّاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموماً ؛ انتهى .

وأنشد له بعضهم :

هم رحلوا يوم الخميس عشيّة فودّعْتهم لمّا استقلّوا وودعوا
ولمّا تولّوا ولّت النفسُ معْهم فقلتُ: ارجعي قالت: إلى أين أرجع
إلى جسّدٍ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ وما هوَ إلا أعظمُ تنقّع
وعينين قد أعماههما كثرةُ البُكا وأذنٍ عصّتْ عُدّأها ليس تسمع

وقد ذكر بعضهم في تعزيز بيتي الحريري : أنه لابن الصائغ الأندلسي ، وليس هو بهذا فيما أعلم :

انقدّ مهوى أزره فأننى مَهْ يا عدولي في الذي انقدّ مَهْ
مندمةٌ قتلُ المعنى فلا ترسلُ سهامَ اللحظِ تأمنُ دمه

١ هو تاريخ كبير مرتب على حسب السنين انتهى فيه إلى سنة ٧٢٤ ؛ وتوفي ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري سنة ٧٢٥ .

[ترجمة الفتح عن الإحاطة]

رجع إلى ابن باجة — وقد ذكر لسان الدين في « الإحاطة » سبب العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولذا ذكرها بنصّه فنقول ^١ : قال رحمه الله تعالى :
الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تُعرف بقلعة الواد ^٢ من قرى
يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويُعرف بابن خاقان .

حاله — كان آية من آيات البلاغة لا يُشَقَّ غُبَارُهُ ، ولا يُدْرِك شَأُوهُ ، عذب
الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب
الحلى والصفات ، إلا أنه كان محارفاً مقدوراً عليه ، لا يمل من المعاقرة والقَصْف ،
حتى هان قَدْرُهُ ، وابتذلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس
إلا ودخله مسترفداً أميره واغلاّ في عليته ، قال الأستاذ في « الصلة » : وكان
معاصراً للكاتب أبي عبد الله ابن أبي الحصال ، إلا أن بطالته أخذت به عن
مرتبته . وقال ابن عبد الملك ^٣ : قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض
محمراً ، فتنسم بعضُ حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ،
فاستثبت ^٤ وحدّه حدّاً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير
وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي
الفضل من كتابي الموسوم بـ « قلائد العقيان » ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهي
نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائر أن تُنسى ،
وأنت تريد أن تتركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجده قد ذكرت

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٥٣ .

٢ الإحاطة : بصخرة الولد ، وهامش إحدى نسخ الذيل والتكملة : من قرية شرقي قلعة يحصب تعرف
بشجرة الولد . ق : بقرية الواد .

٣ قلت انظر الذيل والتكملة ٥ : ٥٣٠ .

٤ الذيل : فاستثبت في استنكاكه ؛ وفي الإحاطة : فاستتابه .

فيه مَنْ هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ،
فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر ، قال : فتبين ذلك ، وعلم صحته وأقر
اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقه على ابن باجة أبي بكرٍ آخرِ فلاسفة
الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به وتكذيبه إياه في مجلس إقرائه ،
إذ جعل يُكثّر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حلياً ، وكان يبدو من
أنفه فضلة خضراء اللون - زعموا - فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة
التي على شاربك ؟ فثلبه في كتابه بما هو معروف ، وعلى ذلك فأبو نصر نسيحُ
وَحَدِّه ، غفر الله تعالى له .

مشيخته - روي عن أبي بكر : ابن سليمان بن القصيرة وابن عيسى ابن
اللبانة ، وأبي جعفر ابن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن ابن سراج ، وأبي خالد ابن
بشتغير ، وأبي الطيب ابن زرقون ، وأبي عبد الله ابن خلصة الكاتب ، وأبي عبد
الرحمن ابن طاهر ، وأبي عامر ابن سرور ، وأبي محمد ابن عبدون ، وأبي الوليد
ابن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

توآلفه - ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس »
والمطمح أيضاً ، وترسيله مدون ، وشعرة وسط ، وكتابته فائقة .

شعره - من شعره قوله ، وثبت في قلائده ، يخاطب أبا يحيى ابن الحاج ^١ :

أَكْبَعَةَ عَلِيَاءٍ وَهَضْبَةَ سُوْدُدٍ	وَرَوْضَةَ مَجْدٍ بِالْمَفَاخِرِ تُمْطَرُ
هَنِيئًا لِمَلِكٍ زَارَ أَفْقَكَ نَوْرُهُ	وَفِي صَفْحَتِهِ مِنْ مَضَائِكَ أَسْطَرُ
وَأَنْتِي خَلْفَاقُ الْجَنَاحِينَ كُلِّمَا	سَرَى لَكَ ذِكْرٌ أَوْ نَسِيمٌ مُعْطَرُ
وَقَدْ كَانَ وَاشٍ هَاجِنًا لَتَهَاجِرِ	فَبِتُّ وَأَحْشَاتِي جَوَى تَنْفَطَرُ

١ انظر أيضاً القلائد : ١٨٠ والمطرب : ١٨٩ .

فهل لك في ودِّ ذَوَى لك ظاهراً وباطنه يَتَدَى صفاءً ويَقْطُرُ
ولست بعلقٍ بيعٍ بخساً وإنَّني لأرفعُ أَعْلَاقِ الزمانِ وأُخْطِرُ
فروجع عنه بما ثبت أيضاً في قلائده ممّا أوله :

ثبّت أبا نصرٍ عَناني ، وربما ثبّت عزمةَ السهم المصمم أسطُرُ

نثره - ونثره شهير ، وثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيراً كتبه
عن بعض الأمراء لصاحب الشرط ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته : كتاب تأكيد
اعتناء ، وتقليد ذي منة وغناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله تعالى ، لفلان
ابن فلان ، صانه الله تعالى ، ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ، ويَضْرَحُ^١
ما تكاثف من العدو وأن في جنباتها ، تنوياً أحظاه بعلائه ، وكساه رائق مَلَائِه ،
لما علمه من سنائه ، وتوسّمه من غنائه ، وزجاء من حسن منابه ، وتحققه من
طهارة ساحته وجنابه ، وتيقن - أيده الله تعالى - أنه مستحق لما ولاه ، مستقل^٢
بما تولاه ، لا يعتريه الكسَل^٣ ، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل ، ولم
يَكِل الأمر منه إلى وكل ، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشَل ، وأمره أن يراقب
الله تعالى في أوامره ونواهيه ، وليعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه ، وسائله عما
حكم به وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ
يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانقطار : ١٩) فليتقدم إلى ذلك بحزم لا يخمد توقّده ، وعزم
لا ينفد تفقّده ، ونفس مع الخير ذاهبة ، وعلى متن البر والتقوى راكبة ، ويقدم
للاحتراس من عرف اجتهداه ، وعلم أرقه في البحث وسُهاداه ، وحُمدت
أعماله ، وأمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحذو حنوهم ، ويقفو شأوهم ،

١ يضرح : يزيل وينسل ؛ وفي ق : ويصوح .

٢ مستقل : حامل العبء ؛ وفي الإحاطة : مشتغل .

٣ الإحاطة : الكلل .

ممن لا يشرب بمناحيه ، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه ، وأن يُدْهِكِي
العيون على الحنأة ، وينفي عنها لذيذ السننات ، ويفحص عن مكانهم ، حتى
يغص بالريق^١ نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ، ولا يفر منهم خب ولا
مُوضِع ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال في مواضع
تصرفه ومواطنه ، فإن لاحت شبهة أبدأها الكشف والاستبراء ، وتعدأها البغي
والافتراء ، نكَّله بالعقوبة أشد نكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ،
بعد أن يبلغ إناه ، ويقف في طرفه مداه ، وخذ له أن لا يكشف بشرة إلا في حد
يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور ، وأن
لا يسمع من مكشوف في مستور ، وأن يسلك السنن المحمود ، ويتره عقوبته من
الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود ، وإذا انتهت إليه قصّة مشكلة أخرها إلى
غده ، فهو على العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت ،
والمعالجة^٢ بالعقوبة من المقت ، وأن يتغمد هفوات ، ذوي^٣ الهيثات ، وأن
يستشعر الإشفاق ، ويخلع التكبر فإنه ملابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله
تعالى اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده ، وأن يعاقب المجرم قدر
زلته ، ولا يعتر عند ذلته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزين له مشواه ،
فليشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية ،
وألبيه من ملابسه الضافية ، ويذكره جلّ وعلا في جميع أحواله ، ويفكر في
الحشر وأهواله ، ويتذكر وعداً ينجز فيه ووعيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) والأمير أيده الله تعالى ولي له ما عدل وأقسط ، وبرىء
منه إن جار وقسّط ، فمن قرأه فليقف عند حده ورأسه ، وليعرف له حق

١ الإحاطة : ينهض بالروح .

٢ الإحاطة : والعجل .

٣ الإحاطة : أولي .

قطع الشرّ وحسّمه ، ومن واقفه من شريف أو مشروف ، وخالفه في نهي عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبآل خبّله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وكتب في كذا .

وفاته - بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة^١ وعشرين وخمسائة ، ألفي قتيلاً بيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبُع وعُبِث به ، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ؛ انتهى نص الإحاطة .

[ترجمة الفتح عن المغرب]

وقال في « المغرب » ما ملخصه^٢ : فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، صاحب « القلائد » و « المطمح » ، ذكره الحجاري في المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحمله فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طبّقَ الآفاق ضياؤها ، وعمّ الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان في الأدب أرفعَ الأعلام ، وحسنة الأيام ، وله كتاب « قلائد العقيان » ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبو الحسن ابن بسّام الشتمري مؤلف الذخيرة فارساً هذا الأوان ، وكلاهما قسّ وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناً في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلّقاً وتعشّقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به ممّا عُرف من أجله بابن خاقان ، لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان ، وإنما أخلّ به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بدم

١ الإحاطة : سبعة .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٤ وبين ما أورده المقرئ وما جاء في المغرب اختلاف كبير ، هذا مع أن المقرئ يصرح بأنه يلخص .

أولي الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتّاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجة ، فوجد في فندق بحضرة مراکش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه ، وتركه مقتولاً وفي دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات في المدح :

إلى أين ترقى قد علوت على البدر وقد نلت غايات السيادة والقدر
وجئت إلى أن ليس يذكرك حاتم وأغنيت أهل الجذب عن سبل القطر
وكم رام أهل اللوم باللوم وقفه وبحرك مد لا يؤول إلى جزر
ولو لم يكن فيك السماح جيلة لأثر ذلك اللوم فيك مع الدهر

وذكره ابن الإمام في « سمط الجمان » وأنشد له :

الله ظي من جنابك زارني يختال زهواً في ملأٍ مراح
ولي التماسك في هواه كأنه مروان خاف كئائب السفاح
فخلعت صبري بالعرأ ونبدته وركبت وجدي في عنان جماح
أهدى لي الورد المضعف خدّه فقطفته باللحظ دون جناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق وأريت جيداً في خلال مزاح
وتركت قلبي للصبابة طائراً تهفؤ به الأشواق دون جناح

وذكره ابن دحية في « المطرب » ونعته بـابن خاقان ، قال : والشيخ أبو الحجاج البياسي ينكر هذا ، وقيل : إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجاري ، وقال ابن دحية : إنه قُتل ذبحاً بمسكنه في فندق بيت من حضرة مراکش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين .

وقال أبو الحسن ابن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده « الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا ، وشاد مثواه في أجننتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية ، والصواب ضد ذلك ؛ انتهى .

وقال ابن الأبار في « معجم أصحاب الصدي »^١ : إنه لم يكن مرضياً ، وحذفه أولى من إثباته ؛ انتهى . ولذا لم يذكره في التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنه لم يُعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب . وما حكاه في « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسائة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وحكى ابن خلكان^٢ قولاً آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسائة ، قيل : وهو خطأ ، على أنه حكى القول الآخر أيضاً .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخيه إبراهيم الذي ألف برسمه « قلائد العقيان » .

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ، والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعله الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ومن تأليف الفتح « راية المحاسن وغاية المحاسن » ومجموع في ترسيله ، وتأليف صغير في ترجمة ابن السيد البَطْلَيْنُوسِي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد^٣ .

١ انظر المعجم : ٣٠٠ (رقم : ٢٨٥) .

٢ وفيات الأعيان ٣ : ١٩٤ .

٣ هذا التأليف نقله المقرئ في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ - ١٤٩ ؛ وذكر ابن عبد الملك له مؤلفاً اسمه « حديقة المآثر » ولم أجده مذكوراً عند غيره .

[رسائل الفتح]

١ - ومن بديع إنشاء الفتح المذكور ساعده الله تعالى قوله : أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجل ، عتادي الأسرى ، وزنادي الأورى ، وأيامه أعياد ، وللسعد في زمانه انقياد ، أمّا أنا - أدام الله تعالى عزّه - فجوى عاتم ، وأعيادي ماتم ، وصُبّحي عشاء ، وما لي إلّا من الخطوب انشاء ، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مُسَهَّد ، نائي المحلّة من مزار العود ، حين لا أرى الروض المنور ، ولا أحس سُهَيْلاً إذا لاح ثم تَهَوَّر^١ ، وقد بعدت دار إليّ حبيبة ، ودنت مني حوادثُ بأدناها تؤذّي الشيبة ، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها ، حتى ألقه ريمها ، قد رمته النوائب فما اتقى ، وارتقت له الجوائح في وُغور المرتقى ، يُواصل النوى ولا يهجر سبراً ، ولا يزجر في الإراحة طيراً ، قد هام بالوطن ، هيام ابن طالب بالحوض والعطن ، وحنّ إلى تلك البقاع ، حينه إلى أثلاث القاع^٢ ، ولا سبيل أن يشعب صدر بينه شاعب ، أو تكلّمه أحجار للدار وملاعب ، وليس له إلى أين يجنح ، ولا يرى أمله يستنح ، قد طوى البلاد وبسطها ، وتطرّف الأرض وتوسطها ، ولم يُلّف مقيلاً ، ولا وجد مقيلاً ، إلى الله أشكو ما أقاسي وأقاصي ، ويده الأقدام والنواصي ، ولقاؤه موعد كلّ موعد ، وكل معمر سيدركه يوماً حِمَام الموعد ، وأنقذته وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكال سقيتها ، وسفر لقيت منه نصباً ، وكدر أعقبي وصباً ، وإلى متى يعتزلي السعد ؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ انتهى .

١ ق : تنور ، وصوابه « تغور » .

٢ يشير إلى يحيى بن طالب الحنفي حين اغترب عن وطنه اليمامة إلى العراق وانتقر ، وهو يقول في الحنين إلى أثلاث القاع :

أيـا أثلاث القاع من بطن توضح حنيني إلى أفيانكن طويل

وقد شرح ياقوت قصته في معجم البلدان (قرقرى) .

٢ - وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدي لا علمت ارتفاقاً ، ولا حُرمتَ تكيفاً من السعد وانفاقاً ، أنا الآن مشغولُ البال ، لا أفرق بين الإعراض والإقبال ، وعند تفرغي أوجه لك ما حضر ، ومثلُك أرجأ الأمر وأنظر ، وفي علم الله تعالى لو أمكنني حملتك على كاهل ، وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأبحث لك السعد نقرأ وترشفه ، وخلعته برُداً عليك تلتحفه ، لكن الزمان لا يجد ، وصروفه لا تنجد ، وعلى أي حال فلا بد أن تجد قيرارك ، وتحمد سُرارك ، إن شاء الله تعالى .

٣ - وكتب إلى أبي بكر بن علي^١ عند ولايته إشبيلية : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجلّ أبي بكر للأرض يتملكها ، ويستدير بسعده فلكها ، استبشر الملك وحق له الاستبشار ، وأوماً إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك ، وحقق عليه من ألويتك ، فلقد حُبّي منك بملك أمضي من السهم المسدّد :

طويل نجاد السيف رَحْب المقلد

يُقدِّم حيث يتأخر الذابل ، ويكرم إذا بخل الوابل ، ويحمي الحمى كربيعة ابن مُكْدَم ، ويسقي الظبي نجيعة كلون العندَم ، فهنيئاً للأندلس لقد استردت عهد خلفائها ، واستمدت تلك الإمامة بعد عقائها ، حتى كأن لم تمر أعاصرها ، ولم يمت حكمها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرُصافة والزَّهراء ، ونسكا عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفة مهراً ، والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عصرُك أعجب من عصرهم ، ونصرك أعز من

١ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين أكبر أبناء علي وكان يعرف ببيكور (تصغير تحب) ، نشأ في إشبيلية ، وكان مؤدبه أبو مروان ابن زهر ، وقد ولي أمر المدينة سنة ٥١٨ هـ وعزل عنها سنة ٥٢٢ هـ .

نصرهم ، والسلام ؛ انتهى .

٤ - وقال بعضهم : من أحسن ما رأيت له قوله : معاليك أشهر رُسوماً ، وأعطر نسيماً ، من أن يغرب شهاب مسعاه ، أو يجذب لرائد مرعاه ، فإن نيهتك فإنما نيهت عمراً^١ ، وإن استرتك فإنما أستير قمراً ، والأمير أيدته الله تعالى أجل من اعتصم في ملكه ، وأنظم في سلكه ، فإنه حسام بيد الملك ، طلاقته فيرنده ، وشهامته حده ، وقضيب ، في دوحة الشرف رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ، وقد توسمت نارك لعلّي أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس ، وعسى الأمل أن تلو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه ، فجرد - أيدك الله تعالى - صارم عزم لا تقل غروبه ، واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ، انتهى .

ولنذكر بعض كلامه في « المطمح » لغرابته في هذه البلاد الشرقية بخلاف « القلائد » فإنها موجودة بأيدي الناس فيه .

[نماذج من تراجم المطمح]

١ - قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي^٢ :
إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوضَحَ منها كل إبهام ، وفضح دون الجهل بها حل الأوهام ، وكان أحد ذوي الإعجاز ، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز ، نجَمَ والأندلس في إقبالها ، والأنفس أول تهَمَّتْها بالعلم واهتبالها ، فنفتت له عندهم البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحكم بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار « العين » للخليل ، وهو معدوم

١ أخذه من قول يشار في مدح عمر بن العلاء :

فنبه لها عمراً ثم ثم

إذا أيقظتك حروب العدا

٢ المطمح : ٥٣ - ٥٥ .

النظير والمثل ، و « لحن العامة » و « طبقات النحويين » وكتاب « الواضح »
وسواها من كل تأليف مُخجل لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ،
كأنما يتفجر من خاطره يَنْبوع ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ،
فمن ذلك قوله :

كيف بالدين القديم لك من أم تميم
ولقد كان شفاء من جوى القلب السقيم
بُشرقُ الحسن عليها في دجى الليل البهيم

وكتب مراجعاً :

أغرقتني في بحورِ فكري فكدتُ منها أموتُ لما
كلقتني غامضاً عويصاً أُرجمُ فيه الظنونَ رجماً
ما زلت أسرو السجوفَ عنه كأنتي كاشفُ لظُلما
أقربُ من ليله ، وأناى مستبصراً تارة وأعمى
حتى بدا مشرقُ المحيا لما اعتلى طالعاً وتما
لله من منطقٍ وجيزٍ قد جلَّ قدراً وجلَّ فهما
أخلصتَ لله فيه قولاً سلّمتَ لله فيه حكماً
إذ قلتَ قولَ امرئٍ حكيمٍ مراقبٍ للإله علماً
اللهُ ربّي وليُّ نفسي في كل بوسٍ وكل نَعْمى

وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيراً^٢
لسانه ، مقفراً من المعالم جنانه :

١ المطبع : غما .
٢ المطبع : متغراً .

أبا مسلم ، إنَّ الفتى بفؤاده ومِقْوَلَه لا بالمراكب واللبس
وليس رُوءاء المرء يغني قَلَامَه إذا كان مقصوراً على قصر النفس
وليس يفيدُ الحلم والعلم والحجى أبا مسلم طول القعود على الكرسي

واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع ، فأمرع من
آماله ما أمرع ، فلمّا طالت نَوَاه ، واستطلت عليه لَوَعَتُهُ وجَوَاه ، وحنَّ
إلى مستكنّه بإشبيلية ومثواه ، استأذنه في اللّحوق بها فلوّمه ولّواه ، فكتب إلى
من كان يألفه ويهواه :

ويحك يا سلّم لا تُرَاعِي لا بندّ للبين من مساع
لا تحسبني صبرتُ إلّا كصبر ميتٍ على التّراع
ما خلق الله من عذاب أشدّ من وقفة الوداع
ما بينها والحمام فرقٌ إلا المناحات في النواعي
إن يفرّق شملنا وشيكاً من بعد ما كان في اجتماع
فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ وكلُّ شعبٍ إلى انصداع
وكلُّ قربٍ إلى بعادٍ وكلُّ وصلٍ إلى انقطاع

٢ - وقال - ساعه الله تعالى - بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صّادح
ما نصّه : ابنه عز الدولة أبو مزوان عبد الله^١ ، فتى الراح المعاقيرُ لدنانها ، المهتصر
لأغصان الفتوة وأفنانها ، المهجر لفلاة الطّباء والآرام ، المشهرّ في باب
الصّبابة والغرام ، نشأ في حجر أبيه نديم قهّوة ، ومُدّيم صَبْوة ، وخديم
شَهْوة ، لا يريم كاساً ، ولا يروم إلا اقتضاء وانتكاساً ، ما شهد قتلاً ولا
قتلاً ، ولا تقلد صارماً إلا مختالاً ، قد آمن منه جنانُ الجبان ، وعدّت له غصون
البان ، وما زال مرتضعاً لأخلاف البَطالة ، مقتطعاً ما شاء من إطالة ، متوغلاً

١ لم ترد هذه الترجمة في المطبع المطبوع .

في شباب الفتاك ، متغلغلاً في طريق الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عندما بدت له وجوه الفتنة تُسْفِر ، ومعاهد الهدنة تُقْفِر ، مع أكامل أصحابهم نُفْصَانَه ، وذوي أديان جعلهم خُلْصَانَه ، يسمعون بواذر بَدَاذِته ، وينظرون مناكر لذاذته ، قَالَت سَفَرْتَه إلى الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كالمهر لا يعرف لجأماً ، وصار حبيس قوم لا يألونه استعجأماً ، وحين شالت نعامته ، وسالت عليه ظلامته ، كتب إلى أبيه :

أبعدَ السنا والمَعَالِي خمولُ وبعد ركوبِ المذاكي كِبُولُ
ومن بعد ما كنتُ حرّاً عزيزاً أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ
حللتُ رسولاً بغرناطة فحلَّ بها في خطبٍ جليلُ
وثُقِّفْتُ إذ جثتها مرسلًا وقبلي كان يُعَزُّ الرُّسُولُ
فقدتُ المِريَّةَ أكرمَ بها فما للوصولِ إليها سَبِيلُ

فراجعه أبوه بقطعة منها :-

عزيزٌ عليَّ ونوحِي دليلُ علي ما أقاسي ودُمعي يسيلُ
وقطعتُ البيضَ أغمادها وشُقَّتْ بُنُودٌ وناحتَ طبولُ
لئن كنتُ يعقوبَ في حزنه ويوسفَ أنتَ فصبرٌ جميلُ

ولم يزل يتحيل في تخلصه ، وأخذَه من يد مُقْتَنِصِه ، فسُرِقَ وحراسه منه بمكان السلك من النحر ، وطرق به على ثبَج البحر ، فوافى المِريَّة ، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية ، فهنيء المعتصم بخلاصه ، وبقي مستقرّاً بعِراضِه ، إلى أن أخلوها ، ومضوا الطلبة ما نووها ، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمَّة كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سَمِير لُهو ، وأمير سهوه ، إلى أن انقرض أمدُّه ، وطواه سروره لا كمدُّه ، فلم يُرَ إلا

خالعاً لِعِذاره ، طالعاً في ثَنِيَّاتِ اغتراره ، غير مكثرت باتّضاعه ، ولا منحرف
عن ارتشاف الغيِّ وارتضاعه ، وبدا منه في هذه الحال ندى كاثّر به السحاب ،
وظاهر بسببه الصُّحاب ، وتخدّم الأوطار ، وتقدم لذوي الرتب فيها والأخطار ،
[تقدماً] حَسَن من ذكره ، وأولع الألسن بشكره ، فارتفع عنه الكدَح ، وشَفَع
له في الذم ذلك المدح ، وكان نظمه بديع الوصف ، رفيع الرّصف ، وقد أثبت
له ما يشهد بإجادته وإحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه .

أخبرني ابن القطان أنّه سائر الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طُلَيْطَلَة في جيوش
فاضت سَيْلاً ، وخاضت المطايا قنّامها لَيْلاً ، وكان ملكاً لم يُعَقِّد على مثله
لواء ، ولم يحتو على شَيْبه حواء^١ ، جمال مُحَبّاً ، وكمال عُلَيّا ، وحسن شَيْم ،
وبعد هِمَم ، أغنى العَفَاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعب
ابن مامة وابن أبي دُوَاد ، فلما شارف طُلَيْطَلَة وكشفها ، واشتَفَ بلالتها
وارتشفها ، وضرب بكنفها مضاربته ، وأجال بساحتها زَنْجَه وأعاربته ، سقط
أحدُ ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطائفة تَفاءلت ، وطائفة تطيرت ،
وفرقه ابتهجّت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لَمْ يَنْكَسِرْ عودُ اللّواءِ لِطَيْرَةٍ يُخْشَى عَلَيْكَ بِهَا وَأَنْ تَتَأَوَّلَا
لَكِنْ تَحَقَّقْ أَنَّهُ يَنْدُقُ فِي نَحْرِ الْعِدا وَلَدَى الْوَعَى فَتَعَجَّلَا

وأخبرني أخوه رفيعُ الدولة أن ابن اللبّانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ،
وقصر بوسه ، وكدر صفاءه ، وغدر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى
أفنان وجُوده ، قوله^٢ :

يا ذا الذي هزَّ أمداحي بحليته وعزّه أن يهزَّ المجد والكرما

١ الحواء : مضرب الأعراب .

٢ مر البيتان وجوابهما في النفع ج ٣ : ٣٩٦ .

واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذْ عَلَيْهِ لِأَيَّامِ الْمُنَى سَلَامًا
فَدَعَتْهُ دَوَاعِي النَّدَى ، وَأَوَّلَعَتْهُ بِالْجَدَا فِي ذَلِكَ الْمَدَى ، فَتَحِيلَ فِي بَرِّ طَبْعِهِ ،
وَكُتِبَ مَعَهُ :

المجدُ يَخْجَلُ مِنْ تَقْدِيرِكَ فِي زَمَنِ ثَنَاهُ عَنْ وَاجِبِ الْبَرِّ الَّذِي عَلِمَا
فَدُونُكَ التَّرَمِينَ مُصَفٍّ مَوَدَّتِهِ حَتَّى يُوَفِّيكَ أَيَّامَ الْمُنَى سَلَامًا

٣ - ابنه الثاني : رفيع الدولة أبو يحيى ابن المعتصم :

من بيت^١ إماره ، والى السعد طوافه^٢ بها واعتماره ، عمرت أُنْدِيَتَهُ ،
ونشرت به رايات العزِّ وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ،
ففترقوا أيادي سبأ ، وفرقوا من وقع الأسنة والظبي ، وفارقوا أرضاً كأرض
غَسَّان ، ووافقوا أياماً كيوم أهل اليمامة مع حَسَّان ، بعدما خامرت النفوس
مكارمهم مخامرة الرحيق ، وأمَّهُمُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ سَحِيقٍ ، وانتجعوا
انتجاع الأنواء ، واستطعموا في المحلِّ والأواء ، وصالوا بالدهر وسَطَّوْا ،
وبين النهي والأمر فيه خَطَّوْا ، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح ، وضوء
ذلك المصباح ، وغصن تلك الدَّوْحَةِ ، ونسيم تلك النفحة ، لم يمتحن والدهر قد
بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خذله ، فالتحف بالصَّوْنِ وارتدى ، وراح
على الانقباض واغتدى ، فما تلقاه إلا سالكاً جَدَّاداً ، ولا تراه إلا لابساً سُودَّاداً ،
وله أدب كالروض المجود إذا أزهَر ، ونظم كزهر التهائم والنجود بل كالصبح
إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على التسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ، فمن ذلك
قوله^٣ :

١ المطمح : ثنية .

٢ المطمح : حجة .

٣ انظر أيضاً بعض هذه المقطعات في الحلقة ١ : ٨٣ - ٨٤ .

ما لي وللبدن لم يسمح بزورته
إن كان ذاك لذنوب ما شعرت به

وله أيضاً :

يا عابدَ الرحمنِ كم ليلة
إذ كنت كالغصنِ ثَنَّتْهُ الصَّبَا

أَرَقَّتَنِي وجداً ولمْ تشعر
وصحن ذاك الحدَّ لم يشعر

وله أيضاً :

وأهيفَ لا يلوي على عتبِ عاتبٍ
يحكم فينا أمره فنتطيعه

ويقضي علينا بالظنونِ الكواذبِ
ونحسب منه الحكم ضربة لازب

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعَلِقَتْهُ حُلُوفُ الشَّمَائِلِ ما جناً
ما زِلْتُ أَنْصِفُهُ وَأُوجِبُ حَقَّهُ

خَنَتْ الكَلَامِ مَرْنَحَ الْأَعْطَافِ
لَكِنَّهُ يَأْبَى مِنَ الْإِنْصَافِ

وله أيضاً :

حبيبٌ متى ينأى عن العين شخصه
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا

يَكَادُ فَوَادِي أَنْ يَطِيرَ مِنَ الْبَيْنِ
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي تَمَائِمَ مِنْ عَيْنِ

وله أيضاً :

أَفْدَى أَبَا عَمْرٍو وَإِنْ كَانَ جَانِيَا
فَمَا كَانَ ذَاكَ الْوَدَّ إِلَّا كِبَارِقِ

عَلَى ذُنُوبَا لَا تُعَدُّ بِالْعُتْبِ^١
أَضَاءَ لَعِينِي ثُمَّ أَظْلَمَ لِلْقَلْبِ^٢

١ المطمح : بالبهت .

٢ المطمح : في الوقت .

وله وقد بلغه موثي ، وتحقق عنده فوقي ١ :

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطُرُسُ
ما كنت أحسب يوماً قبل ميتته أن البلاغة والآداب تختلس

واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع ، وأبى مطلع ،
وجوانب حَقْدِهِ بين يديّ مختلة ، وسحائب رَفْدِهِ عليّ مُنْهَلَّةٌ ، وكان
أَجْمَلُ مَنْ مَقِيلٍ ، وأَكْلُ مَنْ مِّنَ المهد إلى سرير الملك قد نُقِلَ ، وكتب
إليّ يهنيي بقدوم من سفر :

قدمت أبا نصر على حال وحشة فجاءت بك الآمال واتصل الأنس
وقررت بك العيان واتصل المنى وفازت على يأس يبغيها النفس
فأهلاً وسهلاً بالوزارة كلها ومن رأيه في كل مظلمة شمس

٤ - وقال في المطمح في ترجمة الوزير أبي الوليد ابن حزم ٢ : واحد دونه
الجمع ، وهو للجلالة بصر وسمع ، روضة علاه راققة السنا ، ودوحة بهاء
طيبة الخنى ، لم يثزر بغير الصون ، ولم يشتهر بفساد بعد الكون ، مع نفس
برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، مع عفاف التحف به بروداً ،
وما ارتشف به ثغراً بروداً ، فعفت مواطنه ، وما استرابت ظواهره ولا بواطنه ،
وأما شعره ففي قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلقي ويبلغ ،
وكتب إليه ابن زُهر :

أبا الوليد وأنت سيد مدحج هلاً فككت أسير قبضة وعده
وحياة من أمد الحياة بوصله وذهابها حتماً بأسير صدّه

١ لم ترد في المطمح .

٢ المطمح : ٣١ - ٣٤ .

لَأَقَاتِلَنَّكَ إِنْ قَطَعْتَ بِمِرْهَفٍ مِنْ جَفْنِهِ وَبَصْعَةٍ مِنْ قَدِّهِ

فراجعهُ أَبُو الْوَلِيد :

لَبَّيْكَ يَا أَسَدَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ صَادِقٍ عَثَ الْمَطَالُ بِوَعْدِهِ
يَمْضِي بِأَمْرِكَ سَاءَ أَوْ سَرَّ الْقَضَا وَيَقُلُّ حَدَّ النَّائِبَاتِ بِحَدِّهِ
إِيهِ وَوَأَقَّتِ الصَّبَا فِي مَعْرُضٍ ذَهَبَ الْمَشِيبُ بِهِزَلِهِ وَبِجَدِّهِ

٥ - وَقَالَ فِي الْمَطْمَحِ فِي تَرْجُمَةِ أَبِي بَكْرٍ الْغَسَّانِي ، مَا صُورَتُهُ ^١ :

صَلِيبُ الْعُودِ ، مَهَيْبُ الْوُجُودِ ، لَوْ دَعَى لَهُ الْأَسَدُ الْوَرْدَ لِأَجَابِ ، وَلَوْ رَمَى
بَذَكَرِهِ اللَّيْلُ الْبَهِيمَ لِانْجَابِ ، وَلَوْ قَعَدَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَطْوَادُ لِتَحْرُكِ سَكُونِهَا ،
وَلَوْ عَصَتْهُ الطَّيُورُ مَا آوَتْهَا وَكُونِهَا ، مَعَ وَقَارِ نَحَالِهِ يَذْبُلَا ، وَفَخَارِ يَفْضَحِ
بُلْبُلَا ، وَشَيْمَ لَوْ كَانَتْ بِالرُّوْضِ مَا ذَوَى ، أَوْ ثَقَاسَمَتْ فِي الْخَلْقِ مَا رَمَدَ
أَحَدٌ بَعْدَمَا شَوَى ، وَسَجَايَا تَنْجَلِي عَنْهَا الظُّلُمَاءُ ، كَأَنْ مَزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ ؛ انْتَهَى .
وَهَذَا الْغَسَّانِي هُوَ صَاحِبُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَقَدْ عَرَّفَ بِهِ فِي « الْإِحَاطَةِ »
فَلْيَرَا جَعْتُ ثَمَّةَ .

٦ - وَقَالَ أَيْضاً فِي الْمَطْمَحِ مَا صُورَتُهُ : أَبُو عَامِرِ ابْنِ عَقَالٍ ^٢ .

كَانَ لَهُ بَيْنِي قَاسِمٌ تَعْلَقُ ، وَفِي سَمَاءِ دَوْلَتِهِمْ تَأَلَّقُ ، فَلَمَّا خَوَتْ نَجْمُهُمْ ،
وَعَقَّتْ رَسُومَهُمْ ، انْحَطَّ عَنْ ذَلِكَ الْخُصُوصُ ، وَسَقَطَ سَقُوطُ الطَّائِرِ الْمَقْصُوصُ ،
وَتَصَرَّفَ بَيْنَ وُجُودٍ وَعَدَمٍ ، وَتَحَرَّفَ قَاعِدُ حِينًا وَحِينًا عَلَى قَدَمٍ ، وَفِي
خِلَالِ حَالِهِ ، وَأَثْنَاءِ انْتِحَالِهِ ، لَمْ يَدَعْ حِظَّهُ ^٣ مِنَ الْحَبِيبِ ، وَلَا ثَنَى لِحِظِهِ

١ لم ترد هذه الترجمة في المطمح المطبوع .

٢ المطمح : ٨٦ - ٨٧ وكتبه فيه « ابن عقال » وقد مر في غير موطن من هذا الكتاب « ابن عيال »

ويتصنف كثيراً « ابن غتال » ... إلخ .

٣ المطمح : خطأ .

عن الغزال الريب ، ولم يزل يطير ويقع ، والدهر يخرق حاله ويرقع ^١ ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى ربوة ^٢ ، وأراه ^٣ أبهى حطوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام التحجير والإنشا ، وترك الدهر قلق الحشا ، وتسّم منزلة لا يتسّمها إلا من تطهر من درته ، وجمع إحسانه في ميدان حرّنه ، والحظوظ أقسام لا تُسام ، والدنيا إنارة وإعتام ^٤ :

ولو لم يَعْلُ إلا ذو محلّ . تعالى الجيش وانخطّ القتام ^٥

وقد أثبت عنه بعض ما انتقيته ، والذي أخذته مباين لما أبقيته ، فمن ذلك قوله :

يا وبع أجسام الأنا	م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بال غذا	ء وسقمها ذاك غذا
وتنال أيام السلا	مة بالحياة تلذا
فإذا انقضى زمن الصبا	ورمى المشيب فأنفا
وجد السقام إلى المفا	صل والجوانح منفا
ويقول مهما يعط شي	ئاً ناولوني غير ذا

وحذا في هذه القصيدة حدّو الصابي في قوله ^٦ :

وجع المفاصل وهو أي	سر ما لقيت من الأذى
ردّ الذي استحسنه	والناس من حظي كذا
والعمر مثل الكاس ير	سب في أواخرها القذى

١ المطمح : يخفض . . . ويرفع .

٢ المطمح : إلى أسى ذروة .

٣ المطمح : ورداه .

٤ زاد في المطمح : وصفاء يتلوه قتام .

٥ البيت للمتنبي (شرح الواحدي : ١٦٢) .

٦ اليتيمة ٢ : ٣٠٠ .

وله يعتذر عن زيارة اعتمدها ، ومواصلة اعتقدها ، فعاقته عنها حوادث
لَوْتَهُ ، وعدته عن ذلك وثنته :

بَيْنَمَا كُنْتُ رَاجِئًا لِلْقَائِهِ وَالتَّشَفِّي بِالْبِشْرِ مِنْ تِلْقَائِهِ
وَتَرَقَّبْتُ مِنْ سَمَاءِ نَزَاعِي قَمَرِ الْأَنْسِ طَالِعًا مِنْ سَمَائِهِ
إِذْ دَهَانِي اعْتَرَا ضُخْطَبُ ثَنَانِي عَنْ غَمَامٍ يَشْفِي الْغَلِيلَ بِمَائِهِ
فَتَدَلَّهْتُ وَانْزَوَيْتُ حَيَاءً مِنْهُ وَالْعَذْرُ وَاضِحٌ لِسَانِهِ

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة
خمس عشرة وخمسمائة : وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جَوَاؤُهُ - أيده
الله تعالى - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ،
وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه ، وحار حبه ميثاً ، وهذره صمتاً ،
وجباله لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً ، وضعف تعاطيه ، وعقد السلم بين
موجه وشاطيه ، فعبّر آمناً من لهواته ، متمكناً لصهواته ، على جواد يقطع
الجو سبّحاً ، ويكاد يسبق البرق لمنحاً ، لم يحمل لجأماً ولا سرجاً ، ولا عهد
غير اللجة الخضراء مرجاً ، عِنانه في رجله ، وهُدْبُ العين يحكي بعض شكله ،
فلله هو من جواد ، له جسم وليس له فؤاد ، يخرق الهواء ولا يرهبه ، ويركض
الماء ولا يشربه .

٧ - وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي ،

ما نصّه :

من ثَنِيَّةٍ شَرَفٍ وَحَسَبٍ ، ومن أهل حديث وأدب ، إمام في اللغة متقدم ،
فارغ لرتب الشعر مُتَسَنِّمٌ ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد

وقد تَوَجَّ بالمعارف المفترق ، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها ، ومتسماً لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدول ، وتصطفيه أملاكها الأول ، ما زال فيها مقيماً ، ولا برح عن طريق أمانيتها مستقيماً ، إلى أن اغتيل في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولاً في فراشه ، مذهولاً كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه ، وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع ، وتُصْغِي إليه السامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم^١ على ما به منهم حين الأباعر
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا^٢ ألا إن قلبي سائر غير صابر

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة ، قال :

لئن إذا حضرتني ألفُ محبرة^٣ يكتبن حدثني طوراً وأخبرني
نادت بمفخري الأقالام^٤ معلنة هذي المفاخر لا قعبان من لبن

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار^٥ وقل منّا ومنك اليوم زوار^٦
وبيننا كل ما تدريه من ذمم^٧ وللصبا ورق خضر وأنوار^٨
وكل عتب وإعتاب جرى فله بدائع حلوة^٩ عندي وآثار^{١٠}
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت به الليالي فإن الدهر دوار^{١١}

٨ - وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد

ربه ٢ :

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ المطبع : ٥١ - ٥٣ وبعض مقطعات ابن عبد ربه وردت في الأجزاء السابقة .

عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس به من الخطوة ما اقتبس ، وشهر بالأندلس
حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ، وكانت له عناية
بالعلم وثقة ، ورواية له متسقة ، وأما الأدب فهو — كان — حجة ، وبه
غمزت الأفهام بلحته ، مع صيانة وورع ، وديانة ورد ماءها فكرع ، وله
التأليف المشهور الذي سماه «العقد» ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه
مُشَقَّف القنّاة ، مُرَهَف الشّباة ، تقصّر عنه ثواقب الألباب ، وتبصر السحر
منه في كل باب ، وله شعر انتهى متهاه ، وتجاوز سيماك الإحسان وسماه .
أخبرني ابن حزم أنه مرّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه
غناء أذهب لبّه ، وألّهب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشّ بماء من
أعالیه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا مَنْ يَضُنُّ بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسبُ هذا الضنَّ في أحدٍ
لو أنَّ أَسْماعَ أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تَضُنَّ على سمعي ومُنَّ به صوتاً يحولُ مجالَ الروح في الجسد
أما التَّيْبِذُ فلأنّي لست أشربه ولا أجيتك إلا كسرني بيدي

وعزّم فتى كان يتألّفه ، وخامره كلّفه ، على الرحيل في غدّه ، فأذهبت
عزمته قوى جلّده ، فلما أصبح عاقته السماء بالأنواء ، وساقته مكرهاً إلى
الثّواء ، فاستراح أبو عمر من كمدّه ، وانفسح له من التواصل ضائق أمدّه ،
فكتب إلى المذكور ، العازم على البكور :

هَلَّا ابتكرتَ لبينٍ أنت مبتكرُ هيهات يابى عليك الله والقدرُ
ما زلتُ أبكي حذارَ البينِ ملتهاً حتى رثي لي فيك الريحُ والمطرُ
يا بَرْدَهُ من حيا مُزْنٍ على كبدٍ نيرانها بغليلِ الشوق تستعرُ
أليتُ أن لا أرى شمساً ولا قمرأ حتى أراك فأنّت الشمس والقمرُ

ومن شعره الذي صرّح به تصريح الصب ، وبرّح فيه وقائع اسم الحب ،
قوله :

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلدٍ يا وحشةَ الروح بل يا غربةَ الجسدِ
إن تبك عيناك لي يا مَنْ كلفتُ بهِ من رحمةٍ فهما سهماك في كبدي
ومنه قوله :

ودّعني بزفرة^١ واعتناقٍ ثمّ نادتُ متى يكونُ التلاقي
وبدتُ لي فأشرق الصبحُ منها بين تلك الجيوبِ والأطواقِ
يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سقمٍ بينَ عَيْنَيْكَ مصرعَ العشاقِ
إنّ يومَ الفراقِ أظعُ يومٍ ليتني متُّ قبلَ يومِ الفراقِ
وله أيضاً :

يا ذا الذي خطّ الجمالُ بخدّه خطّينِ هاجا لوعةً وبلا بلا
ما صبحَ عندي أنّ لحظك صارمٌ حتى لبستُ بعارضيك حمائلًا

وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد ابن عيال^٢ حج ، فلمّا انصرف ،
تطلّع إلى لقاء المتنبي واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلّة فخر لا
يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلاً ، ثمّ
قال : أنشدني للمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يسّني العقول أنيقاً ورشاً بتقطيع القلوب رفيقاً
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ درّاً يعودُ من الحياء عقيقاً

١ المطيح : بزورة .

٢ كذا هنا وفي بعض أصول المطيح : ابن عقّال .

وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه أبصرتَ وجهك في سناه غريقاً
يا مَنْ تَقطعُ خَصْرُهُ من رِقَّةٍ ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقاً

فلماً أكمل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربّه ، لقد تأتيتك
العراق حبّوا .

وله أيضاً :

ومُعَدَّرَ نَقَشَ الجِمالُ بِحُطّه خَدّاً لَهُ بدمِ القُلُوبِ مَضْرَجاً
لَمَّا تيقَنَ أنَّ سِيفَ جَفُونِهِ من نرجسٍ جعل النّجادَ بِنَفْسِجاً

وله أيضاً :

وساحبة فَضَّلَ الذُّيولِ كأنّها قَضِيبٌ من الرِّيحانِ فوقَ كَثِيبِ
إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبي أطعني وخُذْ مِن وصلها بنصيبِ

وله أيضاً :

هَيْجَ الشَّوقُ دواعي سَقَمي وكسا الجسمَ ثيابَ الألمِ
أَيُّهَا البَيْنُ أَقِلْنِي مرّةً فإذا عُدْتُ فقد حلّ دمي
يا خَلِي الذَّرْعِ نَمِّ في غِبطَةٍ إنَّ من فارقتَه لم يَمِ
ولقد هاجَ بِجِسْمِي سَقَمًا حُبٌّ من لو شاء داوى سَقَمي

وبلغ سنّ عَوْفِ بن مُحَلِّم^١ ، واعترف بذلك اعتراف متألّم ، عندما وهتَ
شدته ، وبليت جدّته ، وهو آخر شعر قال ، ثم عثر في أذيال الردى وما
استقال :

١ هو القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمي إلى ترجمان

كِلَانِي لِمَا بِي عَاذِلِيْ كَفَانِي طَوِيْتُ زَمَانِي بُرْهَةً وَطَوَانِي
 بَلَيْتُ وَأَبْلَيْتُ اللَّيَالِيْ مُكْرَهًا وَصَرْفَانِ لِلْأَيَّامِ مَعْتُورَانِ
 وَمَا لِيْ لَا أَبْلَى لِسَبْعِينَ حِجَّةً وَعَشْرَ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ
 فَلَا تَسْأَلَانِيْ عَنْ تَبَارِيْحِ عَلْتِيْ وَدُونِكَمَا مَنِيْ الَّذِي تَرِيَانِ
 وَلَئِنِّيْ بِحَوْلِ اللَّهِ رَاجٍ لِّفَضْلِهِ وَلِيْ مِنْ ضَمَانِ اللَّهِ خَيْرَ ضَمَانِ
 وَلَسْتُ أَبَالِيْ مِنْ تَبَارِيْحِ عَلْتِيْ إِذَا كَانَ عَقْلِيْ بَاقِيًا وَلِسَانِيْ

وفي أيام إقلاعه عن صَبْوتِه ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوْبَتِه ، وانثنائه عن
 مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ، ونصل من
 قوادمها وخوافيها ، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة
 التي أولها :

هَلَا ابْتَكُرْتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرُ

محصها بقوله :

يَا رَاقِدًا لَيْسَ يَعْضُو حِينَ يَقْتَدِرُ مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ
 عَايِنُ بِقَلْبِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ عَنْ الْحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقَرُ
 سَوْدَاءٍ تَزْفَرُ مِنْ غَيْظٍ إِذَا سَفَرَتْ لِلظَّالِمِينَ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَذُرُ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةٌ لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُزْدَجَرُ
 أَنْتَ الْمَقُولُ لَهُ مَا قُلْتُ مُبْتَدَأًا : هَلَا ابْتَكُرْتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرُ

٩ - وقال في ترجمة أبي القاسم المنيشي ، ما صورته ١ :

أبو القاسم المنيشي ، أحد أبناء ٢ حضرة إشبيلية المقلّين ، الناهضين بأعباء

١ المطمح : ٨٨ والنص مختلف عما أورده المقرئ .

٢ المطمح : أناء .

الضرائر المستقلّين ، لم يزل يَعْشُو لكل ضوء ، ويتتبع مَصَاب كل نَوء ،
 فيوماً يَنْحَسِب ويوماً يُجْنَدِب ، وآونة يفرح وأخرى ينتدب ، إلى أن صدقت
 مخايله ، فرمقت بخوته وتحايله ، وأتى من العجب ، بمنسدل الحُجُب ، ومن
 الأشْر ، ما لم يأت من بَشَر ، وما تصرف إلاّ في أنزل الأعمال ، ولا تعرّف
 إلاّ بأخون العمال ، لم يَقْرَعُ رِبْوَة ظهور ، ولم يقرع باب رجل مشهور ،
 وله أدب ولِسَن ، ومذهب فيهما يُسْتَحْسَن ، لكنه نكب عن المقطع الجزل ،
 وذَهَبَ مذهب الهزل ، إلا في النادر فرجاً جَدَّ ، ثم أخلق منه ما استجدَّ ، وعاد
 إلى دَيْدَنَه ، عودة أبي عباد إلى واواته ومُدنَه ، وأخذ في ذلك الغرض ، وليس
 شرط كتابي بذاءه ، ولا أن يقف حذاءه ، وقد أثبت له ما هو عندي نافع ،
 ولغرض كتابي موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْضَة باتت الأنداء تخدمها	أنى النسيم وهذا أولُ السَّحَرِ
إن كانَ قدْكَ غَصناً فالثراء به	مثلُ الكمام قد زُرْتُ على الزهر
ارباباً بخديك عن وردٍ وعن زهرٍ	واغنِ بقرطيك عن شمسٍ وعن قمر
يا قاتلَ الله لحظي كم شقيتُ به	من حيثُ كان نعيمُ الناسِ بالنظر

وله من رثاء في والدي رحمة الله عليها :

يا ناصحي غيرَ مفتاتٍ ولا شجنٍ	على النَّصائح والنُّصاح مفتاتُ
لا أستجيبُ ولو ناديتُ من كَشَبٍ	قد وقذتني تعلاتٌ وعلاتُ
إن كانَ رأيك في برِّي وتكرمتي	بحيث قد ظهرتُ منه علاماتُ
لا ترضَ لي غيرَ شجوي لا أفارقه	فذاك اختارهُ والناسُ أشتاتُ

ومنها :

يا ذا الوزارة من مثني وواحدةٍ لله ما اصطنعتُ منكِ الوزاراتُ

١ أبو عباد هو معبد المفتي ، وطفه ألحان له تسمى حصون معبد .

لله منك أبا نصر أخو جلد إذا أَلَّتْ مَلَمَّاتٌ مَهَمَّاتُ
 أَسْتَدْعُ اللَّهَ نَوْرًا ضَمَهُ كَفَنُ كما تُؤَارِي بِدَوَرِ اللَّمِّ هَالَاتُ
 قَضَتْ وَلَيْتَ شَبَابِي كَانَ مَوْضِعَهَا هِيَهَاتُ ؛ لَوْ قُضِيَتْ تِلْكَ اللَّبَّاتُ
 مَضَتْ وَلَمَّا يَقُمْ مِنْ دُونِهَا أَحَدُ هَلَا وَقَدْ أَغْدَرْتُ فِيهَا الْمَرْوَاتُ
 وَلَهُ يُصِفُ زَرْزُورًا :

أَمْبَرُ ذَاكَ أُمُّ قَضِيبُ يَفْرَعُهُ مُصْطَفَعُ خَطِيبُ
 يَخْتَالُ فِي بُرْدِي شَبَابٍ لَمْ يَتَوَضَّحْ بِهَا مَشِيبُ
 كَأَنَّمَا ضَمَخَتْ عَلَيْهِ أَبْرَادَهُ مَسْكَةُ وَطِيبُ
 أَخْرَسُ لَكِنُّهُ فَصِيحُ أَبْسَلُهُ لَكِنُّهُ لَيْبُ
 جَهْمُ عَلَى أَنَّهُ وَسِيمُ صَعْبُ عَلَى أَنَّهُ أَرِيبُ

١٠ - أَبُو الْحَسَنِ الْبَرْقِيُّ ١ :

بِلَنَسِي الدَّارِ ، نَفِيسِي الْمَقْدَارِ ، مَا سَمِعْتُ لَهُ بِشَرَفٍ ، وَلَا عَلِمْتُ لَهُ بِسَلَفٍ ،
 وَلَا أَطْلَعْتُ مِنْهُ عَلَى غَيْرِ سِرْفٍ ، وَرَدَّ إِشْيِيلِيَّةَ سَنَةِ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ٢ ،
 وَاتَّصَلَ بِابْنِ زُهْرٍ ، فَتَاهِيكَ مِنْ حَظِّ فِي أَكْنَافِهِ جَالٍ ، وَمِنْ لَحْظٍ فِيمَا أَرَادَهُ أَجَالٍ ،
 وَمِنْ أَمَلٍ اسْتَوْفَرَ ، وَحَظِّ مَسْكٍ أَذْفَرَ ، وَمِنْ وَجْهِ جَاهٍ لَهُ أَسْفَرُ ، سَلَكَ بِهِ سَاحَةَ
 الرِّغَائِبِ ، وَتَمَلَّكَ بِسَبَبِهِ إِبَاحَةَ الْحَاضِرِ وَالْغَائِبِ ، وَقَالَ فَمَا نَبَذْتَ مَقَالَتَهُ ، وَأَقَالَ
 فَمَا قُبِدْتَ إِقَالَتَهُ ، وَكَانَ حُلُوَ الْمَجَالِسَةِ ، مَجْلُوَ الْمَوَاسَةِ ، ذَا نَشَبٍ وَافِرٍ ،
 وَمَذْهَبٍ فِي الْمَسَاهِمَةِ سَافِرٍ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ كَلْفًا بِالْفَتَيَانِ ، مُعْنَى بِهِمْ فِي كُلِّ
 الْأَحْيَانِ ، وَنَبَفَ عَلَى السَّبْعِينَ وَهُوَ بِرَدَاءِ الصَّبُوءِ مُرْتَدٍ ، وَبِعَرَّتْهَا مَعْتَدٍ ،
 مَعَ أَدَبٍ زَهْرَتِهِ تَرَفُّ ، وَكَأَنَّهُ بَحْرٌ وَالْأَلْبَابُ مِنْهُ تَغْتَرَفُ ، وَقَدْ أَثْبَتَ لَهُ بَعْضُ

١ المطمح : ٨٩ .

٢ المطمح : سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ما وجدت له في الغلمان ، وأنشدت له في تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرتَ العقيقَ هاجك شوقٌ رُبَّ شوقٍ يهيجُهُ الادِّكارُ
يا خليليَّ حدِّثاني عن الرِّك بـ سُحيراً أأنجِدُوا أم أغاروا
شغلونا عَنِّ الوداعِ وولوا ما عَلَيْنِهِم لو ودَّ عواثِمُ ساروا
أنا أهواهُمُ على كلِّ حالٍ عدلوا في هواهمُ أم جاروا

وعلق بإشيلية فتى يُعرف بابن المكر ، وبات من حبِّه طريقاً بين أيدي
السواس والفكر ، لا يمشي إلاَّ صَبَّاً ، ولا يفشي إلاَّ غراماً وحبِّاً ، وما زال
يقاسي لوعته ، مقاساةً يناجي بها صرعته ، ويكابد جواه ، ويلازم هواه ، حتى
اكتسى خدَّةً بالعذار ، وانمحت عنه بهجة آذار ، فسلاً من كلفه ، وتصدى ذلك
لمواصلته بصلفه ، فقال :

الآنَ لَمَّا صَوَّحَتْ وجنَّتهُ شوكةً وأضحتْ سلوةَ العشاقِ
واستوحشتْ منه المحاسنُ واكتستْ أنوارُ وجهك واهنَ الأخلاقِ
أُسميتَ تبذلُ لي الوصالَ تصنعاً خلقُ اللثيمِ وشيمةُ المذَّاقِ
هلاًَّ وصلتَ إذ الشمائلُ قهوةُ وإذ المحيّا روضةُ الأحداقِ
يا كم أطلتَ غرامَ قلبٍ مُوجعٍ كم قدَّ ألبَّ إليك بالأشواقِ
ما كنتَ إلاَّ البدرَ ليلَةَ تمه حتى قضتْ لكَ ليلَةَ بمحاقِ
لاحَ العِذارُ فقلْتُ وجدُّ نازحٍ إنَّ ابنَ دايةٍ مؤذنٌ بفراقِ

وله فيه مناقضاً لذلك الغرض ، معارضاً للوعة سلوه الذي كان عرض :

يلومون في ظبيِّ تزايدِ حُسْنِهِ بخطَّينِ خطًّا لوعتي وغراميا

١ ابن داية : الغراب .

وقد كنتُ أهوى خدّه وهو عاطلٌ فكيفَ وقد أضحي لعينيَ حالياً

وله أيضاً في مثله :

أجبلُ الطرفِ في خدّ نضيرٍ يرددُ ناظري نظري إليّـه
إذا رمدتُ بحمرته جفوني شفاها منه إثمُ عارضيه

١١ - أبو الحسن علي بن جودي^١ :

برّز في الفهم ، وأحرز منه أوفر سَهْم ، وعانى العلوم بقريحة ذكيّة ،
وواخى بنفس في المعارف زكية ، وله أدب واسعٌ مداه ، يانع كالروض بلّله
نداه ، ونظم أرقُّ من دمع العاني ، ولطيف المعاني ، وأعَبَق من نفس الحمائل ،
في أكف الصبّا والشمائل ، ونثر كالزهر المَطْلُول ، أو السلك المحلول ، إلا
أنّه سَهَا فأسرف ، وزها بما لا يعرف ، وتصدى إلى الدين بالافتراء ، ولم يراقب
الله تعالى في ذلك الاجتراء ، واشتهرت عنه في ذلك أقوال سَدَّ إلى الملة نصالها ،
وأبدى بها ضلالها ، فعظمت به المحنة ، وكنت له في كل نفس إحنة ، وما زال
يتدرّج فيها وينتقل ، حتى عثر وما كاد يستقل ، فمر لا يُلَوِّي على تلك النواحي ،
وفرّ لا يثني إلى لوائم ولواحي ، وما زال يركب الأهواء ويتخوضها ، ويدلل
النفس بها ويروضها ، حتى أسمحت ببعض الإسماح ، وكفّت عن ذلك الجماح ،
واستقر عند أبي مالك فأواه ، ومهد له مثواه ، وجعله في جملة من اختص من
المبطلين ، واستخلص من المعطلين ، فكثيراً ما يصطفيهم ، ولا يدري أيدهم
أم يقتنهم ، وقد أثبت له ما يبهّر سامعاً ، ويظهر برقاً لامعاً ، فمن ذلك قوله :

أحنُّ إلى ريح الشمالِ فإنّها تذكّرنا نجداً وما ذكّرنا نجداً
تمرُّ على رُبّعٍ أقام به الهوى وبدّل من أهليه جاثمةً ربّداً

١ المطمح : ٩٠ وبين النصين اختلاف .

فيا لَيْتَ شعري هل تُفَضِّي لُبَانَهُ
خليلي لا والله ما أحملُ الهوى

وقوله أيضاً :

سلِ الركبَ عن نجدٍ فإنَّ نَحِيَّةَ
ولاً فما بالُ المطيِّ على الوجي

وقوله أيضاً :

إذا ارتحلت غريبة فاعرضا لها
لقد ساءنا أنا بعيدٌ وأنتا
يفجعنا إما بعـادٍ مبرِّحٍ
ظعننا على حكم الليالي وخطبها
وكنْتُ أُرْجِي الدهر بعد الذي مضى
أحقاً يسيرُ الركبُ لم ترتحلُ بنا

وقوله أيضاً :

لقد هبَّجَ النيرانَ يا أمَّ مالكٍ
عشيَّةَ لا أرجو لقاءك عندها

وقوله أيضاً :

حننتُ إلى البرق اليماني ، وإنما
فيا راكباً يطوي البلادَ تحمّلنْ
ليالينا بالجزعِ جزعٍ محجّرٍ
وما ضرَّ صحبي وقفةٌ بمحجّرٍ

نعالجُ شوقاً ما هنالك هانيا
تحيّتنا إن كنتَ تلجأ لاقيا
سقى الله يا فيحاء تلك الليالي
أحيي بها تلك الرسوم البوالي

وله أيضاً :

خليلي من نجد فإن بنجدهم مَصيفاً لبيت العامريِّ ومربّعاً
ألا رجّعا عنها الحديث فإنتي لأغبطُ من ليلي الحديث المرجّعا
عزيزُ علينا يا ابنة القوم أنّا غريبان شتّى لا نطيقُ التجمّعا
فريقُ هوى منّا يمانٍ ومُشتمٌ يحاولُ يأساً أو يحاولُ مطمعا
كأنّا خلّقنا للنوى وكأنّما حرامٌ على الأيام أن تتجمّعا

ووجدت له في بعض نسخ «المطمح» قوله أيضاً^١ :

سقى دارك اللائي يبطن مُحَصَّبٍ مثاكيل من وفد الغمام المرتح
ألم تعلمي يا فتنة القلب أنتي تطارحت من حيي لكم كل مطرح
إذا نعبت غربان دارٍ وجدني وشوقي مقيم بين ناءٍ ونزح

وله أيضاً :

ألا خبر وللبلوى ضروبُ وفيك لكل مشتاق حبيبُ
حباك الله بالنعى فنوناً وجرّ لكم مع النعى خطوبُ
متى تقضي بحسفتك الليالي وتعصف فيكم ريح هبوبُ
فإنكم تجرون المنايا وتعمر من مجانيكم قلوبُ

وقد ذكر في «المطمح» له تخميساً جارياً على السنة الناس إلى الآن ، وهو :

أيا ساكنين بأرض اللوى وصالكم لسقامي دوا
وعافاكم الله من ذا الجوى ملكم فؤادي فصار الهوى
عليّ رقيب رقيب رقيب

١ وردت هذه القطعة في ق بعد القطعة التي أولها «إذا ارتحلت غريبة . . .» .

ولما تبدت لهم حالتي وما حرك الهجر من زفرتي
بكوا رحمة لي من ساعتي فقلت متى الوصل يا سادتي
فقالوا قريب قريب قريب

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنه مطروق بالمغرب عند أهل
التلاحين وغيرهم .

ولنذكر بعض نص خطبة المطمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أما بعد حمد
الله الذي أشعرنا إيماناً^١ وإلهاماً ، وصبر لنا أفهاماً ، ويسر لنا بزود آداب ،
ونشّرنا للانبعاث لإثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه
رحمة ، ونبيّاه منة منه ونعمة ، وسلّم تسليم ، فإنه كان بالأندلس أعلام ،
فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل نحيّة وسلام ، فشعشعوا البدائع وروّقوها ،
وقلّدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هَوّوا في مهاوي المنايا ، وانطوا بأيدي
الرزايا ، وبقيت مآثرهم الحسان ، غير مثبتة في ديوان ، ولا مجملّة في تصنيف
تحتلّ فيه العيون ، وتحتلّ منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ،
واتصال صدورها بإعجازها ، فحلّت من الوزير أبي العاصي حكم بن الوليد
عند من رَحّب وأهّل ، وأعلّ بمكارمه وأهّل ، وندبني إلى أن أجمعها في
كتاب ، وأدركني من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه ، وكتابة ما حث عليه ،
فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لبّته ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخلّيد عليها ،
وأملت منها في بعض أيام ، ثلاثة أقسام ، القسم الأول : يشتمل على سرّد غرر
الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغاء . القسم الثاني : يشتمل على محاسن أعلام
العلماء ، وأعيان القضاة والحكماء . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن
الأدباء ، النوابغ النجباء ؛ انتهى .

١ إيماناً : سقطت من ق والمطمح .

وهذه خطبة «المطمح الصغير» ، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلطين حسبما نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب ، على أننا نقلنا بعضاً من الصغير أيضاً ، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب ، ومن له أدنى ممارسة ، وليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه في الصغير وغيره ، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس ، ووصف أيام الأنس ، وليس الخبر كالعيان ، وقد سردنا بعض كلامه في « القلائد » وفي « المطمح » .

[قطعة من الموشحات]

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصددده من أمر التوشيح ، فنقول : وتمام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى	قلب صب حله عن مكس
فهو في حرّ وخفّقى مثلما	لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بنوراً أطلعت يوم النوى	غرراً تسلك بي نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى	منكم الحسن ومن عيني النظر
أجنتي اللذات مكلوم الجوى	والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلّما أشكوه وجدأ بسما	كالرّبي بالعارض المنبجس
إذ يقيم القطر فيها مائما	وهي من بهجتها في عرس
غالب لي غالب بالتؤده	بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نصّده	أقحواناً عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العريده	وفؤادي سكره ما إن يفيق

فاحمُ الجُمَّةِ معسولُ اللَّمَى	أَكْحَلُ اللَّحْظِ شَهْيُ الْعَسِ
وجْههُ يَتَلَوُ «الضَّحَى» مَبْتَسِمًا	وهو من إعراضه في «عَبَسِ»
أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ ذُلِّي لَدَيْهِ	لي جزاء الذنب وهو المذنبُ
أَخَذَتْ شَمْسُ الضَّحَى مِنْ وَجْتِيهِ	مشرقاً للصب فيه مغربُ
ذَهَبَتْ أَدْمَعُ أَجْفَانِي عَلَيْهِ	وله خد بلحظي مذهبُ
يَطْلُعُ الْبَدْرُ عَلَيْهِ كَلَمًا	لَا حَظَّ لَهُ مَقْلِي فِي الْخُلْسِ
لَيْتَ شَعْرِي أَيَّ شَيْءٍ حَرَمًا	ذلك الورد على المغرسِ
كَلَمًا أَشْكُو إِلَيْهِ حُرْقِي	غادرني مقلناه دنفا
تَرَكْتُ الْخَاطِظُ مِنْ رَمَقِي	أثر النمل على صم الصفا
وَأَنَا أَشْكُرُهُ فِيمَا بَقِيَ	لست ألحاه على ما أتلفا
فَهُوَ عِنْدِي عَادِلٌ إِنْ ظَلَمًا	وَعَذُولِي نَطْقُهُ كَالْخُرْسِ
لَيْسَ لِي فِي الْحَبِّ حَكْمٌ بَعْدَمَا	حل من نفسي محل النفسِ
مَنْهُ لِلنَّارِ بِأَحْشَائِي اضْطِرَامٌ	يلتظي في كل حين ما يشا
وَهِيَ فِي خَدْيِهِ بَرْدٌ وَسَلَامٌ	وهي ضرٌ وحريقٌ في الحشا
أَتَّقِي مِنْهُ عَلَى حَكْمِ الْغَرَامِ	أسد الغاب وأهواه رشا
قُلْتُ لَمَّا أَنْ تَبَدَّى مُعْلَمًا	وهو من الخاطه في حرسِ
أَيُّهَا الْآخِذُ قَلْبِي مَغْنَمًا	اجعل الوصل مكان الخمسِ

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يَا عُرَيْبَ الْحَيِّ مِنْ حَيِّ الْحَمَى	أَنْتُمْ عَيْدِي وَأَنْتُمْ عُرْسِي
لَمْ يَحُلْ عَنْكُمْ وَدَادِي بَعْدَمَا	حُلْتُمْ لَا وَحْيَاةِ الْأَنْفُسِ

مَنْ عَذِيرِي فِي الَّذِي أَحْبَبْتُهُ مَالِكٌ قَلْبِي شَدِيدُ الْبِرْحَا
بَلَدٍ تَمَّ أَرْسَلْتُ مُقَلَّتُهُ سَهْمَ لِحْظٍ لِقَوَادِي جِرْحَا
إِنْ تَبَدَّى أَوْ تَنَتَّى خَلَّتُهُ غَصَنَ بَانَ فَوْقَهُ شَمْسُ ضُحَى

تَطْلُعُ الشَّمْسُ عِشَاءً عِنْدَمَا تَنْجَلِي مِنْهُ بِأَيْمِي مَلِيسِ
وَتَرَى اللَّيْلَ أَضَا مِنْهَزَمَا وَتَرَى الصَّبْحَ أَضَا فِي الْعَلَسِ

يَا حَيَاةَ النَّفْسِ صِلْ بَعْدَ النَّوَى وَالْهَاءَ مُضْنَى شَدِيدِ الشَّغْفِ
قَدْ بَرَاهُ السَّقَمُ حَتَّى ذَا الْهَوَى كَادَ أَنْ يُفْضِي بِهِ لِلتَّلَفِ
أَهْ مِنْ ذِكْرِ حَبِيبٍ بِاللَّوَى وَزَمَانٍ بِالْمُنَى لَمْ يَسْعَفِ

كُنْتُ أَرْجُو الطَّيْفَ بِأَيِّ حُلْمَا عَائِدًا يَا نَفْسُ مِنْ ذَا فَيَاسِي
هَلْ يَعُودُ الطَّيْفُ صَبًا مَغْرَمَا سَاهِرًا أَجْفَانَهُ لَمْ تَنْعَسِ ١

هَمْتُ فِي أَطْلَالٍ لَيْلِي وَأَنَا لَيْسَ فِي الْأَطْلَالِ لِي مِنْ أَرْبِ
مَا مَرَادِي رَامَةٌ وَالْمَنْحَى لَا وَلَا لَيْلٍ وَسَعْدَى مَطْلَبِي
إِنَّمَا سُوْلِي وَقَصْدِي وَالْمُنَى سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَسَاجُ الْعَرَبِ

أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ طَهْ مِنْ سَمَا الشَّرِيفُ ابْنُ الشَّرِيفِ الْكَيْسِ ٢
خَاتَمُ الرِّسْلِ الْكَرِيمِ الْمُتَمْنَى طَاهِرُ الْأَصْلِ زَكِيُّ النَّفْسِ

وَقَالَ فِي مَبَارَاةِ هَذِهِ الْمَوْشَخَاتِ السَّابِقَةِ :

لَا تَلْمَنِي يَا عَذُولِي تَأْتِمَا مَا تَرَى جِسْمِي بِسُقْمٍ قَدْ كُسِي
مِثْلَمَا شَرَحُ غَرَامِي عِلْمَا حَيْثُ أَشْكُو وَحْشَةً مِنْ مُؤْنَسِ

١ ق : هل يرى في جنح ليل الفلَس .

٢ ق : وحظي بالنور لما أن كسي .

ظبي أنس عن فؤادي نفرا	وفؤادي مكتوي من صدّه
وعذولي في هوى الحب فرى	بملام مذنبى عن ودّه
أنت أعمى يا عذولي ما ترى	يانع الورد بدا من خدّه
وله ثغر إذا ما ابتسما	كبروق أومضت في الغلس
وثناياه كدر نظما	فضياها في الدجى كالقبس
كم ترى سحراً بجفنيه بدا	لفؤاد في الهوى أضحي كليم
ليس سحر مقلتي هذا سدى	يا فؤادي إن شفى السحر السقيم
خيفة أوجس قلبي ، وغدا	راحلاً صبري ، وها شوقي مقيم
يا إله العرش يا رب السما	يا عليماً بضمير الأنفس
قلبي الوهان يشكو ألما	من جفا ظبي أغن أكيس
أغيد يسبي البرايا بالمثل	أدعج الجفن بعينه حور
لورأته الشمس أصبحت في خجل	وهو للبدر بوجه قد قمر
من معاني حسنه رق الغزل	في غزال قد غزاني بالنظر
أخذ بالروح مني كلما	رمى الصب بطرف أنس
يقنص الأسد بلحظ قد رمى	أسهما تفتك من غير قسي
يا رعى الله زماناً سلفاً	بلويلات تقصت بانشرأخ
مثل دينار وها قد صرفا	في ألد العيش مع حب وراح
فاعذروا القلب الذي قد شغفا	بحبيب ما له عنه برأخ
بدر تم أهيف حلوى اللى	ريقه شهد شهى اللعس
كسلاف عهدا قد قدما	تنجلي في كأسها كالعرس

قهوةٌ بكرٌ عجوزٌ عثتْ
هي لما في زجاجٍ أشرقتْ
جددتْ بسطاً وكم قد مزقتْ
زمناً في دنها من قبلِ نوحِ
شمسٌ راحَ غرَبَتْ في كلِ روحِ
قلبَ صبٍّ في غبوقٍ وصبوحِ

حلفَ الحمَارُ عنها قسماً
فاسقني صِرْفاً ولا تمزجُ بما
في رياضٍ قد شدا شحرورُهُ
وانظم الشملَ ودع مثورهُ
وإذا الطلَّ بدا شبورهُ
عاطنيها بينَ أكنافِ الشجرِ
حولِ وردٍ وأقاحِ وزهرِ
كلَّلَ الأوراقَ منه بالدرِّ

ما ترى الريحانَ عبداً خدماً
جلسَ النسرُ لكن ربّما
حيثُ أضحي واقفاً في المجلسِ
استحّت منه عيونُ النرجسِ

فتنّزهَ في رياضٍ خضِرِ
وانشقَّ عَرَفَ زهورٍ عطيرِ
وشدا الزهرِ كسكٍ أذفرِ
وغصونٍ غرّدتْ فيها هزارِ
ياسمينٍ زينتهُ الجلتارِ
واقبلِ العذرَ لابنِ البزدارِ

طامعٌ في رحمةِ الله وما
يا إلهي جُدْ علينا كرماً
خابَ عبدٌ طامعٌ لم يئأسِ
يا كريماً قبلَ أخذِ الأنفُسِ

رجع إلى موشحات ابن الخطيب :

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : ومما قلته من الموشحات التي
انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها :

١ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٤ وهي في مدح السلطان يوسف أبي الحجاج .

رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجِسْتُ السَّمَاءَ لَمْ تَلِدِي

حَفِظَ اللَّهُ لَيْلَنَا وَرَعَى

أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الْهَوَى جَمَعَا

غَفَلَ الدَّهْرُ وَالرَّقِيبُ مَعَا

لَيْتَ نَهَرَ النَّهَارِ لَمْ يَجْرِ حَكَمَ اللَّهُ لِي عَلَى الْفَجْرِ

عَلَّلَ النَّفْسَ يَا أَخَا الْعَرَبِ

بِحَدِيثِ أَحْلَى مِنَ الضَّرْبِ

فِي هَوَى مَنْ وَصَالَهُ أُرْبَى

كَلَّمَا مَرَّ ذَكَرَ مَنْ تَلَدِي قُلْتُ يَا بَرْدَهُ عَلَى صَدْرِي

صَاحَ لَا نَهْنَمَ بِأَمْرِ غَدٍ

وَأَجَزَ صَرَفَهَا بَدَأُ يَدٍ

بَيْنَ نَهْرِ وَبَلْبَلٍ غَرْدٍ

وَعَصُونَ تَمِيلُ مِنْ سُكْرِ أَعْلَنْتُ يَا غَمَامُ بِالشُّكْرِ

يَا مُرَادِي وَمَتْنِي أُمِّي

هَانَا عَسَجْدِيَّةَ الْحَلَلِ

حَلَّتْ الشَّمْسُ مَتَزِلَ الْحَمَلِ

وَبُرُودُ الرِّيحِ فِي نَشْرِ وَالصَّبَا عَنَبِيَّةُ النَّشْرِ

غَرَّةُ الصَّبَحِ هَذِهِ وَضَحَتْ

وَقِيَانُ الْغُصُونِ قَدْ صَدَحَتْ

وَكَأَنَّ الصَّبَا إِذَا تَفَحَّتْ

وهفا طيبتها عن الحَصْرِ ملحة في علا بني نَصْرِ

هم ملوك الورى بلا ثُنْيا
مهّدوا الدين زينوا الدنيا
وحَمَى الله منهم العَلْيا

بالإمام المرفَع الحَطَرِ والغمام المبارك القَطَرِ

إنما يوسفٌ إمام هُدَى
حاز في المعلوات كلَّ مَدَى
قُلْ للدهرِ بملكه سعدا

افتخرُ جملةً على الدهرِ كافتخار الربيع بالزهرِ

يا عماد العلاء والمجدِ
أطلع العيدُ طالع السعدِ
ووفى الفتحُ فيه بالوعدِ

ونجّلت فيه على القصرِ غُرُرٌ من طلائعِ النَصْرِ

فتنهًا من حسنه البهيجِ
بحياة النفوسِ والمهجِ
واستمعها ودع مقال شجي

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليلِ المشوق من فجرِ

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله ^١ :

١ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٥ - ٣١٦ .

كم ليوم الفراق من غُصَّةٍ في فؤاد العبيد
نرفعُ الأمرَ فيه والقصةَ للوليِّ الحميدِ

رحل الركبُ يقطعُ البيدا بسفين النياق
كلُّ وجنَّاءٍ تُتلعُ الجيدا وتبذُّ الرفاق
حسبتُ ليلةَ اللقا عيدا فهي ذاتُ اشتياق

صائماتٌ لا تقبل الرُّخصهَ قبلَ فطرٍ وعيدٍ
فهي مُدٌّ أملتُهُ مختصهَ بجهادٍ جهيدٍ

ومنه في آخره :

يا إمامَ العلاء والفخر ذا السنا المبهج
هاكها لا عدمتَ في الدهر آملاً يَرتجي
عارضتُ قولَ بائع التمر بمقالٍ شجي
غربوك الجِمالُ يا حَفْصَه من مَكانٍ بعيد
من سِجْلَماسةٍ ومن قَفْصَه وبلاد الجريد

وقد ألف - رحمه الله تعالى - في هذا الفن كتابه المسمى بـ « جيش التوشيح »
وأتى فيه بالغرائب ، وذيلَ عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العَلم الشهير المنفرد
في عصره بحيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي - رحمه
الله تعالى - بكتاب سماه « مدد الجيش »^٢ واستهله بقوله : حمداً لمن أمدَّ
جيش محمد بعثرته . وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ،

١ هذه الخرجة قد تقرأ معربة وغير معربة .

٢ انظر روضة الآس : ١٦٢ .

وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسيني -
رحمة الله تعالى ورضوانه عليه - ما زاده زِينًا ، وأخبرني - رحمه الله تعالى -
أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من
ثلاثمائة موشح ، ولا حرج في إيراد بعضها هنا ، فمنها قول أحد الوافدين من
أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور^١ ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل
ابن محمد العقاد » وقد عارض بها موشحي لسان الدين وابن سهل السابقتين^٢ :

لَيْتَ شعري هل أروِّي ذا الظما من لَمَى ذاك الثَّغِيرَ الألعسِ
وترى عيناَيَ ربَّاتِ الحمى باهياتٍ بقُدُودٍ مُيسرِ

يُدْخلون السَّقمَ من دار اللوى كَلَمَ الهجرُ فؤادي وأسر
هدً من ركنِ اصطباري والقوى مُبدلاً أجفانَ نومي بالسَّهر
حين عزَّ الوصلُ عن وادي طُوى هملتُ أعينُ دمعي كالطر

فعساكم أن تجودوا كرما بلقاكم في سوادِ الخندسِ
وتداووا قلبَ صبٍّ مغرما من جراحاتِ العيونِ النُّعسِ

كلَّما جنَّ ظلامُ الغسقِ هزَّني الشوقُ إليكم شخفا
واعتراني من جفاكم قلقي مُدْ تذكرتُ جياداً^٣ والصفاء
وتناهتْ لوعي من حُرقي ثم زادَ الوجدُ في التلغا

١ يعني السلطان أحمد المنصور الذهبي أبا العباس ابن محمد الشيخ المهدي السعدي ، وهو من أعظم
سلاطين السعديين ؛ انتصر على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن سنة ٩٨٦ وفتح السودان ،
واهتم ببناء المساجد والمستشفيات وشجع العلوم ؛ توفي سنة ١٠١٢ (راجع مناهل الصفاء للفشتالي ،
والجزء الخامس من الاستقصا والأعلام للشيخ العباس ابن إبراهيم) .

٢ وردت الموشحة في روضة الآس : ١٤ .

٣ جياد : يعني جبل أجياد بمكة .

فانعموا لي ثم جودوا لي بما
ساعة^١ لي من رضاكم مغتما
يُطْف^١ نيران الجوى ذي القوس
وتداوي جثتي مع نفسي

كنت قبل اليوم في زهو ونيه
ومعي ظي^٢ يلحدي وجتيه
مع أحبابي بسلع^٣ ألب^٤
مشرق^٤ الشمس وأخرى مغرب^٤
فرماني بهمام من يديه
ضارب^٤ البين قلبي منع^٤

لست أرجو للقاهم سلماً
أحمد المحمود حقاً من سما
غير مدحي للإمام الأراس^٥
الشريف ابن الشريف^٥ الكيس^٥
ومنها قول بعض المراكشين^٦ :

واختجلت^٧ للصباح
ساق^٧ يدبر^٧ الكؤوسا
والشمس إذ لاح جؤذر^٧
تضيء^٧ خمرأ وتزهو^٧

تقاسمت^٨ في الدنان^٨
في لونها اليهرماني^٨
من عهد^٨ نوح تروق^٨
تدار^٨ فينا وتعبق^٨
قد^٨ أطلقت من عنان^٨
من^٨ عن صبح^٨ يرفق^٨

يسعى بها من ملاح^٩
بالحسن^٩ يضيء^٩ الجليسا
من كان باللحظ^٩ يسكر^٩
ويستخف^٩ الموقر^٩

١ - خرج عن الإعراب ضرورة .

٢ - الروضة : الكريم ابن الكريم .

٣ - انظر روضة الآس : ٢٩ .

٤ - ق والروضة : البرهماني .

يشيرُ كامنٌ وجد	في قلبِ كلِّ مقيم
يسْطوْ عَليْنَا بقْدَ	يزري بغُصْنِ قويم
أشقى بعشقي ووْدَي	في جنَّةٍ ونعيم
من ذي الوجوه الصَّباح	يا شادناً غنّ واذكر
وهات لحناً نقيساً	نرويه عَنكَ ونأثر
في مدحٍ مِّنْ سادِ طِفْلا	هذي البرايا وفاقا
من حاز مجداً وفضلاً	بين الأنعام وفاقا
في عدله قال قولاً	يسري فيَعْدُو العِراقا
في أحمدٍ ذي السّماح	في الشرق والغرب يُنْصَر
أحيا الهدى والنفوسا	وذللّ ملةً فيصر
تراه ملئاً وحرّاً	من رأيه في جنوده ^١
يُخْتالُ لم يبعْ عُجبا	مِنْ عِزِّه في بروده
يهوى المعالي كبا	ويقتنيها بمجوده
فخار أهل البطاح	وعزّ من قد تمصّر
شناه يَمِلا الطروسا	عن صورة المجد عِبر
ملكٌ نبي في البديع	منازلاً كالدراري
فيا له من صنيع	الروض والماء جاري
فقلّ بصوت رفيع	إذ بان فجرُ النهار

١ قافية هذا القصن دون هاء في الروضة .

أهدى نسيمُ الصباحِ مسكاً شميماً وعنبر
وجيء بها خندريسا من خدّ ساقيه تُعصر

ومن موشحات السلطان المنصور المذكور^١ :

ريانُ من ماء الصبا أهيف وممتلي البردِ

كالغصنِ هزته الصبا فوق الرئى الشهبِ
قد قلتُ لما أن سبي بحسنه يسبي
من عينه سلّ ظبي وغمدها قلبي

أسرني ماضي الشبا أوطف مرنح القدّ

يا فاضح الروض سنا بل محجلِ البدرِ
وقاطعي ظلماً عنا ومن مفره صدري
إن لم تكن شمس دنا فإنها تجري

علفته من الظبا أسجف سطو على الأسدِ

قلتُ له وقد نهّد وجدّ في حربي
وغلب الظبي الأسد ففاز بالغلبِ
الشمس برّجها الأسد فاسع إلى قلبي

ولم يحضرني الآن تمامها .

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني^٢ :

١ روضة الآس : ٥٦ .

٢ روضة الآس : ٥٧ .

وليلي الشعور إذ تسري ما لنهر النهار من فجرٍ

حبذا الليل طال لي وحدي
لو تراني جعلته بُردي
فاطمياً في خلعة الجعدي

هي ليلي أختُ بني بشرٍ فأين أنت يا أبا بدرٍ

كم سقطنا الطف من طلٍّ
واجتمعنا وما درى ظلي
واسترحنا من كاشحٍ نذلٍ

ربّ ليل ظفرت بالبدرٍ ونجوم السماء لم تدرِ^١

وبنفي مهفّفٌ ألى
ومطيعٌ وغرّي لما
سأله^٢ وقانعي ممّا

في رباط قسمتي صدري لحنينٍ وناظري بدرٍ

وهلالٍ في حسنه اكتملا
هو شمسٌ وأضلعي الحملا
قام يشدو ويشني في ملا^٣

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليل المشوق من فجرٍ^٤

١ هذا القفل للسان الدين .

٢ الروضة : يا عفاي ، وسقطت اللفظة من ق .

٣ الروضة : في علا .

٤ هذا القفل لابن الصابوني .

[من مقطعات المنصور]

ثم عنّ لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور ممّا تلقيناه عنه أيام كوننا في إيلاته الشريفة ؛ فمن ذلك قوله زاداً على من قال في ابن أبي الحديد^١ :

لقد أتى بارداً ثقيلاً ولم يرث ذلك من بعيدٍ
فهو كما قد علمت شيء أشهر ما كان في الحديد

ما صورته :

لقد أتى صارماً صقيلاً ولم يرث ذلك من بعيدٍ
شديد بأس متى يعادي وشدة بأس في الحديد

ومن نظمه قوله^٢ :

لله تمرّ طيبٌ وافي على البشرى انطوى
يا حُسنه مجتمعاً يحلو لنا بلا نوى

وقوله معمياً في « قمر » على طريقة الاكتفاء :

مُعذبي أعجزني نيله من لي بمن مسكنه في السما
لَمْ أنسَ إذ قالَ ألا تكفي قلتُ بمن بالطرف قلبي رمي

وقوله :

تبدّى وزندُ الشوقِ تقدحه النوى فتوقدُ أنفاسي لظاه وتضرمُ
وهشّ لتوديعي فأعرضتُ مشفقاً على كبدٍ حرّى وقلبٍ يقسمُ

١ قال المقرئ إنها لمؤلف «طي الفلك الدائر على المثل السائر» ولكنه لا يتذكر اسمه (الروضة : ٤٧).

٢ أكثر هذه المقطعات وردت في روضة الآس : ٣٦ - ٥٢ وفي مناهل الصفا ٢ : ٢٠٧ - ٢١٤ .

ولولا ثواه بالحشا لأهنتها ولكنّها تُغزى إليه فتكرم
فاعجب لآساد الشرى كيف أحجمت^١ على أنّه ظيُّ الكناسِ ويقدم

وقال قدس الله تعالى روحه مورياً :

إنّ يوماً لناظري قد تبدّى فتملّى من حُسْنِهِ تكحّيلاً
قال جفني لصنوه لا تلاقِ إنّ بيّتي وبين لقاءك ميلاً

وقد تبارى خُدمُ هذه السلطان في تخميس هذين البيتين ، ومن
أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه الله تعالى ، وكان
يصلي بالسلطان التراويح :

ورقيب بسرّددُ اللحظَ ردّاً ليس يرضى سوى ازديادي بُعداً
ساءه الطرف مذ جنى الخدّ ورداً إنّ يوماً لناظري قد تبدّى
فتملّى من حُسْنِهِ تكحّيلاً

وتصدى من فحشه في استباقِ يَمْنَعُ اللحظَ من جنّي واعتناقِ
أيأس العين من لحاظِ اثتلاقِ قال جفني لصنوه لا تلاقِ
إنّ بيّتي وبين لقاءك ميلاً

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوّليات شعره ، قوله في وردة مقلوبة
بين يدي محبوبه :

ووردة شَقَعَتْ لي عند مرّتها راقّت وقد سجدت لفاتر الحدقِ
كأنّ خضرتها من فوقِ حمرتها خالٌ على خده من غير عبقِ
وقال أيضاً من أوّلياته :

١ الروضة : كيف تحجم .

شادن نَمَّ عليه عَرَفُهُ^١ ما خلاصي من سهامِ كامنَةٍ
أَحْلَلُ فيه أَتِي خائفٌ وغزالي بعدَ خوفي آمنَةٍ

وقال في وصف رقيب ملازم :

رقيبِي كأنَّ الأرضَ مرآةً شخصِهِ فأين تَوَلَّى الطرفُ مِنِّي^٢ يراه
مقيمٌ بوجهِ الوصلِ حتى كأنَّما وصالي هلالٌ والسوادُ صداه

وقال :

أيا روضةً ضنَّتْ عليَّ بزهرها وَلَمْ يَتَلَقَّ ناظراي سواك^٣
أبيحي لتَنفسي من شَدَاكِ بقاءها إذا فُتَّ طرفي علَّ الأَنفَ يراك
وقال أيضاً :

على جَدَوَلٍ غَطَّتْ عليه بشعرها لثلا يرى الشمسَ الرقيةَ لي طرفَ
فبتُ أرى في جدولٍ بدرَ وجهها غريقاً ونقطاتِ العبيرِ بهِ كَلَّفَ
وقال :

طَرَقْتُ حِمَاهُ والأسودُ خَوَادِرُ بهِ فتولَّى بالظُّبَى وهو يبعدُ
فعلَّمْتُ آسَادَ الشَّرى كيف تقدمُ وَعَلَّمَ غَزْلَانَ النِّقا كيف تشردُ
وقال :

لَمَّا نَأَى المحبوبُ رَقَّ لي الدُّجَى وَأَتَى يعلِّلني برعني كواكبهِ
أولى غرابِ البينِ رذكِ يا حشا والبينُ مُزني الصِّباحِ كواك بهِ

١ الروضة : نفحه .

٢ اقرأ بخطف الياء وجعلها حركة كالكمرة على النون .

٣ الروضة : سنالك .

وقال معمياً باسم حَظِيَّتِهِ الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » :

يا هلالاً طلوعه بينَ جفني وغزالاً كناسه بينَ جنبي
إنَّ سهماً رميتَ غادر همّاً لو تناهى ما شكَّ آخرُ قلبي

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته : قولي « إنَّ سهماً » تنصيص ، و « غادر همّاً » إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط « همّاً » من هذا الاسم ، وقولي « لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعني به الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ، والآخر والمنتهى والختام ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولي « لو تناهى » معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الميم من همّاً ، وقولي « ما شكَّ آخر قلبي » انتقاد أيضاً ، وأردت بآخر قلبي الباء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .
واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم^١ بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات^٢ ، ويسمى العمل « التذييلي^٣ » . انتهى كلامه على البيتين في اسم نسيم .

وقال في اسم « غزال » وقد جمع تعميمين ولغزاً :

وأملد مطوي الحشا زال ردفه فلا خصر إلا إن تصورته وهما^٣
بنصف اسمه يرمي القلوب وعكس ما بقي أبداً أذن المحبّ به أصمى

١ الروضة : الكلمة .

٢ ق : التذييل .

٣ سقطت اللفظتان من ق ، وأثبتتهما من الروضة .

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت به بعمل الترادف غصن ،
و « مطوي الحشا » انتقاد ، و « زال ردفه » قضيت به غرضين ، أزلت به النون
بعمل الإسقاط الباقي بعد طي الصاد التي بوسطه ، وأثبتته - أعني « زال » -
في موضعها : أي النون من غصن ، والحال أن الصاد محذوفة ، وذلك بعمل
الانتقاد ، وأوضحت ذلك بقولي « فلا خصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لئلا
يكون في البيت شيء خارج عن التعمية ؛ انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى .
ويعني بقوله « بنصف اسمه يرمي القلوب » غز ؛ لأنه نصف غزال ،
ويعني بقوله « وعكس ما بقي إل آخره » لفظة « لا » لأنها مقلوب ما بقي
وهو « ال » .

وقال في اسم « سلاف » على منهاج ما تقدم :

وأحورَ وسنانِ الجفونِ كأنما سقى لحظةً من ريقٍ فيه بقرقفٍ
نضا صارماً لا فلَّ صارم لحظة تزايد فيه منذ سل تلاه في

وفسره بقوله : قولي « تلاه في » من طريق التسمية ، و « في » من العمل
التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها ، وهي من المحسنات كما سبق .
وقال في اسم « آمنة » من التعمية أيضاً :

من شقائي قنصته وهو خشفٌ في رضاه عن الملوك ابتدلتُ
أملدُ منه مذ نحلل خصرٌ وتثنى عن حبه ما عدلتُ

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت الألف بعمل التشبيه ، و « خصر
منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » وتحلله : أن ينحل السكون
الذي على النون ، وقولي « وتثنى » أي الألف من التثنية ، لا التثني ، فتم الاسم

١ الروضة : لم أقل ف أن قلت فأت فهت .

بمحركاته وعدده ؛ انتهى تفسيره .

وقال وقد لبس منصورية من النوع الذي يقال له « قلب حجر » ، والمنصورية :
نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصَفُّوا اشتياقي للحبيب وسرَّهم قولُ الحبيب أنا أنا فيه
فكُنِّي له حجرٌ ، فقلت مغالطاً للعاذل المؤذي أنا فيه

قال : وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب
المسمى بالملفق ، وحدهُ : بأن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين ، وهذا
هو الفرق بين الملقق وبين المركب ، وقلَّ مَنْ فرق بينهما ، ومنها الانسجام ،
ومنها الاستخدام . وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيطمي تعرض إلى شرحهما
بكراسة . والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابي وهو كثير ، إلا أن هذا
العمل أحسبني أبا علزته إذ لم أره لغيري ، ومادة التعمية فيه « أنا أنا فيه » ، قلبي
له حجر « فقولي « أنا أنا فيه » معناه أن تضرب « أنا » في ه ، وقولي « في ه »
نص في الضرب ، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقك ،
وقولي « قلبي له حجر » بعمل القلب يصير « رجح » فصار المجموع « هيماني
وحقك يرجح » ، وفيه التورية ، و « هيماني وحقك » الخارج من هذا الضرب
فيه تهكم بالواشي ، فهو من المحسنات أيضاً ، أعني قوله « وحقك » ، ويصلح
أن تسمى هذه التعمية بالافتنان ، لأن الافتنان عندهم : أن يفن الشاعر فيأتي
بفتن متضادين من فنون الشعر في بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة
واحدة ، فظاهر « أنا أنا فيه » يضاد « هيماني وحقك يرجح » الذي يخرج بطريق
الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي
« أنا فيه » ؛ انتهى .

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله « أنا فيه » أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأما المعنى الثاني لقوله « أنا فيه » فظاهر . وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن الرجس :

وافى بها البستانُ صنوكَ وردةً	يقضي بها لما مَطَلَتْ وعوده
أهدى البهارَ محاجرأ وأتى بها	في وقته كيما تكونَ خدودا
فبعثها مرتادةً بنسيمها	تثني من الروضِ النضيرِ قُدُودا

وقال :

لي حبيبٌ يأتي بكلِّ غريبٍ	هو عندي مُنَكَّرٌ ومعرَّفٌ
لستُ أشكو لصيرفي ونحوي	أنه بي نَحَا وفيَّ تصرَّفٌ
فعله فيَّ لازمٌ متعدٍ	ومزيدٌ مجردٌ ومضعفٌ

وقال :

لا وطيفَ عِلْمِ السيفِ فقد	في قوامٍ كفنًا الخطَّ نَهَدُ
ووميضٍ لاحَ لَمَسًا بسمتُ	فأرتنا منه دُرّاً أو بَرَدُ
ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ	منهُ حسناً وعلاءٌ وغيدُ
ولذا عاش قليلاً ناحلاً	كيف لا يَفْنَى نحولاً من حَسَدُ

وقد ضمنَّ قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال :

قسماً بالبيت والركن الذي	طابَ حجاً واستلاماً للأبدُ
« ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ »	منهُ حسناً وعلاءٌ وغيدُ

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والعقاد المكي

السابق والشريف المدني ، وهو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف ،
فقال إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال
شَدَّ أهلها إليك الرحال : هذا مكِّي ، وذاك مدني ، وأنا مقدمي ، ثم أنشد^١ :

إنَّ أمير المؤمنين أحمد بحر الندى وفضله لا يُجحدُ
فطية ومكة أهلهما والمسجد الأقصى بذاك شهدوا

رجع إلى نظم المنصور ، وقال :

وكيف بقلب في هواه مقلَّب وكيف بقلب في الضلوع مقامُ
فيا شادنا يرعى الحشا أنت بالحشا أما لمحل أنت فيه ذمامُ

وقال يخاطب رئيس كتّابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفشتالي السابق الذكر :

يا كاتباً ألفاظه تفرس^٢ روضاً ذا فن
إنَّ جوابي للذي يشكو دناءه اردد حزن

وقال مؤرباً بمصانعه الثلاثة : البديع ، والمسرّة ، والمشتهى :

بستانُ حسنك أبدعتَ زهراته ولكم نهيتُ القلب عنه فما انتهى
وقوامُ غصنك بالمسرّة ينثني يا حسنه رمانةً للمشتهى

ولولا خوف الإطالة الممّلة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور
— رحمه الله تعالى — بعض ما أؤدي به حقّه ، سقى الله تعالى عياده ، وقد
بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي « روضة الآس العاطرة الأنفاس
في ذكر من لقيته من أعلام مراکش وفاس » وأطال الكلام على ترجمته صاحبنا

١. الروضة : ١٤ .

٢. الروضة : إذا كتب يفرس .

الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي في كتابه المسمى : « مناهل الصفا في فضائل الشُّرفا » وعهدي به أكملَ منه ثمانِيَ مجلدات ، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه ، وألف كاتبُ أسرارهِ الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيمى فيه كتاباً سماه « المملود والمقصور من سَناء السلطان المنصور » وهذه التسمية وحدها مطربة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى التوشيح :

كتب إليَّ بعضُ أذكِياء الأصحاب الأعيان موشحاً يمدحني به في آخره عارض به موشح لسان الدين السابق الذي أوله :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمان الوصلِ بالأندلسِ

ونصه :

عَطَّرَ الأرجاءَ لما نَسَمَا شَمَّالٌ للصبحِ عندَ الفلَسِ
وأنتَ شمسُ الضحى تنسُجُ ما يقرأ الليلُ لنا من عَبَسِ

طافَ بالكأسِ من الزهر قَتَى مَوَلِّعٌ بالصدِّ عني مذ قَتَى
فنن الألبابَ لما التفتَا واحتسبى منه يُعْبِضُ الشفةِ
وأنا ما بينَ حَتَّى ومَتَى صدَّه نيهُ الهوى عن أَلْفَى

وكؤوسُ الراحِ بينَ النُدما أَرَجَّتْ بِالْعَرَفِ أَفَقَ المجلسِ
خمرةٌ صفراءُ في البلورِ ما أشبهَ الحانَ بروضِ الرَجسِ

بادِرِ اللذةَ واجمعْ شملها بمِسلامٍ وغِسلامٍ مُطَرِبِ
ذي عيونِ ناعساتٍ كمَ لها من فنونِ السحرِ ما يَلْعَبُ بي
وافرِ الأردافِ عاتَى حملها ناحِلِ الحِصرِ ، وذاتِ من عَجَبِ

كلّما أترعَ كأساً قال ما
فابذلِ الجهدَ وكنْ مغتتما
أنت بالشاري حياةَ الأنفسِ
لنفسِ النفسِ طيبَ الأنفسِ

فُرصُ الأيامِ كنْ متهزأ
ورحابِ الأنسِ لُحْ متجزأ
مبتدأها قبلَ حذفِ الخبرِ
قبلَ أنْ تمضي كلمحِ البصرِ
واجنْ من زهرِ الهوى محترأ
من جنائياتِ هجومِ الكبيرِ

لا تخفْ لوماً ويممِ حيثما
ما مضى أنسٌ ووافي مثلما
لاحتِ اللذاتُ كالمختلسِ
كان ذا الدهرِ لنا بالحرسِ

للرياضِ اذهبْ ترى بلبلها
وخلودُ الوردِ قد كللها
لاشتياقِ الوردِ مثلَ الثكلِ
دمعُ طلِّ لاشتياقِ البلبلِ
وقدودُ البانِ قد قام لها
مانعُ الوصلِ بحمدِ الأسلِ

والرُبى فاحت تحاكي خدماً
جيها زُرَّ بالزهرِ كما
وعليهن ثيابُ السندسِ
زُرَّ بالفضةِ ثوبُ الأطلسِ

وجلا الروضُ لنا أشجاره
وترى في جيديها نواره
مائساتٍ في قباءٍ أخضرِ
يتللاً كعقودِ الجواهرِ
خلع الليلُ به أظماره
فقد كالصبحِ باهي المنظرِ

وبقاياهُ زهتٌ فيه أما
كعذارٍ في محيا علما
في شفاءِ الغيدِ حُسْنُ اللّمسِ
فبدا للغيرِ لا المتمسِ

حبذا الصبوةُ أيامَ الصبا
فإذا أيقظها دهرٌ صبا
وعيونُ الشيبِ في سهوِ الوسنِ
لصروفِ حدٍّ شفرها ومن
جرّدَ الشيبُ لنا بيضَ الشبا
واقضى شرخَ شبّابِ وطنِ

وغدا الإنسانُ شيخاً هَرِمًا واعتراه لاجعٌ من وجَسٍ
فاتَ إذ ماتَ فيقضي ندما واغتنامُ الوقتِ شغلَ الكيسِ

لا تدعُ عُمركَ يمضي هَدَرًا أنْتَ إذ ذاكَ جَبَانٌ غافلٌ
وارقٌ بالجهدِ من السؤلِ الذرا واجتهدْ والضرعُ ضخْمٌ حافلٌ
إنما الأيامُ أمثالُ الشرى والجريءُ الشهمُ ليثٌ بأسلٌ

ووحوشُ الإنسِ تسمى مغنما بارداً للأسدِ المفترسِ
تركَ الوهمَ وخاضَ الظُلما وله العزمُ أضاً كالقَبسِ

ليسَ يحظى بالمُنَى إلا الذي كابدَ الأهوالَ حتى ظفيرا
كانَ للراحةِ كالمتبذِ مِن وراءِ الظهرِ أنى ظهرا
مثلما قد باتَ ذا طرفٍ قَدِي يقطعُ الليلَ جميعاً سهرا

في طِلابِ العلمِ حتى علما أنه يملا بروحِ القدسِ
أحمدُ الناصبِ فينا علما للثقى فازَ به منْ يأتي

حلَّ في مصرَ وإن كان العلّا قد عفتْ لما اعتراها في خَلَلٍ
ورياضُ الفضلِ لما أن علا نَقَعُ جهلٍ جفَّ منهنِ البللُ
ازدَرَّتْ أغصانها حتى خلا قاعها منْ عَذْبِ ما يَشفي العللُ

نقرتْ إذ حلَّ فيها كالسما وهو بدرٌ بكمالِ مكثِ
حوله الطلابُ كالشُّهبِ سما قدرُها من نورهِ المقتبسِ

أيها الطالبُ للعلمِ اتدَّ ليسَ إلا بابهُ ينفعا
إن ترمِ نيلَ المرجى فاجتهدْ في اتِّباعِ للذي يرفعُكا
عِلْمُ مَنْ يعملُ لكسيرٌ فزد منه واتركْ حاسداً يدفعُكا

والزَّمِ الأعتابَ وانزلْ بالحِمْي	خالعَ الرِّبْقَةِ من قول المِسي
باعْتقادٍ فازَ من قد لثما	نعله والكِبَرُ شأنُ المَبْلِسِ ^١
مذ حَبَّرْتُ الناسَ طرّاً نظرا	لمناطِ الأمرِ في هذا الزمان
لم أجدُ إلا مقالا صدرا	عن دعاوٍ أخلفتُ عند العيان
غيرَ ما يَملِيه فانظرْ لَترى	دُرَرَ الألفاظِ في سِمَطِ البَيانِ
يبدِيعُ التَّطَقُّ لَمّا نظما	بُهَيْتَ المنطِقُ مثلَ الأخرسِ
وأنى يَخضَعُ جَمْعُ العِلما	نحوَ ذا المَفرَدِ في المَلتمسِ
إنّما المَجدُ الرَفيعُ المَمتطي	أرؤسَ الآسادِ قسراً مثلَ ذا
يَدْعُ المَرفوعَ كالمنهبطِ	ثم للنازلِ يُعَلِي مِنفِذا
ناظراً في أمره بالأحوطِ	خافِضَ الطرفِ على حرِّ القذى
كلّ من أمّ حِماه قد حمى	بِحُسامِ العزمِ هَشَّ المَلَمسِ
فإذا جردَ منه انفصما	جَلَمَدُ الصَّخِرِ بِذاكَ المِيسِ
حبّذا المَغربُ قَطراً بالسنا	فَظْلُهُ يَبْهَرُ بِدَرِّ الأفقِ
قَطْرُهُ الشامِخُ قد أَهدى لنا	سَيِّداً قد فاق شَمسَ المَشرقِ
كلّ من فاتتَهُ أسبابُ المُنَى	بَعُـلَـلَـه للثَريّا بِرَقيقِ
قل لمن يَرْجو سوى المَذكورِ ما	يَنبُتُ الزَهرُ بِأَرْضِ اليَيسِ
لا ، ولا النَّاسُ سِواءُ إنّما	رَأى مَنْ سِوَاهُمُ في هوسِ
لُذْ بِشَهمٍ فازَ مَنْ أَمَلَهُ	بنِوالٍ فاقَ سَحَّ الهامِلِ
أثقلَ السَّوددِ إِذْ حَمَلَهُ	وَقَرَّ فَضْلَ مُستَينٍ شامِلِ
وَحِماه الأَمْنُ ، من أمّ له	بَلِغَ القَصدِ ، فبِشرى الآمِلِ

بحره الوافرُ بالعلم طما كاملُ الأمدادِ لم يحتبسِ
نال منهُ الناسُ حتى عمما مشرقاً والغربُ للأندلسِ
رجع إلى موشحات لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ،
فمن المنسوب إلى محاسنه قوله :

قد حرّكَ الجلجلُ بازي الصباح والفجرُ لاح
فيا غراب الليلِ حُثَّ الجناح

وهذا مطلع موشح بديع له لم يحضرني الآن تمامه ؛ لكوني تركته وجملة من
كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى عليّ ، وهو معارض للموشح
الشهير الذي أوله :

بنفسحُ الليلِ تذكّى وفاح بينَ البطاح
كأنه يسقى بمسك وراح

وهذا المتحى هو الذي سلكه الجمالُ ابنُ نُبّانة^١ إذ قال مادحاً لجلال الدين
الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ما سَحَّ حمراً دموعي وساح على الملاح
إلا وفي قلبي المعنى جراح

بي من بّي الأتراك حلّو الشّباب مرُّ السّطا
عشّقته حينَ عِدِمْتُ الصّواب من الخطا
تَشْكُو حشا الغزلان منهُ التّهاب إذا عطا
ورُبّما تَشْكُو الغصُونُ اكتاب إذا خطا

١ هو محمد بن محمد بن محمد ابن نبّانة الفارقي وله ترجمة مسهبة في الوافي ١ : ٣١١ - ٣٣١ ولم
ترد الموشحة هنالك أو في ديوانه .

ما ماسَ ذاكَ الغصنُ بَيْنَ الوشاحِ
قَوْلُ عَدُوِّي كُلِّهِ فِي الرِّيحِ

أَمَا لَصَبِّ دَمْعِهِ حَيْثُ كَانَ
هَذَا أُسِيرٌ فِي وَجْهِهِ الْحَسَنِ
أَرَقَّ جِسْمِي بِالضَّنَى يَوْمَ بَانَ
فَهَا أَنَا الْيَوْمَ لَهُ يَا فُلَانُ

يَزِيدُ أَجْفَانِي نَدَى وَارْتِيحِ
مِثْلُ جَلالِ الدِّينِ يَوْمَ السَّماحِ

حَبْرٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ ذِكْرٌ جَمِيلٌ
مَاحٍ عَلَى غَيْظِ الْغَمَامِ الْبَحِيلِ
مَا رَأَيْتِ الْعَيْنُ لَهُ مِنْ مِثْلِ
يَوْقَدُ فِي أَوْطَانِهِ لِلنَّزِيلِ

شَرَارُهَا فِي الْكَيْسِ حَمْرٌ صَحاحِ
لَكُنْهَا فِي الْقَلْبِ عَنَبٌ قَراحِ

يَا مَالِكَ الْعِلْمِ وَفِيضِ النَّدَى
فَابِئْ وَكُلُّ الْعَالَمِينَ الْفَيْدَا
أَنْتَ الَّذِي أَصْبَحَ غَيْثُ الْجَدَا
كَمْ يُفْتَقَى مِنْكَ وَكَمْ يُفْتَدَى

عِلْمٌ جَلِيٌّ وَنَوَالٌ صُرَّاحِ
يَرْوِي بِهِ رَاوِي الرَّجَا عَنْ رِيحِ

وَمُغْرَمٍ لَا يَخْتَشِي مِنْ رَقِيبٍ وَلَا عَذُولٍ
 مَعْلَقَ الْقَلْبِ بِشَجْوٍ عَجِيبٍ وَلَا وَضُولٍ
 يَسْكُرُ لَكِنْ بِصِفَاتِ الْحَيِّبِ لَا بِالشَّمُولِ
 لَمَّا رَنَا الظِّي وَمَا سَ الْقَضِيبِ أَضْحَى يَقُولُ

كَمْ يَنْتَضِي جَفْنُكَ وَعُطْفُكَ صِفَاحٌ عَلَى رِمَاحٍ
 مَا ذِي مَحَاسِنٍ ذِي خَزَائِنٍ سِلَاحٍ

ومن الموشحات الصادرة من المشاركة المعارضة للمغاربة قول عثمان البلطي^١
 يمدح القاضي الفاضل :

وَيْلَاهُ مِنْ رَوَّاعٍ بِجَوْرِهِ يَفْقِضِي
 ظِيَّ لَهُ إِغْدَاذٌ مِنْهُ الْجَفَا حَظِّي

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :

عَقَارِبُ الْأَصْدَاغِ فِي السُّوسِ الْغَضَّ
 تَسْبِي تَقَى مِنْ لَازٍ بِالنَّسْكِ وَالْوَعْظِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْدُو عَلِيٌّ لَمْ أَحْسَبْ
 أَنْ تَخْضَعَ الْأَسَدُ لِحُؤْذِرِ الرَّبْرِ
 ظِيَّ لَهُ خَدٌّ مُقَضَّضٌ مُذْهَبٌ
 وَشَادَنْ يَبْدُو فِي صَدْغِهِ عَقْرَبٌ

١ في ق : المظلي والتصويب عن معجم الأدباء (١٢ : ١٤١) وقال نسبة إلى بلط التي تقارب الموصل
 وذكرها في معجم البلدان بالياء . وعثمان بن عيسى البلطي انتقل إلى دمشق وعلم في الزيداني ولما فتح
 صلاح الدين مصر انتقل إليها وفيها توفي سنة ٥٩٩ هـ بعد أن كان يدرس النحو ويقرئ القرآن ؛
 وقد أورد ياقوت موشحته ص : ١٤٧ كما أوردها ابن شاعر في الفوات ٢ : ٦٧ في ترجمة
 البلطي .

رقةُ زهرِ الباغ^١ في جسمه الفضي
وقسوةُ الأفلاذ^٢ في قلبه الفظ

مهفهفٌ بدعُ أصبحتُ مغرَى بهُ
قلبي له رُبْعُ لو كنتُ في قلبه
أصابني صدعُ مذ لجَّ في عتبه
السَّهْدُ والدمعُ حظِّي من قربه

والعينُ لا ينساعُ لها جنى الغمضِ
والدمعُ ذو إغذاذِ ناهيكَ من حظِّ

ومن أحسن ما للمشاركة من التوشيح قولُ الشهابِ العزازي يعارضُ أحمد
ابن حسن الموصلي^٣ :

يا ليلةِ الوصلِ وكأسِ العقارِ دُونَ استنارِ
علَّمتاني كيفَ خلَعَ العِذارِ

اغتم اللَّدَاتِ قَبْلَ الذَّهَابِ
[وَجُرَّ أَذْنَالُ الصَّبَا وَالشَّبَابِ]^٣
واشرب فقد طابت كؤوسُ الشرابِ

على خُدودِ تَئِبَتِ الجِلَنَارِ ذاتِ احمرارِ
طرَّزها الحسنُ بآسِ العِذارِ

١ الباغ : الحديقة .

٢ انظر المنهل الصافي ١ : ٣٤٤ وتوشيح التوشيح : ١٠٩ .

٣ سقط هذا الشطر من ق .

الراح لا شك حياة النفوس
فحل منها عاطلات الكؤوس
واستجلها بين الندامى عروس

تُجَلَّى على خطاياها في إزار من النصار
حبابها قام مقام النصار

أما ترى وجه الهنا قد بدا
وطائر الأشجار قد غردا
والروض قد وشاه قطر الندى

فكمّل اللهو بكأس ندار على افترار
مباسم النوار غب القطار

اجن من الوصل ثمار المنى
وأوصل الكأس بما أمكنا
مع طيب الريقة حلو الجنى

بمقلة أفئك من ذي الفقار ذات احورار
منصورة الأجفان بالانكسار

زار وقد حل عقود الجفا
وافتر عن ثغر الرضى والوفا
فقلت والوقت لنا قد صفا

يا ليلة أنعم فيها وزار شمس النهار
حييت من بين الليالي القصار

ويعجبني من موشحات الغزالي المذكور قوله ١ :

ما على من هام وجداً بذوات الحلى
مبتلى بالخدق السود وبيض الطلى

بالسوى ملكي حسن لديوني لوى
كتم نوى قتلي وكم عذبني بالنوى
قد هوى في حبه قلبي بحكم الهوى

واصطفى نار تجنيه ونار القلى
كيف لا يتدوب من هام بريم الفلا

هل ترى يجمعنا الدهر ولو في الكرى
أم ترى عيني محبباً من لحسي برى
بالسرى يا حاديني ركب يللي سرى

عللاً قلبي بذكر اللفا عللاً
وانزلا دون الحمى ، حي الحمى منزلاً

بي رشا دمني بسرّي في هواه فشا
لو يشا برّد مني جمرات الحشا
ما مشى إلا انثى في سكره وانثى

عطلاً من الحميا يا مدير الطلا
ما حلا إذا أدار الناظر الأكحلا

هَلْ يَلَامُ	مَنْ غَلَبَ الْحُبُّ عَلَيْهِ فَهَامَ
مُسْتَهَامُ	بِفَاتِرِ اللَّحْظِ رَشِيقِ الْقَوَامِ
ذِي ابْتِسَامِ	أَحْسَنَ نَظْمًا مِنْ حَبَابِ الْمَدَامِ
لَوْ مَلَا	مَنْ رَيْقِهِ كَأْسًا لِأَحْيَا الْمَلَا
أَوْ جَلَا	وَجْهًا رَأَيْتَ الْقَمَرَ الْمُجْتَلَى
لَوْ عَقَا	قَلْبُكَ عَمَّنْ زَلَّ أَوْ مِنْ هَفَا
أَوْ صَفَا	مَا كَانَ كَالْجَلْمَدِ أَوْ كَالصَّفَا
بِالْوَفَا	سَلَّ عَنْ فَيِّ عَذْبَتِهِ بِالْجَفَا
هَلْ خَلَا	فُؤَادُهُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَلَا
أَوْ سَلَا	أَوْ خَانَ ذَاكَ الْمُوثِقَ الْأَوَّلَا

وقوله أيضاً يعارض الموصلية :

مَا سَلَّتِ الْأَعْيُنُ الْفَوَاتِرُ	مَنْ غَمَدِ أَجْفَانَهَا الصَّفَاحِ
إِلَّا أَسَالَتْ دَمَ الْمَاحَجِرُ	مَنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا كِفَاحِ
تَاللَّهِ مَا حَرَّكَ السَّوَاكِنُ	غَيْرُ الظُّبَّاءِ الْجَاذِرِ
لَمَّا اسْتِجَاشَتْ بِكُلِّ طَاعِنُ	مَنْ الْقُدُودِ النَّوَاضِرِ
وَفَوْقَ أَسْهَمِ الْكَنَائِنُ	مَنْ كُلِّ جَفْنٍ وَنَاضِرِ
عُرْبٌ إِذَا صَحَنَ بِالْعَامِرِ	بَيْنَ سَرَايَا مِنَ الْمَلَا
طَلَّتْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاحَجِرِ	طَلَّاعٌ تَحْمِلُ السَّلَاحِ

أَحْبَبُ بِمَا تَطْلُعُ الْجُيُوبُ	مِنْهَا وَمَا تُبْرِزُ الْكُلَلُ
مَنْ أَقْمَرُ مَا لَهَا مَغِيبُ	وَأَغْصَنُ زَانِهَا الْمَيْلُ
هِيَ هَاتِ أَنْ تَعْدَلَ الْقُلُوبُ	عَنْهَا وَلَوْ جَارَتْ الْمُقْلُ
لَمَّا تَوْشَحْنَ بِالْغَدَائِرِ	سَقَرْنَ عَنْ أَوْجُهُ صِيَا
فَانْهَزَمَ اللَّيْلُ وَهُوَ عَائِرُ	بَدِيلُهُ وَاحْتَفَى الصَّبَا
وَأَهْيَفُ نَاعِمِ الشَّمَائِلِ	تَهْزُهُ نَسْمَةُ الشَّمَالِ
فَيَنْثَنِي كَالْقَضِيبِ مَائِلُ	كَمَا انْتَنَى شَارِبُ وَمَالِ
لَهُ عِذَارُ كَالنَّدَى سَائِلُ	لِلَّهِ كَمُ مِنْ دَمٍ أَسَالِ
شُقَّتْ عَلَى نَبْتِهِ الْمَرَائِرُ	مِنْ دَاخِلِ الْأَنْفُسِ الصَّحَا
تَكَلُّ فِي وَصْفِهِ الْخَوَاطِرُ	وَتَحْرُسُ الْأَلْسُنُ الْفَصَا
ظَهِيَ إِلَى الْإِنْسِ لَا يَمِيلُ	الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْ حُلَا
الْحَسَنُ قَالُوا وَلَمْ يَقُولُوا	مَبْدَاهُ مِنْهُ وَمُنْتَهَا
وَطَرَفُهُ النَّاعِسُ الْكَحِيلُ	هِيَ هَاتِ مِنْ سَيْفِهِ النَّجَا
أَذَلَّ بِالسَّحَرِ كُلَّ سَاحِرُ	فَهُوَ لَهُ خَافِضُ الْجَنَاحِ
يَجُولُ فِي بَاطِنِ الضَّمَائِرِ	كَمَا يَجُولُ الْقَضَا الْمُتَاحِ
أَمَا تَرَى الصَّبْحَ قَدْ تَطَلَّعَ	مُنْذُ غَمَضَتْ أَعْيُنُ الْغَسَقِ
وَالْبَدْرَ نَحْوَ الْغُرُوبِ أَسْرَعَ	كَهَارِبٍ نَالَهُ فَرَقِ
وَالْبَرْقَ بَيْنَ السَّحَابِ يَلْمَعُ	كَصَارِمِ حَبِينٍ يَمْتَشِقُ
وَتَحْسَبُ الْأَنْجَمَ الزَّوَاهِرِ	أَسِنَّةَ أَلْقَتِ الرِّمَاحِ
فَانْهَزَمَ النَّهْرُ وَهُوَ سَائِرُ	فَدَرَعَتَهُ يَدُ الرِّيحِ

١ المنهل : في ذيله .

وموشحة الموصلي التي عارضها الغازي هي قوله^١ :

رنا بأجفانه القواثر	لما انثنى واحد الملاح
فسل من طرفه بواثر	وهز من عطفه رماح
ناظره جرد المهتد	وغمد مني الحشا
وعامل القد فهو أملك	يطعن للقلب ^٢ إن مشى
والعارض القائم المزرد	لفتنة الناس قد نشا
والحاجب القوس، بالقواثر	لنبله في الحشا جراح
ومشرف الصدغ فهو جائر	سلطانه للدما أباح
فجفنه الفاتك الكيناني	من ثعل ^٣ رأس لي نبال
وهو الخفاجي قد غزاني	ووجهه من بني هلال
عبسي لحظ له سباني	جسم زيدي بالدلال
والردف يدعى من آل عامر	وواضع الصلّت من صباح
وخصره من هشيم ^٤ ضامر	يلور من حوله وشاح
فوجهه جنة وكوثر	رضابه العذب لي حلا
والنار في وجتيه تسعر	حياها خاله ^٥ اصطل
عجبت من خاله المعنير	إذ يعبد النار كيف لا

١ المنهل الصافي ١ : ٣٥٠ .

٢ المنهل : في القلب .

٣ المنهل : من مقل ؛ وثعل : قبيلة مشهورة بالرماية .

٤ المنهل : هشيم .

٥ ق : وأخال حياها .

يُحَرِّقُ^١ بِالنَّارِ وَهُوَ كَافِرٌ وَمَا سَقَى رَيْقَهُ الْقِرَاحَ
كَامِلٌ حَسَنٌ مَعْنَاهُ وَافِرٌ بَسِيطٌ وَصَفٍ كَالْمَسْكِ فَاحٌ

مَا اخْضَرَ نَبْتَ الْعَذَارِ إِلَّا بِأَسِهِ سَيْجٍ^١ الشَّقِيقِ
وَهُوَ كَنَمَلٍ سَعَى وَوَلَّى وَلَمْ يَجِدْ لِلْجَنَى طَرِيقَ
مِنْ رَيْقَةِ الْبَدْرِ إِذْ تَجَلَّى فِي هَالَةِ الْعَارِضِ الْأَتِيقِ

لَمَّا تَبَدَّى بِالْوَجْهِ دَائِرٌ وَحَبَّرَ الْعَقْلَ حِينَ لَاحَ
شَقٌّ عَلَى خَدِّهِ الْمَرَاثِرِ وَقَطَعَ الْأَنْفُسَ الصَّاحِ

وَرُبَّ يَوْمٍ أَنَى وَحَيًّا كَالشَّمْسِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ
بِالْكَأْسِ وَالرَّاحِ وَالْمَحْيَا ثَلَاثَةٌ تَفْتَنُ الْبَشَرَ
وَقَالَ قَمٌ يَا نَدِيمُ هَيَّا أَقْضِ بِنَا لَذَّةَ الْوَطَرِ

فَالْحَمْرُ تُجَلِّي عَلَى الْمَزَاهِرِ مِنْ اغْتِبَاقٍ إِلَى اصْطِبَاحِ
وَطَافَتْ الرَّاحُ بِالْمَجَامِرِ مِنْ عَنَبِ الزَّهْرِ فِي الْبَطَاحِ

وَمِمَّا يُطْرِبُنِي مِنَ الْمَوْشِحَاتِ قَوْلُ^٢ بَعْضُهُمْ :

مَا بِي شَمُولٌ إِلَّا شَجُونٌ مَزَاجُهَا فِي الْكَاسِ دَمْعٌ هَتُونٌ

لَهُ مَا بَدَّرَ مِنْ الدُّمُوعِ
صَبًّا قَدْ اسْتَعْبِرَ مِنْ الْوُلُوعِ
أَوْدَى بِهِ جُودَرٌ يَوْمَ الطَّلُوعِ^٣

١ المنهل : يبهج .

٢ هذه الموشحة لابن بقي (دار الطراز : ٦٧) .

٣ دار الطراز : يوم البقيع .

فهو قتيل لا بل طعين بين الرجا والياس له سنون

جرحت للحين كفتي بكفتي
وحيل ما بيني وبين انثي
لا شك بالبين يكون حنفي

حال الرحيل ولي ديون ان ردها العباس فهو الامين

أما ترى البdra بدر السعود
قد اكتسى خضرا من البرود
إذا انثي نظرا من القود

أضحى يقول مت يا حزين قد اكتسى بالأس الياسمين

قلت وقد شرد النوم عني
وأياس العود السقم مني
صد فلمّا صد قرعت سنني

جسمي نحيل لا يستبين يطلبه الجلاس حيث الانين

تجاوز الحدّ قلبي اشتاقا
وكلف السهدا من لا أطاقا
قلت وقدّ مدّا لبلي رواقا

لبلي طويل ولا معين يا قلب بعض الناس أما تكلين

الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون ،
وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المتنون

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحو الستين ، وكلها في غاية البراعة ،
بحيث إنّه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل
عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمناً
ببعض تغيير :

تصانيف الوزير ابن الخطيب الذئ من الصبا الغض الرطيب
فأية راحة ونعيم عيش توازي كتبه أم أي طيب

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته ^١ :

التوايف : « التاج المحلى في مساجلة القدح المحلى » ، و [« الكتيبة الكامنة في
أدباء المائة الثامنة »] ^٢ ، و « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر »
ثم « النقاية بعد الكفاية » هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد ،
و « طرفة-العصر في دولة بني نصر » في أسفار ثلاثة ، و « بستان الدول » موضوع
غريب ما سُمع بمثله ، قل أن شذَّ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات

١ الإحاطة ، الورقة : ٣١٢ .

٢ سقط ذكر الكتيبة الكامنة من ق ، وهو الأصوب لأن المقري سيستدرك ذكره من بعد بين الكتب
التي لم تذكر قبلا .

عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة الشرطة والحسبة ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهي فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة والبيطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا ، وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شعب ، وأصول ، وجرائم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهورات ثمرة ، وغير ثمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصيغ اسم الفن المراد به ، وبرناجه صورة بستان ، كل منه نحو من ثلاثين صفراً ، ثم قطع عنه الحادث على الدولة ، وديوان شعري في سفرين سميته « الصيَّب والجهام والماضي والكهام » ، والنثر في غرض السلطانيات كثير ، والكتاب المسمى بـ « اليوسفي في صناعة الطب » في سفرين كبيرين ، كتاب منسج ، و « غائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير ، في سفرين ، وكتاب « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » كتاب كبير في أسفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » في سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كساد الدولة « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » موضوع جليل في أربعة أسفار ، وكتاب « عمَلُ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَب » ومتركة في الصناعة الطبية بمترة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لا نظير له ، ومن الأراجيز المسماة « رقم الحلل في نظم الدول » والأرجوزة المسماة : « الحلل المرقومة في اللع المنظومة » ألفية من ألف بيت في أصول الفقه ، والأرجوزة المسماة بـ « المعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم

إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص ،
والأرجوزة المسماة بـ « المعتمدة في الأغذية المفردة » والأرجوزة « في السيامة
المدنية » ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز « في عمل الترياق الفاروقي » ،
و « الكلام على الطاعون المعاصر » ، و « الإشارة » ، و « قطع السلوك » ،
و « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » حتى في الموسيقى والبيطرة والبصرة ،
هذر كُثِفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تيسل
بين الرد والقبول والنفي والإيجاب ، والله در القائل - وهو المؤلف ١ - :

والكونُ أشراكُ نفوسِ الورى طُوبى لنفسٍ حرةٍ فازت
إن لم تحزْ معرفةَ الله قد أورطها الشيء الذي حازت

وكلُّ ميسرٍ لما خلق له ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم ؛ انتهى
ما له في آخر « الإحاطة » بحروفه .

قلت : ولندكر ما تأخر تأريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملًا فنقول :
من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب « ربحانة الكتاب ونجعة المتاب »
في عدة مجلدات ، وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة : والنثر في غرض
السلطانيات كثير ، وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض
شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم
وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خطب
بعض كتبه ، وفي آخره بعض مقاماته وتخلته لأهل عصره ، وغير ذلك ،
وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابهِ .

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في
كتابه « نثر فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان » ما صورته ٢ : لابن الخطيب

١ وهو المؤلف : زيادة من ق ، لم ترد في الإحاطة .

٢ نثر فرائد الجمان : ٢٤٤ وأزهار الرياض : ١٨٩ .

الأوضاع المصنفات ، التي آذانُ إحسانها هي المقرّطات المُشَنَّفَات ، منها في التصوف ، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ انتهى ، وسرّدَ غير هذا الكتاب ممّا قدّمنا ذكره وغيره .

وهذا الكتاب - أعني « روضة التعريف » - غريب المتّرع ، وعارض به « ديوان الصباية » لابن أبي حجلة صاحب « السكردان » ، وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العُجاب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطلقة ، وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبتة الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ، ونسبوه إلى مذهب الحلول وغيره ، ممّا ذكره يطول حسبما ألمعنا بذلك فيما سبق ، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر فوقها ، ولم أر في فنّه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ؛ فإِنَّه في الحب الشريف الرباني ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مألقة وسلا » و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما في الريحانة بنصهما ، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » في مجلد ، و « الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » و « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور على السّنّ المشهور » و « الزبدة الممخوضة » و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة في تفضيل الشريعة » و « تقرير الشبه وتحرير الشبه » و « استتزال اللطف الموجود في سر الوجود » و « آيات الآيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر ، و « فُتات الخوان ولقط الصوان » في سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، و « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ، و « أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك

من شجون الكلام » و « المباخر الطيبة في المفاخر الخطيبية » و « خلع الرسن
 في أمر القاضي ابن الحسن » وتلوين شعر شيخه ابن الجياب ، وجمع نثر المذكور
 وسمّاه « تافه من جم » ونقطة من يسمّ » وشرحه لكتاب نفسه « رقم الحلل في
 نظم الدول » ؛ فهذا ما حضرني علمه من تواليف لسان الدين رحمه الله تعالى ،
 فأما « البيزرة » ففي مجلد ، وأما « البيطرة » فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من
 محاسن الخيل وغير ذلك ، وأما « رجز الأصول » فقد شرّحه قاضي القضاة ولي
 الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأما « رقم
 الحلل في نظم الدول » فهو في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة ، وقد كنت
 بالمغرب أحفظ أكثره ، فنسبته الآن ، وابتدأه بقوله :

الحمد لله الذي لا ينكره من سرّحت في الكائنات فكره

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد :

ثمّ الوليد بن يزيد العاثُ قد نُقلت من فعله خباثُ
 وفي آخر دولة بني أمية قوله :

وصار قصر الملك من أمية أقصر ريعاً من ديار مية
 وفي الأمين :

باع العلا بشادين وكاس وصحبة الشيخ أبي ثواس
 وفي المعتصم :

وهو الذي تألف الأتراكا فنصبوا لقومه الأشراكا
 ومن أبيات هذا الكتاب قوله :

وَيَفْسُدُ الْمَلِكُ بِالْإِحْتِجَابِ كَذَاكَ بِالزَّهْوِ وَبِالْإِعْجَابِ

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

وَأَقْرَبُ مَنْ مَلَكَ أَوْطَانُهُ سُبْحَانَ مَنْ لَا يَنْقُضِي سُلْطَانَهُ

[معلومات عن كتاب الإحاطة]

وأما كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالشرق والمغرب ، والمشاركة أشد إعجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلته في هذه البلاد الشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي^١ ، وسمّاه « مركز الإحاطة في أدباء غرناطة » وهو في مجلدين بخطه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال في آخره ما نصّه : هذا آخر ما أردت إيراده ، وفوّتُ أبراده ، من كل طرفة ونخفة وفائدة أدبية ونادرة تاريخية ، في كتاب « الإحاطة بتاريخ غرناطة » ، ولما كان المعول عليه ، والباعث الداعي إليه ، ذكر أدبائه ، ومآثر علمائه ، سمّيته « مركز الإحاطة بأدباء غرناطة » والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير إلى عفو ربه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بعثه وكرمه ، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى . وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلد ، إذ هو في مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل في ثمانية مجلدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها . ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب « الإحاطة » نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابن^٢ عاصم حجة الوقفية بخطه ، ولتبتها لما فيها من الفوائد ، قال

١ هو محمد بن إبراهيم بن محمد أبو البقاء بدر الدين الأنصاري البشتكي المشقي الأصل المتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٠ (انظر الضوء للآخ : ٦ : ٢٧٧ وطالع البدر ١ : ٨٠) .

الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الخداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان المحروسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة بتاريخ غرناطة » المحبسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضي الجماعة ، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة ، صدر البلغاء ، وعلم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى ابن عاصم - رحمة الله تعالى عليه - ما نصه : الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأمم على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام ، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام ، وبه الاستمسك إن طرقت الشكوك أو عرّضت الأوهام ، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة ، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة ، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول ، ويستنبط المهتدي لامتنابه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة مالك على سواء سبيل ، ومستمّر من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - من أثر هذه الدولة النصيرية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولي الألباب وذكرى لذوي الأبصار ، أما الأول فلأن الأنبياء التي أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعدا ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام ، وأفذاذ حفاظة الدين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، ويتنظم نظم الجحمان في ذلك السلك ، من حصانة قلعتها ، وأصالة منعتها ، وقديم اختطاطها ، وكرم جهادها ورياطها ، وحسن ترتيبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربّيعها ، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن انتابها

من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ، ومُبدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنَّما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصيرية الكريمة ، ونشأة من نشأت جودها الشامل النعمة الهامل الدائمة ، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الانصاف ، فأخلاف هذه المكارم النصيرية أروعته ، وعناياتها الجميلة أسَمَّتْهُ فوق الكواكب ورفَعَتْهُ ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره ، بل أفقُّه الذي أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التي فتحتَ اللَّهُهَا بِاللَّهَا ، وأحَلَّتْ من مراقي العز فوق السها ، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق ، وطوقت المني كالقلائد في الأعناق ، وقلدت الرئاسة والأفلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهرت أنواعُ المحاسن ، ووُرِدَ معينُ البلاغة غيرُ المطروق^١ ولا الآسن ، وبرعت التواليف في الفنون المتعددة ، واشتهرت التصنيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأهمية المتأكدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه الإجمال ، فلنُفَصِّح الآن بما قَصَدَ ، ولنحقق من أنجم السعادة ما رَصَدَ ، وذلك أن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين ، أيدته الله ونصره ، وسنَّيَ له الفتح المبين ويَسَّرَه ، مآثرَ لم يُسَبِّقَ إليها ، ومكارم لم يجر أحد ممن وسم بالكرم عليها ، لجلالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذي أُثِرَ لها كالكتاب المذكور وسواه ، مما هو واحد في فنه وفد في معناه ، عقَّد في جميعها التحسيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة في اثني عشر سَفَرًا متفقة الخط والعمل ، اكتب هذا

١ المطروق : الماء الذي يالت فيه الدواب .

على ظهر الأول منها ، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة ، عرف الله تعالى بركته بمنتهى ، انتهى .

وكان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - أرسل في حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي - نفع الله تعالى به - عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السلماني - فسبح الله تعالى في مدته ، وفتح لنا وله أبواب رحمته ، ومنحنا وإياه من رفده وعطيته ، وأسكننا وإياه أعالي جنته - جميع هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » - ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره ، وهو أنه فوض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها ، وشؤونه جميعها ، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضاً تاماً على العموم والإطلاق ، والشمول والاستغراق ، لم يستثن شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بشغر الإسكندرية المحروس - أدام الله تعالى أيامه - كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربيعي المالكي ثبوته مؤرخ بئال ذي الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة ، وفقاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً ومطالعة ، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يحل لأحد ، يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنه صائر إلى ربه الكريم ، أن يطله ولا شيئاً منه ،

ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين
يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور
جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام
ثمانية وستين وسبعمائة ، انتهى .

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء ، فمن
ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ ، ونصّه : انتقى منه داعياً لمؤلفه أحمد
ابن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

وما رقبه الحافظ السيوطي ونصّه : الحمد لله وحده ، طالعت على طبقات
النحاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين
وثمانمائة ، انتهى

وبعد هذين ما صورته : انتقى منه داعياً لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني
سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبعد ما صورته : أنهاه نظراً وانتقاء علي الحموي الحنفي ، لطف الله به .
وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد
البكري الصديقي ما نصّه : طالعت مبتهجا برياضة الموقفة ، وأزهار معانيه
المشرقة ، مرتقياً في درج كلماته العذاب سماه الاقتباس ، مقتنياً من لطفه درراً
وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس ، كتبه محمد الصديقي غفر الله له ، انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن
دُقْمَاق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف
أبي الحسن علي [ابن] الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ،
والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني ، والنحوي الراعي ، والشيخ الفهامة الشهير
بجبي العجيمي شارح الألفية وصاحب التأليف ، وغير هؤلاء ممن يطول

تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم .

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدم إلى ما يتعلق بكتاب « الإحاطة » في جملة كلام نصّه :
وتلقينا ممن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسباً ، البارع أدباً ، أبا عبد الله ابن جزّي وقدّ على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جنّابه ، وكمل من تقرّبه واصطناعه آرا به ، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي ، وصاح بمن عدّله :

أيا ويّخ الشّجيّ من الخلي

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شيء من الكلام إلّا قال الإحسان وأنا معه ، استوعب ما شاء ، وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعراً أو إنشأ ، لكن سابق أجله منّع من الإمتاع بمجمله ومفصّله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدّنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكاتبة خاص الدولة ورئيس الحملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ ابن جزّي على شاطئ نهر فياض ، وانشق من ورقاته أزاهر رياض ، وحمله النظر في بدائعه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمّى بـ « الإحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة » ووجد لذلك موجباً أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجّة الشاعر المفلح أبا إسحاق ابن الحاج وقدّ على الأندلس بعد جوبّه في الآفاق ، وترحله إلى ما وراء الشام والعراق ، وإعلامه أنّه يذهب في بداية تاريخ مذهب ابن جزّي وغيره ، وكان وحيداً في فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتاب ، وبحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وجدّ الحاجب الخطير أبا

النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى ، وبأن وقته دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فأنتج الانتباز من تلك الرياسة الخطيبية أن ألقى الخطبة على جلاله مقدارها ، وتوضّح أنوارها ، في مرتقى إجلالها وإكبارها ، وأخذ في تأليف « الإحاطة » مستدعياً تصحيح الموالد والوفيات ، والأسماء والمسميات ، ومستكثراً من طُرف المصنّفات ، ليتم قصده من الإطناب ، ونقله العيون الرائقة من كل كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العنّدة معلم الحملة منا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم أبي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه ، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سنّ الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله ، وأحكم جنسه وفصله ، وانحتم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب « الإحاطة » بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوعد المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتممة من اثني عشر سفرّاً ؛ انتهى كلامه .

وقد علمت أن المكتوب في الوقفية كما مر ثمانية مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
والكاتب أبو عبد الله ابن جزّي الذي أشار إليه قد عرفنا به فيما سبق فليراجع .

[ترجمة ابن الحاج التميمي]

وأما العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي التميمي ، ويُعرف بابن الحاج الغرناطي ، قال

في الإحاطة^١ : نشأ على عفاف وطهارة ، وبر وصيانة ، وبلغ الغاية في جودة الخط ، وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مع حسن سمت ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر^٢ ، ويروي الحديث مع الطهارة والتزاهة ، مليح الدعابة ، طيب الفكاهة ، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طريقة ، وقفل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب بيجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بيجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بتربة الشيخ أبي مدين مؤثر الحمل ، ذاهباً مذهب العكوف بباب الله تعالى ، حجة على أهل الحرص والتهاوت ، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان ، ثم أفلت عند موته فلاح بالأندلس ، وتلقى ببر وتنويه وعناية ، وولي القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتهال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ في رحلته عن ناس شتى ، وألف تواليف منها « إيقاظ الكرام بأخبار المنام » وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و « نزهة الخلق في ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحبة في جمع طرق المتصوفة » المدعي أنه لم يجمع مثله ، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالشرق ، وجزء في الأحكام الشرعية سمّاه بـ « الفصول المقتضية في الأحكام المنتخبة » ورجز في الجدال ، ورجز صغير في الحجب والسلاح ، ورجز صغير سمّاه بـ « مآلث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين » ، مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وامتنحن بالأمر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثم فكّه الله تعالى ، انتهى ملخصاً .

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب « التحفة » وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه ،

١ الإحاطة ١ : ١٩٣ والمقري يتقل ملخصاً .

٢ الإحاطة : وهو في أثناء هذه الحال يقيد ولا يفتر .

وقد أتى فيه بالعجب العُجاب ، وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق ،
لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي ، وناهيك بالثلاثة ،
وغيرهم ممن يطول تعداده ، وله النظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة
ورقة المشاركة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحفاظ جمال الدين يوسف بن
الزكي عبد الرحمن المزي ، وقد أبصره على أسرّة دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمالُ الدين للإقراء يعلو أسرته إذا اصطفَ الرجالُ
فمدَّ جليّتْ محاسنُه بدا لي مُحيتاً في أسرته الجمالُ

ضمن قول المعري :

أهلٌ فبشّرَ الأهلين منه حياً في أسرته الجمالُ

وقوله في الحفاظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي :

نوى النوى علم الدين الرضى فأنا من بعد فرقة بالشام ذو ألم
فلا تلمني على حيي دمشق فقد أصبحت فيها زماناً صاحب العلم

وقال فيه أيضاً :

نوى النوى علم الدين الرضى فذكت نارُ اشتياقي حتى استعظموا ألمي
فقلت : إني من قوم شعارهم جودٌ ، فلا تنكروا ناري على العلم

وقال في الحفاظ شمس الدين الذهبي :

رحلتُ نحو دمشق الشام مبتغياً روايةً عن ذوي الأحلام والأدب
ففزتُ في كتب الآثار حين غدت تُروى بسلسلة عظمى من الذهب (ي)

وقال في الحافظ المزني أيضاً :

جَمالُ الدين أضْحى في دمشق إماماً نحوه طالَ الذميلُ
فلَمْ أعدم بمنزله جَميلاً فحيثُ هوَ الجمالُ هوَ الجميلُ

وقال حين بُدوره على الأمير الصالح المحدث الجليل قطب الدين أبي
إسحاق إبراهيم ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ابن السلطان الملك الرحيم
بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد الله النوري صاحب الموصل ليروي عنه :

إلى قَصْدِ قُطْبِ الدينِ وافيتُ عندَما أقمْتُ على الرِّحالِ في الشرقِ والغربِ
وأصبحتُ كالأفلاكِ في السيرِ والسَّرى فها أنا في مصرٍ أدورُ على القُطبِ
وقال في القاضي القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندي ،
وهو ممن أخذ عنه بغير الإسكندرية :

ولما اختبرتُ ذواتِ الورى تمجَّبتُ من حسنِ ذاتِ العِمادِ
فَتلكَ التي لَمْ أَكنْ مبصراً مَدَى عُمُرِي مثَلها في البلادِ

وقال في القاضي وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجي :
أضْحى وجيهُ الدينِ أَسبقَ سابِقِ في العلمِ والعلِياءِ والخلقِ النَّبيهِ
عجب الورى من سبقه وتعجبوا فأجبتهم لا تنكروا سبقَ الوجيهِ

ومن بدیع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

قد قارب العشرينَ ظيَّي لَمْ يكنْ ليرى الورى عن حبه سُلوانا
وبدا الربيعُ بخدّه فكانتما وافى الربيعُ يتادم النُّعمانا

وقوله :

وعارضٍ في خدّه نباته بحسنه بين الورى يَسحرنا
أجرى دموعي إذ جرى شوقاً له فقلت ﴿ هذا عارضٌ مطرنا ﴾

وقال وقد توفي أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص
عمر بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصباً
فقلت لهم كفوا فما رضى الورى
وإخوته أولى وقد جاء بالنكر
سوى عمرٍ من بعد موت أبي بكر
وقال :

أتوني فعابوا من أحب جماله
فما فيه عيب غير أن جفونه
وذاك على سمع الحب خفيف
مِرَاضٌ ، وأن الحصر منه ضعيف
وقال^١ :

أيا عجباً كيف تهوى الملوك
وتحسُدني وهي مخدومة
محلتي وموطن أهلي وناسي
وما أنا إلا خديم بفاس
وقال :

لي المدح يروى منذ كنت كأنما
وما لي هجاء فاعجبني لشاعري
تصورت مدحاً للورى وثناء
وكاتب سرٍ لا يقيم هجاء

وقال في حق القاضي أبو البقاء خالد البلوي^٢ : نقلت من خط سيدي ورفيقي
وصديقي إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبي إسحاق ابن إبراهيم بن عبد الله بن
الحاج وأكثره مما كان أنشدنيه قديماً من نظمه في التورية قوله :

ومهاة تقول إن هي كلت ودعا للمزاح خل مازج

١ انظر أيضاً تاج المفرق ، الورقة : ٢٢١ .

٢ عندما عاد البلوي من رحلته ووصل قسنطينة (سنة ٧٤٠) نزل عند صديقه ابن الحاج (تاج المفرق ،
الورقة : ٢٠٩) .

وَأَزِرِ الرَّدْفَ إِنَّ فِي الْأُزْرِ مِنِّي رَمْلَ بَبْرَيْنِ يَا طَيْبُ وَعَالِجُ

وقوله :

وزوض ممحِلَ جَدْبِ المَرَامِي سَرِيعِ الْقَيْظِ وَقَدْ أَوْتَهَابَا
حَكِي ابْنُ أَبِي رَيْعَةَ لَا شُجُونًا وَلَكِنْ كَوْنُهُ يَهْوِي الرِّبَابَا

وقوله :

وِظْيِ طَرٍّ عَارِضُهُ وَأَعْنَى عِذَارًا بَعْدُ يَزْهَوُ بِاخْضِرَارِ
رَأَى سَقَمًا بِمَقْلَتِهِ فَوَافَى بَاسٍ عَادَ لَكِنْ مِنْ عِذَارِ

وقوله :

أَتُونِي بِنِمَامٍ مِنَ الرُّوضِ بِانْعِ سَقَتَهُ الْفَوَادِي كُلَّ أَسْجَمٍ مَدَارِ
فَلَا غُرُوْا إِنْ أَصْلَيْتُهُ نَارَ زَفَرْتِي وَحَكَمَ عَلَى النَّمَامِ الْإِلْقَاءَ فِي النَّارِ

وقوله :

هَذِهِ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ تَوَارَتْ بَعْدَ نَوْرِهَا وَرَحْبٍ وَبُشْرِ
وَأَمِّي اللَّيْلُ بِالنَّسِيمِ عَلِيلاً فَهُوَ يَمْشِي مِنْ أَفْقِهِ لَا بِنَ زُهِرٍ

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي ،
فإنه كان وحيد دهره في الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك بحكمة إلى الغاية .
وقال أبو إسحاق التميمي المذكور :

أَيَا ضَوْءَ الصَّبَاحِ ارْفُقْ بِصَبِّ تَسِيلُ دُمُوعِهِ فِي الْخَدِّ سَيْلًا
وَكُنْتُ بَلَيْلَةً لَيْلَاءَ طَالَتْ فَهَا أَنَا فِي الْوَرَى مَجْنُونُ لَيْلَا

١ . كَتَبْنَاهَا هَكَذَا لِتَنَاسُبِ التَّوْرِيَةِ فِي « لَيْلَاءِ » .

وقال يخاطب شيخه سيف الدين :

لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا مقامُ اجتهادٍ ليسَ يلحقهُ الحيفُ
فتقليده فرضٌ على أهل عصرنا ولا عَجَبٌ عندي إذا قلَّد السيفُ

وقال :

رعى الله معطارَ النسيم فإنه رأى من غصونِ البان ما شاء من عطفٍ
وأبدى حديثَ الغيثِ وهو مُسَلَّسٌ لذاكَ لعمري ليسَ يخلو من الضعفِ

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون « الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ، ولو في الترام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحاً » كما قرر في محله .

وقال رحمه الله تعالى :

نظرتُ إلى روضِ الجمالِ بوجهه وسَقَيْتَهُ دمعاً به العينُ تكلفُ
فصحَّ حديثُ الحسنِ عن وردِ خدِّها وإن كانَ أضحى وهو راوٍ مضعفُ

وقال رحمه الله تعالى :

بدا عارضُ المحبوبِ فاحمرَّ خجلتهُ وأهدى لنا ورداً به الحسنُ ناهضُ
فقلتُ له لا تنكِرِ الوردَ ناضراً فقد سالَ في خَدِّكَ من قبلُ عارضُ

وقال :

النومُ عن إنسانٍ عيني نافرٌ كالوحشٍ ليسَ يقاربُ الإنسانا
والدمعُ منها فاض طوفاناً فلا عجبٌ إذا ما غرَّقَ الأجفانا

وقال رحمه الله تعالى :

بَكَتْ شَجْنًا فَفَاضَ الدَّمْعُ بِحَكِي يَتَامَى الدَّرُّ إِذْ يَهْوِي تُوَامَا
وَسَلَّتْ مِنْ مُحَاجِرِهَا سَيُوفًا فَخَفْتُ عَلَى الْمُحَاجِرِ وَالْيَتَامَا

وقال القاضي خالد البلوي رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبي إسحاق ابن الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحب ديوان الإنشاء الإمام جمال الدين إبراهيم ابن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه :

إِلَى ابْنِ شِهَابٍ الدِّينِ طَالَ تَغَرُّبِي فَلَمَّا سَرَتْ عَيْسِي لَهُ وَرَكَابِي
رَوَيْتُ حَدِيثَ الْفَضْلِ عَنْهُ فَصَحَّ لِي كَمَا شِئْتُ مَرْوِيًّا عَنْ ابْنِ شِهَابٍ

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أَشْبَهْتَ وَالِدَكَ الرِّضَى فِي فَضْلِهِ وَأَخَذْتَهُ عَنْهُ بِخَيْرِ مَنَابِ
وَمَلَكَتْنِي فَحَدِيثُ فَضْلِكَ فِي الْوَرَى عَنْ مَالِكٍ يَرُوى عَنْ ابْنِ شِهَابٍ

وقال رحمه الله تعالى :

لِعَمْرِكَ مَا ثَغَرَهُ بِاسْمٍ وَلَكِنَّهُ حَبَبٌ لَاعِبٌ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَيْقُهُ مَسْكُورًا لَمَا دَارَ مِنْ حَوْلِهِ الشَّارِبُ

وقال رحمه الله تعالى ملغزاً في القلم :

سَأَلْتُكَ مَا وَاشٍ يَرَادُ حَدِيثُهُ وَيَهْوِي الْغَرِيبُ النَّازِحُ الدَّارِ إِفْصَاحَهُ
تَرَاهُ مَدَى الْأَيَّامِ أَصْفَرَ نَاحِلًا كَمَثَلِ عَكْلِيلٍ وَهُوَ قَدْ لَازَمَ الرَّاحَةَ

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها :

تَعَجَّبْتُ مِنْ ثَغْرِ هَذِي الْبِلَادِ وَمَوْلَايَ مِنْ عَيْنِهَا شَارِبُ
فَلَلَهُ ثَغْرٌ أَرَى شَارِبًا وَعَيْنٌ بَدَا فَوْقَهَا حَاجِبُ

وقال :

وحمراء في الكأس مشمولة تحت على العود في كل بيت
فلا غرو أن جاءني سابقاً إلى الأنس خلّ يَحْتِ الكميّت

وقال :

بروضتنا الظمياء طال اكتئابنا فله غيث مَيّت آمالنا أحيا
وأشبه مهياراً فهنا تلك عينه تفيض إذا شام البروق على ظميا

وقال :

اثنان عرّاً فلم يظفر بئيلهما وأعوزا من ههنا في الدهر مَطْلَبُهُ
أخ مودته في الله صادقة ودرهم من حلال طاب مكسبُهُ

وقال مورياً بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أن أصح الأسانيد
مالك عن نافع :

عن نافع أسنيد حديث أحبتي يا مالكا رقي بحسن صنائع
فأجل إسناد وخير رواية عندي رواية مالك عن نافع

وقال :

إنّي لأعجب من فعالك في الهوى لما حللت بحسن ذاتك ذاتي
ونفيت نومي ثم أثبت الأسي فجمعت بين النفي والإثبات

وقال :

ألا معصم للصب من وشي معصم أطلت إليه نظرة المتوسم
فأبقت به عيني حلّى من سوادها وبعض سواد وسط قلبي المتيمم

وليس خضاباً ما علاه ، وإنما جرى فيه بعد الدمع ما عزّ من دمي
ولم يعد منّي اللون لونُ سواده خلا أنّي أشقى وقيل له : انعم
وقال وقد جاء الشاعر المفلح أبو العباس أحمد بن عبد المنّان بيت الكتاب وفي
عينه خضرة :

أيا أحمدُ المرتضى للعلّا ومنّ حاز في صنعِهِ كلّ زين
ترايت في العلم روضاً نضيراً فلا تنكرنْ خضرةً حولَ عين
وله فيه :

لك الخيرُ عُدْمُ السبكِ أبدل ناظري زمردةً مخضرةً من الجنيه
فلا تنكروا ما راع من ذاك لاني لصائعُ تبرِ القولِ ناقدُ شينه
ولا عجبُ إن أعوز السبكُ صائغاً فأوجبْ علمُ السبكِ خضرةً عينه
وقال فيمن يُعرف بالصهّال :

ألا ربّ فرسانٍ توافوا فأدركوا مع الليل أوتاراً لهم دون إمهال
وأجروا بصهّالٍ كيتاً كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهّال
ولما كتب الرئيس الكاتب الخليل أبو عبد الله العزفي مداعباً :

يا عصبه كلّ فتى منهم علّم فرغم من كتبكم ردّوا القلم

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أعزّم لفتية تكثرُكم بالصفح عن فعلهم قاضي
ولا تظمعوا في الردّ فالناس كلّهم رأوا أنّ مولانا له القلم الماضي

وقال الوادي آشي : نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارع الحاج

القاضي الناظم النائر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج
النميري ما نصّه : كتب إليّ الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان متمثلاً
بقول المأمون :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عنائي

فكتبت إليه في التورية :

هَتَيْتُكَ لَكَ الْبُشْرَى بَهَنَ فَدَمَ كَمَا تَرِيدُ بِنَعْمَى لِّلْسَعَادَةِ جَامِعَةٍ
وَأِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ فَلَا تَكُنْ بِمَائِلٍ قَلْبٍ مِنْكَ عَنْ حُبِّ رَابِعَةٍ
فَأَجَابَنِي بِقَوْلِهِ :

يَا سَيِّدِي ذَكَرْتَنِي بِالرَّابِعَةِ لَعَلَّهَا لِكُلِّ خَيْرٍ جَامِعَةٍ
إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ بِأَقْعِهِ فَتَفْرُكَ الْمَغَازِلَ الْمَطَاوِعَةِ

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لَمِنْ الْخِيَامِ سَطَّتْ بَيِضٌ صَفَاحٍ وَارَتْ سَوَاداً غَالِ كُلِّ صَبَاحٍ
إِنْ مَزَقَتْ رُقْعَتٌ بِنَقْعٍ كَنَائِبٍ أَوْ قُوِّضَتْ عُمْدَتُ بَسْمَرٍ رِمَاحٍ
وَلَهُ فِي رِثَاءِ الطَّيِّبِ ابْنِ عِمَارٍ ، وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ابْنُ جَزْزِي :

أَلَا أَسْعِدَا عَيْنِي عَلَى السَّهْدِ وَالْبِكَاءِ فَقَدْ وَاصَلَ السَّهْدَ الْمَبْرُحُ تَذْكَارِي
وَأَبْدَى الرَّدَى فَتَكَ ابْنَ عِبَادٍ أَدْسَطَا فَلَا غُرُو أَنْ أَبْكِي لِفَقْدِ ابْنِ عِمَارٍ

وقال ممّا يُكْتَبُ فِي التَّرْسِ :

أَنَا التَّرْسُ قَدْ أَنْشَأْتُ بِالْأَمْرِ عُدَّةً لِيَوْمِ جِهَادٍ مُطْلِعٍ غُرَّةَ النُّصْرِ

فلاقوا بني الأعداء في زحفهم ولا
ولا تنكروا سري لمقتل حاملي ففي اسمي كما شاهدتم أحرف السري

وله يهني السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المريني بالإبلال من المرض :

مطالبُ إلا أنتهنّ مواهبُ
شفاءُ أمير المؤمنين وإثته
وكم قلتُ غاب البدرُ والشمسُ ضلةً
ولم يغيبا لكن شكّا الضرّ فارسُ
لك الله يا خيرَ الملوكِ وخيرَ منّ
وقتلٌ لمن وافى بشيراً نفوسنا
أقول بجرّد الخيل قبلاً بطونُها
طوالع من تحت العجاج كأنها
مُحجّلة غراً كأنّ رعاها
من الأعوجيات الصوافن ترتمي
هنيئاً فقد صحّ الإمام الذي به
ومستأصلُ الفلّ المغدّ جيادهُ
ومن حطّم السّمّر الطوال كعوبُها
وكرّ على أرضِ العدا بفوارسٍ
كأنّ ظبَاهُم في الهياج أكفّهم
كأنّ رماح الخطّ أحسابهم ، وما
هم ما هم ، حدّث عن البحر أو بني
من البيت شادت قيس عيلان فخره
وأجبا له مُلْكُ الخليفة فارسٍ

قضى الله أن تقضى ، فنعم المطالبُ
لأكرم من تُحدى إليه الركائبُ
ورأيتُ على قلبي الهموم النواصبُ
وأوحش منه مجلس الملك غائبُ
تحنُّ له حتى العناقُ الشواذبُ
فما هي إلا بعض ما أنت واهبُ
معقّدة منها لحرب سبابُ
نعام بكُشبان الصّريم خواضبُ
بحارٍ جرت فيها الصّبا والجنايبُ
إذا رجفت يوم القراع مقانبُ
تُقلّ السيوف المرفقات القواضبُ
لضرب كما ترغو الفحول الضواربُ
بطعن كما امتاح الركيّة شاربُ
كانتهم في الحرب أسد غوالبُ
تجودُ وأرواحُ العدا مواهبُ
حوت من نفوس المعتدين مناقبُ
مرين فتنهج القول أبلغ لاحبُ
فطالّت معاليه وطابّت مناسِبُ
مأثر غاليتها الليالي الذواهبُ

كريمٌ فلا الحادي النجائب محققٌ
 أرى بذله النعمى ففضت مكاسبٌ
 أنامله يروي الورى صوبُ جودِها
 وكم خلت برقاً في الدجى نورَ بشره
 فأخجلني أني أرى البرقَ حلياً
 أعزني أميرَ المؤمنين بلاغةً
 وأنطقُ لساني بالبيان معلماً
 وكيف ترى لي بعدُ في الجودِ رغبةً
 وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ
 بلغت بك الآمالَ حتى كأنها
 عجبت وما تولى ، وأوليتُ معجباً
 وحسبي دعاء لو سكتُ كُفَيْتُهُ
 وما أنا إلا عبدك المخلصُ الذي
 فخذها تبث العذر لا المدح ؛ إنه
 بقيت بقاء الدهر ملكك قاهرٌ
 وعوفيت من ضرٍ وأعطيت أجره

وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاثُ جاء جبريلُ سائلاً
 مقاماتُ إسلامٍ أزيدُ بفعله
 لخير الورى عنها لآثرتُ فقداني
 ثواباً وإيماناً أديم وإحساني

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني السلطانُ أميرُ المؤمنين أبو عتار فارس ابن
 أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمهما الله تعالى لنفسه :

يا مملأ بأرض تلك البلاد حيّ فاساً وحيّ أهل الوداد
إن تناءت بشخصها عن عياني فحماها مصوراً في فؤادي

[قصائد في مدح تلمسان وفاس]

قلت : تذكرت بهذا البحر والروي والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة
الناظم النائر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير
المسلمين أبي حمّو موسى بن يوسف الزباني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أيها الحافظون عهد الوداد	جدّوا أنسنا بباب الجياد
وصلوها أصائل بلال	كلالٍ نظمن في الأجياد
في رياض متضدات المجاني	بين تلك الرُبي وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني	باديات السنا كشهب بّواد
رقّ فيها النسب مثل تسبي	وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر والغصون ثثت	وتغنت عليه ورق شّواد
وانبرى كلّ جدول كحسام	عاري الغمد سندسي النّجاد
وظلال الغصون تكتب فيه	أحرفاً سطّرت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خوّد	نصبت فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المني تدار علينا	بحي عفة وتقل اعتقاد
واصفار الأصيل فيها مدام	وصفير الطيور نعمة شاد
كم غدّونا بها لأنس ورحنا	جادها رائع من المزن غاد
ولكم روحة على النوح كادت	أن تريح الصبا لنا وهو غاد
رقت الشمس في عشاياه حتى	أحدثت منه رقة في الجماد
جدّدت بالغروب شجّو غريب	هاجه الشوق بعد طول البعاد

يا حيا المزن حيا من بلاد
وتعاهد معاهد الأنس منها
حيث مغنى الهوى ، وملهى الغواني
ومقر العلاء ، ومرقى الأماني
كل حسن على تلمسان وقف
ضحك النور في رباه وأربى
وسما تاجها على كل تاج
يدعي غيرها الجمال فيقضي
وبشعري فهمت معنى علاها
حضرة زانها الخليفة موسى
وحباها بكل بذل وعدل
ملك جاوز المدى في المعالي
معقل للهدى منبع النواحي
قاتل المحل والأعداي
كلما ضنت السحاب أغنت
كم هبات له وكم صدقات
فأيادي خليفة الله موسى
ركب الجود في بسط يديه
جل باريه ملجأ للبرايا
جل من خصه بتلك المزايا
شيم حلوة الجنى وسجايا
يا إمام الهدى وشمس المعالي

غرس الحب غرسها في فؤادي
وعهود الصبا بصوب العهد
ومرآد المنى ، ونيل المراد
ومجر القنا ، ومجرى الحيات
وخصوصاً على ربي العباد
كهف ضحاكها على كل ناد
ونما وهدها على كل واد
حسنها أن تلك دعوى زياد
من حلاها فهمت في كل وادي
زينة الحلي عاطل الأجياد
وحماها من كل باغ وعاد
فالنهايات عنده كالمبادي
مظهر للعلاء رفيع العماد
جميعاً بفرار الظبي وغر الأيادي
راحتاه عن السحاب الغوادي
عائدات على العفاة بواد
أبحر عذبة على الورد
فتلافى به تلاف العباد
كالخيا ضامناً حياة البلاد
باهرات من طارف وتلاد
شهد المجد أنها كالشهاد
وغمام الندى وبدر النادي

لَكَ بَيْنَ الْمُلُوكِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ مَعْنَاهُ لِلْعُقُولِ بِيَادِ
فَكَأَنَّ الْبِلَادَ كَفْكَكَ مَهْمَا كَانَ فِيهَا مِنْ يَتَمَيَّ لِعِنَادِ
قَبَضْتَ كَفْكَ الْبِنَانَ عَلَيْهِ فَأَتَى بِالْإِذْعَانِ حِلْفَ انْقِيَادِ
بِكُمْ تَصْلَحُ الْبِلَادُ جَمِيعاً إِنَّ آرَاءَكُمْ صِلَاحُ الْبِلَادِ
لَمْ تَزَلْ دَائِماً تَحْنُ إِلَيْكُمْ كَحَنَنِ السَّقِيمِ لِلْعُودِ
لَوْ أُعِينَتْ بِمَنْطِقٍ شُكْرَتَكُمْ مِثْلَ شُكْرِ الْعَفَاةِ لِلْأَجْوَادِ
قَدْ أَطَاعَتْكُمْ الْبِلَادُ جَمِيعاً طَاعَةً أَرَغَمَتْ أَنْوْفَ الْأَعَادِ
فَأَرْبَحُوا الْجِيَادَ أَنْعَبْتُمُوهَا وَأَقْبَرُوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ
وَاهْنَأَوْ خَالِدِينَ فِي عِزِّ مَلِكٍ قَائِمِ السَّعْدِ دَائِماً الْإِسْعَادِ
وَالِإِيكُم مِّنْ مُّذْهَبَاتِ الْقَوَافِي حِكْماً سَهَّلَتْ لِبَانِ الْمَقَادِ
كُلَّ بَيْتٍ مِنَ النِّظَامِ مُشِيدٍ عَطَّرَ الْأَفْقَ بِالثَّنَاءِ الْمَجَادِ
ذُو ابْتِسَامٍ كَزَهْرِ رَوْضٍ مَّجُودٍ وَانْتَظَامٍ كَسَلَكِ دَرِّ مَجَادِ

ولأبي المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب « المقدمة الآجرومية » قصيدة
في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع ، فلا ندري أيهما
نسج على منوال الآخر : إذ هما متعاصران ، إلا أن ذاك قالها في تلمسان ، وهذا في
مدينة فاس ؛ وهي :

أَيُّهَا الْعَارِفُونَ قَدَّرَ الصَّبُوحُ جَدَّ دَوَا أَنْسَنَا بِيَابِ الْفَتْوحِ

يعني بِيَابِ الْفَتْوحِ أَحَدَ أَبْوَابِ فَاسَ ، كَمَا أَنَّ بَابَ الْجِيَادِ فِي كَلَامِ الثَّغْرِيِّ
أَحَدُ أَبْوَابِ تَلْمَسَانَ .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ آجُرُومٍ بَعْدَ الْمَطْلَعِ :

جَدُّوْا ثُمَّ اُنْسَا ثُمَّ جَدُّوْا
 حَيْثُ شَابَتْ مُفَارِقُ اللَّوْزِ نَوْرًا
 وَبَدَا مِنْهُ كُلُّ مَا احْمَرَّ يَحْكِي
 وَكَأَنَّ الَّذِي تَسَاقَطَ مِنْهُ
 وَإِذَا مَا وَصَلْتُمْ لِلْمُصَلِّي
 وَبَطِيْفُورِهَا فَطُوفُوا لِكَيْمَا
 وَلِتَقِيْمُوا هُنَاكَ لِمَحَّةٍ طَرَفٍ
 ثُمَّ حَطُوا رِحَالَكُمْ فَوْقَ نَهْرٍ
 فَوْقَ حَافَاتِهِ حَدَاتٍ خَضِرٌ
 وَكَأَنَّ الطَّيْرَ فِيهَا قِيَانٌ
 وَهِيَ تَدْعُوكُمْ إِلَى قَبَةِ الْجَوْ
 فِيهِ مَا تَشْتَهُونَ مِنْ كُلِّ ثَوْرٍ
 وَغَصُونٍ تَهِيحُ رَقْصًا إِذَا مَا
 فَأَجْبِيُوا دَعَاءَهَا أَيُّهَا السَّر
 وَاجْنَحُوا لِلْمَجْنُونِ فَهُوَ جَدِيرٌ
 وَأَخْلَعُوا ثُمَّ لِلتَّصَابِي عِذَارًا
 وَإِذَا شَتَّمُ مَكَانًا سِوَاهُ
 فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ لِنَحْوِ خَلِيجٍ
 عَطَرَتْ جَانِبَيْهِ كَفُّ الْغَوَادِي
 قُلْ لِمَهْيَارٍ إِنْ شَمَمْتَ شَذَاهَا
 أَيْنَ هَذَا الشَّذَا الذَّكِيَّ مِنَ الْقِيَمِ
 حَبَّذَا ذَلِكَ الْمَهَادُ مَهَادًا
 ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَهَادُ أَفِيضُوا

يَسْرَحُ الطَّرْفُ فِي مَجَالٍ فَسِيحٍ
 وَتَسَاقُطُنَ كَاللَّجَيْنِ الصَّرِيحِ
 شَفَقًا مَزَقَتْهُ أَيْدِي الرِّيحِ
 نُقْطُ لُحْنٍ مِنْ دَمٍ مَسْفُوحِ
 فَتَحْلُوا بِمَوْضِعِ التَّسْبِيحِ
 تَبْصُرُوا مِنْ ذَرَاهِ كُلِّ سَطُوحِ
 لَتَرُدُّوْا بِهِ ذَمَاءَ الرُّوحِ
 كَلَّ فِي وَصْفِهِ لِسَانُ الْمَدِيحِ
 لَيْسَ عَنْهَا لِعَاشِقٍ مِنْ نَزْوَحِ
 هَضْبَتُ بَيْنِ أَعْجَمٍ وَقَصِيحِ
 زِلْ هَلُمُّوْا إِلَى مَكَانٍ مَلِيحِ
 مَغْلَقٍ فِي الْكِمَامِ أَوْ مَفْتُوحِ
 سَمِعْتَ صَوْتَ كُلِّ طَيْرٍ صَدُوحِ
 بٌ وَخَلُّوْا مَقَالَ كُلِّ نَصِيحِ
 وَخَلِيقٌ مِنْ مِثْلِكُمْ بِالْجَنُوحِ
 إِنْ خَلَعَ الْعِذَارُ غَيْرُ قَبِيحِ
 هُوَ أَجْلَى مِنْ ذَلِكَ فِي الْوَضُوحِ
 جَاءَ كَالصَّلِّ مِنْ قِفَارٍ فَسِيحِ
 بِشَذَا عَرَفٍ زَهْرَهَا الْمُنُوحِ
 قَوْلُ مُسْتَخْبِرٍ أَخِي تَجْرِيحِ
 صَوْمِ وَالرَّنْدِ وَالْغَضَا وَالشَّيْحِ
 بَيْنَ دَانٍ مِنَ الرَّبِيِّ وَنَزْوَحِ
 نَحْوِ هَضْبٍ مِنَ الْهَمُومِ مَزِيحِ

فيه الحسن دَوْحَةٌ وروايا
وحجارٌ تدعى حجارَ طبولٍ
تنثرُ الشمس ثم كلَّ غدوً
وسوى من هناك يسبي عقولا
وعيون بها تقرأ عيون
فرشت فوقها طنافسُ زهرٍ
كلما مرَّ فوقهنَّ طليحٌ
فانهضوا أيها المحبُّون مثلي
هكذا يربحُ الزمان وإلا

وانشراحٌ لذي فؤادٍ قريح
غيرَ أنَّ التطيل غيرُ صحيح
زعفراناً مبلاً بنضوح
ويجلِّي لحاظَ طرفِ طموح
وكلاها يأسو كلومَ الحريح
ليس كالعهنِ نسجها والمسوح
عاد من حسنهنَّ غيرَ طليح
لرى ذاتَ حُسْنها الملموح
كلَّ عيش سواه غيرُ ربيع

وما أحسن قول الكاتب الثغري بمدح تلمسان والسلطان المذكور آنفاً :

تاهت تلمسانٌ بحسنِ شبابها
فالبشر يبدو من حجابِ ثغورها
قد قابلت زُهرَ النجوم بزُهرها
حسنت بحسنِ مليكها المولى أبي
ملكٌ شمائله كزهرِ رياضها
أعلى الملوك الصَّيد من أعلامها
غارَتْ بغرة وجهه شمسُ الضحى
والبدرُ حينَ بدتْ أشعتها له
للهِ حضرته التي قد شَرَّفَتْ
فاللهم في يَمَناه يُبلغها المنى

وبدا طرازُ الحسنِ في جلبابها
متبسماً أو من ثغورِ حبابها
وبروجها بيروجها وقبابها
حمو الذي يحمي حمى أربابها
ونَداه فاضَ بها كفيضِ عبابها
وأجلَّها من صفوها ولُبابها
وتنقبت خجلاً بثوبِ ضبابها
حسناً تضاءلَ نوره وخبأ بها
خُدَّامها فسمَّوا بخدمة بابها
والمدحُ في علياه من أسبابها

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو ،

ووصف بلاد تلمسان ، وأجاد فيها إلى الغاية ؛ وهي ^١ :

قم مبصرًا^٢ زمنَ الربيعِ المقبلِ
وانشقْ نسيمَ الروضِ مظلولا^٣ وما
وانظرْ إلى زهرِ الرياضِ كأنه
في دولةٍ فاضتْ يداها بالندى
بسطتْ بأرجاءِ البسيطةِ عدلها
سلطانها المولى أبو حمو الرضى
تاهتْ تلمسانُ^٤ بدولتهِ على
راقتْ محاسنها ورقَّ نسيمها
عرجَ بمنعرجاتِ بابِ جياها
ولتغدُ للعبادِ منها غدوةً
وضريحُ تاجِ العارفينِ شعبيها
فمزاره للدين والدُّنيا معاً
وبكفها الضحكَّ قفْ منترها
وتمشْ في جنباتها ورياضيها
تسليك في دوحاتها وتلاعها
وبربوةِ العشاقِ سلوةُ عاشقِ
بنواسمٍ وبواسمٍ من زهرها
فلو امرؤُ القيسِ بن حجر راءها

تَرَ ما يسرُّ المُجتني والمُجتلي
أهداك من عَرَفٍ وعُرْفٍ فاقبل
درُّ^٣ على لَبَّاتِ رَبَّاتِ الحلي
وقضتْ بكل مئى لكل مؤمل
وسطتْ بكل معاندٍ لم يعدل
ذو المنصبِ السامي الرفيع المعتلي
كلَّ البلاد بحسنِ منظرها الحلي
فحلا بها شعري وطاب تغزلي
وافتح بها بابَ الرجاءِ المُقفل
تصبحُ همومُ النفسِ عنك بم عزل
زُرهُ هناكَ فحبذا ذاكَ الولي
تُمحى ذنوبك أو كروبك تنجلي
تسرحُ نفوسك في الجمال الأجل
واجنحْ إلى ذاكَ الجَنابِ المخضل
نَغَمُ البِلابلِ واطِّرادُ الجدل
فتنت وألحاظُ الغزال الأكل
تهديك أنفاساً كعَرَفِ المندل
قدماً تسلى عن معاهدٍ مأسل

١ القصيدة في بغية الرواد ١ : ١٣ .

٢ البغية : نحتل .

٣ البغية : درر .

٤ البغية : جفونك .

أو حامٍ حولَ فِنائِها وظبائِها
فاذكر لها كلّفي بسقطِ لوائِها
كم جاد لي فيها الزمانُ بمطلبِ
واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً
وادِ تراه من الأزاهر خالياً
ينسابُ كالأيّامِ انسياباً دائماً
فزلاله في كلِّ قلبٍ قد حلا
واقصدْ بيومِ ثالثِ فوّارةٍ
تجري على درٍّ بلجناً سائلاً
واشرف على الشرفِ الذي يلازئها
تاجٌ عليه من المحاسنِ بهجةٌ
وإذا العشيّةُ شمسها مالتْ فملْ
وبلعب الخيلِ الفسيحِ مجاله
فلحلبة الأشرافِ كلَّ عشيّةٍ
فترى المجلي والمصلي خلفه
هذا يكرّ وهذا يفرّ فيثنى
من كلِّ طرفٍ كلَّ طرفٍ يستبي
ورَدُّ كان أديمه شفقُ الدُّجى
أو من كُميتٍ لا نظيرَ لحسنه
أو أحمرٍ قاني الأديمِ كعسجدِ
أو أدهمِ كالليلِ إلا غرّةً
جمع المحاسنَ في بديعِ شَيّاته
عقبانُ خيلٍ فوقها فرسانها
فرسانُ عبدِ الوادِ آسادُ الوغى

ما كانَ محتفلاً بحومة حومل
فهوأي عنها الدهرُ ليس بمنسل
جادته أخلافُ الغمامِ المُسبل
وبه تسلّ وعنه دأباً فاسأل
أحسنَ به عطُلاً وغيرَ معطل
أو كالحسامِ جلّاه كفُ الصيّقل
وجماله في كلِّ عينٍ قد جلي
وبعذب منهلها المباركِ فأنهل
أحلى وأعذبَ من رحيقِ سلسل
لترى تلمسانَ العليّةِ من علّ
أحسنَ بتاجِ بالبهاءِ مكلّل
نحو المصلّي ميلةَ التمهّل
أجلِ النواظرِ في العتاقِ الحفّل
لعبٌ بذاك الملعبِ المتسهّل
وكلاهما في جريه لا يأتي
عطفاً على الثاني عنانِ الأول
قيدِ النواظرِ فتنةِ المتأمل
أو أشهبُ كشهابِ رجمِ مرسل
سامٍ معمٍ في السوابقِ مَحْوُل
أو أشقرٍ يزّهو بعرفِ أشعل
كالصبحِ ، بورك من أغرِ محجّل
مهما ترقّ العينُ فيه تسهل
كالأسدِ تنقضُ أنقضاضِ الأجل
حامو الذمارِ أولو القحارِ الأطول

فإذا دنت شمسُ الأصيلِ لغربها
 من بابٍ ملعبها لبابٍ حديدِها
 وتأنَّ من بعدِ الدخولِ هنيهةً
 فهو المؤمِّلُ والديارُ كنايةً
 فإذا أميرُ المؤمنين رأته
 فالمجدُ لفظٌ في الحقيقة مجملٌ
 بشرى لعبدِ الواد بالملك الذي
 بأعزهم جاراً ، وأمنهم حمى
 بالعدل المستنصر المنصورِ وال
 وكفاهمُ سعداً أبو حمو الذي
 وبحسن نيته لهم ويحمده
 ذو الهمة العليا التي آثارها
 بحر الندى الأخلى وفخر المتدى
 ينهلُ منه لنا الجدا وبه الدجى
 هنيء به زمن الربيع وقل له
 وعلى علاه من صنعة فضله

وكأنه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرِها وروياها في مدح مدينة فاس
 لبعض العلماء ، وأظنه القاضي المزدغي ، وهي :

يا فاسُ حيا الله أرضك من ثرى
 يا جنة الدنيا التي أريت على
 غرفٌ على غرفٍ ويمرّ تحتها
 وبساتنٌ من سندسٍ قد زُحرفت
 وبجامع القروين شُرف ذكره
 وسقاك من صوب الغمام المسبيل
 حمص بمنظرها البهي الأجل
 ماء ألدُّ من الرحيق السلسل
 يبدول كالأيام أو كالقيصل
 أنس بذكره بهج تمللي

وبصّحته زمن المصيف عجائب^١ فمع العشي^٢ الغرب فيه استقبل
واشرب بتلك الليلة^٣ الحسناء به واكرع^٤ بها عني فديتك وانهل

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل^٥ :

بكد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه الطاووس^٦
فكأنما الأنهار فيه مدامة^٧ وكأن ساحات الديار كؤوس^٨

وما أحسن قوله - أعني لسان الدين - في مدح تلمسان^٩ :

حيّا تلمسان الحيا فربوعها صدف^{١٠} يجود بدره المكنون^{١١}
ما شئت من فضل عميم إن سقى أروى ومن ليس باليمنون^{١٢}
أوشئت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالدون^{١٣}
وردد النسيم لها بنشر حديقة قد أزهرت أفنانها بفنون^{١٤}
وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت^{١٥} فلها الشفوف على عيون العين

يعني بحبيبة أم يحيى عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت
جارية بالقصور السلطانية ، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء
لله تعالى وحده .

وممن مدح تلمسان الحاج الطيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير
بالتلاسي رحمه الله تعالى ، إذ قال^{١٦} :

سقى الله من صوب الحيا هاطلاً وبلاً ربوع تلمسان التي قد رها استعلى

١ قد شرحنا الليلة ، هامش : ١ مجلد : ١ ص : ٢٠٦ .

٢ مر البيتان والقول في نسبتها ، المجلد : ١ ص : ١٦٩ وانظر مشاهدات لسان الدين : ١١١ .

٣ أزهار الرياض ١ : ٧ .

٤ أورد له صاحب بنية الرواد عدداً من القصائد والموشحات في الجزء الثاني ؛ وهذه القصيدة في الجزء

الأول ص : ١٧ .

ربوعُ بها كانَ الشبابُ مُصاحبي
 فكم نلتُ فيها من أمانٍ قصيةٍ
 وكم غازلتني الغيدُ فيها تلاعباً
 وكم لَيْلَةً بَيْتُنا على رَغمِ حاسدٍ
 وكم لَيْلَةً بَيْتُنا بصفصيفها الذي
 وكديبةُ عشاقِ لها الحسنُ يَنْتَهي
 نَعَمْ ، وغديرُ الجوزةِ السالبُ الحجى
 ومنه ومن عَيْنِ أمٍ يحبِّي شراينا
 وعبادها ما القلبُ ناسٍ ذمامه
 به شِيعُنَا المذكور في الأرضِ ذكره
 لها بِهَجَّةٍ تُزري على كلِّ بلدةٍ
 فيا جَنَّةَ الدنيا التي راق حُسْنُها
 ولا عجبٌ أن كنتِ في الحسنِ هكذا
 ولاحتِ لدينا فيكَ منه "محاسن"
 مطاعٌ شجاعٌ في الوغى ذو مهابةٍ
 كريمٌ حَكِيمٌ حانمي نواله
 له راحةٌ كالغيثِ ينهلُ ودَقُّها
 هوَ الملكُ الأرقى هوَ الملكُ الرضى
 ومنَ هذه الأوصافُ فيه تجمعتْ
 إمامٌ حَبَاهُ اللهَ ملكاً مؤزراً
 مِن الزابِ وإفاناً عزيزاً مظفراً

جررتُ إلى اللذاتِ في دارها الذبلا
 وكم مَتَحَ الدهرُ الضنينُ بها النبلا
 وكم من عذولٍ لا أُطيعُ له قولاً
 نديراً كؤوسِ الوصلِ إذ بالصفاء تُملا
 تسامى على الأنهارِ إذ عدم المثلا
 يعود المسنُّ الشيخُ من حسنِها طفلاً
 نعمتُ بها طفلاً وهمتُ بها كهلاً
 لأنهما في الطيبِ كالليلِ بل أحلى
 به روضةٌ للخيرِ قد جُعِلَتْ حِلًّا
 أبو مدينٍ أهلاً به دائماً أهلاً
 بيتاجٍ عليها كالعروسِ إذا تُجلى
 فحازت على كلِّ البلادِ به الفضلا
 وموسى الإمام المرتضى فيكَ قد حَلَا
 كأنَّ سناها حاجبُ الشمسِ إذ جَلَّى
 حسامٌ على الباغين في الأرضِ قد سَلَا
 سعيدٌ حَمِيدٌ يصدقُ القولَ والفعلا
 وصارمٌ نصرٍ مرهفُ الحدِّ لا فُلا
 هوَ الملكُ الأسنى هوَ الملكُ الأعلى
 حقيقاً على كلِّ المعالي قد استولى
 فلا ملكٌ إلا لعزته ذلاً
 يجرُّ من النصرِ المنوطِ به ذبلاً

بدت إليك الغرب شدة بأسه
 فبادره بالصلح خوف فواته
 فكان بحمد الله صلحاً مهتاً
 له في المعالي رتبة لا ينالها
 لطاعته كل الأنام تبادرت
 أحساده موتوا فإن قلوبكم
 لقد جبر الله البلاد بملكه
 فلا زال هذا الملك فيه مخلداً
 وإنعامه للمعتفين وما أولى
 وسأله إذ كان ذاك به أولى
 به طابت الدنيا وجزنا به السبلا
 سواء وكُتِبَ في فضائله تُنلى
 فيا سعد من وافى ويا ويح من ولى
 يحمر الغضا ممّا بها أبداً تصلى
 به مُلِثُ أمتاً ، به مُلِثُ عدلاً
 وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى

ومما مُدحت به تلمسان قول الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس
 الذي قلّمنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به ، وذكرنا أيضاً فيما مرّ
 بعض أمداحه لها :

تلمسان جادتكَ السحابُ الروائحُ^١
 وسعّ على ساحاتِ بابِ جياها
 يطيرُ فؤادي كلّما لاحَ لامعُ
 ففي كلّ شفيرٍ من جفوني مائعُ
 فما الماء إلا ما تسحّ مدامعي
 خليلي لا طيفُ لعلوة طارقُ
 نظرتُ فلا ضوءٌ من الصبحِ ظاهرُ
 بحسّكما كُفّا الملامِ وسامحاً
 ولا تعذلاني واعذراني ققلما
 وأرستَ بيّاديكِ الرياحُ اللواقحُ
 ملّثُ يصافي تربّها ويصافحُ
 وينهلُ دمعي كلّما ناحَ صادحُ
 وفي كلّ شطيرٍ من فؤادي قاذحُ
 ولا النارُ إلا ما تُجِنُ الجوانحُ
 بليلٍ ولا وجهٌ لصبحي لائحُ
 لعيني ولا نجمٌ إلى الغربِ جانحُ
 فما الخُلُ كلُّ الخُلُ إلا المسامحُ
 يردُّ عنائي عن عليّة ناصحُ

١ وردت القصيدة في بنية الرواد : ١١ .

٢ البنية : الدوالح .

كتمتُ هواها ثم بَرَحَ بي الأسي
لساقيةِ الروميّ عندي مزيةٌ
فكَمْ لي عليها من غدوٍ وروحةٍ
فطرفُ على تلك البساتين سارحٌ
تَحَارُّ بها الأذهانُ وهي ثواقبُ
ظباءٍ مغانيها عَوَاطٍ عواطفُ
تقتلهم فيها عيونُ نواظرُ
على قريةِ العبادِ مني تحيةٌ
وجادَ ثرى تاجِ المعارفِ ديمةٌ
إليك شعيب بن الحسينِ قلوبُنَا
سعبتُ فما قصّرتَ عن نيلِ غايةِ
نسيتُ وما أنسى الوريطةَ ووقفةُ
مطلاً على ذاك الغديرِ وقد بدت
أماؤك أم دمي عشيةَ صدقت
لئن كنتَ ملأناً بدمي طافحاً
وإن كان مُهْرِي في تلاعك سائحاً
قراحُ أنى ينصبُّ من رأسِ شاهقِ
أرقُ من الشوقِ الذي أنا كاتمُ
أما وهوى من لا أسميه إنني
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي
لبعتُ رشادي فيه بالغى ضلّةً
وأى مقامٍ ليس لي فيه حاسدُ

وكيفَ أطيقُ الكَمَّ والدمعُ فاضحُ
وإن رغمتُ تلك الرواسي الرواشحُ
تُساعدي فيها المني والمنايحُ
وطرفُ إلى تلك الميادين جامحُ
وتَهفو بها الأحلامُ وهي بوارحُ
وطيرُ مجانيها شوادٍ صوادحُ
وتبكيهم منهم عيونُ نواضحُ
كما فاحَ من مسك اللطيمة فائحُ
تَغصُّ بها تلك الرُبى والأباطحُ
نوازعُ لكنَّ الجسومَ نوازحُ
فسعيك مشكورٌ وتجرك رابحُ
أنافعُ فيها روضه وأفاوحُ
لإنسانٍ عيتي من صفاه صفائحُ
عليه فينا ما يقولُ المُكاشحُ
فلاني سكرانٌ بحبك طافحُ
فذاك غزالي في عبابك سابحُ
بمثلِ حلاه تستحثُّ القرائحُ
وأصفي من الدمع الذي أنا سافحُ
لعرضي كما قال النصيحُ لناصحُ
يُقالُ فلانٌ ضيقُ الصدرِ بائحُ
وكم صالحٍ مثلي غدا وهو طالحُ
وأى مقالٍ ليس لي فيه مادحُ

أَلَا قُلْ لِفَرَسَانِ الْبَلَاغَةِ أَسْرَجُوا
 أَيْخَمْلُ ذَكَرِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ نَابَهُ
 بِدُورٍ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ كَوَامِلُ
 تَرَكْتُكَ سَوْقَ الْبِزْ لَا عَنْ تَهَاوُنٍ
 وَإِنِّي وَقَلْبِي فِي وَلَائِكَ طَامِعُ
 أَيَا أَهْلَ وَدِّي وَالْعَشِيرُ مُؤَمِّنُ
 وَهَلْ ذَلِكَ الظُّبْيُ النَّصَاحِيُّ لِلَّذِي
 كُنَيْتُ بِهَا عَنْهُ حَيَاءٌ وَحُشْمَةٌ
 فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنِّي الْمَكَافِي الْمَكَافِحُ
 وَيُغْمَطُ شَجْوِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ شَائِعُ
 وَأَسْنَدُ إِذَا لَاحَ الصَّبَاحُ كَوَالِحُ
 وَكَيْفَ وَظِي سَانِحٌ فَيْكَ بَارِحُ؟
 وَنَاطِرُ وَهْمِي فِي سَمَاطِكَ طَامِحُ
 أَتَقْضِي دِيُونِي أَمْ غَرِيمِي فَالِحُ
 يَقْطَعُ مِنْ قَلْبِي بَعَيْنِيهِ نَاصِحُ
 وَوَجْهُ اعْتِدَارِي فِي الْقَضِيَّةِ وَاضِحُ

[تعريف بتلمسان]

وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها التمايم ، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقرئ بن علي صاحب الشيخ أبي مدين ، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء ، حسبما قال ابن مرزوق :

بكفك منها ماؤها وهوؤها

وقال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشاخصة الأطواد » بعد كلام في شأن البربر ، ما صورته ^١ : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ، كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي ، رحمه الله تعالى ، وكان

١ بغية الرواد ١ : ٩ / ١٩ .

حافظاً بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » ، وهو أيضاً مركَّب من « تلم »^١ ومعناه لها ، و « شان » أي لها شأن ، وهي مدينة عريقة في التمدن ، لذينة الهواء ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودُوَيْنَ^٢ رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب ، عروساً فوق منصّة ، والشماريخ مشرقة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها^٣ على فحوص أفْيَحَ معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى ، وتقر في بطونه عند تلميث الغمام بطون العذارى^٤ ، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، ممّا زخرفت عروشه ، ونمّقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأحجل الرصافة ، وعبث بالسدير . وتنصبّ إليها من عل أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي المذانب والأصراب المكفورة^٥ خلاها ، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقي ريعه^٦ خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب ، فهي التي سحرت الألباب رواء ، وأصبت الشهيّ جمالاً^٧ ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إيّاه عندي^٨ :

ما جنةُ الخلدِ إلا في منازلكم وهذه كنتُ لو خيَّرتُ اختارُ

١ البغية : تل .

٢ البغية : ودون .

٣ البغية : تطل منه .

٤ البغية : العذارى . والمدارى : الأراضي التي لم توطأ .

٥ المكفورة : المستورة .

٦ البغية : بساتينها .

٧ جمالا : سقطت من البغية .

٨ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .

لَا تَتَّقُوا بَعْدَهَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا فَلَيْسَ تَدْخُلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

وتوسطت قطراً ذا كُورٍ عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب ، مريعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلاحة ، زاكية الإضابة ، فربما انتهت في الزَّوْجِ الواحد منها إلى أربعمئة مد كبير ، ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور .

ومما يُنسب للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته :
تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشمه وأعلاجه ، عبادها يدها وكهفها كفها ، وزيتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها المملود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد ، حجبتها أيدي القلعة عن الجنوب ، فلا نُحول فيها ولا شحوب ؛ خزائن زرع ، ومسرحة ضرع ، فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رفاق رفاع ، إلا أنها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصيِّد في جوف الفرا ، مغلوبة للأمرأ ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحه ، إلا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلا فيما بين الأقارب ، ولا شطارة ، إلا فيمن ارتكب الخطارة ؛ انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتاباً ممتعاً أسميته بـ «أنواء نيسان في أنباء تلمسان» وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدُّ الرِّواق ، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز ، وها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية ، وفي علم الله تعالى ما لا نعلم ، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم ، والله تعالى يحتم لنا بالحسنى بجاه نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم .

وبها ولدت أنا وأبي وجددي وجد جدي ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلْتُ عنها في زمن الشيبية إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف ، إلى أن ارتحلْتُ عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبْتُ منها إلى مصر أواخر شوال من العام ، وشرعت في هذا المؤلف بالقعدة من العام .

[ترجمة أبي مدين]

وقد تخرَّج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضب ، ويكفيها افتخاراً دَفَنُ وليِّ الله سيدي أبي مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمد ابن التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان الشيخ سيدي أبو مدين فرداً من أفراد الرجال ، وصدرأ من صدور الأولياء الأبدال ، جَمَعَ الله له علم الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هادياً وداعياً للحق ، فقصده بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلي وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصاً مقام التوكل ، لا يُشَقُّ غباره ، ولا تُجهل آثاره ، قال التادلي : كان مبسوطاً بالعلم ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنه رآه

١ انظر نيل الابتهاج : ١٠٧ فأكثر هذه الترجمة منقول عنه .

في آخر الرمتى يقول : الله الحق . وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ، خصوصاً جامع الترمذي ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبي ذر ، وكان يلزم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت ، وله مجلس وعظ يتكلم فيه ، فتجتمع عليه الناس من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف تسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيراً ما يموت بمجلسه أصحاب الحب ، تخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلاً ، ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبي الحسن ابن حرزم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن ابن غالب . وذكر عنه أنه قال : كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أنخذ ماوى للعمل بما فُتح به عليّ ، فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأوي إليّ وتؤنسني ، وكنت أمرّ في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حولي ، ويبصبصون لي ، فبينما أنا يوماً بفاس إذا برجل من معارفي بالأندلس سلّم عليّ ، فقلت : وجبت ضيافته ، فبعت ثوباً بعشرة دراهم ، فطلبت الرجل لأدفعها له ، فلم أجده هناك ، فخليتها معي ، وخرجت لخلوتي على عادتي ، فمررت بقريتي ، فتعرض لي الكلاب ، ومنعوني الجواز ، حتى خرج من القرية من حال بيني وبينهم ، ولما وصلت لخلوتي جاءني الغزالة على عادتها ، فلما شمتني نفرت عني ، وأنكرت عليّ ، فقلت : ما أوتي عليّ إلا من أجل هذه الدراهم التي معي ، فرميتها ، فسكنت الغزالة ، وعادت لحالها معي ، ولما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي ، ولقيت الأندلسي ، فدفعتها إليه ، ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة ، فدار بي كلابها وبصبصوا على عادتهم ، وجاءني الغزالة فشمتني من

مفرقي لقدمي ، وأنست بي كعادتها ، وبقيت كذلك مدة ، وأخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ ، وكراماته يتداولها الناس وتُنقل إليّ ، فملاً قلبي حبه ، فقصدته مع جماعة الفقراء ، فلمّا وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني ، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجهدني الجوع ، وتغيرت من خواطر ترد عليّ ، ثم قلت في نفسي : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان ، فقام ، ومرغت وجهي فقامت وأنا لا أبصر شيئاً ، وبقيت طول ليلتي باكياً ، فلمّا أصبح دعاني وقرّني ، فقلت له : يا سيدي ، قد عيبت ولا أبصر شيئاً ، فمسح بيده على عيني ، فعاد بصري ، ثم مسح على صدري ، فزالت عني تلك الخواطر ، وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء القريضة ، فأذن لي وقال : ستلقى في طريقك الأسد فلا يرُعك فإن غلب خوفه عليك فقل له : بجرمة يدنونا إلا انصرف عني ، فكان الأمر كما قال . فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوار الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرّف في عرفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني ، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيراً من أسرارهِ ، وحلاه بملابس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعدّه أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت في النوم قائلاً يقول : قل لأبي مدين : بُثّ العلم ولا تُبال ، ترنع غداً مع العوالي ، فإنك في مقام آدم أبي الذراري ، فقصصتها عليه فقال لي : عزمت على الخروج للجبال والفيافي حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم ، وتأمرني بالجلوس ، فقولك « ترنع غداً مع العوالي » إشارة لحديث «خلق الذكر مراتع أهل الجنة» ، والعوالي : أصحاب عليين ، ومعنى قوله «أبي الذراري» أن آدم أُعطي قوة على النكاح

١ التشوف : يلنور .

وأمر به ، ولم يجعل له قوّة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببيته وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أنبأنا موفقين .

وكان يقول : كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : سمعت سيدي أبا مدين يقول : أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يا رب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يا رب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .

وعن سيدي أبي العباس المرسى : جلّنتُ في ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدي أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علومي أحد وسبعون علماً ، وأما مقامي فإربع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضي الله عنه عما خصّه الله تعالى به ، فقال : مقامي العبودية ، وعلومي الألوهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سري وجهري ، وأضاء بنوره بّري وبحري ، فالمقرب من كان به علماً ، ولا يسمو إلاّ من أوتي قلباً سليماً ، الذي يسلم ممّا سواه ، ولا يكون في الوعاء إلاّ ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ﴿ وتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (النمل : ٨٨) .

وسئل عن الحياء ، فقال : أوّله دوام الذكر ، وأوسطه الأنس بالمذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر ولي أم نبي ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبيّ صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلم : الخضر نبي ، وأبو مدين ولي .

وذكر التادلي^١ وغيره أن رجلاً جاءه ليعترض عليه ، فجلس في الحلقة ، فأخذ صاحبُ الدولة في القراءة ، فقال له أبو مدين : أمهل قليلاً ، ثم التفت للرجل ، وقال له : لِمَ جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك ، فقال له : ما الذي في كحك ؟ قال له : مصحف ، فقال له : افتحه واقرا في أول سطر يخرج لك ، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف : ٩٢) فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلى حاله .

وذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب ، فرأى أسداً افترس حماراً وهو يأكله ، وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة ، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد ، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واستعمله في الخدمة موضع حمارك ، فقال له : يا سيدي أخاف منه ، فقال : لا تخف ، لا يستطيع أن يؤذيكَ ، فمرَّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه ، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له : يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبتُ ، وأنا شديد الخوف منه ، لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد ، ومتى آذيتُم بني آدم سلطتهم عليكم .

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشياً يوماً على ساحل ، فأسره العدو ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين ، فلما استقرَّ في السفينة توقفت عن السير ، ولم تتحرك من مكانها ، مع قوة الريح ومساعدتها ، وأيقن الروم أنهم لا يقدرُون على السير ، فقال بعضهم : أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى ، وأشاروا له بالتزول ، فقال : لا أفعل إلاّ إن أطلقتم جميع مَنْ في السفينة من الأسارى ، ففعلوا أن لا بد لهم من ذلك ،

١ التشوف : ٣٢٣ .

فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة في الحال .

ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بحاية في حديث « إذا مات المؤمن أُعطي نصف الجنة » وأشكل عليهم ظاهره : إذ بموت مؤمنين يستحقان كل الجنة ، فجاءوا إليه وهو يتكلم على رسالة القشيري ، فكاشفهم في الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنه يعطي نصف جنته هو ، فيكشف له عن مقعده ليتنعم به وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .
وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال : سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء ، وكان رجل يأتيني عند صدع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليلة في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال عليّ الليل في انتظاره ، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألني وانصرف ، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي : صلينا الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح^١ ، فأعدنا معهم ، وجلسنا^٢ حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له : كذلك كان شيعي يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتيناك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أما إعادة الصبح بمكة فلائنها بها عين اليقين ، وببغداد علم اليقين . وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة - وهي أم القرى - فلذلك لا تعاد في غيرها ، قال : فقنعا به وانصرفا .

وكان استوطن بحاية ويقول : إنها معينة على طلب الحلال ، ولم يزل بها

١ ق : فوجدناهم في الظهر في صلاة الصبح .

٢ نيل الابتهاج : فبقينا .

يزداد حاله على مر الليالي رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ،
وينخبز بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب
المنصور ، وقال له : إنّا نخاف منه على دولتكم ، فإن له شَبَهًا بالإمام المهدي ،
وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع في قلبه وأهمته شأنه ، فبعث إليه في القدوم
عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء ، وأن يُحمَل خير
محمل ، فلما أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا^١ ، فسكتهم
وقال لهم : إن منيتي قربت ، وبغير هذا المكان قدرت ، ولا بد لي منه ، وأنا
شيخ كبير ضعيف^٢ ، لا قدرة لي على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يحملي إليه
برفق ، ويسوقني إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت
نفوسهم ، وذهب بوسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن
حال ، حتى وطئوا به حَوْزَ تلمسان ، فبَدَت له رابطة العباد ، فقال لأصحابه :
ما أصلحه للرقاد ، فمرض مرض موته ، فلما وصل وادي يسر اشتد به المرض ،
ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق .

وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسائة ، فحُمِل إلى العباد ،
مدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجنازته ، فكانت من المشاهد العظيمة ،
والمحافل الكريمة ، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الحباك ، وعاقب الله
تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد
زرته مئين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله .

وقد أطلال في ترجمته التادلي في كتابه « التشوف لرجال التصوف »^٣ وقد

١ وتكلموا : سقطت من نيل الابتهاج .

٢ نيل الابتهاج : وقد كبرت وضعت .

٣ انظر هذا الكتاب ص : ٣١٦ - ٣٢٥ .

أفردها ابن الخطيب القسطنطيني بتأليف سمّاه «أنس الفقير» .
 ومن كلامه : من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب
 الدنيا ابتلي فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجراً فهو خراب .
 وقوله : بفساد العامة تظهر ولاية الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجة
 الدين الفتانون .

وقوله : من عرّف نفسه لم يغرّب بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين
 ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خلقه ، وانكسار
 العاصي خير من صولة المطيع .

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق .
 وسئل عن المحو والشيخ ، فقال : المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك
 بالاحترام والتعظيم ، والشيخ مَنْ هداك بأخلاقه ، وأيدك بإطراقه ، وأثار
 باطنك بإشراقه ، إلى غير ذلك من كلامه النير ، وهو بحر لا ساحل له .

وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ، ومما يُنسب له قوله :

بكت السحابُ فأضحكت لبكائها	زهرَ الرياضِ وفاضتِ الأنهارُ
وقد آقلتُ شمسُ النهارِ بحلّةٍ	خَضْرَا ، وفي أسرارها أسرار
وأنى الربيعُ بخيله وجنوده	فتمتعتُ في حَسَنِ الأَبْصَارِ
والوردُ نادى بالورودِ إلى الجنى	فتسابقَ الأَطْيَارُ والأَشْجارُ
والكأسُ ترقصُ والعقارُ تشعّشتُ	والجوُّ يضحكُ والحبيبُ يُزارُ
والعودُ للغيدِ الحسانِ مجاوبُ	والطارُ أخفى صوتهُ المزمَارُ
لا تحسبوا الزمرَ الحرامَ مرادنا	مزمَارِنَا التَّسْبِيحُ والأَذْكارُ
وشرابنا من لطفه ، وغناؤنا	نعم الحبيبُ الواحدُ القهارُ
والعودُ عاداتُ الجميل ، وكأسنا	كأسُ الكياسة ، والعقارُ وقَارُ

فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل المات فدهركم غدار
والله أرحمُ بالفقير إذا أتى من والديه فإنه غفار
ثم الصلاة على الشفيع المصطفى ما ركت بلغاتها الأطيبار

ولأنما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به ، ولكونه شيخ
جدي ، فأنا في بركته لقول جدي : إنه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ، ولأننا
ذكرنا في هذا التأليف كثيراً من أنباء أبناء الدنيا ، فأردنا كفارة ذلك بذكر
الصالحين ، والله الموفق بمنه وكرمه ، آمين .

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستهدين به على المنهاج ، المتلقين أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراج الوهاج

اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون ، إلا أنه لم يُرزق السعادة في كثير منهم ، بل بارزوه بالعداوة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه .

١ - فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك^١ ، وارث مرتبته من بعده ، ومقتعد أريكة سعده ، وقد ألمع به في « الإحاطة » وكان إذ ذاك من جملة أتباعه ، إذ قال ما محصله : محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريح يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن زمرك .

أصله من شرقي الأندلس ، وسكن سلفه ربض^٢ البيازين من غرناطة ، وبه ولد ونشأ ، وهو من مفاخره .

حاله - هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها ، مختصر مقبول هش خلوب ، عذب الفكاهة حلو المجالسة ، حسن التوقيع خفيف الروح

١ ترجمة ابن زمرك في الإحاطة ٢ : ٢٢١ - ٢٤٠ والكتيبة : ٢٨٢ ونيل الابتهاج : ٢٨٢
ونثير فرائد الجمان : ٣٢٧ والتعريف : ٢٧٤ وجذوة الاقتباس : ١٨٤ والدرر الكامنة ٤ :
٤١٢ وأزهار الرياض ٢ : ٧ - ٢٠٦ ، وقد نقل بعض ما أورده ابن الخطيب في الإحاطة ، وما
جاء عنه في كتاب مستقل لابن الأحمر ، وسيكرر هذا في ترجمته هنا ، ولهذا أجريت المقارنة
بين ما ورد في النسخ والأزهار دون أن أشير إلى كل موضع على حدة .

٢ ق : روض .

عظيم الانطباع شره المذاكرة ، فطن بالمعاريض حاضر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة فكاهة غزل مع حياء وحشمة ، جواد بما في يده مشارك لإخوانه ، نشأ عفاً طاهراً ، كلفاً بالقراءة عظيم الدؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ظاهر النبيل ، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم ، فاشتهر فضله وذاع أرجه وفشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون ، وأصبح متلقف كرة البحث وصارخ الحلقة [وسابق الحلبة] ومظنة الكمال ، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وخاض لجة الحفظ ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع ، مستظهراً بالفنون التي بَعُدَ فيها شأوه من العربية والبيان [واللغة] وما يقذف به في لجج النقل من الأخبار والتفسير ، متشوقاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة ، ثم عانى الأدب فكان أملك به ، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد ، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعُرف في بابهِ بالإجادة . ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالآندلس ، واستقر بالمغرب ، أنس له وانقطع إليه ، وكر في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فلطف منه محله وخصه بكتابة سره ، وثابت الحال ودالت الدولة وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالة ، مضطرباً بالخطة خطأ وإنشاء ولسناً ونقداً ، فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته ، ووسع الناس تخلفه ، وأرضى للسلطان حملة ، وامتد في ميدان النظم والنثر بآه ، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة ، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد ، أعانه الله تعالى وسدده .

شيوخه - قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخار ،
ثم على القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني ،
والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد ابن لب ، واختص بالفقيه الخطيب
الصدر المحدث أبي عبد الله ابن مرزوق فأخذ عنه كثيراً من الرواية ، ولقي
القاضي الحافظ^١ أبا عبد الله المقرئ عندما قدم على الأندلس وذاكره ، وقرأ
الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي ، ويروي عن جملة منهم القاضي
أبو البركات ابن الحاج ، والمحدث أبو الحسين ابن التلمساني ، والخطيب أبو
عبد الله ابن اللوشي ، والمقريء أبو عبد الله ابن بيش ، وقرأ بعض الفنون العقلية
بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوي^٢ التلمساني ، واختص
به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة .

شعره - وشعره مترام إلى هدف الإجادة ، خفاجي النزعة ، كلف بالمعاني
البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به ، وهو من أول
ما نظمه قصيدة مطلعها :

أما وانصداع النور من مطلع الفجر

وهي طويلة .

ومن بدائع التي عقم عن مثلها قياس قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتها
الزهد بأويس^٣ ، ولم يخل مجاريه ومباريه إلا بويح ويؤس ، قوله في إعدار
الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه ، وهي من الكلام الذي غنيت الإجادة بتذهيبه
وتهذيبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه :

١ ق : الحافظ القاضي .

٢ سقطت هذه اللفظة من الإحاطة .

٣ هو أويس القرني من أوائل الزهاد في العصر الأموي .

مَعَاذِ الْهَوَى أَنْ أَصْحَبَ الْقَلْبَ سَالِيَا
دَعَانِي أَعْطِ الْحَبَّ فَضْلَ مَقَادِنِي
وَدُونَ الَّذِي رَامَ الْعَوَازِلُ صَبُوءَ
وَقَلْبٌ إِذَا مَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ مَوْهِنًا
خَلِيلِي لَنِي يَوْمَ طَارِقَةِ النَّوَى
وَبِالْخَيْفِ يَوْمَ الْفَرِّ يَا أُمَّ مَالِكٍ
وَذِي أَشْرِ عَذَابِ الثَّنَايَا مَخْصَرٍ
أَحُومٌ عَلَيْهِ مَا دَجَا اللَّيْلُ سَاهِرًا
يَضِيءُ ظِلَامُ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْلَعِي
أَجِيرَتَنَا بِالرَّمْلِ وَالرَّمْلُ مَتَزَلٌ
وَلَمْ أَرَ رَبْعًا مِنْهُ أَقْصَى لُبَانَةٍ
سَقَتْ طَلْعُ الْغُرِّ الْغَوَادِي وَنَظَّمَتْ
أَبْشَكُمُ أَنِّي عَلَى النَّاسِ حَافِظٌ
أُنَاشِدُكُمْ وَالْحُرُّ أَوْفَى بَعْدِهِ
هَلِ الْوَدُّ إِلَّا مَا تَحَامَاهُ كَاشِحٌ
تَأْوَبَنِي وَاللَّيْلُ يُذَكِّي عَيْونَهُ
وَقَدْ مَثَلَتْ زُهْرُ النُّجُومِ بِأَفْقِهِ
خِيَالٌ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ أَلَمْ بِي
عَجِبْتُ لَهُ كَيْفَ اهْتَدَى نَحْوَ مَضْجَعِي
رَفَعْتُ لَهُ نَارَ الصَّبَابَةِ فَاهْتَدَى
وَمِمَّا أَجَدَّ الْوَجْدَ سَرَبٌ عَلَى النِّقَا

وَأَنْ يَشْغَلَ اللَّوَامُ بِالْعَذْلِ بَالِيَا
وَيَقْضِي عَلَيَّ الْوَجْدُ مَا كَانَ قَاضِيَا
رَمْتُ بِي فِي شِعْبِ الْغَرَامِ الْمَرَامِيَا
قَدَحْتُ بِهِ زَنْدًا مِنَ الشُّوقِ وَارِيَا
شَقِيتُ بَعْنٍ لَوْ شَاءَ أَنْعَمَ بِبَالِيَا
تَخَلَّفَتْ قَلْبِي فِي حَبَالِكَ عَانِيَا
يَسْقِي بِهِ مَاءَ النِّعَمِ الْأَقَاحِيَا
وَأَصْبَحَ دُونَ الْوَرْدِ ظَمْآنَ صَادِيَا
إِذَا الْبَارِقُ النَّجْدِي وَهْنًا بَدَا لِيَا
مَضَى الْعَيْشُ فِيهِ بِالشَّبِيحَةِ حَالِيَا
وَأَشْجَى حَمَامَاتٍ ، وَأَحْلَى مَجَانِيَا
مِنَ الْقَطْرِ فِي جِيدِ الْغُصُونِ لَأَلِيَا
ذِمَامَ الْهَوَى لَوْ تَحْفَظُونَ ذِمَامِيَا
وَلَنْ يَعْدَمَ الْأَحْسَانُ وَالْخَيْرُ جَازِيَا
وَأَخْفَقَ فِي مَسْعَاهُ مَنْ جَاءَ وَاشِيَا
وَيَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِ الدُّجْنَةِ ضَافِيَا
حَبَابًا عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ طَافِيَا
فَأَذْكُرُنِي مَنْ لَمْ أَكُنْ عَنْهُ سَالِيَا
وَلَمْ يُبْقِ مِنِّي السَّقَمُ وَالشُّوقُ بَاقِيَا
وَخَاضَ لَهَا عَرْضَ الدُّجْنَةِ سَارِيَا
سَوَانِحُ يَصْقَلْنَ الطُّلَى وَالتَّرَاقِيَا

نزعن عن الألفاظ كلَّ مسدّد
 ولما تراءى السُّرْبُ قلتُ لصاحبي
 حذاركَ من سقمِ الجفونِ فإتتهُ
 وإنَّ أميرَ المسلمينَ محمّداً
 تضيءُ النجومَ الزاهراتِ خلالَهُ
 معالٍ إذا ما النجمُ صوّبَ طالباً
 يسابقُ علويَّ الرياحِ إلى التدى
 ويغضي عن العوراءِ إغضاءَ قادرٍ
 همامٍ يروعُ الأسدَ في حومةِ الوغى
 مناقبُ تسمو للفقارِ كأنما
 إذا استبقتُ الأملاكُ يوماً لغايةٍ
 بهرتُ فأخفيتُ الملوكَ وذكرها
 جَلوتَ ظلامِ الظلمِ من كلِّ معتدٍ
 هَدَيْتُ سَبِيلَ اللَّهِ مَنْ ضَلَّ رَشْدَهُ
 أَفَدْتُ وَحْيِي الْمَلِكِ مِمَّا أَفَدْتُهُ
 وقد عَرَفْتُ مِنْهَا مَرِينٌ سِوَايَا
 وكان أبو زَيْنَانَ جَيِّداً مَعْظَلاً
 لك الخَيْرُ لَمْ تَقْصُدْ بِمَا قَدْ أَفَدْتُهُ
 فما تُكْبِرُ الأملاكُ غَيْرَكَ آمراً
 ولا تُشْتَكِي الأيامُ مِنْ دَاءِ فِتْنَةٍ
 وأندلساً أوليتَ ما أَنْتَ أَهْلُهُ
 تَلَقَّيْتَ هَذَا الثَّغْرَ وَهُوَ عَلَى شَفَا
 ومن بعد ما ساءتْ ظُنُونٌ بِأَهْلِهَا

فغادرنَ أَفلاذَ القلوبِ دَوامِيسَا
 وأيقنتُ أَنَّ الحَبَّ ما عشتُ دَانِيسَا
 سَيُعْذِي بِمَا يُعْجِي الطَّيِّبَ المداوِيسَا
 لِيُعْذِي نَدَاهُ السَّارِيَاتِ الهوامِيسَا
 وينفثُ في روعِ الزمانِ المعاليَا
 مبالغها في العزِّ حَقَّقَ وانيسَا
 ويفضحُ جدوى راحتيهِ الغواديَا
 ويرجعُ في الحلمِ الجبالِ الرواسِيا
 كما راعتِ الأسدُ الظباءَ الجوازيَا
 تجاري إلى المجدِ النجومَ الجوازيَا
 أَبَيْتَ وَذَلِكَ المجدُ إِلَّا التناهيَا
 ولا عجبٌ فالشمسُ تخفي الدُراريَا
 ولا غَرَوُ أَنْ تجلوَ البُذورُ الدِياجِيا
 فلا زلتَ مَهْدِيّاً إِلَيْهِ وهاديَا
 وطوّقتُ أَشْرَافَ الملوكِ الأياديَا
 تُقَرُّ لَهَا بِالْفَضْلِ أُخْرَى اللَّياليَا
 فزَيْتُهُ حَتَّى اغْتَدَى بِكَ حَالِيا
 جزاءٌ ولكن هَمَّةٌ هِيَ مَا هِيا
 ولا ترهبُ الأشرافُ غَيْرَكَ ناهِيا
 فقد عرفتُ مِنْكَ الطَّيِّبَ المداوِيا
 وأوردتها ورداً مِنَ الأَمْنِ صافِيا
 وأصبحتَ مِنْ دَاءِ الحوادثِ شافِيا
 وحاموا على وَرْدِ الأمانِ صواديَا

فما يأمّلون العيشَ إلاّ تعلّلاً
 عطفت على الأيامِ عطفةَ راحمٍ
 فأنسَ من تلقائك الملكُ رُشدهُ
 وقفت على الإسلامِ نفساً كريمةً
 فرأيتُ كما انشقّ الصباحُ ، وعزيمةُ
 وكانت رماحُ الخطّ خُصماً ذوابلاً
 وأوردت صفحَ السيفِ أبيضَ ناصعاً
 لك العزمُ تستجلي الخطوبَ بهديه
 إذا أنت لم تفخرُ بما أنت أهلهُ
 ويهيبك دونَ العيدِ عيدٌ شرعتهُ
 أقمت به من فطرة الدينِ سنةً
 صنعُ تولى الله تشييدَ فخره
 تودُّ النجومُ الزهرُ لو مثلت به
 وما زال وجهُ اليومِ بالشمسِ مشرقاً
 على مثله فليعقد الفخرُ تاجه
 به تغمرُ الأنواءُ كلَّ مقوّه
 ويوسفُ فيه بالجمالِ مفتحُ
 وأقبلَ ما شاب الحياءَ مهابةً
 وأقدمَ لا هيباً الخُفْلَ واجماً
 شمائلُ فيه من أبيه وجدّه
 فيا علّقاً أشجى القلوبَ لو أنّنا
 جريت فأجريت الدموعَ تعطفاً
 وكم من وليّ دون بابك مخلص

ولا يعرفون الأمنَ إلاّ أمانياً
 وألبستها ثوبَ امتنانك ضافياً
 ونال بك الإسلامُ ما كان راجياً
 تصدّ عدوّاً عن حِمَاهُ وعادياً
 كما صقل القَيْنُ الحسامَ اليمانيا
 فأهلت منها في الدماءِ صواديها
 فأصدرته في الروحِ أحمرَ قانيا
 ويُلقي إذا تنبؤ الصوارمُ ماضياً
 فما الصبحُ وضّاحُ المشرقِ عالياً
 نبئتُ به في الخافقين التهانياً
 وجددت من رسم الهداية عافياً
 وكان لما أوليت فيه مجازياً
 وقضت من الزلفى إليك الأمانياً
 سروراً به والليلُ بالشهبِ حالياً
 ويسمو به فوق النجومِ مراقياً
 ويحدو به من كان بالقفر سارياً
 كأنّ له من كلِّ قلبٍ مُناجياً
 يقلّبُ وجهَ البدرِ أزهرَ باهياً
 ولا قاصراً فيه الخطأ متوانياً
 ترى العزَّ فيها مستكنّاً وبادياً
 فدينك بالأعلاقِ ما كنت غالياً
 وأطلعت فيها للسرورِ نواشياً
 يُفدّيه بالنفسِ النفيسةِ واقياً

وصيد من الحيّين أبناء قبيلة
 بهاليل غرّ إن أعدوا لفارة
 فوالله لولا أن توخيت سنة
 لكان بها للأعوجيات جولة
 وترك أوصال الوشيج مقصداً
 ولما قضى من سنة الله ما قضى
 أفضنا نهي منك أكرم منعم
 فيهن صفاح الهند والبأس والندی
 وبهي البنود الخافقات فإنها
 كآني به يشقي الصوارم والطبي
 كآني به قد توجّج الملك يافعاً
 وقضى حقوق الفخر في ميعّة الصبا
 وما هو إلا السعد إن رمت مطلعاً
 فلا زلت يا فخر الخلافة كافلاً
 ودُمت قريبر العين منه بغبطة
 نظمت له حرّ الكلام تائماً
 لآل بها تبأى الملوك نفاسة
 أرى المال يرميه الحديدان بالبل

تكفّ الأعادي أو تُبیدُ الأعاديا
 أعدوا صباح الحيّ أظلم داجيا
 رضيت بها أن كان ربك راضيا
 تُشيب من الغلب الشباب النواصيا
 وبيض الطبي حُمّر المتون دواميا
 وقد حسدت منه النجوم المساعيا
 أبى لعيم الجود إلا تواليا
 وسُمر العوالي والعناق المذاكيا
 سيعقدها في ذمة النصر غازيا
 ويحطم في اللأم الصلاب العواليا
 وجمّع أشات المسكارم ناشيا
 وأحسن من دين الكمال التقاضيا
 وسدّت سهماً كان ربك راميا
 ولا زلت يا خير الأئمة كافيا
 وكان له ربّ البرية واقيا
 جعلت مكان الدرّ فيها القوافيا
 وجلّت لعمرى أن تكون لآليا
 وما إن أرى إلا المحامد باقيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وقد الأحابيش
 بهدية من ملك السودان ، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمّى بـ « الزرافة » ، فأمر
 من يُعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض ، فقال وهي من بدائع :

لولا تَأَلَّقُ بَارِقِ التَّذْكَارِ
لكنه مهما تَعَرَّضَ خَافِقًا
وعلى المشوق إذا تذكّر معهدًا
أمدكري غرناطة حلت بها
كيف التخلّص للحديث وبيننا
هذا على أن التغرّب مركبي
فلکم أقمتُ غداة زُمت عيسهم
وظفقتُ أستقري المنازل بعدهم
إنّا بني الآمال نخدعنا المنى
نتجشم الأهوال في طلب العلا
لا يحز المجد الخطير سوى امرئ
إما يفاخر بالعتاد فقخره
مستبصر مرمى العواقب واصل
فأشد ما قاد الجهول إلى الردى
ولرب مربد الجوانح مزبد
فُتقت كمامتُ جناحه عن أنجم
مثلت على شاطي المجرة نرجسًا
وكانما بدر التمام يحنه
وكانما خمس الثريا راحة
أسرجت من عزمي مصابيحًا بها

ما صاب واكف دمي المذار
قدحت يد الأشواق زند أوري
أن يغري الأجفان باستعار
أيدي السحاب أزرة النوار
عرض الفلاة وطاقع الزخار
وتولج الفيح الفساح شعاري
أبني القرار ولات حين قرار
يمحو البكاء مواقع الآثار
فنخادع الآمال بالسيار
ونروع سرب النوم بالأفكار
يمطي الغزائم صهوة الأخطار
بالمشرفة والقنا الخطار
في حمله الإبراد بالإصدار
عمه البصائر لا عمي الأبصار
سبح الهلال بلجّه الزخار
سفرت زواهرهن عن أزهار
تصطف منه على خليج جاري
وجه الإمام بحفل جرار
ذرعت مسير الليل بالأسفار
تهدي المرأة لها من الأقطار

١ ق : ودوننا .

٢ ق : انفساح .

٣ ق والإحاطة : يمطي ، والصواب ما في الأزهار .

٤ ق : جملة .

وارتاعَ من بازي الصباحِ غرابُهُ
ولما أَطْلَ فطارَ كلَّ مطارٍ
ومنها :

وغريبةٍ قطعتُ إليك على الونى
تُنْسِيهِ طَيْتَهُ التي قد أمَّها
يقتادها من كلِّ مشتملٍ الدجى
تشدو بحمدِ المستعينِ حُداتها
إنَّ مَسَّهْمُ لَفْحِ الهجيرِ أبلَّهم
خاضوا بها لُحْجُ الفلا فتخلَّصتُ
سلمتُ بسعدك من غوائلٍ مثلها
وأنتك يا ملكَ الزمانِ غريبةٌ
مَوْشِيَّةُ الأعطافِ رائقةُ الحلَى
راقِ العيونِ أديمها فكأنه
ما بينَ مبيضٍ وأصفرٍ فاقعٍ
يحكي حداثقَ نرجسٍ في شاهقٍ
تحدوا قوائِمَ كالجنوعِ وفوقها
وسمتُ بجيدٍ مثل جذعٍ مائلٍ
تستشرفُ الجدران منه ترائباً
ناهتُ بكلكلها وأتلعَّ جيدُها
خرجوا لها الجَمَّ الغفيرَ ، وكلهم
كلُّ يقولُ لصحبه قوموا انظروا
أَلْقَتْ بيابك رحلها ولطالما
علمت ملوك الأرض أنك فخرها

بيداً تبيدُ بها همومُ الساري
والركبُ فيها مَيَّتُ الأخبارِ
وكأنما عيناهُ جذوةُ نارٍ
يتعلَّونَ بهِ على الأكوارِ
منهُ نسيمُ ثنائِكِ المعطارِ
منها خلوصُ البدرِ بعد سرارِ
وكفى بسعدك حامياً للدمارِ
قيدُ النواظِرِ نزهةُ الأبصارِ
رقمتُ بدائعها يدُ الأقدارِ
روضُ تفتحُ عن شقيقٍ بهارِ
سال اللجينُ بهِ خلالَ نُضارِ
تنسابُ فيه أرقامُ الأيامِ
جَبَلُ أَشْمُ بنوره متوارِ
سهلُ التعطفِ لَيْنِ خَوَارِ
فكأنما هو قائمٌ بمنسارِ
ومشى بها الإعجابُ مشيَ وقارِ
متعجبٌ من لطفِ صنعِ الباري
كيفَ الجبالُ تُقَادُ بالأسيارِ
ألقى الغريبُ بهِ عصا التسيارِ
فتسابقَتِ لرضاك في مضمارِ

١ كذا في جميع الأصول ، ولعلها « تجنوا » يريد : تنصب .

يتبؤونَ بهِ وإنْ بَعُدَ المدى من جَاهِكِ الأعلى أعزَّ جوارِ
فارفعْ لواءَ الفخرِ غيرَ مدافعِ واسحبْ ذبولَ العسكرِ الجرارِ
واهنا بأعيادِ الفتوحِ مخولاً ما شئتَ من نصْرٍ ومن أنصارِ
وليكها من روضِ فكري نفحةً شفَّ الثناء بها على الأزهارِ
في فصلِ منطقها ورائقِ رسمها مستمتعُ الأسماعِ والأبصارِ
وتميلُ مَنْ أصغى لها فكأنَّني عاطيتُهُ منها كؤوسَ عُقارِ

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى :

تأملْ أطلالَ الهوى فتألَّمَا وسيما الجوى والسقمِ منها تعلمَا
أخو زفرةٍ حاجتَ له نارَ ذكرةٍ فأنجِدْ في شِعبِ الغرامِ وأتممَا
وسرد لسان الدين هذه القصيدة بطولها ، وهي تقارب التسعين بيتاً ، ثم قال ما نصه : وأنشد السلطان في وجهة للصيد أعملها ، وأطلق أعنة الجياد في ميادين ذلك الطراد وأرسلها ، قوله :

حيَّاكِ يا دارَ الهوى من دارِ نوء السِّماكِ بديمةٍ مِدْرارِ
وأعاد وجهَ رباكِ طلقاً مشرقاً متصاحكاً بمباسمِ النوارِ
أمدكُري دارَ الصبابةِ والهوى حيثُ الشباب يرفُّ غصنُ^١ نُصارِ
عاطيتني عنها الحديثُ كأنما عاطيتني عنها كؤوسَ عُقارِ
إيه وإن أذكيتَ نارَ صبابتي وقد حنَّ زندَ الشوقِ بالتذكارِ
يا زاجرَ الأظعانِ وهي مَشوقةٌ أشبهتها في زفرةٍ وأوارِ
حنَّتَ إلى نجدٍ وليستَ دارها وصبتَ إلى هِنديَّةٍ والغارِ
شاقَتْ بهِ برقَ الحمى واعتادها طيفُ الكرى بمزارها المزوارِ^٢

١ الأزهار : حسن .

٢ كذا في الإحاطة ؛ وفي الأزهار :

لكنها شامت بهِ برق الحمى واعتادها طيف الكرى بمزار

هل تُبلغُ الحاجاتِ إن حملتها
 عرضُ بذكري في الحيامِ وقلْ إذا
 عارٌ بقومك يا ابنةَ الحين أن
 أمتعتِ ميسورَ الكلامِ أخا الهوى
 وأبان جاري الدمعِ عذرَ هيامه
 هذا وقومك ما علمتُ خلاهم
 الله في نفسٍ شعاعٍ كلما
 بالله يا لمياء ما منع الصبا
 يا بنتَ مَنْ تشدو الحداةُ بذكره
 ما ضرَّ نسمةً حاجرٍ لو أنها
 هلْ بانهُ من بعدنا متاودٌ^١
 وهلَ الأطباءُ الآنساتُ كعهدنا^٢
 يفتكن من قاماتها ولحاظها
 أشعرتُ قلبي حُبَّهنَّ صبا^٣
 وعلى الكتيبِ سوانحَ حمرِ الحلى
 أدنى الحجيجِ مزارهنَّ ثلاثةً^٤
 لكنَّ يومَ النقرِ جُدنَ لنا بما
 يا ابن الألى قد أحرزوا خصلَ العلا
 وتنوبُ عن صوبِ الغمامِ أكفهم
 من آلِ سعدٍ رافعي علمِ الهدى

إنَّ الوفاءَ سجيَّةُ الأحرارِ
 جئتَ العقيقَ مُبلِّغَ الأوطارِ
 تكلوي الديونَ وأنتِ ذاتُ يسارِ
 وبخلتِ حتى بالخيالِ الساري ؟
 لكن أضعتِ له حقوقَ^١ الجارِ
 أوفى الكرامِ بذمةٍ وجوارِ
 هبَّ النسيمُ تطيرُ كلَّ مطارِ
 أن لا تهبَّ بعرفك المعطارِ
 متعلِّين به على الأكوارِ
 أهدتِ لنا خبراً من الأخبارِ ؟
 متجاوبٌ مترنمُ الأطيارِ ؟
 يصرعنَّ أسدَ الغابِ وهي ضواري ؟
 بالمشرفيةِ والقنا الخطارِ
 فرميتني من لوعي بحمارِ
 يبيضُ الوجوهَ يُصدنُ بالأفكارِ
 بمنى لو أنَّ مِنى ديارُ^٢ قرارِ
 عودننا من جفوةٍ ونفارِ
 وسموا بطيبِ أرومةٍ ونجارِ
 وتنوبُ أوجُهمُ عن الأقمارِ
 والمصطفين لنصرةِ المختارِ

١ الأزهار : أضعت حقوق ذاك .

٢ الأزهار : كعهدنا .

٣ الإحاطة : بدار .

٤ الأزهار : فضل .

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم
وجه^١ كما حَسَرَ الصباحُ نقابه^٢
جددت دون الدين غزوة أروع
حطت البلاد ومن حوته^٣ ثغورها
لله رحلتك التي نلتا بها
أوردتنا فيها لجودك^٤ مورداً
وأقضت فينا من نذاك مواهباً
أضحكت^٥ ثغر الثغر لما جثته^٦
حتى الفلاة تقيم يوم وردتها
وسرت عقاب الجو تهديك الذي
والأرض تعلم أنك الغوث الذي
ولرب ممتد الأباطح موحش
همل المسارح لا يرأع^٧ قنيصه^٨
سرحت عنان^٩ الريح فيه وربما
باكرته والأفق قد خلع الدجى
وجرى به نهر النهار كمثل ما
عرّضت به المستنقرات^{١٠} كأنها
أبعثتها غرر الجياد كواكباً
والهاديات يؤمها عبل^{١١} الشوى^{١٢}

ومشرف الأعصار والأمصا
ويد^{١٣} تمد^{١٤} أناملاً^{١٥} يبحار
جددت منها سنة^{١٦} الأنصار
وكفى بسعدك^{١٧} حامياً للذار
أجر الجهاد ونزهة^{١٨} الأبصار
مستعذب^{١٩} الإيراد والإصدار
حسنّت مواقعها على التكرار
وخصصته^{٢٠} بخصائص الإيثار
سنن القرى^{٢١} بثلاثة^{٢٢} الأنوار
تصطاد^{٢٣} من وحش^{٢٤} ومن أطيار
تضفي عليها وافي^{٢٥} الأستار
عالي الرئى متباعد^{٢٦} الأقطار
إلا^{٢٧} لبأه^{٢٨} فارس^{٢٩} مغوار
ألق^{٣٠} بساحته عصا^{٣١} التسيار
مسنحاً^{٣٢} ليكبس^{٣٣} حلة^{٣٤} الإسفار
سكب^{٣٥} التديم^{٣٦} سلاقة^{٣٧} من قار
خيل^{٣٨} عراب^{٣٩} جلن^{٤٠} في مضمار
تنقص^{٤١} رجماً^{٤٢} في سماء غبار
متدق^{٤٣} كندق^{٤٤} التسيار

- ١ في الإحاطة والأزهار : يتألفو الأنوار ؛ وأرى الأصل فيه ما أثبتته لأنه يتحدث عن خروج السلطان للصيد ، ورميه ثلاثة ثيران ، فكان فلاة الصيد راعت سنة القرى بتقديعها الثيران له .
٢ المستنقرات : الحيوانات التي استنقرت لكي تعدو الجياد وراها ، ويمرّز السلطان لذة مطاردتها وصيدها .
٣ عبل الشوى : كناية عن الثور ، والهاديات : المتقدّمات سبقاً .

أزجيتها شقراء رائقة الحلى
أثبت فيه الريح ثم تركته
حامت عليه الذابلات كأنها
طفقت أرابيه غداة أثرتها
هل ينفع الباع الطويل وقد غدث
من كل منحفر بلمحة بارق
وجوارح سبقت إليه طلابها
سود وبيض في الطراد تتابع
ترمي بها وهي الحنايا ضمراً
ظنت بأن ينجو لها ، كلاً ولو
وبكل فتشاء الجناح إذا ارتمت
زجل الجناح مصفق كمن الردى
أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى
وأرئنا الكسب الذي أعداده
بيض وصفر خلت مطرح سرحها
من كل موشي الأديم مفوف
خلط البياض بصفرة في لونه
أو أشعل راق العيون كأنه
سرح بمخضر الجوانب يانع
قد أرضعته الساريات لبانها
أخذت سعودك حذرهما فلحكمة
لما أرتك الشمس صفرة حاسد
نفث عليك السحب نقت معوذ
فارفع لواء الفخر غير مدافع

فرمته منها بشعلة نار
خضب الجوانح بالدم الموار
طير أوت منه إلى أوكار
تبغي الفرار ولات حين فرار
يوم الطراد قصيرة الأعمار
فاتت خطاه مدارك الأبصار
فكأنما طالبته بالثار
كالليل طارده بياض نهار
مثل السهام نزع عن أوتار
أغريته بأراب الأقمار
فكأنها نجم السماء الساري
في مقلب منه وفي منقار
طيراً أنك به على مقدار
ملأت جمالا عين النظار
روضا تفتح عن شقيق بهار
رقت بدائعه يد الأقدار
فرى اللجين يشوب ذوب نضار
غلّس بخالط سدفه بنهار
تنساب فيه أرقام الأنهار
وحللن فيه أزرة النوار
أغرث حقون المزن باستعار
لحينك المتألق الأنوار
من عينها المتوقع الإضرار
واسحب ذبول العسكر الحرار

واهناً بمقدمك السعيد مخولاً
قد جئتُ دارك محسناً ومؤملاً
واليكها من روضٍ فكري نفحة
ومن شعره في غير المطولات قوله^١ :

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى
تشيرُ وراء الليل منه بئانة
تلوحُ سناناً حين لا تنفحُ الصبا
قطعتُ به ليلاً بطارخي الجوى
إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانه
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى
لك الله يا مصباح أشبهت مهجتي
ومما ثبت له صدر رسالة :

أزورُ بقلبي معهدَ الأنس والهوى
ومهما سألتُ البرق يهفو من الحمى
فيا ليت شعري والأمانى تَعْلَلُ
وهل جبرني الأولى كما قد عهدتهم
ومن أبياته الغراميات :

قيادي قد تملكه الغرامُ
ودمعي دونه صوبُ الغوادي
ووجدني لا يُطاق ولا يُرامُ
وشجوي فوق ما يشكو الحمامُ

١ يصف مصباحاً .

٢ الأزهار : وتبدو .

إذا ما الوجدُ لم يبرح فؤادي على الدنيا وساكنها السلامُ
وفي غرض يظهر من الآيات :

ومشتمل بالحسن أحوى مُهَفِّفٍ قضى رجعُ طرفي من محاسنه الوطرُ
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسناً وفي خدّه جرحٌ بدا منه لي أثرُ
فقلتُ لجلاسي خذوا الحذرَ إنما به وصَبُّ من أسهم الغنَجِ والخورُ
ويا وجنةً قد جاورتُ سيفَ لحظةٍ ومن شأنها تدمي من اللحم بالبصرُ
تخيّلَ للعينينِ جرحاً وإنما بدا كلفٌ منه على صفحة القمرُ

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعمري لقد صدق :

الأئمة في الجود والجودُ شِمةٌ جُبِلْتُ على إثارها يوم مولدي
ذريني فلو أني أُخِلِدُ بالغي لكنّ ضنيّاً بالذي ملكتُ يدي
وقال :

لقد علمَ الله أني امرؤ أُجَرَّرُ ذيلَ العقافِ القشيبِ
فكم غمَضَ الدهرُ أجفانهُ وفازتُ قِداحي بوصل الحبيبِ
وقيلَ رقيبك في غفلةٍ فقلتُ أخافُ الإلهَ الرقيبِ

وفي مدح كتاب «الشفاء» [وقد] طلبه الفقيه أبو عبد الله ابن مرزوق عندما
شرع في شرحه :

ومسرى ركابٍ للصبا قد وَتَتْ به نجائبُ سَحْبٍ للترابِ نَزوعها
تسلُّ سيوفَ البرقِ أيدي حُداتها فتنهلُ خوفاً من سَطَاها دموعها
تعرّضنَ غرباً يبتغينَ مُعرَّساً فقلتُ لها : مراكشُ وربوعها
لتسقيَ أجداثاً بها وضرائجاً عِياضُ إلى يومِ المعادِ ضجيعها

وأجدرُ مَنْ تَبَكَّى عَلَيْهِ بِرَاعَةٍ
فَكَمْ مِنْ يَدٍ فِي الدِّينِ قَدْ سَلَفَتْ لَهُ
وَلَا مِثْلَ تَعْرِيفِ الشِّفَاءِ حَقَّقَهُ
بِمِرَآةِ حَسَنِ قَدْ جَلَّتْهَا يَدُ النَّهْيِ
نَجُومُ اهْتِدَاءٍ ، وَالْمَدَادُ يَجْنُهَا
لَقَدْ حَزَنَتْ فَضْلًا يَا أَبَا الْفَضْلِ شَامِلًا
وَاللَّهُ مَمَّنْ قَدْ تَصَدَّقَ لِشَرْحِهِ
فَكَمْ مَجْمَلٍ فَصَّلَتْ مِنْهُ وَحِكْمَةٍ
مَحَاسِنُ وَالْإِحْسَانُ يَبْدُو خِلَالَهَا
إِذَا مَا أَجَلَّتْ الْعَيْنُ فِيهَا تَخَالَهَا
مَعَانِيهِ كَالْمَاءِ الزَّلَالِ لَذِي صَدَى
رِيَاضٍ سَقَاها الْفَكْرُ صَوَّبَ ذِكَايَهُ
تَفَجَّرَ عَنْ عَيْنِ الْيَقِينِ زِلَالَهَا
أَلَا يَا ابْنَ جَارِ اللَّهِ يَا ابْنَ وَلِيِّهِ
إِذَا مَا أُصُولُ الْمَرْءِ طَابَتْ أَرْوَمُهُ
بَقِيَتْ لِأَعْلَامِ الزَّمَانِ تُشْبِلُهَا

بِصَفْحَةِ طَرْسٍ ، وَالْمَدَادُ نَجِيعُهَا
يُرْضَى رَسُولَ اللَّهِ عَنْهُ صَنِيعُهَا
فَقَدْ بَانَ فِيهِ لِلْعُقُولِ جَمِيعُهَا
فَأَوْصَافُهُ بِلَتَاخٍ فِيهِ بَدِيعُهَا
وَأَسْرَارُ غَيْبٍ ، وَالْيَرَاعُ تَذِيعُهَا
فَيَجْزِيكَ عَنْ نَصْحِ الْبَرَايَا شَفِيعُهَا
فَلَبَّاهُ مِنْ غُرِّ الْمَعَانِي مُطِيعُهَا
إِذَا كَتَمَ الْإِدْمَاجُ مِنْهُ تُشْعِيعُهَا
كَمَا أَفَرَّ عَنْ زَهْرِ الْبَطَاحِ رَبِيعُهَا
نَجُومًا بِأَفَاقِ الطُّرُوسِ طُلُوعُهَا
وَالْفَاضَةُ دُرٌّ يَرْوِي نَصِيعُهَا
فَأَخْصَبَ لِلرَّوَادِ مِنْهَا مَرِيعُهَا
فَلَذَّ لِأَرْبَابِ الْخُلُوصِ شُرُوعُهَا
لَأَنْتَ إِذَا عُدَّ الْكِرَامُ رَفِيعُهَا
فَلَا عَجَبٌ أَنْ أَشْبَهْتَهَا فَرُوعُهَا
هَدَى ، وَلِأَحْدَاثِ الْخُطُوبِ تَرُوعُهَا

مولده رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين
في « الإحاطة » في ترجمة تلميذه أبي عبد الله ابن زمرك .

قلت : ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين - رحمهما الله تعالى -
على هامش هذه الترجمة من « الإحاطة » كلاماً في حق ابن زمرك رأيت أن
أذكره بجملة الآن ، وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب :
فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته : أتبعه الله تعالى خزيًا ،
وعامله بما يستحقه ، فبهذا ترجمه والذي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم

يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شر من أحسنّا إليه ؛ انتهى .

وكتب على قوله « نشأ عفّاً طاهراً — إلى آخره » ما نصه : هذا الوغد ابن زمرك من شياطين الكتاب ، ابن حداد باليازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات من ذلك ، وهو أحسن عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة وأخملهم شكلاً ، استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجئنا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي رباه وأدبه واستخدمه ، حسبما هو معروف ، وكفانا الله تعالى شر من أحسنّا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .

وكتب على قول والده « فترقى إلى الكتابة — إلى آخره » ما صورته : على يد سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ انتهى .

وكتب على قول « معاذ الهوى أن أصبح القلب سالياً — إلى آخره » ما نصه : هذه القصيدة نظم له مولاي الوالد تغمّده الله تعالى برحمته منها النسيب كله ، وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك^١ ، والله المطلع على ذلك ، قاله ابن المصنف علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لولا تألّق بارق التذكار — إلى آخره » ما صورته : هذا الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ، ويتبع حمارة هذه الرأ ، حتى لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمّار مكاري حداد ، فالتفّس تميل بالطبع ؛ انتهى .

وكتب على قوله « حيّاك يا دار الهوى من دار — إلى آخره » ما صورته : انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الرأ ، علقت له بها ما حولها ؛ انتهى .

وكتب على قوله « وجوارح سبقت إليه طلابها — إلى آخره » ما صورته : سرق طردية إبراهيم بن خفاجة ، فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ ، مع أن

١ ق : حضرت لذلك ، ولعلها : « حضرت ذلك » .

والذي نظم له أكثرها على حسب عادته معه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .
وكتب على قوله « يا مصباح » ما نصه : كان يحب صبيّاً اسمه مصباح ، وهو
الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة ؛ انتهى .

وكتب على قوله « الأثمي في الجود - إلى آخره » ما صورته : كذبت يا
نجس ، من أين الفخر لك أو لبيتك ؟ لست والله من الجود في شيء ، نعم سُخنةُ
عين الجود ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لقد علم الله أني امرؤ - إلى آخره » ما معناه : لا والله ،
فأنت مشهور بكذا ، يا قرد ، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا ؟ إلى
أن قال : وأنحسهم بيتاً ؛ قاله مولاك الذي ربيت في نعمته ونعمة الله علي بن
الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

وقد نسب إلى ما لا يليق ، فالله أعلم بحقيقة الأمر .
وكتب غيره على قول ابن زمرك « أزور بقلبي - الأبيات المتقدمة » عند
قوله « سائلاً » في موضعين : هما من السؤال ، فحصل على الإبطاء المذموم ؛
انتهى .

قلت : أما ما ذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك
والله أعلم كان في ابتداء أمره ، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين
وبعد موته بالبدائع التي لا تُنكر ، كما سنذكره ، وأما كونه سعى في قتل لسان
الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله ، وقُتل بمرأى من أهله ومسمع ،
وأزهقت معه روح ابنه ، حسبما نذكره ، وهذا قصاص الدنيا ، وعفو الله تعالى
في الآخرة منتظر للجميع .

ولندكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخّم
رأيت بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته ، وعرف به في أوله ، إذ
قال ما نصه : أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال ، وشكره على ما

أولى ويسر من صلاح الأحوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال^١ ، والرضى عمن له من صحب وأنصار وآل ، فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان ، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة يلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ، ولا خفاء أن أيام مولانا الجدد المقدس الغني بالله - تولاّه الله تعالى برضوانه - كانت غرراً في وجوه الأيام ، ومواسم تجمع الطم والرّم من الرؤساء الأعلام ، الآخذين بأعنة الكلام ، السابقين في حلبة النار والنظام ، وأن الفقيه الرئيس المدرك ، الناظم النائر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زمرك ، عفا الله تعالى عنه ، وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجدد رحمه الله تعالى لكتابته ، وصرفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابه ، وكان بذلك خليقاً ، لما جمع من أدوات الكمال علماً وتحقيقاً ، وإدراكاً ونبلاً وفقهاً وأصولاً وفروعاً وأدباً وتحصيلاً ، وبياناً وتفسيراً ونظماً وترسيلاً - لما كان قد أخفت الأيام سنناً صبحه ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه ، وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أيّ ذخّر فقدوا ، ولا أيّ مطلق من تصرفاته الجميلة قيدوا ، مستبصرين بالجهل في دياجي غيهم ، معجيين بما ارتكبوه من جياذ بغيهم جميعهم يلحظه بمقل دامية ، وألفاظ حامية ، يصاحبونه بأوجه خلّت عن الوجاهة سيماها الحسد ، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد :

فخرّ على الألاء لم يوسّد كأنّ جبينه سيفٌ صقيل^٢

فيا لله من أشلاء هنالك ضائعة ، وأعلاق غير مصونة ، ووسائل مخفورة ، وأذمة قطعت أرحامها ، ولم يرع ذمامها ، وعاثت الأيدي الفاتكة حيثنّ على بنيّه ، وارتكبوها شعاء في أهله وذويه :

١ الأرسال : جمع رسول ، وهو غير مألوف .
٢ البيت لابن عنة الضبي في رثاء بسطام بن قيس (الحسامية رقم : ٣٥٥ من شرح المزدوقي) ؛ والألاء : الواحدة من شجر الألاء .

هل كان إلّا حياً تحيا العبادُ به هل كان إلّا قدّى في عين ذي عورِ
 إن قال قولاً ترى الأبصارَ خاشعةً لما يخبرُ من وحيٍ ومن أثرِ
 يالهفَ قلبي لو قد كنتُ حاضرةً غداةَ جرّعه أدهى من الصبرِ
 لما تركتُ له شلواً بمضيعةٍ ولا تولّى صريحَ التابِ والظفرِ
 « وكان ما كان ممّا لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ »

وإن سأل سائلٌ عن الخبر الذي ألعنا بذكره ، وضممتنا هذا البيت ذرواً^١ من فطيع أمره ، فذلك عندما نسبَ صاحبُ الأمر إليه ما راب ، وتلّه وابنيه للجبين معفرين بالتراب ، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ، ويتشفع بعظيم بركاته ، فأخذته السيوف ، وتعاورته الخوف ، وأذهبه سلباً قتيلاً ، مُصيراً مصراع منزله كثيراً مهيباً ، وكنا على بعد من هذه الآفة التي أورثت القلوب شجناً طويلاً ، وذكّرتنا بعناية مولانا الجدد الغني بالله بخانه أعظم ذكرى ، فأغرينا برثائه خلكداً وفكراً ، وارتملنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارةً مقنعة ، وكناية في السلوان مطمعة ، وأرضينا بالشفقة أوداءه ، وأرغمنا بتأبينه أعداءه ، ولما تبلج الصبح لذي عينين ، وتلقينا راية الفرج بالراحتين ، عطفتنا على أبنائه عواطف الشفقة ، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدي عليه صلةً لرحم طالما أضاعها من جهل الأذمة ، وأخضر عهداً تخدّمه لمن سلف من الأئمة ، وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضمّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا ، وكان تعلّق بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه ، مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه ، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهدنا من رقاعه الحائلة المنتهية بأيدي النوائب ، الدائرة المستلبة بتعدي النواصب ، فخلص من الحملة قلائد عقيان ، وعقود در ومرجان ، ترتاح

١ ذرواً : طرفاً ؛ وفي ق : ذرواً .

النفوسُ النفيسةُ لإنشادها ، وتحضر الأبصارُ والأسماعُ^١ عند إيرادها ، إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا ، والإشارة بعظيم ملكنا ، فشرعنا في تقييد أوابدها الشاردة ، وإحياء رسومها البائدة ، كلفاً بالأدب لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله . ولنبداً بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه ، ونظهر ما كنا نضمّره من الميل إليه ، في كل ما له أو عليه ، فنقول :

هو الفقيه الكاتب الفذ الأوحد ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريمي ، ويعرف بابن زمرك .

أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة ، وبها ولد ، فنشأ ضيلاً كالشهاب يتوقد ، مختصر الحرم والأعين بإطالة فواضله تشهد ، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالحناب الممهد ، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم والنووب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلا وهو متحمل الرواية ، وملتمس لقوائد الدراية ، ومُصابيح كل يوم أعلام العلوم ، ومستمد بمصابيح الحدود العلمية والرسوم ، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد الله ابن الفخار الآية الكبرى في فنّ العربية ، وتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء ، وبذ النحاة البلغاء ، بما أوجب رثاءه^٢ عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سراً الحيّ بالإطراقِ

واهتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب العظيم أبي عبد الله ابن مرزوق الوافد على مولانا الجدد أبي الحجاج ، رضي الله تعالى عنه ، في عام ثلاثة

١ الأزهار : وتحضر الأبصار الأسماع ؛ ق : وتحضر .

٢ ق : أن رثاء .

وخمسين وسبعمائة ، وإليه جنح ، وإياه قصد عند تغربه إلى المغرب في دولة
السلطان أبي سالم ، فتوجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها :

تَوَجَّسْتَنِي بِعِمَامَتِهِ تَوَجَّتَ تَاجَ الْكَرَامَةِ
فَرَوْضُ حَمْدِكَ يُزْهِى مِنِّي بِسَجْعِ الْحَمَامَةِ

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبي علي منصور الزواوي ، وبرع في الأدب
أثناء الانقطاع وأول الطلب لأبي عبد الله ابن الخطيب ، ولكن لم يحمداً بينهما
المال ، واقتدى في العلوم العقلية بالشريف أبي عبد الله التلمساني قدوة الزمان ،
وحصلت له الإجازة والتحذيث بقاضي الجماعة وشيخ الحملة أبي البركات ابن
الحاج ، وبالخطيب البليغ أبي عبد الله اللوشي ، وبالخطيب الورع أبي عبد الله ابن
بيش^١ العبدري ، رضي الله تعالى عنه وعن جميعهم ، وبواجب محافظتنا على
عهدهم ، إذ نحن وردنا بالإجازة الثامة عذب ورددهم ، وصل سبينا بهم الكثير
من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبي محمد عبد الله بن جزي ، ومعلمنا الثقة المجتهد
أبي عبد الله الشريشي ، والقاضي الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن علاق ،
وغيرهم ، رحمة الله تعالى عليهم ، لذلك صار صدرأ في نوادي طلبة الأندلس
وأفراد نجباها ، فما شاءه المحاضر يجده في خضله^٢ ، ويتلقاه من باهر فضله ،
فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة ، وجواباً مطبقاً للمفصل^٣ ،
وذهناً سابقاً لإيضاح المشكل ، مع انقياد الطبع ، وإرسال الدفعة في سبيل الخشوع
والرقة ، ورشح الجبين عند تلقى الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة
الناظر إليه بالاحتشام والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة وبذل وسع وكرم نفس ،
لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة في الهشة

١ - ق : بيش .

٢ - الفضل : اللؤلؤ ؛ وفي ق : خضله .

٣ - هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : شائياً للمفصل .

والمبرّة والإيثار بما منح ، وجنوح إلى حبّ الصالحين ، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر ابن الزيات ، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهديّ ، قدس الله تعالى مغناه ، وسواهما من أهل الاندلس والعُدوة ، وحمله أشد الحمل على كل ملبس^١ كأبي زكريا البرغواطي وسواه . ومن تنديراته - زعموا - على أبي الحسن المحروق لميله عنه :

ولدُ الفقرِ والرباطِ ولكنْ نفسُهُ للسلوكِ ذاتُ افتقارِ

وخطب الأدبَ يافعاً وكهلاً ، وحاز علمه إدراكاً ونهلاً ، ولما كانت الحادثة على مولانا الجدد - رحمه الله تعالى - واجتاز إلى المغرب كما تقرر في غير هذا ، كلف به وأنس إليه ، لحلاوة منطق ورفع استيحاء ومراوضة خلقت ، ثمّ كرّ في صحبة ركا به فعملتْ منزلته ولطُفَ عمله .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدى فيها ويعيد ، ويقول : خدمته سبعاً وثلاثين سنة : ثلاثاً بالمغرب ، وباقيها بالاندلس ، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً ، وكلُّ ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والشار^٢ والسيكة من نظم رائق ، ومدح فائق ، في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك فهو لي ، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج ، وهما كبيراً ملوك أهل الأرض ، وهنأتهم بكذا وكذا قصيدة ، وفوض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين ، وصلح النصارى عقده تسع مرات ، ألحستُ فوض إليّ ذلك ؟ قلنا : صدق في جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له . وخصّه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره ، فحميد متابعه ، ونمت أحواله ورغيد جنابه ، وكان هنالك بعض تقولات تشين

١ ملبس : مخطّط ؛ وفي الأزهار وق : متلبس .

٢ الدشار : القرية أو الكفر ، والجمع دشر ودشار .

وجه اجتهاده ، وتومىء بما احتشبه من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه ،
وهاجت الفتنة ، فكانت سفارته أعظم أسنابها .

وعند الأشد من عمره عرضت لأفكاره تقلبات ، وأقعدته عن قِداد
السياسة آفاتٌ مختلفة ، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط^١ في أشراك وقعات ،
فقد بجامع مألقة ثم بمسجد الحمراء ملقياً على الكرسي فنوناً جمّة ، وعلوماً لم
يزل يطلقها عن أولياء التنظيم والتجلة ، فانحاز إلى مادة^٢ أمم بمالقة طما منهم
البحر ، وترامى لأبصارهم وبصائرهم الفخر ، وكان التفسير أغلب عليه لفرط
ذكائه ، وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقراءه ، فما شئت من بيان ، وإعجاز
قرآن ، وآيات توحيد وإخلاص ، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يوم الأخذ
بالنواص ، ومراراً عدة سمع ما يليق به ولي الأمر ، وبأشدة البلوى التي أذاقه
مرّها ، وأمطاه إلى طيبة الهلاك ظهرها ، وبأقرب ما كان القوت ، والحسام
الصلّت ، من متباعد هذه القرب التي ألفت^٣ .

قلنا : لقد جمع جواد القلم فأطلقنا^٤ ونحن نشير إلى هذا الرئيس^٥ وتبدل
طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاع ، وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره ،
واستقامة مبداره ، قال عمر مولانا جدنا إلى النقاد ، ورمت رئيس كتابه هذا
أسهم الحساد ، فظهر الخفي ، وسقط به الليل على سرحان ، وقد طالما جرب
الوفي والصفي . وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة ،
والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجيلة ، مع الاستغراق في غمار الفن أندلساً
وغرباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصباً ، أما الجراءة فانقضت سيوفها ،

١ الأزهار : أنه متخبط .

٢ ق : مألقة .

٣ الأزهار : من تباعد . . . ألفت .

٤ يعني أطلقنا له العنان .

٥ ق : الرئيس ؛ حيثما وقعت .

وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوع صنوفها ، وأما المجاهرة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها ، وأما المجاملة فنكسر معروفها ، أداه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة المرية ، وعلى الأثر كان الفرج قريباً ، وسطور المؤاخنة قد أوسعها العفو تضريراً ، ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجدد الغني بالله ، وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة ، لأسباب يطول شرحها أظهرها شراسة في لسانه ، واغترار بمكانه ، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه ، فكبا للبدن والقم ، إلى أن من الله تعالى بسراحه ، وأعادته إلى الحضرة في أول شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة ، فكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى ، وقيام أخينا محمد مقامه بالأمر ، فاستمر الحال أياماً قلائل ، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لملة من عام ، ثم أعاد المذكور إلى خطته وقد دُمِيت بعض أخلاقه ، وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه ، فما كان إلا كلاً وليت وإذا به قد ساء مشهداً وغيباً ، وأوسع الضمائر شكاً وريباً ، وغلبت الإحن عليه ، وغلت مراحلها لديه ، فصار يتقلب على جمر الغضا ، ويتبرم بالقضا ، ويظهر النصع وفي طيه الشفقي ، ويسم نفسه بالصلاح ، ويعلم بالخشوع ، ويشير بأنه الناصح الأمين ، ويتلو قوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ لَا نَحْبُونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (الأعراف : ٧٩) ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنباً لم يقرئوها ، ونسب إليهم نسباً من التضييع لم يعرفوها ، وأنهم احتجوا الأموال ، وأساءوا الأعمال والأقوال ، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حصل على تفاوت أعداده على حاصل ، هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ، وعدم اضطراره بالأمور الجبائية ، فمن نفس يروّع سربها ، ويكدر بالامتحان والامتهان شربها ، ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سلّبت ، وطولبت بغير ما اكتسبت ، وتعدت الأيدي إلى أقوام جلّة سعدوا بشقائه ، وامتنحوا وهم المبرأون من تزويره واعتدائه ، وسيألون يوم لا يعني مال ولا بنون .

وصار يصرف أغراضه ، ويُظهر أحقادَه ، بين إفصاح بما كان الإعجامُ خيراً من إلقائه ، وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقائه ، إلى مجاهرة عهد منه أيام شببته تقيضُها ، وانعكس في شاخته تصرُّيحُها المنغص وتعريضُها ، لا يريح نفسه من جهْد ، ولا يقف من اللجلجة عند حد ، وقد كان ثقل سمعه فسأت إجابته ، وطغت أخلاقه فسمَّ الناس وساطته ، وربما استحلَّف فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلا الخنث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعَد ، وأن يقبض الله له ولهم قاتل عمَد ، فسبحان القاهر فوق عباده ، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده ، فاستمرَّ على ذلك إلى إحدى الليالي ، فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه ، تلقَّاه - زعموا - عند الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع يديه ^١ ، فجذَلته السيوف ، وتناولته الختوف ، فقضي عليه ، وعلى من وجد من خدامه وأبنيه ، كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته ، ولم يتقوا الله فيه حتَّى تُقَاتَه ، فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ، وسأت القالة ، وعظم المصاب ، وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب . انتهى كلام ابن الأحمر في مقدمة كتابه ^٢ .

وقد اطلعت منه على تصاريِف أحوال ابن زمرك ، وقتله على الوجه الذي يُعلم منه أن ثار لسان الدين ابن الخطيب لديه لا يترك ، بل قتلته أفضع من قتلة لسان الدين ، لأن هذا قُتل بين عياله وأهله ، وقُتل معه ابنه ومن وجد من خدمه ، ولسانُ الدين رحمه الله تعالى خُتق بمفرده ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وهو العفو الغفور .

وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمائة ، ولم أقف من أمره على غير ما تقدم .

١ ق : رافعاً به .

٢ سى هذا الكتاب « البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » .

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارع مما كنت انتقيته بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور ، وأوردت كثيراً منه في « أزهار الرياض » .
فمن ذلك قوله في ذكر غرناطة العلية ، وتهته سلطانه الغني بالله بيعض المواسم العيدية ، ووصف كرائم جياده ، وآثار ملكه وجهاده :

يا مَنْ يَحْنُ إلى نجدٍ ونادِها	غرناطةٌ قد ثَوَتْ نَجْدُ بواديها
قفْ بالسبيكة وانظرْ ما بساحتها	عقيلةٌ والكثيبُ الفردُ جاليها
تقلَّدَتْ بوشاحِ النهرِ وابتسمتْ	أزهارُها وهي حَلْيٌ في تراقبها
وأعينُ الرجسِ المطلولِ يانعةٌ	ترقرقُ الطلّ دمعاً في مآقيها
وافترَّ غُورُ أقاحٍ من أزهارها	مقبلاً خَدَّ وردٍ من نواحيها
كأنما الزهرُ في حافاتها سَحَرَا	دراهمُ والنسيمُ اللدنُ يحياها
وانظرْ إلى الدَّوْحِ والأنهارِ تكفها	مثل الندامى سواقيها سواقيها
كم حولها من بدورٍ تجتني زهراً	فتحسبُ الزهرَ قد قَبَّلْنَ أيديها
حسباؤها لؤلؤٌ قد شَفَّ جوهرها	والنهرُ قد سالَ ذَوْباً من لآليها
نهرُ المجرةِ والزهرُ المطيفُ به	زهرُ النجومِ إذا ما شئت تشيها
يزيدُ حسناً على نهرِ المجرةِ قد	أغناهُ درَّ حَبَابٍ عن دراريها
يدعى المنجمُ رائيهِ وناظرهُ	مسمياتُ أبانتها أساميها
إنَّ الحجازَ مغانِيهِ بأندلسٍ	ألفاظها طابقتُ منها معانيها
فتلكَ نجدٌ سقاها كلُّ منسجمٍ	من الغمامِ يحياها فيحييها
وبارقٌ وعُدَيْبٌ كلُّ مبتسمٍ	من الثغورِ يحليها مجليها
وإن أردتَ ترى وادي العقيقِ فردٍ	دموعَ عشاقها حمراً جواربها
وللسبيكةِ تاجٌ فوقَ مفرقها	تودُّ درُّ الدراري لو تحليها

١ حين عدد لسان الدين البساتين والمتزهات في غرناطة قال : « ومدرج نجد ومدرج السبيكة وجنة العريف » وتقع السبيكة إلى الجنوب الشرقي من الحمراء .

فإنَّ حمراءها والله يكلؤها
 إنَّ الدورَ لتيجانٌ مكلَّةٌ
 لكنَّها حسدت تاجَ السبيكة إذ
 بروجها لبروج الأفق مخجلةٌ
 تلك القصورُ التي راقت مظاهرها
 لله لله عينا من رأى سحرًا
 والصبحُ في الشرق قد لاح بشائره
 تهوي إلى الغرب لما غالها سحرٌ
 وساجع العود في كف النديم إذا
 يُبدي أفانين سحرٍ في ترنمه
 يحسه ناعمُ الأطراف تحسبها
 مقاتلٌ بلحاظ قوسٍ حاجبها
 فباكر الروض والأغصان ماثلة
 لم يرقص الدوح بالأكام من طرب
 وأسمعتها فنون السحر مبدعةٌ
 غرناطة أنس الرحمن ساكنها
 أعدى نسيمهم لطفاً نفوسهم
 فخلد الله أيام السرور بها
 وروض المحل منها كل منبجس
 يحكي الخليفة كفاً كلما وكفت
 نفى العفاة وقد أمت مكارمه

ياقوتة فوق ذاك التاج عليها
 جواهر الشهب في أبي مجاليها
 رأت أزاهيره زهراً يجليها
 فشهبها في جمال لا تضاهيها
 تهوي النجوم قصوراً عن معاليها
 تلك المنارة قد رقت حواشيها
 والشهب تستن سباً في مجاريها
 وغمض الفجر من أجفان واشيها
 ما استوقفت ساجعات الطير يقرها
 يصبي العقول بها حسناً ويسبها
 لآلئاً وهي نورٌ في تلايها
 ترمي القلوب بها عمداً فتصميمها
 يثني النفوس لها شوقاً تشنئها
 حتى شدا من قيان الطير شاديها
 وُرق الحمام وغناها مغنيها
 باحت بسر معانيها أغانيها
 فرقة الطبع طبع منه يعديها
 صُفراً عشيّاتها بيضاً لياليها
 إذا اشتكت بغليل الجذب يروها
 بالحدود فوق موات الأرض يحياها
 عن السؤال وبالإحسان يغنيها

١ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : ما استوقفت الطير يديها ويقرها .

لها بنانٌ فلا غيثٌ يساجلها
 فإن تصبُّ سحبه بالماء حين همت
 يا أيها الغيثُ أنتَ الغوثُ في زمنٍ
 إنَّ الرعايا جزاك الله صلحةً
 إنَّ الخلائقَ في الأقطارِ أجمعِها
 فكلُّ مصلحةٍ للخلقِ تحكُمها
 إذا تيممتَ أرضاً وهي مجدبةٌ
 يا رحمةً بثَّتِ الرحى بأندلسٍ
 في فضلِ جودك قد عاشتْ مشيختها
 في طولِ عمركَ يرجو الله آملها
 عوائدُ الله قد عودتْ أفضلها
 سُلَّ السعودِ وخلَّ البيضُ مغمدةً
 لله أيامك الغرُّ التي اطردتْ
 لله دولتكَ الغراء إنَّ لها
 هيهات أنْ تبلغَ الأعداءَ مأربةً
 هذي سيوفُك في الأجفانِ نائمةٌ
 سريرةٌ لك في الإخلاصِ قد عرفتْ
 لم يحجب الصبحُ شهبَ الأفقِ عن بصرِ
 يا ابنَ الملوكِ وأبناء الملوكِ إذا
 أبناءُ نصرٍ ملوكٌ عزَّ نصرهمُ
 همُ المصاييحُ نور الله موقدها
 همُ النجومُ وأفقُ الهدى مطلعها

جوداً ولا سحبه يوماً تدانيها
 بعسجدٍ ولجينٍ صابٍ هامِها
 ملوكه تلفتُ لولا تلافيها
 ملكتُ شرقاً وغرباً من يراعِها
 سوائهم أنتَ في التحقيقِ راعيها
 وكلُّ صلحةٍ في الدينِ تنويها
 فرحمةُ الله بالسقيا تحييها
 لولاك زلزلتِ الدنيا بمن فيها
 في ظلِّ أمك قد نامتْ ذراريها
 ينصرُ ملكك يدعو الله داعيها
 لتبلغَ الخلقُ ما شاءتْ أمانِها
 واضرب بها فربةَ التلثِ تفرِها
 فيها السعودُ بما ترضى ويرضيها
 لكافلاً من إله العرشِ يكفيها
 في جريها وجنودُ الله تحميها
 والمشركونَ سيوفُ الله تُفنيها
 حُسنى عواقبها حتى أعادِها
 إلّا وهديك للأبصارِ يديها
 تدعو الملوكُ إلى طوعٍ تلبّيها
 وأوسعوا الخلقِ تنويها وترفيها
 تضيءُ للدينِ والدنيا مشاكِها
 فوزاً لمهديها عزّاً لهاديها

١ الأزهاري : لم تحتجب شهب الآفاق عن بصر .

همُ البدورُ ، كمالُ ما يفارقها
 قضتُ قواضبُها أنْ لا انقضاء لها
 وخلدت في صفاح الهندِ سيرتها
 وأورثتك جهاداً أنتَ ناصره
 كم موقفٍ ترهبُ الأعداءُ موقعه
 ثارتُ عجاجتهُ واليومُ محتجبُ
 وللأسِنَّةِ شُهْبٌ كلما غربتُ
 وللسيوفِ بروقٌ كلما لمعتُ
 أطلعتُ وجهاً تريك الشمسَ غرتهُ
 من أين للشمسِ نطقٌ كله حكمُ
 لك الجيادُ إذا تجرّي سوابقها
 إذا انبرتُ يومَ سبقٍ في أعنتها
 من أشهبٍ قد بدا صباحاً تراع له
 إلا التي في لحامٍ منه قيدها
 أو أشقرٍ مرَّ عن^١ شقر البروق وقد
 أو أحمرٍ جمره في الحربِ متقدُّ
 لونُ العقيقِ وقد سال العقيقُ دماً
 أو أدهمٍ ملء^٢ صدر الليلِ تنعّله
 إن حارت الشُهْبُ ليلاً في مقلّده
 أو أصفرٍ بالعشيّاتِ ارتدى مرحاً
 همُ الشمسُ ، ظلامٌ لا يوارىها
 وأمضتِ الحكمَ في الأعدا مواضيها
 وأسندتُ عن عواليها معاليها
 والأجرُ منك يَرْضِيها ويحظيها
 والخيلُ تردي ووقع السُمرِ يردّيها
 والنقعُ يؤثّرُ غيماً من دياجيها
 في الدارعين تجلّت من عواليها
 تزجي الدماءَ وريح النصرِ يُزجيها
 تبارك الله ما شمسُ تُساميها
 يفيدها كلَّ حينٍ منك مبيدِها
 فللرياحِ جياذُ ما تجاريها
 ترى البروقَ طلاحاً لا تباريها
 شُهْبُ السماءِ فإنّ الصبحَ يخفيها
 فإنّه سامها عزّاً وتنوينا
 أبقي لها شفقاً في الجوّ تنبئها
 يعلو لها شرٌّ من بأسٍ مذكيها
 يعطفه من كماءٍ كَرَّ يدميها
 أهلة فوق وجه الأرض يديها
 فصُبْحُ غرته بالنورِ يهديها
 وعرفه بتمادي الليلِ ينبيها^٣

١ هكذا في ق ؛ وفي التجارية : مرعب ، ولا معنى له ؛ ق : تنبيها .

٢ الأزهار : مثل .

٣ ق : ينبيها .

معوّة بنضار تاه من عجب
وربّ نهر حسام رقّ رائقه
تجري الرؤوس حباباً فوق صفحته
وذابل من دم الكفار مشربه
وكم هلال لقوس كلما نبضت
أثمة الكفر ما يمت ساحتها
يا دولة النصر هل من مبلغ دولا
أو مبلغ سالف الأنصار مألّكة
أنّ الخلافة أعلى الله مظهرها
يا ابن الذين لهم في كل مكرمة
أنصار خير الورى ، مختار هجرته
سمتهم الملة السّمحاء تكرمة
ففي حنين وفي بدر وفي أحد
ولتسأل السيّر المرفوع مسندها
مأثر خلّد الرحمن أثرها
ماذا يجيد بليغ أو يتمّقه
له الجهاد به تسري الرياح إلى
تُحدى الركاب إلى البيت العتيق به
بشائر تسمع الدنيا وساكنها
كفى خلافتك الغراء منقبة
وقد أفاد بنيه الدهر تجربة
إذا رميت سهام العزم صائبة
شكراً لمن عظمت منا مواهبه

فليس يعدم تنويهاً ولا تيهها
متى تردّه نفوس الكفر يردّها
وما جزى غير أنّ البأس يجريها
يُجني الفتوح وكف النصر تجنيها
ترى النجوم رجوماً في مراميها
إلاّ وقد زلزلت قسراً صياصيها
مضين أنك تحيها وتنسيها
والله بالخلد في الفردوس يجزيها
أبقت لنا شرفاً والله يقيها
مفاخر ولسان الدهر يملّوها
جيران روضته ، أكرم بأهلها
أنصارها ، وبهم عزّت أواليها
تلقي مفاخرهم مشهورة فيها
فعن مواقفهم تروى مغازيها
ينصّها من كتاب الله قاريها
من الكلام ووحى الله تاليها
ممالك الأرض من شتى أقاليمها
فمكة عمرت منه نواديها
إذا دعا باسمك الأعلى مناديا
أنّ الإله يوالي من يواليها
أنّ السعود تعادي من يعاديها
فما رميت ، بل التوفيق راميا
وإن تعدّ فليس العدّ يحصيها

عما قريب ترى الأعياد مقلبة
 وتبلغ الغاية القصوى بشاثرها
 فاهناً بما شئت من صنع تُسرُّ به
 مولاي خذها كما شئت بلاغتها
 أرسلتها حيثما الأرواح مرسله
 جاءت تهنيك عيدَ الفطر معجبة
 البشرُ في وجهها ، واليمنُ في يدها
 لو رصَّعَ البلرُّ منها تاجَ مفرقه
 فإن تكن بنت فكري وهو أوجدها
 في روض جودك قد طوّقتني ميتاً
 ولو أعرتُ لسانَ الدهرِ يشكرها
 بقيت للدين والدنيا إمامَ هدى
 والسعدُ يجري لغايات تؤملها

وقال رحمه الله تعالى شاكرًا لنعم وصلته من المذكور في عاشوراء :

مولاي يا ابن السابقين إلى العلا
 إن لوحظوا في المعلوات فإنهم
 أو فوخوا في المكرمات فإنهم
 أنباء أنصار النبي وصحبه
 والمؤثرين ، وربنسا أثني بها
 فاضت علينا من نذاك غمام
 من كف شفاف الضياء تخاله

والرافعين لواءها المنشورا
 ظلوا بأفاق السلاء بدورا
 نظموا بأسلاك الفخار شلورا
 في الذكر أصبح فخرهم مذكورا
 في الحشر خلّد وصفهم مسطورا
 وتفجرت من راحتك بحورا
 لصفاء جوهره تجسّد نورا

١ يشير إلى الآية الكريمة في الأنصار «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

نِعَمُ مَنْوَعَةٍ تَعَدَّدَ وَفَرُّهَا أَعْجَزَتْ عَنْهَا شُكْرِي الْمَوْفُورَا
 فِي مَوْسِمِ الدِّينِ قَدْ جَدَّدَتْهُ وَأَقَمَتْ فِينَا عَيْدَهُ الْمَشْهُورَا
 أَضْعَافَ مَا أَهْدَيْتَنَا مِنْ مَنَةٍ تُهْدِي إِلَيْكَ ثَوَابَهَا عَاشُورَا
 وَعَلَى الطَّرِيقِ بِشَائِرٍ مَحْمُودَةٍ أَلْفَاكَ جَذَلَانَا بِهَا مَسْرُورَا

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتناء يجبل الفتح ، وقد وقع له
 السلطان الغني بالله المذكور بذلك ، فارتجل قطعاً منها :

أتوني بنوَارٍ يروقُ نضارةً كخَدِّ الذي أهوى وطيب تنفُّسه
 وجاءوا به من شاهقٍ متمنِّعٍ تمنُّعَ ذاك الطَّيِّبِ فِي ظِلِّ مَكْنِسِهِ
 رعى الله مني عاشقاً متقنعاً بزهرِ حَكِي فِي الْحَسَنِ خَدِّ مَوْسِهِ
 وإن هبَّ خَفَاقُ النِّسِيمِ بنفحةٍ حَكَتْ عَرَفَهُ طَيِّباً قَضَى بِتَأْنِسِهِ

ومنها :

رعى الله زهراً يتنمي لقرنفلٍ حَكِي عَرَفَ مَنْ أَهْوَى وَإِشْرَاقَ خَدِّهِ
 ومنبتهُ فِي شَاهِقٍ متمنِّعٍ كَمَا امْتَنَعَ الْمَحْبُوبُ فِي تِيهِ صَدِّهِ
 أميل إذا الأغصانُ مالت بروضةٍ أعانقُ مِنْهَا الْقُضْبَ شَوْقاً لِقَدِّهِ
 وأهفو لخَفَاقِ النِّسِيمِ إذا سَرَى وَأَهْوَى أَرِيحَ الطَّيِّبِ مَنْ عَرَفَ نَدِّهِ

ومنها :

يقرُّ بعيني أن أرى الزهرَ يانعاً وَقَدْ نَازَعَ الْمَحْبُوبَ فِي الْحَسَنِ وَصْفَهُ
 وما أبصرتُ عيني كزهرِ قَرْنَفُلٍ حَكِي خَدِّ مَنْ يَسِي الفؤَادَ وَعَرَفَهُ
 تمنُّعُ فِي أَعْلَى الْهَضَابِ لِمَجْتَنٍ تَمَنُّعُهُ مِنِّي إِذَا رَمْتُ إِلْفَهُ
 وفي جِبلِ الْفَتْحِ اجْتَنُوهُ تَفَاؤُلَا بَقْتَحِ لِبَابِ الْوَصْلِ يَمْنَحُ عَطْفَهُ
 وما ضَرَّ ذَاكَ الْغَصْنَ وَهُوَ مَرْتَحٍ إِذَا مَا ثَنَى نَحْوَ الْمَتِيمِ عِطْفَهُ

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مر : ومن القصائد التي يود الصباح سناها ،
والنسيم اللدن رقة معناها ، يهنيء مولانا الجدد رضي الله تعالى عنه عند وصول
خالصة مقامه ، وكبير خدامه ، القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية ،
وتجديد المقاصد الودية ، ووافق استئناف راحة من الذات العلية ، ومن بعض
فروع دوحته الزكية :

<p>أدريها ثلاثاً من لحاظك واحيس إذا ما نهاني الشيب عن أكوسِ الطلاب عذيري من لحظ ضعيف وقد غدا وروض شباب ماس غصن قوامه وما زال ورد الخلد وهو مضعف وكم جال طيف الطرف في روض حسنه أما وليالي الوصل في روضة الصبا لئن نسبت تلك العهود أحبي وحاشا لقصي بعدما افتر قودها واليسها ثوب الوقار خليفة وجدد للفتح المين مواسماً وأورثه العلياء كل خليفة فيا زاجر الأظعان وهي ضوامر إذا جئت من دار الغي بربه فإن شئت من بحر الساحة فاغترف</p>	<p>فقد غال منها السكر أبناء مجلس تدير علي الحمر منها بأكوس بحكم متا في جسيم وأنفس وفتح فيه اللحظ أزهار فرجس يعبر أفاح الثغر طيب تنفس يقبده فيه العذار يستنم ومألف أحبابي وعهد تأنسي فقلبي عهد العامرية ما نمي من الشيب عن صبح به متنفس به لبس الإسلام أشرف ملبس أقام بها الإيمان أفرح معرس نمائه إلى الأنصار كل مقدس بغير الفلا والوحش لم تتأنس مناخ العلا والعز فاعقل وعرس وإن شئت من نور الهداية فاقبس</p>
--	--

١ ق : استباق .

٢ ق : دوحتنا .

أمولاي إِنَّ السعدَ منك لآية^١
إذا شئت أن ترمي القصي من المني
فترمي بسهم من سعودك صائب
أهنيك بالإبلال ممن شفاؤه
ودعي أرد يملك فهي غمامة
أقبل منها راحة إثر راحة
ومن نسب القتح المين ولادة
فيا أيها المولى الذي بكماله
لامت موسى من عوادي سميه
بعثت بيمون النقية في اسمه
فجاءك بالمال العريض هدية
وشفعها بالصفان كانهما
تنص من الإشراف جيد غزاة
لك الخير موسى مثل موسى ، كلاهما
فلا زلت في ظل النعيم وكل من
عليك سلام مثل حمدك عاطر

وقال في مولد عام سبعة وستين وسبع مائة وألم في أخرياتها بوصف المشور الأسنى ،
الرفيع المبني :

زار الخيال بأيمن الزوراء
وسرى مع النسمات يسحب ذيله
هذا وما شيء ألد من المني

فجلا سناه غياهب الظلماء
فأنت تم بعثير وكباء
إلا زيارته مع الإغفاء

١ الأزهار : أمولاي والى السعد منك ولاية .

بَتْنَا حَيَالَيْنِ التَّحْفَنَا بِالضُّحَى
 حَتَّى أَفَاقَ الصَّبْحُ مِنْ غَمَرَاتِهِ
 يَا سَائِلِي عَنْ سِرِّ مَنْ أَحْبَبْتُهُ
 تَاللهِ لَا أَشْكُو الصَّبَابَةَ وَالْهُوَى
 يَا دِينَ قَلْبِي لَسْتُ أَبْرَحُ عَانِيَا
 أَبْكِي وَمَا غَيْرُ النَّجِيعِ مَدَامُ
 أَهْفُو إِذَا تَهْفُو الْبُرُوقُ ، وَأَنْتِي
 بِاللَّهِ يَا نَفْسَ الْحَمَى رَفَقًا بِمَنْ
 عَجَبًا لَهُ يَنْدَى عَلَى كَبْدِي وَقَدْ
 يَا سَاكِنِي الْبَطْحَاءُ أَيَّ لِيَانَةٍ
 أَتَرَى النَّوَى يَوْمًا تَحِبُّ قِدَاحَهَا
 فِي حَيْكَمٍ قَمَرٌ قَوَادِي أَفْقُهُ
 لَمْ تُنْسِنِي الْأَيَّامُ يَوْمَ ودَاعِهِ
 أَبْكِي وَيَسْمُ وَالْمَحَاسِنُ تَجْتَلِي
 يَا نَظْرَةً جَاذِبَتْهَا أَيْدِي النَّوَى
 مِنْ لِي بَثَانِيَّةٍ تَنَادِي بِالْأَسَى
 وَلَرَبَّ لَيْلٍ بِالْوَصَالِ قَطَعْتُهُ
 أَنْسَيْتُ فِيهِ الْقَلْبَ عَادَةً حَلْمِهِ
 وَجَرَيْتُ فِي طَلْقِ التَّصَابِي جَاغِمًا
 أَطْوِي شِبَابِي لِلْمَشِيبِ مَرَاحِلًا

والسقم ما نُخْشِي مِنَ الرِّقْبَاءِ
 وَتَجَاذِبْتُ أَيْدِي التَّسِيمِ رَدَائِي
 السُّرُّ عِنْدِي مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ
 لِسَوَى الْأَحْبَةِ أَوْ أَمُوتَ بِدَائِي
 أَرْضَى بِسَقَمِي فِي الْهُوَى وَعِنَائِي
 أَذْكِي ، وَلَا ضَرْمٌ سَوَى أَحْشَائِي
 لِسُرَى النَّوَاسِمِ مِنْ رَبِّي تِيْمَاءِ
 أَغْرَيْتَهُ بِنْتَفَاسِ الصُّعْدَاءِ
 أَذْكِي بِقَلْبِي جَمْرَةَ الْبُرْحَاءِ
 لِي عِنْدَكُمْ يَا سَاكِنِي الْبَطْحَاءِ
 وَيَفُوزُ قِدْحِي مِنْكُمْ بَلْقَاءِ
 تَفْدِيهِ نَفْسِي مِنْ قَرِيبٍ نَائِي
 وَالرَّكْبُ قَدْ أَوْفَى عَلَى الزُّورَاءِ
 فَعَلَقْتُ بَيْنَ تَبَسُّمٍ وَبِكَاءِ
 حَتَّى اسْتَهْلَتْ أَدْمَعِي بَدْمَاءِ
 « قَدْ كَ اتَّئِدُ اسْرَفْتُ فِي الْغُلُوءِ »^٢
 أَجْلُو دَجَاهُ بِأَوْجُهُ النَّدْمَاءِ
 وَحِثْتُ فِيهِ أَكْوَسَ السَّرَاءِ
 لَا أَنْتِي لِمَقَادَةِ النَّصْحَاءِ
 بِرَوَاحِلِ الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ

١ الأزهار : جادت بها .

٢ صدر بيت لأبي تمام ؛ وتمامه : « كم تملون وأنتم سجراني » ورواية الديوان : أريبت في الغلواء .

قَبْرِ الرُّسُولِ صَحَائِفَ الْبَيِّدَاءِ
 وَيَطُولُ فِي ذَاكَ الْمَقَامِ ثَوَائِي
 كَالشَّمْسِ تَزْهِي فِي سَنَاءٍ وَسَنَاءٍ
 رَفَعَتْ لَهْدِي الْخَلْقَ خَيْرَ لَوَاءٍ
 فَخِرَ الْوُجُودِ وَشَافِعَ الشُّفَعَاءِ
 وَالْمُنْتَقَى مِنْ عُنْصُرِ الْعِلْيَاءِ
 ظِلُّ الْإِلَهِ الْوَارِفِ الْأَفْيَاءِ
 وَعِمَادُهَا السَّامِي عَلَى النَّظَرَاءِ
 شُهْبٌ تَبِيرُ دِيَاغِي الظُّلُمَاءِ
 أَكْبَرَنَ عَنْ عَدٍّ وَعَنْ إِحْصَاءِ
 وَكَفَاكَ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْرَاءِ
 كَأَنَّمِلْ جَاءَتْ بَنِيْعِ الْمَاءِ
 نَشْرُ الْإِلَهِ بِهَا وَمِنْ نَعْمَاءِ
 وَتَقَدَّمَ الْكَهَّانُ بِالْأَنْبَاءِ
 فِي الْكُونِ كَالْأَرْوَاحِ فِي الْأَعْضَاءِ
 وَالْكَفْرُ أَصْبَحَ فَاحِشٍ الْأَرْجَاءِ
 تَجْلُو ظِلَامَ الشَّكِّ أَيَّ جَلَاءِ
 إِلَّا عَلَى ذِي الْمَقْلَةِ الْعَمِيَاءِ
 مِنْ بَعْدِ أَيْدِي الْخَلْقِ وَالْإِنْشَاءِ
 نُورِ السَّنِيِّ السَّاطِعِ الْأَضْوَاءِ
 يَا رَحْمَةَ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ
 وَمَوَاسِي الْأَيْتَامِ وَالضُّعْفَاءِ

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى أَطْوِي إِلَى
 فَتْطِيبَ فِي تِلْكَ الرَّبُوعِ مَدَائِحِي
 حَيْثُ النَّبَوَّةُ نُورُهَا مَتَأَلَّقُ
 حَيْثُ الرِّسَالَةُ فِي ثَنِيَّةٍ قُدْسُهَا
 حَيْثُ الضَّرِيحُ ضَرِيحُ أَكْرَمِ مَرْسَلِ
 الْمُصْطَفَى وَالْمُرْتَضَى وَالْمُجْتَبَى
 خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَجْتَبَاهَا ذَخَرُهَا
 تَاجُ الرِّسَالَةِ خَتَمُهَا وَقَوَامُهَا
 لَوْلَاهُ لِلْأَفْلَاكِ مَا لَاحَتْ بِهَا
 ذُو الْعَجَزَاتِ الْغَرُّ وَالْآيِ الْأَلَى
 وَكَفَاكَ رَدُّ الشَّمْسِ بَعْدَ مَغِيْبِهَا
 وَالْبَدْرِ شَقٌّ لَهُ وَكَمْ مِنْ آيَةٍ
 وَبَلِيلَةِ الْمِلَادِ كَمْ مِنْ رَحْمَةٍ
 قَدْ بَشَّرَ الرُّسُلُ الْكِرَامُ بِيَعْتِهِ
 أَكْرَمَ بِهَا بَشَرَى عَلَى قَدَمِ سَرَتِ
 أَمْسَى بِهَا الْإِسْلَامُ يُشْرِقُ نُورُهُ
 هُوَ آيَةُ اللَّهِ الَّتِي أَنْوَارُهَا
 وَالشَّمْسُ لَا تَخْفَى مَزِيَّةُ فَضْلِهَا
 يَا مُصْطَفَى وَالْكَوْنُ لَمْ تَعْلَقْ بِهِ
 يَا مُظْهِرَ الْحَقِّ الْجَلِيِّ وَمَطْلَعِ الْإِلَهِ
 يَا مُلْجَأَ الْخَلْقِ الْمَشْفَعِ فِيهِمْ
 يَا آسِيَّ الْمَرْضَى وَمُنْتَجِعَ الرَضَى

داء الذنوب وفي يديك دوائي
 حاشا وكلا أن يجيب رجائي
 خلصت إليك محبتي وندائي
 تعدد الأماني أن يتاح لقائي
 فخر الملوك السادة الخلفاء
 يوم الطعان وفارج الغماء
 تجري صباه بزعرع ورُخاء
 كالنهر وسط الروضة الغناء
 إشرافه ، والزهر في لآلاء
 فلق الصباح وواكف الأنواء
 والسابقون بحلبسة العلاء
 حاطوا ذمار الملة السمحاء
 يستمطرون صحائب النعماء
 فالرعب رائدهم إلى الأعداء
 والنصر معقود بكل لواء
 تسمو مراقبها على الجوزاء
 يجزيك عنها الله خير جزاء
 لا تهدي فيه القطا للماء
 تهدي نجوم الأفق فضل ضياء
 واسحب ذبول العزة القعساء
 كهف ليوم مشورة وعطاء

أشكو إليك وأنت خير مؤمل
 لأنني مددت يدي إليك تضرعاً
 إن كنت لم أخلص إليك فإنما
 وبسعد مولاي الإمام محمد
 ظل الإله على البلاد وأهلها
 غوث العباد وليث مُشْتَجِرِ القنا
 كالدَّهْر في سَطَوَانِه وسماحه
 رقت سجاياه وراقت مجتلى
 كالزهر في إبراقه ، والبدر في
 يا ابن الألى لإجمالهم وجمالهم
 أنصار دين الله حزبُ رسوله
 يا ابن الخلائف من بني نضر ومن
 من كل من تقف الملوك يابه
 قوم إذا قادوا الجيوش إلى الوغى
 والعز مجلوب بكل كتيبة
 يا وارثاً عنها مناقبها التي
 يا فخر أندلس وعصمة أهلها
 كم خضت طوع صلاحها من مهمه
 تهدي بها حادي السرى بعزائم
 فارفع لواء الفخر غير مدافع
 واهناً يمينك السعيد فإنه

لله منه هالة قد أصبحت
 تتأبها طير الرجاء فتجنني
 لله منه قبة مرفوعة
 راقب بدائع وشيها فكأنها
 عظمت ميلاد النبي محمد
 أحيت ليلك ساهراً فأفدتنا
 يا أيها الملك الهمام المجتبي
 من لي بأن أحصي مناقبك التي
 واليك مني روضة مطلولة
 فافصح لها أكتاف صفحك إنها
 حرّم العفاة ومصرع الأعداء
 تمرّ المني من دوحة الآلاء
 دون السماء تقوت لحظ الرائي
 وشي الربيع بمسقط الأنداء
 وشفعته بالليلّة الغراء
 قوت القلوب بذلك الإحياء
 فانت علاك مدارك العقلاء
 ضاقت بين مذاهب الفصحاء
 أرجت أزاهرها بطيب ثناء
 بكر أنت تمشي على استحياء

قال ابن الأحمر : ومن إغذاريات ابن زمرك المحكيمة نسفاً ورضفاً ،
 المتناهية في كل فن حسن تحلية غريبة ووصفاً - حسبنا اقتضته ملاحظة النسبة
 الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحتفاله المناسب لغز ملكه من تعميم الخلق
 بالحقلي في دعواهم ، واستدعاء أشرف الأمم من أهل المغرب وسواهم ، تفنناً
 في مكارم متعددة أيامها عن أصالة المجد معربة ، وإغراء لهمم الملك بما لتتميم
 الأنس من أوضاع مغرية ، ومباهاة بعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ،
 وتكاثراً من محالليك دولته بالعدد الوافر ، ممّا ألبم اللسن الذكي عيباً ، وغادر
 الإغثار الذنوبي منسياً ، كلفاً الله سبحانه أيّوته للولوية عنا وعن آبائنا ، ونلقى
 بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما يصل له من خالص دعائنا ، إنه منعم جواد -
 قوله في الصنيع المختص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله تعالى روحه ، وذلك
 سنة أربع وستين وصبعائة :

١ وري هنا بكائي « قوت القلوب » و « إحياء علوم الدين » .

٢ ق : منها ؛ يعني القصيدة .

معاذ الهوى أن أصبح القلب ساليا

القصيدة ، وقد تقدمت بتمامها فراجعها .

ثم قال : ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعيننا السيدين الأميرين سعد ونصر ، رحمة الله تعالى عليهما ، وأجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع :

أرسلته دمعاً تَصْرَجَ بالدم	ألمحة من بارق متبسم
يهفو فؤادك عن جوانح مغرم	وللمحة تهفو بيانات اللوى
خلق الهوى اعتاد كل متبسم	هي عادة عذرية من يوم أن
أدري الهوى ، واليوم أعذل لومي	قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن
حدّر الرقيب ومدمع لم يسجّم	كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت
هيهات واشي السقم لما يكتم	إن كان واشي الدمع قد كتم الهوى
قد كاد يخفى عن خفي توهم	ولقد أجدّ هواي رسم دارس
فأطلت فيه ترددي وتلومي	وذكرت عهداً في حناه قد انقضى
ورقاء تنفث شجوها بترنم	ولربما أشجى فؤادي عنده
أشجى الفصيح بها بكاء الأعجم	لا أجذب الله الطلول فطالما
قف بي عليها وقفة المتلوم	يا زاجر الأظعان يحفزها السرى
حُمراً كحاشية الرداء المعلم	لترى دموع العاشقين برسمها
سقياً لها ولعهدا المتقدم	دمن عهدت بها الشيبه والهوى
أغزو بها السلوان غزو مصم	وكتيبة للشوق قد جهزت بها
وأريت للعشاق فضل تهمني	ورفعت فيها القلب بنداً خافقاً
لكن من أهواه ضايق مقدمي	فأنا الذي شاب الحماسة بالهوى
ورُئيت من غنّج اللحاظ بأسهم	فطعنّت من قد القوام بأسمر

يا قاتلَ الله الجفون فإنها
ظلمت قتيلَ الحب ثم تبيّنت
يا ظبية ستحت بأكتاف الحمى
ما ضرَّ إذ أرسلت نظرة فأتك
فرايت جسماً قد أصيب فؤاده
ولقد خشيت بأن يقاد بجرحه
كم خضت دونك من غمار مفازة
والنجم يسري من دجاء بأدهم
والبدر في صفح السماء كأنه
والزهر زهر والسماء حديقة
والليل مُربد الجوانح قد بدا
فكأنما فلق الصباح وقد بدا
ملك أفاض على البسيطة عدله
هو منتهى آمال كل موفى
لاحت مناقبه كواكب أسعد
ولقد تراءى بأسه وسماحه
مثل الغمام وقد تضاحك برفقه
أنسى سماحة حاتم ، وكذاك في
سير سير النيرات بهديها
فالبدر دونك في علا وإنارة
ولك القباب الحمر تُرفع للندى
يدكي الكباء بها كأن دخانه
ولك العوالي السمر تُشرع للعدى

مهما رمت لم تخط شاكلة الرمي
للسقم فيها فترة المتظلم
سقي الحمى صوب الغمام المسجم
أن لو عطفت بنظرة المرحم
من مقلتيك وأنت لم تتألمي
فوهبت لحظك ما أحلك من دمي
لا تهتدي فيها الليوث ليجم
رحب المقلد بالثريا ملجم
مرأة هند وسط لج ترمني
فتقت كمائم جناحها عن أنجم
فيه الصباح كفرة في أدهم
مرأى ابن نصر لاح للمتوسم
فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم
هو مورد الصادي وكتر المعدم
فراحت ملامح نوره عين العمي
فأنى الجلال من الجمال بتوأم
فأفاد بين تجهم وتبسم
يوم اللقاء ربيعة بن مكرم
وتعير عرف الروض طيب تنسم
والبحر دونك في ندى وتكرم
فترى العمائم تحتها كالأنجم
قطع السحاب بجوها المتغيّم
فتخر صرعى للدين وللسم

ولك الأباذي البيضُ قد طوقتها
 شيمٌ يقرُّ الحاسدونَ بفضلها
 ورث الساحةَ عن أبيه وجده
 نقلوا المعالي كابراً عن كابرٍ
 وتسموا رتبَ العلاء بحققها
 يا آل نصر أنتم سرجُ الهدى
 الفاعنون لكل صعب مضيق
 والباسمون إذا الكُساء عوابسُ
 أنباء أنصار النبي وحزبه
 سل عنهم أحداً وبدراً تلقهم
 وبفتح مكة كم لم في يومه
 أقسمت بالحرم الأمين ومكة
 لولا مآثرهم وفضلُ علامهم
 ماذا عسى أنبي وقد أثنت على
 يا وارثاً عنها مآثرها التي
 يا فخر أندلس لقد مددت إلى
 أما سعودك في الوغى فتكفلفت
 وافيت هذا الثغر وهو على شفا
 ورعته سياسة دارت على
 كم ليلة قد بت فيها ساهراً
 يا مظهر الألفاظ وهي خيبة
 لله دولتك التي آثارها
 ما بعد يومك في المواسم بعلمها

صيد الملوك ذوي التلاد الأقدم
 والصبح ليس ضياؤه بمكتم
 فالأكرم ابن الأكرم ابن الأكرم
 كالرمح مطرد الكعوب مقوم
 ما بين جد في الخلافة وابنم
 في كل خطب قد نجمهم مظلم
 والشارجون لكل خطب مبهم
 والمقتضون على السواد الأعظم
 وذوي السوابق والجوار الأعظم
 أهل الغناء بها وأهل المغم
 بلواء خير الخلق من متقدم
 والركن والبيت العتيق وزمزم
 ما كان يعزى الفضل للمقدم
 عليانهم أي الكتاب المحكم
 قد شيدت للفخر أشرف معلم
 عليك كف اللاتذ المستعصم
 بسلامة الإسلام فاخلد واسلم
 فشفيت معضل دائه المستحکم
 مختطة دور السوار بمعصم
 تهي الأمان إلى العيون النور
 ومهب ريع النصر للمتشم
 سير الركاب المنجد أو متهم
 أتبت عيد القطر أكرم موسم

وافتك أشراف البلاد ليومه
 صرفوا إليك ركا بهم وتيمّموا
 وتبوأوا منه بدار كرامة
 ودّت نجوم الأفق لو مثلت به
 والروض مختال بحلّة سندس
 ورياحه نمت بنشر لطيمة
 وأريتنا فيه عجائب جمّة
 أرسلت سرعان الجياد^٢ كأنها
 من كل منحفر بحطّفة بارق
 طيرف يشك الطرف في استنائه
 ومسافر في الجو تحسب أنه
 رام استراق السمع وهو ممنع
 رجمته من شهب النصال خواصب^٣
 ومدارة الأفلاك أعجز كنهها
 يمشي الرجال بجوفها وجميعهم
 ومنوع الحركات قد ركب هوا
 فإذا هوى من جوه ثم استوى

من كل تدب للعلا متسم
 من بابك المتاب خير ميمم
 فالكل بين مقرب ومنعم
 لتفوز فيه برتبة المستخدم
 من كل موثي الرقوم منهم
 وأقاحه سمت بنغر ملثم^١
 لم تجر في خلد ولم تتوهم
 أسراب طير في التنوفة^٣ حوم
 قد كاد يسبق لمحة المتوهم
 فكأنه ظن بصدري مرجم
 يرقى إلى أوج السماء بسلم
 فأصيب من قضب العصي^٤ بأسهم
 لولا تعرضه لها لم يرجم
 إبداع كل مهندس ومهندس
 عن مستوى قدميه لم يتقدم
 يمشي على خط به متوهم
 أبصرت طيراً حول^٥ صورة آدم

١ في أصول أزهار الرياض وفي التجارية : مسلم ؛ وصححه محقق الأزهار : « مثل » وأثبتنا ما في ق ، لكونه أقرب إلى الصواب .

٢ سرعان الخيل : أوائلها .

٣ التنوفة : المغارة .

٤ ق : قواضب ، ولها وجه ، لأنه يتحدث عن المواد ، فالقواضب السيوف ، وهي ترجمه أي تعرض له .

٥ الأزهار : حل .

يمشي على فني الرشاء كأنه
وليك من صون العقول عقيلة
ترجو قبولك وهو أكبر منحة
طاردت فيها وصف كل غريبة
ودعوت أرباب البيان أريهم
ما ذاك إلا بعض أنعمك التي
فيه مساور ذابل أو أرقم
وقفت بياك وقفة المسترحم
فاسمَح به خللدت من متكرم
فنظمت شارده الذي لم ينظم
« كم غادر الشعراء من متردم »^١
قد علمتنا كيف شكر المنعم

ثم قال : وأنشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعننا الأمير أبي عبد الله
— رحمة الله تعالى عليه — وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة
آثار مولانا رضي الله تعالى عنه :

سل الأفق بالزهر الكواكب حاليا
وحملت معتل النسيم أمانة
فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفة
وساوس كم جدت وجد بي الهوى
ومن يطع الألاحظ في شرعة الهوى
عدلت بقلبي عن ولاية حكمه
وما الحب إلا نظرة تبعث الهوى
فيا عجبا للعين تمشي طليقة
ألا في سبيل الله نفس نفيسة
ويا رب عهد للشباب قضيت
خلوت بمن أهواه من غير رقية
فلاني قد أودعته شرح حاليا
قطعت بها عمر الزمان أمانيا
أحملها ما يستخف الرواسيا
فعدت به القلب المقلب هازيا
فلا بد أن يعصي نصيحا ولا حيا
غداة ارتضى من جائر اللحظ واليا
وتعقب ما يعيي الطبيب المداويا
ويصبح من جرائها القلب عانيا
يرخص منها الحب ما كان غاليا
وأحسنت من دين الوصال التقاضيا
ولكن عفاني لم أكن عنه خاليا

١ غير قول عنزة المفتتح بـ « هل » ؛ وعجز البيت : « أم هل عرفت الدار بعد توهم » وهو مطلع
ملقته .

ويومٍ بمستنٍ الظباء شهدتهُ
 ولم أصح من خمرٍ اللحاظِ وقد غدا
 وجردت من غمدِ الغمامةِ صارماً
 تبسمُ فاستبكي جفوني غمرةً^١
 وأذكرني ثغراً ظمئتُ لورده
 وراح خفوق القلبِ مثلي كأنما
 وليلةً بات البدرُ فيها مضاجعي
 كرعْتُ بها بين العذيبِ وبارق
 رشفتُ به شهدَ الرضابِ سُلالةً
 فيا برِّدْ ذاك الثغرِ رَوَيْتْ غلتي
 وروضةً حسن للشبابِ نصيرة
 وبْتُ أَسْقِي^٢ وردةَ الخلدِ أدمعي
 ومالتُ بقلبي مائلاتُ قدودِها
 جزى الله ذاك العهدَ عوداً فطلما
 وقل لليالِ في الشبابِ نعمتها
 ويا وادياً رفَّتْ عليَّ ظلاله
 رمّني عيونُ السَّربِ فيه وإنما
 فلولاً اعتصامي بالأميرِ محمد
 فقل للذي يبني على الحسنِ شعرةً
 فكم من شكاة في الهوى قد رفاتُها

أجْدُ وصلاً بالياً فيه بالياً
 به الجوُّ وضاحِ الأسرةِ صاحياً
 من البرقِ مصقولِ الصفيحِ يمانياً
 ملأتُ بدرَ الدمعِ منها ردائياً
 ولا والهوى العذري ما كنت ناسياً
 يبرق الحمى من لوعة الحب ما بيا
 وباتت عيون الشَّهبِ نحوي روانياً
 بموردِ ثغرٍ بات بالدرِّ حالياً
 وقبَلْتُ في ماء النعيمِ الأفايحاً
 ويا حرَّ أنفاسي أذبت فؤادياً
 هصرتُ بغصنِ البانِ فيها المجانياً
 فأصبح فيها نرجسُ اللحظِ ذاوياً
 فما للقدودِ المائلاتِ وما ليا
 أعاد علي رباعي الظباء الجوازيأ
 وقضيتُها أنساً : سقيت لياليا
 ونحن نديرُ الوصلَ قدسنت^٣ وادياً
 رمين بقلبي في الغرام المرامياً
 لما كنتُ من فتك اللواحظِ ناجياً
 عليه مع الإحسان لا زلت بانياً
 ورفعتُها بالمدح إذ جاء تاليا

١ الأزهار : عبرة .

٢ الأزهار : وقد بت أسقي .

٣ الأزهار : فديت .

وكم ليلة في مدحه قد سهرتها
ولاح عمود الصبح مثل انتسابه
إمام أفاد المكرمات زمانه
وجاوز قدر البدر نوراً ورفعة
هو الشمس بث في البسيطة نفعها
هو البحر بالإحسان يزخر موجه
هو الغيث مهما يمسك الغيث سحبه
شمائل لو أن الرياض بحسنها
فيا ابن الملوك الصيّد من آل خزر
ألسّ الذي ترجو العفاة نواله
ألسّ الذي نخشى البغاة صياله
وهديك مهما ضلت الشهب قصدها
وعزّمك أمضى من حسامك في الوغى
فكم قاذح في الدين يكفر ربه
وما راعه إلا حسام وعزّة
فلولاك يا شمس الخلافة لم بين
ولولاك لم ترفع سماء عجاجة
ولولاك لم تنهل غصون من القنا
فأثمر فيها النصل نصراً مؤزراً
ومهما غدا سقّاح سيفك عارياً

أباهي بدر النظم فيه الداريا
رفعت عليه للمديح المبانيا
وشاد له فوق النجوم العالييا
ولم يرض إلا بالكمال مؤاليا
وأنوارها أهدت قريباً وقاصيا
ولكنه عذب لمن جاء عافيا
يرو بسحب الجود من كان صاديا
لما صار فيها زهرها الغض ذاويا
وذا نسب كالصبح عزّ مساميا
فتخجل جدواه السحاب الغوايا
فتوجلّ عليه الصعاب العوايا
تولته في جنح الدجّة هاديا
وإن كان مصقول الغارين ماضيا
قدحت له زند الحفيظة وارييا
بضبان في ليل الخطوب اللواجيا
سيل جهاد كان من قبل خافيا
تلوح بها بيض النصول دراريا
وكانت إلى ورد الدماء صوايا
وأجنى قطاف الفتح غضاً ودانيا
يغادر وجه الأرض بالدم كاسيا

١ الأزهار : أبدت .

٢ ق : يسي ، والتصحيح عن الأزهار .

٣ الأزهار : فتزل ، وكلتا التفتين غير موضعتين للمعنى المقصود ، وسقط البيت من ق .

قضى الله من فوق السموات أنه
 فكم معقل للكفر صبحت أهله
 رقيت إليه والسيوف مشيخة
 ففتحت مرقاه المنع عنوة
 وناقوسه بالقصر أسمى معطلا
 عجائب لم تخطر ببال وإنما
 فمناك استفاد الدهر كل عجية
 وعنك يروي الناس كل غريبة
 والله مبناك الجميل فإتسه
 فكم فيه للأبصار من متنزّه
 وتهوى النجوم الزهر لو ثبت به
 ولو مثلت في سابقه^١ لسابقت
 به البهو قد حاز الهاء وقد غدا
 وكم حلة جلته بجليها
 وكم من قسي في ذراه ترفعت
 فتحسبها الأفلاك دارت قسيها
 سوارى قد جاءت بكل غريبة
 به المرمو المجلو قد شفى نوره
 إذا ما أضاعت بالشعاع تحالها
 به البحر دقاع العباب تحاله
 إذا ما جلت أيدي الصبا من صفحه

على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا
 يجيش أعاد الصبح أظلم داجيا
 وقد بلغت فيه النفوس التراقيا
 وبات به التوحيد يعلو متاديا
 ومنبره بالذكر أصبح حاليما
 ظفروا بها عن همة هي ما هيا
 يباهي بها الأملاك أخرى لياليا
 نخط على صفح الزمان الأماليا
 يفوق على حكم السعود المبانيا
 تجدد به نفس الحليم الأمانيا
 ولم تك في أفق السماء جواريسا
 إلى خلعة ترضيك منها الجواريا
 به القصر آفاق السماء مباهيا
 من الوشي تسمى السابري اليمانيا
 على عمد بالنور باتت حواليا
 تظل عمود الصبح إذ بات^٢ باديا
 فطارت بها الأمثال تجري سواريا
 فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
 على عظم الأجرام منها لآليا
 إذا ما انبرى وقد التسيم مياريا
 أرتنا دروعا أكسبتنا الأياديا

١ الأزهار : ساحبه .

٢ الأزهار : لاح .

وراقصة في البحر طوع عنها
إذا ما علت في الجوّ ثم تحدت
بذوّب بلجين سال بين جواهر
تشابه جار للعيون بجماد
فإن شئت تشبيهاً له عن حقيقة
فقل أرقصت منها البحيرة منها
أرتنا طباع الجود وهي وليدة
سقت نغزهرالروض عذب برودها
كأن قد رأت نهر المجرة ناضياً
وقامت بنات الدوح فيه موائلاً
رواضع في حجر الغرام ترعرعت
بها كل ملتف الغدائر مسبل
وأشرف جيد الغصن فيها معطلاً
إذا ما تحلّت درّ زهر غروسه
مصارفة التقدين فيها بمثلها
فإن ملأت كف النسيم بمثلها
فيملاً حجر الروض حول غصونها
تغرّد في أفنانها الطير كلما
تراجعها سجعاً فتحسب أنها

تراجع الحان القيان الأغانيا
تحلّي بمرفض الجمّان النواحيا
غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
فلم أدر أياً منهما كان جاريا
تصيب بها المرمى وبوركت راميا
كما يرقص المولود من كان لاهيا
ولم ترض في الإحسان إلا تغاليا
وقامت لكي تهدي إلى الدهر ساقيا
فرامت بأن تجري إليه السواقيا
فرادى ويتلو بعضهن مثنائيا
وشبت فشبت حبها في فؤاديا
تجبل به أيدي النسيم مداريا
فقلدت النوار منه التراقيا
بيت لها النمام بالطيب واشيا
أجاز بها التقدين منها كما هيا
دراهم نور ظل عنها مكافيا
دنابير شمس تترك الروض حاليا
تجس به أيدي القيان الملاهيا
بأصواتها تحلّي عليها الأغانيا

١ الأزهار : الغوانيا ؛ ق : المانيا .

٢ الأزهار : نبتها .

٣ الأزهار : الزهر .

٤ الأزهار : أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا .

٥ الأزهار : مع الفصحى .

فلم ندرِ روضاً منه أنعمَ نضرةً
 ولم نرَ قصرأً منه أعلى مظاهراً
 معاني من نفس الكمال انتصيتها
 وفاتحت مبناه بعيد شرعه
 ولما دعوت الناس نحو صنيعه
 وأمؤه من أقصى البلاد تقرباً
 وأذكرت يوم العرض جوداً ومنعة
 جزيت به كلاً على حال سعيه
 وأطلعت من جزل الوعود هواجساً
 وحين غدا يذكى بيابك للقري
 وطامحة في الجوى غير مطالعة
 تمدُّ لها الجوزاء كفَّ مُسارعاً
 ولا عجب أن فاتت الشهب بالعللا
 فين يدي مثواك قامت لخدمة
 وشاهدُ ذا أني بيابك واقف
 وقد أرضعت ندي الغمام قبلها
 فلما أبيت عن قرارة أصلها
 وعدت لقاء السحب عيداً وموسماً
 فأضحكت البرق الطروب خلاها
 رأت نفسها طالت فظنت بأنها
 وأعطر أرجاء ، وأحلى مجانيا
 وأرفع آفاقاً ، وأفسح ناديا
 وزينت منها بالجمال المغانيا
 تبث به في الخافقين التهانيا
 أجابوا لهم من جانب الغورداعيا
 وما زال منك السعد يدني الأقاصيا
 بموقف عرض كنت فيه المجازيا
 فما غرست بمناه أصبح جانبا
 تذكّر يوم النفر من كان ساهبا
 فلا غرو أن أجريت فيه المذاكيا
 برد مداه الطرف أحسّر عانيا
 ويدنو لها بدر السماء مناجيا
 وأن جاوزت منها المدى المتناها
 ومن خدّم الأعلى استفاد المعاليا
 وقد حسدت زهر النجوم مكانيا
 بحجر رياض كن فيه نواشيا
 أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا
 لذلك اغتدت بالزمر تلهي الغواديا
 وباتت لأكواس الدراري معاطيا
 تفوت على رغم الحاق المراميا

فخفت إليها الذابلات^١ كأنها
حكّت شبعاً^٢ للنحل والنحل حوله
فمن مثبت منها الرميّة مدرّك
وحصن منيع في ذراها قد ارتقى
كأنّ بروق الجوّ غارت وقد أرت
فأنشأت برجاً صاعداً متزلاً
تطوّرت حالات أقي في ضروبها
فحجل^٣ برجليها وشاح^٤ بخصرها
وما هو إلّا طير^٤ سعد بذروة
أمولاي يا فخر الملوك ومن به
بتوك على حكم السعادة خمسة
تبيت لهم كف الثريا معبدة
أسام عليها للسعادة ميسم
جعلت أبا الحجاج فاتح طرسهم
وحسبك سعد ثم نصر يلبهم
أقمت به من فطرة الدين سنة
وجاءوا به ملء العيون وسامة
فيا عاذراً ما كان أجراً مثله
وجاءتك من مصر التحايا كرائمًا

طيور^١ إلى وكر^١ أطلن^١ نهاويا
عصي^٢ إلى مثواه^٢ تهوي عواليا
ومن طائش في الجوّ حكّت وانيا
فأبعد في الجوّ الفضاء المراقيا
بروج قصور شدّتهن^٣ سواميا
يكون^٤ رسولا^٤ بينهن^٤ مداريا
بأنواع حكي تستقر الغوانيا
وتاج إلى ما حل منها الأعاليا
غدا زاجراً من أشهب الصبح بازيا
سيلغ دين^٥ الله ما كان راجيا
وذا عدد^٦ للعين ما زال واقيا
ويصبح معتل^٧ النواسم راقيا^٨
تري العز فيها مستكنًا وباديا
وقد عرفت منك الفتوح التواليا
محمد^٩ الأرضي ، فلا زلت راضيا
وجددت من رسم الهداية عافيا
يقبل وجه الأرض أزهر باهيا
فمثلك لا يدمي الأسود الضواريا
فما فتت أيدي التجار الغواليا

١ قد : الزائلات .

٢ ق : شبعاً .

٣ سقط البيت من ق .

٤ يريد الذي يقوم بالتحيا .

ووافتك من أرض الحجاز تيممة^١
وناداك بالتمويل^٢ سلطان طيبة
وقام وقد وافى ضريح محمد
سريرتك الرحى جزاك بسعيها
فوالله لولا سنة^٣ نبوتك
وعذر من الإعذار قرر حكمه
لراعت بها للحرب أهوال^٤ موقف
لك الحمد فيه من صنع تعدة
تشدد له الجوزاء عقد نطاقتها
وهنيت بالأمداح فيه وقد غدا
ودونك من بحر البيان جواهرأ
وطاردت فيها وصف كل غريبة
فيا وارث الأنصار لا عن كلاله
بأمداحه جاء الكتاب مفصلاً
لقد عرف الإسلام مما أفدته
عليك سلام الله فاسلم مخلصاً

تتم صنع الله لا زال باديا
فيا طيب ما أهدى إليك مناديا
لسلطانك الأعلى هنالك داعيا
إله يوفي بالجزاء^٢ المساعيا
عهدناه مهدياً إليها وهاديا
من الشرع أخبار رفعت عواليا
تشيب بمبيض النصول العواليا
فثالثه في الفخر عزز ثانيا
لتخدم فيه كي تنال المعاليا
وجودك فيه بالإجادة وافيا
كرمن فما يشترن إلا غواليا
فأعجزت من يأتي ومن كان ماضيا
تراث جلال يستخف الرواسيا
يرتله في الذكر من كان تاليا
مكارم أنصارية وأباديا
تجدد أعياداً وتبلي أعاديا

ثم قال : ومن ذلك في الصنيع المختص بالأمراء الجيلة : أئينا المعز لدولتنا أبي
الحسن ، وأئينا أبي العباس ، وابن عمنا أبي عبد الله ، وصل الله تعالى سعودهم .
ولقد أبدع في تشييده وتأسيسه ، وبسط يد الحسن من براعته وتخمينه ، وذلك

١ ق والأزهار : بالتهويل ؛ والتمويل : قوله « يا مولاي » .

٢ الأزهار : في الجزاء .

٣ ق : للجزو .

٤ الأزهار : من براعة تخمينه .

١ عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبته لما عادت إلى ملكه :

أرقتُ لبرقٍ مثلِ جفني ساهرا ينظمُ من قطرِ الغمامِ جواهرها
فيسمُ ثغرُ الروضِ عنه أزاهرا وصبحِ حكي وجهِ الخليفةِ باهرا
نجمٌ من نورِ الهدى وتجمدا

شفاني معتلُ التسميمِ إذا انبرى وأسند عن دمي الحديث الذي جرى
وقد فتقَ الأرجاء مسكاً وعبراً كأنَّ الفني بالله في الروض قد سرى
فهبتْ به الأرواحُ عاطرةَ الرِّدا

عذيري من قلبٍ إلى الحسنِ قد صبا تهبُّجهُ الذكرى ويصبو إلى الصِّبا
ويُجري جياذَ الهوى في ملمبِ الصِّبا ولولا ابنُ نصرٍ ما أفاق وأعتبا
رأى وجهه صبحَ الهدايةِ فاهتدى

إليك أميرَ المسلمين شكايَسةً جنى الحسنُ فيها للقلوبِ جنابةً
وأعظمَ فيها بالعميون نكايَسةً وأطلع في ليلٍ من الشعرِ آيةً
محيلاً جميلاً بالصباح قد ارتدى

بهديك تُهذي النيراتُ وتهدي وأنواها جدوى يمينك تجتدي
وعدلك للأملِاك أوضحُ مرشدٍ بآثاره في مشكلِ الأمرِ تقسدي
فما بالُ سلطانِ الجمالِ قد اعتدى

نحكَمَ منا في نفوسٍ ضعيفةٍ وسلَّ سيوفاً من جفونِ نحيفةٍ
ألم يدرِ أنا في ظلالِ خليفةٍ ودولةِ أمنٍ لا تُراعُ مُنيقةٍ
بها قد رسا دينُ الهوى وتمهدا

١ الأزهار : وذلك عام .

٢ الأزهار : فأضحك .

خلوا بدم المشتاق لحظاً أراقه وبرقاً بأعلام الثنية شاقه
وإن كلفوه فوق ما قد أطاقه يبت حديثاً ما ألد مساقه
خليفة المولى الإمام محمداً

تقلد حكم العدل ديناً ومذهباً وجوّز الليالي قد أزاح وأذهباً
فيا عجباً للشوق أذكى وألبها وسكّ صباحاً صارم البرق مذهباً
وقد بات في جفن الغمامة مغمداً

يذكرني ثغراً لأسماء أشنباً إذا ابتسمت تجلو من الليل غيها
كغزم أمير المسلمين إذا احتبى وأجرى به طيفاً من الصبح أشهباً
وأصدر في ذات الإله وأورداً

فسيحان من أجرى الرياح بنصره وعطر أنفاس الرياض بشكره
فبرد الصبا يطوى على طيب نشره ومهما تجلّى وجهه وسط قصره
تري هالة بدر السماء بها بدا

إمام أفاد العلوات زمانه فما لحقت زهر النجوم مكانه
ومدّ على شرق وغرب أمانه ولا عيب فيه غير أن بنانه
تغرق مستجديه في البحر الندى

هو البحر مدّ العارض المتهللاً هو البدر لكن لا يزال مكمللاً
هو الدهر لا يخشى الخطوب ولا ولا هو العلم الخفاق في هضبة العلا
هو الصارم المشهور في نصرة الهدى

أما والذي أعطى الوجود وجوده وأوسع من فوق البسيطة جوده
لقد أصحب النصر العزيز بنوده ومدّ بأملاك السماء جنوده
وأنجز للإسلام بالنصر موعداً

أمولاي قد أنجحت رأياً وراية ولم تُبقِ في سبقِ المكارمِ غايةً
فتهدي سجايا كابرٍ رشدي نهايةً وإن كان هذا السعدُ منك بدايةً
سيبقى على مرِّ الزمانِ مخلداً

سعودك تُغني عن قراعِ الكتائبِ وجودك يُزري بالغمامِ السواكبِ
وإن زاحمتها شُهبها بالمناكبِ ووجهك بدرُ المنتدى والمواكبِ
وقد فسحت في الفخرِ أبناؤك المدى

بنوك كأمثال الأناملِ عِدَّةٌ أُعِدَّتْ لما يُخشى من الدهرِ عِدَّةٌ
وزيدَ بهم بُردُ الخلافةِ جِدَّةٌ أطلَّ لهم في ظلِّ ملكك مُدَّةٌ
إلهٌ يطيلُ العمرَ منك مؤبداً

بدورٍ بأوصافِ الكمالِ استقلتِ غمامٌ بفياضِ النوالِ استهلَّتِ
سيوفٌ على الأعداءِ بالنصرِ سلَّتِ نجومٌ بأفاقِ العلاءِ تجلَّتِ
ولاحتُ كما شاءتُ سعودك أسعداً

وإنَّ أبا الحجاجِ سيفك منتضى وبدرٌ بأفاقِ الجمالِ تعرّضا
بنورك يا شمسَ الخلافةِ قد أضأ وراقتُ على أعطافه حُللُ الرضى
فحلَّ محلاً من علاك^١ مههداً

ملكٌ له تعنو الملوكُ جلاله يجرّرُ أذيالَ الفخارِ مطاله
وتفرّقُ أسدُ الغابِ منه بسالةً وترضاهُ أنصارُ الرسولِ سلالةً
فأبناؤه طابوا فروعاً ومحتداً

أزاهرُ في روضِ الخلافةِ أينعتُ زواهرُ في أفقِ العلاءِ تطلّعتُ

١ الأزهار : رضاك .

جواهرُ أُغيتْ في الجمالِ وأبدعتْ وعن قيمةِ الأعلامِ قدراً ترفعتْ
يسرُّ بها الإسلامُ غيباً ومشهداً

بعهدِ وليِّ العهدِ كرمَ عَهْدُهُ وأنجزَ في تخليدِ ملكك وعدُهُ
تنظّمَ منهم تحتَ شملكِ عَقْدُهُ وأورثهم فخراً أبوهُ وجدُهُ
فأعلى عليّاً حينَ أحمدَ أحمداً

تحوطُ بهمُ ملكاً عزيزاً وملةً وتلحظُ عينُ السَّعدِ منهم أهلةً
ستبدو على أفقِ العلاِ مستقلةً وسُجّباً بفيّاضِ العلاِ مستهلةً
تفجّرُ بحراً للسّاحةِ مُزبداً

ونجلكَ نصرٌ يقتضي نجلَ رسمهِ أميرٌ يزينُ العقلَ راجحُ حلمهِ
أناكَ بنجلٍ يُستضاءُ بنجمهِ لحبِّ رسولِ اللهِ سمّاهُ باسمهِ
وباسمكَ في هذي الموافقةِ اقتدى

أقمتَ بإعذارِ الإمارةِ سُنَّةً وطوّقتَ من حليِّ بفخركَ منةً
وأسكنتها في ظلِّ برِّكَ جَنَّةً وألحقتها برَّدِ امتنانكَ جَنَّةً
وعَمَّرتَ منها بالتلاوةِ مسجداً

قللهِ عينا مَنْ رآهم تطلّعوا غصوناً بروضِ الجودِ منك ترعرعوا
وفي دوحَةِ العلياءِ منك تفرّعوا ملوكٌ يجلبابِ الحياءِ تقنّعوا
أضياءُ بهمُ من أفقِ قصرِكَ متدى

وقد أشعروا الصبرَ الجميلَ نفوسهمُ وأضفوا بهِ فوق الحليِّ لبوسهمُ
وقد زينوا بالبشرِ فيه شمسهمُ وعاطوا كؤوسِ الأنسِ فيه جليسهمُ
وأبدوا على هَوْلِ المقامِ تجلّداً

١ الأزهار : وقد أفرغوا .

شمائلُ فيهم من أيهم وجدَّهم تفصلُ آيُ الفخرِ فيها بحمدهم
وتنسبها الأنصارُ قديماً لسعلمهم تضيءُ بها نوراً مصابيحُ سعدهم
ولم لا ومن صحبِ الرسولِ توقداً

فوالله لولا سنةٌ قد أقمتها وميرةٌ هدي للشيء علمتها
وأحكامٌ عدلٌ للجندِ رسمتها لحالت بها الأبطالُ تقصدُ سمتها
وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مقصداً

ويا عاذراً أبدى لنا الشرعُ عذره طرقت حمى قد عظم الله قدره
وأجريت طيباً يحسدُ الطيبُ نشره لقد جئت ما تستعظم الصيدُ أمره
وتفديه إن يقبل خليفتها فدا

رعى الله منها دعوةً مستجابةً أفادت نفوسَ المخلصينَ إنابةً
ولم تُلَف من دونِ القبولِ حجابةً وعاذرها لم يبدِ عذراً مهابةً
فأوجبَ عن نقصٍ كمالاً تزيداً

فنقصُ كمالِ المالِ وفرُّ نصايه وما السيفُ إلا بعدَ مشقِّ ذبابه
وما الزهرُ إلا بعدَ شقِّ إهابه بقطعِ يراعِ الخطِّ حسنُ كتابه
وبالنقصِ يزدادُ الذبالُ توقداً

ولما قضوا من سنةِ الشرعِ واجبا ولم تلقَ من دونِ الخلافةِ حاجبا
أفضنا نهني منك جدلانَ وإهاباً أفاضَ علينا أنعماً ومواهباً
نعوّدَ بذلَ الجودِ فيما تعوّدوا

هنيئاً هنيئاً قد بلغت مؤملاً وأطلعت نوراً يبهزُ المتأمل

وأحرزت أجرَ المنعمين مكملًا تبارك من أعطى جزيلًا وأجملا
وبلغَ فيك الدينَ والملكَ مقصداً ،

ألا في سبيلِ العزِّ والفخرِ موسمٌ يظلُّ بهِ فغرُّ المسرةِ ييسمُ
وعرفُ الرضى من جوهٍ يتنعمُ وأرزاقُ أربابِ السعادةِ تُقسمُ
ففي وصفه ذهنُ الذكيِّ تلبداً

وجللتَ في هذا الصنيعِ مصانعا تمنى بدورُ الهم منها مطالعا
وأبديتَ فيها للجمالِ بدائعا وأجريتَ للإحسانِ فيها مشارعا
يودُّ بها نهرُ المجرةِ مورداً

وأجريتَ فيها الخيلَ وهي سوابقُ وإن طلبتَ في الروحِ فهي لواحقُ
نجومٌ وآفاقُ الطرادِ مشارقُ يفوتُ التماحَ الطرفُ منها بوارقُ
إذا ما تجاري الشهبَ تستبقُ المدى

وتطلعُ في ليلِ القنামِ كواكبا وقد وردتْ نهرَ النهارِ مشاربا
تقودُ إلى الأعداءِ منها كواكبا فترسمُ من فوقِ الترابِ محاربا
تخورُ رؤوسُ الرومِ فيهنَّ سجدًا

سوايحُ بالنصرِ العزيزِ سوانحُ وهنَّ لأبوابِ الفتوحِ فوانحُ
تقودُ إليك النصرَ والله مانحُ فما زلتَ بابَ الخيرِ والله فانحُ
وما تمَّ شيءٌ قد عدا بعد ما بدا

رياحُ لها مثنى البروقِ أعتةٌ ظباءُ فإن جنَّ الظلامُ فجنةٌ
تقيها من البدرِ المتممِ جنةٌ وتشرعُ من زهرِ النجومِ أسنةٌ
فتتدفُّ شهبَ الرجمِ في أنغرِ العدا

فأشهبُ من نسلِ الوجيهِ إذا انتمى جرى فشأى شهب الكواكب في السما
وخلّفَ منها في المقلّدِ أنجما تردّى جمالاً بالصباحِ وربما
يقول له الإصباح : نفسي لك الفدا

وأحمرُ قد أذكى به البأسُ جمرَةً وقد سلّبَ الياقوتَ والوردَ حمرةً
أدار به ساقٍ من الحرب خمرَةً وأبدى جباباً فوقها الحسنُ غرّةً
يزينُ بها خدّاً أسيلاً مؤرداً

وأشقرُ مهما شعشع الركنُ برقتهُ أعار جوادَ البرقِ في الأفقِ سبقةً
بدا شفقاً قد جلتل الحسنُ أفقهُ ألم ترَ أن الله أبدعَ خلقَه
فسال على أعطافه الحسنُ عسجداً

وأصفرُ قد ودَّ الأصيلُ جمالهُ وقد قدّ من بُردِ العشيّ جلالهُ
إذا أخرجوا جِنَحَ الظلامِ ذبالهُ فغرّتهُ شمسٌ تضيءُ مجالهُ
وفي ذيله ذيلُ الظلامِ قد ارتدى

وأدهمُ في مسحِ الدجى متجردُ يحيشُ بها بحرٌ من الليلِ مُزبدُ
وغرّتهُ نجمٌ به تتوقّدُ له البدرُ سُرُجٌ والنجومُ مُقلّدُ
وفي فلقِ الصبحِ المينِ تقيداً

وأبيضُ كالقِرطاسِ لاحَ صباحهُ على الحسنِ مغداهُ وفيه مراحهُ
وللظبيّاتِ الأنساتِ مراحهُ تراهُ كَنَشْوَانِ أمانتهُ راحهُ
وتحسبهُ وسطَ الجمالِ معربداً

١ ق : نجم .
٢ ق : وأشهب .

وزاهبةً في الجوِّ ملءَ عنانها وقد لفعتُها السُّحبُ بُرْدَ عنانها
يفوتُ ارتدادَ الطَّرفِ لمَحْ عيانها وختَمَتِ الجوزاءُ سَبْطَ بنانها
وصاغتْ لها حلِّيَ النجومِ مقيِّداً

أراها عمودُ الصبحِ علُوَ المضاعِدِ وأوهمها قربَ المدى المتباعِدِ
ففاتتهُ سَبْقاً في مجالِ الرواعِدِ وأنحفتِ الكفُّ الخَضيبَ بساعِدِ
فطوقتِ الزُّهرَ النجومَ بها يداً

وقد قذفتها للعصيِّ حواصبُ قد انتشرتْ في الجوِّ منها ذوائبُ
تزاور منها في الفضاءِ حبابُ فيبينها من قبلِ ذاكَ مَناسِبُ
لأنهما في الروضِ قبلُ تولداً

بناتُ لأمٍّ قد حُبِنَ لروحها دعاها الهوى من بعدِ كتمٍ لبوحها
فأقلامُها تهوي لخطِّ بلوحها فبالأمسِ كانت بعضُ أغصانِ دوحها
فعادتْ إليها اليومَ من بعدُ عوداً

ويا رَبَّ حصنٍ في ذراها قد اعتلى أنارتْ بروجُ الأفقِ في مظهرِ العلا
بروجَ قصورٍ شِدَّتْها متطولا فأنشأتْ برجاً صاعداً متنزلاً
يكونُ رسولاً بينها مَرَدداً

وهل هي إلا هالةٌ حولَ بدرها يصوغُ لها حلياً يليقُ بنحرها
تطوِّرُ أنواعاً تشيدُ بفخرها فحجَلُ برجليها وشاحُ بنصرها
وتاجُ بأعلى رأسها قد تنضداً^١

١ شبه بقوله في القصيدة السابقة :

فحجَلُ برجليها وشاحُ بنصرها وتاجُ إلى ما حل منها الأعالي

أَرَادَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ وَهُوَ مَمْنَعٌ قَسَامَ بِأَذْيَالِ الدَّجَى يَتَلَفَعُ
وَأَصْنَى لِأَخْبَارِ السَّمَاءِ يَتَسَمَّعُ فَأَتْبَعَهُ مِنْهَا ذَوَابِلُ شُرْعُ
لَتَقْدَفَهُ بِالرُّغْبِ مَتْنً وَمَوْحِداً

وَمَا هُوَ إِلَّا قَائِمٌ مَدَّةَ كَفَّةٍ لِيَسْأَلَ مِنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ لُطْفَهُ
لِمَوْلَى تَوْلَاهُ وَأَحْكَمَ رَصْفَهُ وَكَلَّفَ أَرْبَابَ الْبَلَاغَةِ وَصْفَهُ
وَأَكْرَمَ مِنْهُ الْقَائِنَاتِ الْمُتَهَجِّدَاتِ

مَلَا فِي رَكْبٍ مِنْ وَفُودِ النَّوَاسِمِ مَقْبَلٌ نَغْرٍ لِلْسَّبُوقِ الْبَوَاسِمِ
مَحْتَمٌ كَفٌّ بِالنَّجُومِ الْعَوَاسِمِ مَبْلَغٌ قَصْدٍ مِنْ حُضُورِ الْمَوَاسِمِ
نَجْدُهُ مَهْمَا صَنِيعٌ تَجَدُّدَا

وَمُضْطَرَبٌ فِي الْجَوِّ أَثْبِتَ قَامَةً تَقْدَمُ يَمْشِي فِي الْهَوَاءِ كَرَامَةً
تَطْلُعُ فِي غَصَنِ الرِّشَاءِ كَرَامَةً وَنَحْسُهُ تَحْتَ الْغَمَامِ غَمَامَةً
يَسِيلُ عَلَى أَعْطَافِهَا عَرَقُ النَّدَى

هُوَ وَاسْتَوَى فِي حَالَةٍ وَتَقَلَّبَا كَخَاطِفِ بَرْقٍ قَدْ تَأَلَّقَ خُلْبَا
وَنَحْسُهُ قَدْ دَارَ فِي الْأَفْقِ كَوَكْبَا وَمَهْمَا مَشَى وَاسْتَوْقَفَ الْعَقْلَ مَعْجَبَا
تَقَلَّبَ فِيهِ الْعَيْنُ لِحْظاً مُرَدِّدَا

لَقَدْ رَامَ يَرْفَى لِلسَّمَاءِ بَسْلَمَ فِيمَشِي عَلَى خَطٍّ بِهِ مَتَوَهَّمِ
أَجِلٌ فِي الَّذِي يَبْدِيهِ فِكْرَ تَوْسَمِ تَرَى طَائِراً قَدْ حَلَّ صُورَةَ آدَمِ
وَجِنّاً بِمَهْوَاةِ الْقَضَاءِ تَمَرِّدَا

وَمَتَسَبِّ لِلْخَالِ سَمَّوَهُ مَلْجَمَا لَهُ حِكَمَاتٌ حَكَمَهَا فَاهُ أَلْجَمَا
تَخَالَفَ جِنْساً وَالِدَاهُ إِذَا انْتَمَى كَمَا جِنْسُهُ أَيْضاً تَخَالَفَ عَنْهُمَا
عَجِبْتُ لَهُ إِذَا لَمْ يَلِدْ وَتَوَلَّدَا

ثلاثتها في الذكر جاءت مينةً من اللاء سماها لنا الله زينةً
وأُنزلَ فيها آيةً مستينةً وأودعَ فيها للجهول سَكينةً
والآلاءُ فيها على الخلق بدداً

كسوه من الوشي اليماني هودجا بمدّ على ما فوقه الظلّ سَجَنجا
وكم صورة تجلّ به تبهرُ الحجيّ وجزل وقود ناره تصدع الدجي
وقلب حُود غاظ مذكيه موقداً

وما هي إلاّ مظهرُ لجهاده أرتنا بها الأفراحُ فضلَ اجتهاده
ملاعِبُها هزّتْ قلدودَ صِغاده وأذكرت الأبطالَ يومَ طرادِه
فما ارتبت فيه اليومَ صدقتهُ غداً

ألا جدّدَ الرحمنُ صنماً حضرتَه ودوّحَ الأمانِي في ذراهُ هَصَرتَه
بقصرٍ طويلٍ الوصفِ فيه اختصرتَه يقيدُ طرفَ الطرفِ مهما نظرتَه
«ومن وجد الإحسانَ قيداً تقيداً»^١

دعوتَ لهُ الأشرافَ من كلِّ بلدةٍ فجاءوا بآمالٍ لهم مستجدةٍ
وخصّوا بالظافِ لديه معدّةٍ أبادَ بفياضِ الندى مستمدةٍ
فكلّهمُ من فضله قد تزودا

وجاءتكَ من آلِ النبي عصابةٌ لها في مرامي المكرماتِ إصابةٌ
أحبتكَ حبّاً ليس فيه استرايةٌ ولبتْ دواعي الفوزِ منها إجابةٌ
وناداهمُ التخصيصُ فابتدروا النداء

أجازوا إليك البحرَ والبحرُ يزخرُ لبحرٍ سماحٍ مدّةُ ليس يمزورُ

١. حُز بيت المتنبي ، وصدّره «وقيدت نفسي في ذراك عجة»

فرواهمُ من عذبِ جودكَ كوثرُ وواليتَ من نعماكَ ما ليس يحصرُ
وعظمتهمُ ترجو النبيَّ محمداً

عليه صلاةُ اللهِ ثمَّ سلامُهُ بهِ طابَ من هذا النظامِ اختتامُهُ
وجاءَ بحمدِ اللهِ حلّوا كلامُهُ يعزُّ على أهلِ البيانِ مرامُهُ
وتنسي له زُهرُ الكواكبِ حسداً

أبثُّ بهِ حادي الركابِ مشرقاً حديثَ جهادٍ للنفوسِ مشوقاً
رمىْتُ بهِ مَنْ بالعراقِ م فوقاً وأرسلتُ منه بالبدیعِ مطوقاً
حماماً على دوحِ الثناء مغرداً

ركضتُ بهِ خيلَ البيانِ إلى مدى فأحرزتُ خصلَ السبقِ في حلبةِ الهدى^١
ونظمتُ مِنْ نظمِ الدراري مقلداً وطوقتُ جيدَ الفخرِ عقداً منضداً
وقمتُ بهِ بين السماطينِ منشداً

نسقتُ من الإحسانِ فيه فرائداً وأرسلتُ في روضِ المحاسنِ رائداً
وقلدتُ عِطفَ الملكِ منه قلائداً تَعَوَّدْتُ فِيهِ للقبولِ عوائداً
فلا زلتَ للفعلِ الجميلِ^٢ معوداً

ولا زلتَ للصنعِ الجميلِ مجدداً ولا زلتَ للفخرِ العظيمِ مخلداً
وعُمِّرَتْ عمراً لا يزالُ مجدداً وعُمِّرَتْ بالأبناءِ أوحداً أوحداً
وقرَّتْ بهمُ عيناكَ ما سائقٌ حداً

وقال في عيد :

بشرى كما وضعَ الزمانُ وأجملُ يَغشَى سَنَاهَا كلٌّ مَنْ يتهلّلُ

١ ق : المدى .

٢ الأزهار : للفصل الجزيل .

أبدى لها وجهُ النهارِ طَلَاقَةً
ومنابرُ الإسلامِ يا ملكَ الوري^١
تجلو لنا الأكوانُ منكَ محاسناً
فالشمسُ تأخذُ من جبينك نورها
والروضُ ينفخُ من ثنائك طيبه^٢
والبرقُ سيفٌ من سيوفك متضى
يا أيها الملكُ الذي أوصافه^٣
«اللهُ أعطاك التي لا فوقها»^٤
وجهٌ كما حسرَ الصباحُ نقابه^٥
تلقاهُ في يومِ السماحةِ والوغي
كفٌ أبت أن لا تكفَ عن الندى
وشمائلُ كالروضِ باكره الحيا
خلقُ ابنِ نصرٍ في الجمالِ كخلقه
نورٌ على نورٍ بأبهى منظرٍ
فاقَ الملوكَ بسيفه وبسبيته^٦
وإذا تطاولَ للعميدِ عميدهم
يا آيةَ الله التي أنوارها
قلُ للذي التبتُ معالمُ رشده
قد ناصحَ الإسلامَ خيرُ خليفة^٧
فلقد ظهرت من الكمالِ بمستوى

وافترٌ من ثغرِ الأفاحِ مقبلٌ
بجلاكِ أو بجليتها تتكللُ
تُروى على مرِّ الزمانِ وتُنقلُ
والبيشُرُ منكَ بوجهها يتَهَلَّلُ
والورقُ فيه بالمادحِ تهلُّ
والسحبُ تهيمُ من يدك وتهلُّ
درٌ على جيدِ الزمانِ يُفَصِّلُ
وحباكَ بالفضلِ الذي لا يُجْهَلُ
لضياته تشو البدورُ الكَمَلُ
والبيشُرُ في جنباتِه يتَهَلَّلُ
أبدأ فإن ضنَّ الحيا تسرسلُ
وسرَّتْ برَيَّاهُ الصبا والشمالُ
ما بعدها من غايةٍ تُستكملُ
في حسنه للمؤملِ ما يأملُ
فبِعَدْلِهِ وبفضلِهِ يُتَمَثَّلُ
فلهُ عليه تطاولٌ وتطوُّلُ
يُهدى بها قَصْدُ الرِشَادِ الضَّلَلُ
هيهات قد وضَحَ الطريقُ الأمثلُ
وحمي عزيزَ الملكِ أغلبُ مُشْبِلُ^٨
ما بعده لذوي الخلافةِ مَأْمَلُ

١ هذه رواية الأزهار ؛ وفي ق : بالملك العلي .

٢ من رجز وتماحه :

وقد أراد المشركون عوقها عنك ويأبى الله إلا سوقها

٣ ق : بسبقه وبسبيته . ٤ ق : مشمل .

وعناية الله اشتملت رداها
فالجود إلا من يديك مقتر
والعمر إلا تحت ظلك ضائع
حيث الجهاد قد اعتلت راياته
حيث القباب الحمر ترفع للقري
يا حجة الله التي برهانها
قل للذي ناواك يرقب يومه
والله جل جلاله إن أمهلت
يا ناصر الإسلام وهو فريسة
يا فخر أندلس وعصمة أهلها
لا يهمل الله الذين رعيته
لا يبعد النصر العزيز فائته
لولا نذاك لها لما نفع الندي
لولا كان الدين يغمط حقه
لكن جنيت الفتح من شجر القنا
ولقيل ما استفتحت كل منع
ومني نزلت بمعقل متأشب
وإذا غزوت فإن سعدك ضامن
فمن السعود أمام جيشك موكب

وعلقت منها عروة لا تفصل
والغيث إلا من نذاك مبخل
والعيش إلا في جنابك محيل
حيث المغام للعفاة تنقل
قد عام في أرجائهن المنذل
عز الحق به وذل البطيل
فوراءه ملك يقول ويفعل
أحكامه مستدرجا لا تهمل
أسد القلاء من حولها تسلك
لك فيهم النعمى التي لا تجهل
فلأنت أكفى والعناية أكفل
آوى إليك وأنت نعم الموثل
ولجف من ورد الصنائع منهل
ولكان دين النصر فيه يُمطل
وجى الفتوح لمن عداك مؤمل
من دونه باب المطامع مقفل
فالعصم من شعقاته تستزل
أن لا تخيب وأن قصدك يكمل
ومن الملائك دون جنك جحفل

١ الأزهار : قام .

٢ ق : يرفع .

٣ الأزهار : العدا . ق : العل .

٤ الأزهار : مغل .

وكتيبة أردفتها بكتيبة
من كل منحفر كلمة بارق
أوفى بهاد كالظلم وخلفه
حي إذا ملك الكمي عنانه
حملت أسود كريمة يوم الوغى
لبسوا الدروع غداثراً مصقولة
من كل معتدل القوام مثقف
أذكيت فيه شعلة من نصله
ولرب لماع الصقال مشهر
رقت مضاربه وراق فيرنده
فإذا الحروب تسعت أجزالها
وإذا دجا ليل القتام رأيت
فأعجب لها من جنوة لا تنطفي
هي سنة أحيتها وفريضة
فإذا الملوك تفاخرت بمجودها
يا ابن الذين جمالهم ونوالهم
يا ابن الإمام ابن الإمام ابن الإما
آباؤك الأنصار تلك شعارهم
فهم الألى نصرُوا الهدى بعزائم
ماذا يجتر شاعر في مدحهم
مولاي لا أحصي مآثرك التي

والخيل تمرح في الحديد وترفل
بالبدر يسرج والأهلة يُنعل
كفل كما ماج الكتيب الأهبل
يهوي كما يهوي بجو أجدل
ما غابها إلا الوشيج الذبل
والسمر قضب فوقها تهدل
لكنه دون الضريبة يعسل
يهدي بها إن ضل عنه المقتل
ماض ، ولكن فعله مستقبل
فالحسن فيه مجمل ومفضل
ينساب في يمينك منها جدول
وكأنه فيه ذبال مشعل
في أبحر زخرت وهن الأغل
أديتها قربانها تتقبل
فلأنت أحفى بالجهاد وأحف
شمس الضحى والعارض المتهلل
م ابن الإمام ، وقدرها لا يُجهل
فلحيهم آوى النبي المرسل
مصقولة وبصائر لا تحذل
وبفضلهم أنى الكتاب المتزل
بحديثها تنضي المطي الدئل

١ الأزهار : مجودها .

٢ الأزهار : تنضي .

وإذا الحقائقُ ليس يدركُ كنهها
 فأليكَ من شَوَالِ غِرَّةٍ وجهه
 عذراء راقٍ العيدَ رونقُ حسنِها
 رضعتُ لبانَ العلمِ في حِجرِ النُّهى
 سلكَ البيانُ بها سبيلَ إجادَةٍ
 جاءت تهنِي العيدَ أَيْمَنَ قادمِ
 وطوى الشهورَ مراحلاً معدودةً
 وأتى وقد شَفَّ النحولُ هلاله
 عقدتُ بمرقبهِ العيونُ مسرَّةً
 فاسلمُ لألفٍ مثله في غبطةٍ
 فإذا بقيتُ لنا فكلُّ سعادةٍ
 سيانٍ فيها مكرُّ ومُقتلٌ
 أهداكها يومٌ أغرُّ مُحجَّلٌ
 فعدا بنظمِ حليتها بتجملِ
 فوفتُ لها منه ضروعُ حُفْلِ
 لولا صفاتُكَ كان عنها يعدلِ
 وافي شهرِ صيامهِ يتوسلِ
 كيما يُرى بفيناءِ جودك ينزلِ
 ولشوقهِ للقاءِ وجهك ينخلِ
 فمكبرٌ لطلوعِهِ ومُهَلِّلٌ
 ظلّ المنى من فوقهِ يتهدَّلِ
 في الدينِ والدُّنيا بها تتكفَّلِ

وقال ابن الأحمر : ومن جياذ أناشيده المتميزة بالسبقية ، وبارقات تهانيه في
 المواسم العتيقية ، قولهُ بهنثه - رضوان الله تعالى عليه - بطلوع مولانا الوالد
 قدس الله تعالى روحه^١ :

طلعَ الهلالُ وأفقهُ متهلِّلٌ
 أوفى على وجهِ الصباحِ بغرَّةٍ
 شمسُ الخلافةِ قد أمدَّتْ نوره
 لله منه هلالٌ سعدٍ طالعُ
 وألحتْ يا شمسَ الهدايةِ كوكباً
 والتاجُ تاجُ البدرِ في أفقِ العلا
 فمكبرٌ لطلوعِهِ ومُهَلِّلٌ
 فعدا الصباحُ بنوره^٢ يتجملِ
 وبسعدِها يرجو التمامَ ويكملِ
 لضيائهِ تعشو البدورُ الكُمَّلِ
 يُعشي سناه كلَّ مَنْ يتأملِ
 ما زالَ بالزُّهرِ النجومَ يكلِّلِ

١ لتشابه القصيدتين تشابه كثير من الأبيات .

٢ الأزهار : بنورها .

ولئن حوى كلّ الجمال فإنه
أطلعت يا بدر السماح هلاله
يبدو بهالات السروج وإنه
قلدت عطف الملك منه صارماً
حليته بحلى الكمال وجوهره
يفزو أمامك والسعود أمامه
من مبلغ الأنصار منه بشاره
أحيا جهادهم وجدّد فخرهم
فيه إلى الأجر الجزيل توصلوا
من مبلغ الأذواء من يمن وهم
أن الخلافة في بنهم أطلعت
من مبلغ قحطان آساد الشرى
أن الخلافة وهو شبل ليوثهم
يمني بني الأنصار أن إمامهم^١
يمني البنود فإنها ستظله
يمني الجياد الصافيات فإنها
يمني المذاكي والعوالي والظبي
يمني المعالي والمفاخر أنه
سبقت مقدّمة الفتوح قدومه
وبدت نجوم السعد قبل طلوعه

بالشهب أبهى ما يكون وأجمل
والملك أفق الخلافة منزل
من نور وجهك في العلا يستكمل
بغنائيه ومضائيه يتمثل
مخلّق النفيس وكل خلق يحمل
وملائك السبع العلا تنزل
غرّ البشائر بعدها تسترسل
بعد المئين فملكهم يتأثّل
وبهم إلى ربّ السما يتوسّل
قد توجوا وتملكوا وتقبّلوا
قمرأ به سعد الحليقة يكمل
ما غابها إلا الوشيح الذبّل
قد حاط منها الدين ليث مشبل
قد بلغت سعوده ما يأمل
وجناح جبريل الأمين يظلل
بفتوحه تحت الفوارس تهدل
فيها إلى نيل المني يتوصّل^٢
في مرتقى أوج العلا يتوقّل
وأناك وهو الوداع المتمهل
تجلو المطامع قبله وتوثّل^٣

١ الأزهار : ملكهم .

٢ ق : يتوسل .

٣ الأزهار : لا تأفل .

وروت أحاديث الفتوح غرائباً
أَلَقَتْ إِلَيْكَ بِهِ السَّعُودُ زَمَامَهَا
فَالْفَتْحُ بَيْنَ مَعْجَلٍ وَمَوْجَلٍ
أَوَّلَيْسَ فِي شَأْنِ الْمَشِيرِ دَلَالَةٌ
نَادَاهُمْ دَاعِي الضَّلَالِ فَأَقْبَلُوا
عَصَوْا الرُّسُولَ إِيَابَةً وَتَحَكَّمَتْ
كَانُوا جِبَالاً قَدْ عَلَتْ هَضْبَاتُهَا
كَانُوا بِحَاراً مِنْ حَدِيدٍ زَاخِرٍ
رَكِبَتْ أَرْجُلُهَا الْأَدَاهِمَ كُلَّمَا
كَانَ الْحَدِيدُ لِبَاسَهُمْ وَشَعَارَهُمْ
«اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا»
جَدَّدَتْ لِلْأَنْصَارِ حَلْيَ جِهَادِهَا
مَنْ يَتَحَفُّ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَزَمَزَمًا
مَتَسَابِقِينَ إِلَى مِثَابَةِ رَحْمَةٍ
هَيْمًا كَأَفْوَاجِ الْقَطَا قَدْ سَاقَهَا
مِنْ كُلِّ مَرْفُوعِ الْأَكْفِ ضِرَاعَةً
حَتَّى إِذَا رَوَتْ الْحَدِيثَ مَسْلَسَلًا
مَنْ فَتَحَكَ الْأَسْنَى عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي
أَهْلَنَهُمُ السَّرَّاءُ نَصْرَةً دِينَهُمْ
وَتَنَاقَلُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ مَسْرَةً
وَدَعَوْا بِنَصْرِكَ وَهُوَ أَعْظَمُ مَفْخَرًا

وَالنَّصْرُ يَمْلِي وَالْبِشَائِرُ تَنْقُلُ
فَالسَّعْدُ يُمْضِي مَا تَقُولُ وَيَفْعَلُ
يُنْسِيكَ مَاضِيَهُ الَّذِي يَسْتَقْبَلُ
أَنَّ الْمَقَاصِدَ مِنْ طَلَابِكَ تَكْمَلُ
وَدَعَاهُمْ دَاعِي الْمُنُونِ فَجَدُّوا
فِيهِمْ سَيُوفُكَ بَعْدَهَا فَاسْتَمَثَلُوا
نَسَفْتَهُمْ رِيحُ الْجِلَادِ فَزَلَزُوا
أَذَكَّتْهُمْ نَارُ الْوَعْيِ فَتَسَيَّلُوا
يَتَحَرَّكُونَ إِلَى قِيَامٍ تَصْهَلُ
وَالْيَوْمَ لَمْ تَلْبَسْهُ إِلَّا الْأَرْجُلُ
فَتَحَا بِهِ دِينَ الْهُدَى يَتَأْتَلُ
فَالدِّينُ وَالْدُنْيَا بِهِ تَتَجَمَّلُ
وَالْوَفْدُ وَفْدُ اللَّهِ فِيهِ يَتَزَلُ
مِنْ كُلِّ مَا حَدَّبَ إِلَيْهِ تَنْسَلُ
ظُلماً شَدِيدٌ وَالْمَطَافُ الْمَنْهَلُ
وَالْقَلْبُ يَخْفِقُ وَالْمَدَامُ تَهْمَلُ
بِيضُ الصَّوَارِمِ وَالرَّمَاحُ الْعُسْلُ
بَشَاتِهِ أَهْلُ الْوَعْيِ تَتَمَثَّلُ
وَاسْتَبْشَرُوا بِحَدِيثِهَا وَتَهَلَّلُوا
بِسَمَاعِهِ وَاهْتَرَّ ذَاكَ الْمَحْفَلُ
إِنَّ الْحَجِيجَ بِنَصْرِكَ مَلِكُكَ يَحْفَلُ

١ ق : ثاني .

٢ ق : فنفتحهم ... الضلال .

٣ ق : فتبسلوا .

فاهناً بملكك واعتمد شكراً به
 شرفت منه باسم والدك الرضى
 أبديت من حسن الصنيع عجائباً
 خفقت به أعلامك الحمر التي
 هدرت طبول الغز تحت ظلالها
 ودعوت أشراف البلاد وكلهم
 وردوا وروود الهيم أجهدا الظما
 وأثرت فيه للطراد فوارساً
 من كل وضاح الجبين كأنه
 يرد الطراد على أغر محجل
 قد عودوا قنص الكماة كأنما
 يستنبعون هودجاً موشية
 قد صورت منها غرائب جمّة
 وتضمنت جزل الوقود حمولها
 والعاديات إذا تلت فرسانها
 لله خيلك ؛ إنها لسوايح
 من كل برق بالثريا ملّجّم
 أوفى بهاد كالظليم وخلفه
 هنّ البوارق غير أن جيادها
 من أشهب كالصبح يعلو سرجه
 أو أدهم كالليل قلّد شهبه

لطف الإله وصنعه تتحوّل
 يحيا به منه الكريم المفضل
 تُروى على مر الزمان وتُنقل
 بحقوقها النصر العزيز موكل
 عنوان فتح إثرها يستعجل
 ينهي الجحيل وصنع جودك أجمل
 فصفا لهم من ورد كفضك متهل
 مثل الشمس وجوههم تتهلّل
 نجم وجنح النقع ليل مسبل
 في سرجه بطل أغر محجل
 عقباها ينقض منها أجدل
 من كل بدع فوق ما يتخيّل
 تنسي عقول الناظرين وتذهل
 والنصر في التحقيق ما هي تحمل
 آي القتال صفوفها ترتل
 بحر القتام وموجه متهيل
 بالبدر يسرج والأهلة ينعل
 كفل كما ماج الكئيب الأهيل
 عن سبق خيلك يا مؤيد تنكل
 صبح به نجم الضلالية يأفل
 خاض الصباح فأنبتته الأرجل

أو أشقرٍ سالَ الثُّنَّارُ بعطفه
أو أحمرٍ كالخمرِ أضمر بأسه
كالخمرِ أترع كأسها لندامها
أو أصفرٍ لبسَ العشيَّ ملاءةً
أجملت في هذا الصنيع عوائداً
أنشأت فيها من نذاك غمائمًا
فجرت من كفئك عشرةً أبخر
من قاس كفك بالغمام فإنه
تسخو الغمامُ ووجهها متجهم
والسحبُ تسمعُ بالمياه وجوده
من قاس بالشمس المنيرة وجهه
من أين للشمس المنيرة منطق
من أين للشمس المنيرة راحة
من قاس بالبدر المنير كماله
من أين للبدر المنير شمائل
من أين للبدر المنير مناقب
يا من إذا نفحت نواسم حمده
يا من إذا لمحت محاسن وجهه
يا من إذا تليت مفاخر قومه
كفل الخلافة منك يا ملك العلا
مأمونها وأمينها ورشيدها

وكساهُ صِبْغَةً بهجة لا تنصل
بالركض في يوم الحفيظة يشعل
وبها حجابهُ غرة تتسبّل
وبذيله الليل ذيلٌ مُسبّل
الجودُ فيها مجملٌ ومفصل
بالفضل تنشأ والسماحة تهمل
ترجي سحاب الجود وهي الأمل
جهل القياس ومثلها لا يحل
والوجه منه مع الندى يتهلل
ذهب به أهلُ الغنى تتمول
ألفيته في حكمه لا يعدل
بيانه درُ الكلام يُفصل
تسخو إذا بخل الزمانُ المحل
فالبدرُ يتقصُ والخليفةُ يكمل
تسري برياتها الصبا والشمائل
يجهاها تُنضي المطيُّ الذئل
فالمسكُ يعبقُ طيبهُ والمندل
تعشو العيونُ ويبهز المتأمل
أيُّ الكتابِ بذكرها تتزل
واللهُ جلَّ جلالهُ لك أكفل
منصورها مهديها المتوكل

حَسْبُ الخِلافة أن تكون وليَّها
حَسْبُ الزَّمان بأن تكون إمامه
حَسْبُ الملوك بأن تكون عَميدها
حَسْبُ المعالي أن تكون إمامها
يا حجةَ اللهِ التي برهانها
أنتَ الإمامُ ابن الإمام ابن الإمام
علِّمْتَ حتى لم تدع من جاهلٍ
وعنايةُ اللهِ اشتملت رداءها

ومنها^١ :

أخذت قلوبَ الكافرينَ مهابةً
حسبوا البروقَ صوارماً مسلولةً
وترى النجومَ مناصلاً مرهوبةً
يا ابنَ الآلى إجمالهم وجمالهم
مولاي لا أحصي مآثرَكَ التي
أصبحتُ في ظلِّ امتداحك ساجداً
طوقتهُ طوقَ الحمامِ أنعماً
فإليك من صون العقولِ عقيلةٌ
عذراء راق الصنعُ رونقَ حسنِها
خيرتها بين المني فوجدتها

ففقولهم من خوفها لا تعقيلُ
أرواحهم من بأسها تتسللُ
فيفرُّ منها الخائفُ المتصللُ
شمسُ الضحى والعارضُ المتهللُ
بجهادها يتوصلُ المتوسلُ
ظلُّ^٢ المني من فوقه يتهدلُ
فغدا بشركِ في المحافلِ يهدلُ
أهداكها صنْعُ أغرٍّ عجِّلُ
فغدا بنظمِ حليتها يتكللُ
أقصى منهاها أنها تُقبِّلُ

١ قال في أزهار الرياض (٢ : ١٢١) بعد هذا البيت : اتصل بهذا البيت جملة من القصيدة المترجمة في العيديات التي أولها « بشرى كما وضع الصباح وأجبل » وحذفناها من هذه اقتصاراً للتكرار .
٢ الأزهار : ظل .

لا زلت شمساً في سماء خلافةٍ وهلاكِ الأسمى يتمُّ ويكمل

قال : ومن رقيق منازعه في بعض نُزّه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطاني من شنيل قوله :

نفسى الفداء لشادن مهما خَطَرُ
فضح الغزاة والأقاحة والقنا
عجبا لليل ذوائب من شعره
عجبا لعقد الثغر منه منظماً
ما رمت أن أجني الأفاح بثغره
لم أنسه ليل ارتقاب هلاله
بتنا نراقبه بأول ليلة
طالعه في روضة كخلاله
وكلاهما يبدي محاسن جمّة
والكأس تطلع شمسها في خده
نورية كجبينه ، وكلاهما
هي نسخة^١ للشيخ فيها نسبة
أفرغت في جسم الزجاجة روحها
لا تسقى غير الروض فضلة كأسها
ما هب خفاق النسيم مع السحر
ناجى القلوب الخافقات كمثلته^٢

فالقلب من سهم الجفون على خطر
مهما تثنى أو تبسم أو نظر
والوجه يسفر عن^٣ صباح قد سفر
والعقد من دمعي عليه قد انتثر
إلا وقد سلّ السيوف من الحور
والقلب من شك الظهور على غرر
فإذا به قد لاح في نصف الشهر
والطيب من هذي وتلك قد اشهر
ملء التنسم^٤ والمسامع والبصر
فتكاد تُعشي بالأشعة والنظر
يجلو ظلام الليل بالوجه الأغر
ما إن يزالا يرعشان من الكبير
فرايت روح الأنس منها قد بهر
فالغصن في ذيل الأزهار قد عثر
إلا وقد شاق النفوس وقد سحر
ووشى بما تخفي الكمام من الزهر

١ الأزهار : والوجه منه عن .

٢ الأزهار : المشام .

٣ كذا في ق ؛ وفي الأزهار : شيمة ، وكلتا اللفظتين قاصرة الدلالة .

٤ ق : لثله ، والمعنى : أن القلوب خافقات كمثل خفق النسيم المذكور في البيت السابق .

وروى عن الضحاك عن زهر الرُّبِّي
 وتحمّلت عنه حديث صحيحه
 يا قصر سنبل وربّ عكّ أهل
 لله بحرك والصبا قد سرّدت
 والآس حفّ عذاره من حوله
 قبل بثغر الزهر كفّ خليفة
 وافرش خلود الورد تحت نعاله
 وانظم غناء الطير فيه مدائحاً
 المنتقى من جوهر الشرف الذي
 والمجنبي من عنصر النور الذي
 ذو سطوة مهما كفى، ذو رحمة
 كم سائل للدهر أقسم قائلاً :
 مولاي سعدك كالمهند في الوغى
 مولاي وجهك والصبح تشابها
 إن الملوك كواكب أخفيتهما
 في كل يوم من زمانك موسم
 فاستقبل الأيام يندى روضها
 قد ذهبّت منها العشايا ضعف ما
 يا ابن الذين إذا تعدّ خلاهم
 إن أوردوا هيم السيوف غداً
 سائل بيدٍ عنهم بدر الهدى

ما أسند الزهري عنه عن مطر
 رُسلُ النسيم وصدّق الخبرُ الخبرُ
 والروض منك على الجمال قد اقتصر
 منه دروعاً تحت أعلام الشجر
 عن كل من يهوى العذار قد اعتذر^١
 يغنيك صوب الجود منه عن المطر
 واجعل بها لون المضاعف عن خضر
 وانثر من الزهر الدراهم والدرر
 في مدحه قد أنزلت أي السور
 في مطلع الهدى المقدّس قد ظهر
 مهما عفا، ذو عفة مهما قدر
 والله ما أيامه إلا غرر
 لم يبق من رسم الضلال ولم يذر
 وكلاهما في الخافقين قد اشهر
 وطلعت وحدك^٢ في مظاهرها قمر
 في طيه للخلق أعياد كبر
 ويرف والنصر العزيز له ثمر
 قد فضضت منها المحاسن في السحر
 نقد الحساب وأعجزت منها القدر
 مصقولة فلطالما حمدوا الصدر
 فيهم على حزب الضلال قد انتصر

١ ق : اقتدر .

٢ الأزهار : وجهك .

واسأل مواقفهم بكل مشهر
تجد الثناء بآسهم ويجودهم
فيمثل هديك فلتنر شمس الضحى
ماذا أقول وكل وصف معجز
تلك المناقب كالثواقب في العلا
إن غاب عبدك عن حماك فإنه
فاذكره إن الذكر منك سعادة
ورضاك عنه غاية ما بعدها
فاشكر صنيع الله فيك فإنه
وعليك من روح الإله نعمة

واقر المغازي في الصحيح وفي السير
في مصحف الوحي المنزل مستطر
وبمثل قومك فليفاخر من فخر
والقول فيك مع الإطالة مختصر
من رامها بالحصر أدركه الحصر
بالقلب في تلك المشاهد قد حضر
وبها على كل الأنام قد افتخر
إلا رضى الله الذي ابتدع البشر
سبحانه ضمن المزيّد لمن شكر
تهفو إليك مع الأصائل والبكر

ثم قال : ومن أغراضه الوقتية - استرسالاً مع الطبع البديهي في الشكر عن
ضروب من التحف التي يقتضيها التحقّي السلطاني بأولياء خدمته - نبذ متعددة
فيما يظهر فيها ، فمنها قوله :

يا خير من ملك الملوك بجوده
والله ما عرف الزمان وأهله
وافيت أهلي بالرياض عشية
فوجدته قد طله صوب الندى
وسفائن مشحونة ألقى بها
رطب من الطلع النضيد كأنها
من كل ما كان النبي يحبها
وبدائع التحف التي قد أطلعت

وبفضله قد أشبه الأملاك
أمنأ ويمنأ دائماً لولاكا
في روض جاهك تحت ظل ذراكا
بسحاب تهل من يمنكا
بحر السماح يجيش من نعمكا
قد نظمت من حسنها أسلاك
وأحبها الأنصار من أولاك
مثل البدور أنارت الأحلاك

نُطِفَ من النورِ المبينِ تجسّمت
يحلّو على الأفواه طيبُ مذاقها
طافت بها النشأ الصغارُ كأنّها
نجواهمُ مهبا سمعت كلامهم
بلّغت في الأبناء عبْدَكَ سُؤْلَهُ
يتدارسون من الدعاء صحائفاً
فبقيت شمساً في سماء خلافة
حتى حسبنا أنهنّ هُداكا
لولا التجسّدُ خلّتهنّ ثناكا
سِرْبُ القطا لما وردن نداكا
ونداؤهم : مولاي ، أو مولاكا
لا زلت تبلغ في بنيك مُناكا
كيما يطيل الله في بقياكا
وهمُ البدورُ أمدّهنّ سناكا

ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقاً من حبّ الملوك ٢ :

كتبَ الإلهُ على العبادِ محبةً
وأنا الذي شَرَفْتَهُ من بينهمُ
ما زلتَ تُنحّضُهُ بكلّ ذخيرةٍ
وإلى الملوكِ قد اعتزى من عزّه
لك كان فرضُ كتابها موقوتا
حتى جعلتَ له المحبةَ قوتا
حتى لقد أتحفْتَهُ الياقوتا
فغدا لهُ ياقوتها ممقوتا

ومنها في مثل ذلك :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكُ
فكأنما ياقوتها
إنّ الملوكَ إذا لجّوا
وكذا العفاةُ إذا شكّوا
فاللهُ يقبلُ مَنْ دعا
لا زلتَ تطلعُ غرّةً
أهديتني حبّ الملوكِ
نظمتُ لنا نظمَ السلوكِ
فغياثهمُ أنْ أمْلوكِ
ففتناهمُ أنْ يسألوكِ
لعلاكِ من أهلِ السلوكِ
كالشمسِ في وقتِ الدُّلوكِ

١ - الأزهار : سناكا .

٢ - ما يعرف في مصر باسم « حب العزيز » .

ومنها ، وقد أهداه صيداً ممّا صاده أولاده :

يا خيرَ مَنْ ورثَ السماحَ عن الألى نصرُوا الألى وتبوّأوا إيماناً
في كلِّ يومٍ مِنْكَ تحفةٌ منعمٍ والى الجميلِ وأجزَلَ الإحساناً
قد أذكرتُ دارَ النعيمِ عبيدَهُ وتضمنتُ من فضلهِ رضواناً
تهدي مَوالي^١ الذينَ تفرّعوا عن دَوْحِ فخرِكَ في العلا أغصاناً
لجلالكَ الأعلى قنيصاً أتعبوا في صيدهِ الأرواحَ والأبداناً
فتخصّني منهُ بأوفرِ قسمةٍ فسَحَتْ لِعبدِكَ في الرضى ميداناً
للهِ مِنْ مَوْلى كريمٍ بالذي تهدي المِوالي يُتَحَفُّ العبداناً
تدعو نبيّ إلى الغيِّ برَبِّهِ يا رَبَّنَا أغنِ الذي أغناناً
وعليكَ من قدسِ الإلهِ تحيةٌ تهديكَ منهُ الرُّوحَ والريحاناً

ومنها ، وقد أهداه أصنافاً من الفواكه :

يا مَنْ له الوجهُ الجميلُ إذا بدا فاقتُ محاسنَهُ البِدورَ كمالاتاً
والمُتقى من جِوهرِ الفخرِ الذي فاقَ الخلائفَ عزّةً وجمالاً^٢
ما أبصرتُ عيناى مثلَ هديةٍ أبدتُ لنا صنعَ الإلهِ تعالى
فيها من التفاحِ كلُّ عجيبةٍ تذكي بريّاهُ صَباً وشمالاً
تهدي لنا نهدَ الحبيبِ وخدّةً وتري من الوردِ الجُنيّ مثلاً
وبها من الأترجِ شمسٌ أطلعتُ من كلِّ شطَرٍ للعيونِ هلالاً
ويحفّها ورقٌ يروقُ كأنَّهُ ورِقُّ النَّضارِ وقد أجادَ نبالاً
لونُ^٣ العُشبةِ ذَهَبٌ صفحاتها رَقَّتْ وراقتُ بهنّجَةً وجمالاً

١ الأزهار : مواليك .

٢ الأزهار : وجلالا .

٣ ق : لولا .

وبها من النّقل الشهيّ مذكّر
لله منها خُصرةٌ من خُصرةٍ
أذكرني العهد القديم ومعهداً
فأردتُ تجديدَ العهودِ وإنّما
فأردتُ من ذكراك كأسَ مدامةٍ
فبقيتَ شمساً في سماءِ خلافةٍ
ومنها يوم عاشوراء :

يا أيها المولى الذي بركاته
لك راحةٌ ترجي الغمامَ بأملٍ
واليومَ موسمُ قربةٍ وعبادةٍ
راعى فيه سُنّةَ نبويّةٍ
لا زلتَ عامكَ كلّهُ في غبطةٍ
ومنها في بعض قطعة :

واليت ما أوليتَ يا بحرَ الندى
فلماذا يهزّ لها اللسانُ حسامه
علّمتَ فرسانَ الكلامِ نظامها
والبحرُ تمتازُ السحابُ ماءه
ووحقُّ جودك ما رأيتُ كهذه
فصفاتُ فخرِكَ قد قضتُ بنفاذه
كتعلّمِ التلميذِ من أستاذه
فتجودهُ من غيثها برذاذه
ومنها ، وقد أهدها باكوراً :

يا وارثَ الأنصارِ وهيّ مزيّة
أهديتني الباكورَ وهيّ بشاره
بفخارها أنى الكتابُ المتزلّ
بيواكرِ الفتحِ الذي يُستقبلُ

وولادة لهلال تيم طالع
هو أول الأنوار في أفق الهدى^١
مولاي صدق القول قد جربته
من لفظ عبدك، والعواقب أجمل

ومنها في جفنة :

طعامك من دار النعيم بعثته
بهضبة نعمى قد سمونا لأوجيها^٢
وقوراء قد دُرنا بهالة بدرها
وقد حُملت فوق الرؤوس لأنها
فما شئت من طعم زكي مهتلي
فلو أنها قد قدمت لخليفة
وكم لك من نعمى علي عيمة
فلا زلت يا مولى الملوك مبلّغاً

فشرفته من حيث أدري ولا أدري
فصدنا بأعلاها الشهي من الطير
كما دارت الزهر النجوم على البدر
هدية مولى حل في مفرق الفخر
وما شئت من عرف ذكي ومن نشر
لأعظمها قدراً وبالغ في الشكر
يقل لأدناها الجميل من الذكر
أمانى ترجوها إلى سالف الدهر

ومنها شكراً عن كتاب :

مولاي يوم الجمعة
فانعم صباحاً واغتم
وابشر بصنع عاجل
وانتظر الفتح الذي
وبيضه وسمره
واللطف مرجو فرد

سعوده مجتمعه
أوقاته المجتمعه
أعلامه مرتفعه
يأتيك بالنصر معه
إلى العداة مشرعه
بفضل ربي مشرعه

١ ق : الندى .

٢ ق : لأجلها .

فأثحتني شرفتي	برقعة مرفعة
بل روضة مطورة	أزهارها منوعة
حديقة قد جدتها	بصوب جود مترعة
وراية منشورة	وآية مستبدعة
كم حكيم لطيفة	في طيها مستودعة
عقيلة صورتها	من الجمال مبدعة
سقتني من فضلها	بفضل كاس مترعة
قدم وأملك الوري	على علاك مجمعة

ومنها شكراً على خلعة :

يا بدر تم في سماء خلافة	حقت نجوم السعد هالة قصره
ألبست عبدك من ثيابك ملبساً	قد قصرت عنه مدارك شكره
ورضاك عنه خير ما ألبسته	فلقد أشاد بجاهه وببره
ألبستني ، أركبني ، شرفني	أهديني ما لا أقوم بحصره
نظري لوجهك وهو أجمل نير	يزري على شمس الزمان وبدره
أعلى وأعظم منة لا سيما	وأنا المنعم في الحضور بيشره
لا زلت مولى للملوك مؤملاً	وحلاك للإسلام مفخر دهره

ومنها ، وقد خلع - رضوان الله تعالى عليه - على رسول من أرساله :

أبحر سماح مدّة عشرة أبحر	تفيض غمام الجود وهي الأنامل
بكفك غيث للبلاد وأهلها	بروض محل الأرض ، والعالم ماحل

١ سقط البيت والذي يليه من ق .

٢ الأزهار : وعلاك .

لكَ الخَيْرُ إِنَّ أَصْبَحْتَ بِحَرِّ سَمَاحَةٍ يَمُّ نَدَاهُ فَالْمَوَاهِبُ سَاحِلُ
خَلَعْتَ عَلَى هَذَا الرَّسُولِ مَلَابِسًا بِهَا تَتَسَنَّى فِي عِلَاكَ الْمَآمِلُ
وَبُلَّغْتَهُ آمَالَهُ كَيْفَ شَاءَهَا فَبُلَّغْتَ يَا مُوَلَايَ مَا أَنْتَ آمِلُ

ومنها وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع ، قوله سائلاً عن حاله :

أَسْأَلُ بِدَرِّ التَّمِّ كَيْفَ هَلَالُهُ وَأَدْعُو لَهُ الرَّحْمَنَ جَلَّ جَلَالُهُ
وَأَسْأَلُهُ تَعْجِيلَ رَاحَتِهِ الَّتِي وَسَيَلَّتْنَا فِيهَا النَّبِيُّ وَآلُهُ
سَتَبْلُغُ فِيهِ مَا تَوْمَلُ مِنْ مَنَى وَيَرْضِيكَ يَا بَدْرَ الْكَمَالِ كَمَالُهُ

وفي مثله :

أَقُولُ لِبَدْرِ التَّمِّ كَيْفَ هَلَالُكَ نَعِمْتَ صَبَاحًا بِالسَّعُودِ ١ وَآلِكَ
وَبُلَّغْتَ فِي النَّجْلِ الْكَرِيمِ ٢ سَعَادَةً تَقَرُّ بِهَا عَيْنًا وَيَنْعَمُ بِآلِكَ
وُخْصِصْتَ بِالْبَشْرِ مِنْ اللَّهِ رَبَّنَا كَمَا عَمَّ أَقْطَارَ الْبِلَادِ نَوَالُكَ

ومن التورية باسم قائد ولاة على جماعة من الجند :

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي أَبَامُهُ نَهَمِي بِسُحْبِ الْجُودِ مِنْ آلَائِهِ
أَبْشِرْ بِحَيْشِكَ بِالسَّعَادَةِ كُلَّمَا يَغْزُو وَنَصْرُ اللَّهِ تَحْتَ لَوَائِهِ

وأنشده في مجلس اتخذته :

أَمُوَلَايَ يَا ابْنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْعَلَا وَمَنْ نَصَرُوا الدِّينَ الْحَنِيفِيَّ أَوَّلَا
غَنِيَتْ بَنُورِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ زِينَةٍ وَأَلْبَسَتْ مِنْ رِضْوَانِهِ أَشْرَفَ الْحُلَى
وَقَارَكَ زَادَ الْمَلِكِ عِزًّا وَهَيْبَةً وَسَوَّغَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْهَا

١ الأزهار : بالسرور .

٢ الأزهار : السعيد .

ويا شمس هدي في سماء خلافة
تبارك من أبداك في كل مظهر
فيخجل منك الشمس شمس هداية
إذا أنت ألبست الزمان وآله
وطوقت أجياد الملوك أيادياً
فما شئت فالبس فالشاهد قائل :
ألا كل من صلى وضحي ومن دعا
وجودك شرط في حصول قبوله

وأبناؤه الزهر المنيرة تجتلي
جميلاً جليلاً مستعاضاً مؤملاً
ويحسد منك البدر بدرأ مكملاً
ملايس عز ليس يدركها البلى
وتوجتهم بالفخر تاجاً مكملاً
تبارك ما أبهى وأسنى وأجملاً
ومد يديه ضارعاً متوسلاً
وجودك أثرى كفه فتفلاً

وقال برسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبي العباس :

أهدي أبا العباس
ثوب السماء لأنه
فلق الصباح بوجهه
يكسو إماماً لم يزل
فيا له من مرتد
أذباله من حمده
وبطرزه مدح زرى
إن كنت في لون السما
فلأنت يا بدر العلا
أنا منشد « ما في وقو

ملك الندى والباس
بدر بدا للناس
عوذته بالناس
بحلى المحامد كاسي
ثوب التقى لباس
مسكية الأنفاس
بالمدهج في القرطاس
بنسبة وقياس
شرقتني بلباس
فك ساعة من باس

١ الأزهار : متفلاً .

٢ صدر بيت لأبي تمام ، وصجزه « تقضي ذمام الأربع الأدراس » .

لترى رياضاً^١ أطلعت
أوراقها توريقها
ومن المديح مدامتي
فالله يمتع لابسني
زَهراً على أجناس
بقضيها الميَّاس
ومن المحابر كاسني
بالبشر والإيناس

وقال في مثل ذلك :

إنَّ الإمامَ محمدًا
لباسه ثوباً ، وقد
وعامة الشفق^٢ التي
يا حسنها إذ أرسلتْ
وكانَ وشي رقومها
ويطرزه لونُ السما
لله منه نيرٌ
مستنصرٌ ، أعلى له
أهدى الخليفةَ أحمدًا
لبس المحامد وارتندي
من فوقها شمس الهدى
من كفه غيث الندى
بالبرق طررَ عسجدا
ووجهه قمرٌ يدا
حلَّ المنازل أسعدًا
فوق المنازل أسعدًا

ثم قال وأنشده وهو على جواد أدهم :

تجلى لنا المولى الإمامُ محمدٌ
فأبصرت صباحاً فوق ليل وقد حكى
على أدهمٍ قد راق حسنُ أدبهِ
مقلدٌ ذاك الطرفِ بعضَ نجومهِ

وكتب له مع هدية زهر :

أمولاي ثقيلي ليمناك شاقني
ولما رأيت الدهرَ ما طلكتي بها
ولا ينكرُ الظمانُ شوقاً إلى البحرِ
وشوقني من حيث أدري ولا أدري

١ ق : رياضاً .

٢ الأزهار : التقوى .

بعثُ لكَ الزَّهرَ الجَنِيَّ لعلَّهٗ
يقبلُها غني ثغورُ من الزَّهرِ
وكتبُ إليه أيضاً متشوقاً :

كتبْتُ ودمعي بلَّلَ الركبَ قطرهٗ
حينئذٍ لمولَيَّ أتلِفَ المالَ جودهٗ
وما عشتُ بعدَ البينِ إلَّا لأنَّني
وأنشده أيضاً وهو بحال تألم :

كأنِّي بلطفِ الله قد عمَّ خَلْقَهٗ
وقاضي القضاء الحتمَ سَجَلَ ختمه١
وله في مثل ذلك :

لكَ الخيرُ يا مولايَ أبشُرْ بعصمةِ
وعافيةٍ في صحَّةٍ مستجدَّةٍ
ووجهُ التهاني مُشرقٌ متهلِّلٌ
وقد ظهرتُ للبرء منك علامةُ
وفي مثل ذلك :

يا إماماً قد تخذنا
خطُّ يَمناكَ ينادي
ه١ من الدهرِ مَلاداً
صحَّ هذا صحَّ هذا

وقال مهتماً بالشقاء :

١ الأزهار : حكمه .

٢ الأزهار : العظمى .

الحمدُ لله بَلَّغْنَا الْمُنَى
وَفَزَّتْ بِالْأَجْرِ وَكَبَّتِ الْعِدَا
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا بِهِ
لَمَّا رَأَيْنَاكَ ، وَزَالَ الْعَنَا
وَفَزَّتْ بِالْعَزِّ وَطِيبَ الثَنَا
مَنْ عَلَيْنَا مِنْ ظُهُورِ السَّنَا

وقال أيضاً في نحوه :

نعم قَرَّتِ الْعَيْنَانِ وَانْشَرَحَ الصَّدْرُ
سَرِينَا بَلِيلِ التَّيِّهِ يَكْذِبُ فَجْرُهُ
أَعَزَّ الْمُحْيَا بِالْحَيَاءِ مُقْنَعٌ
إِمَامُ الْهُدَى قَدْ خَصَّهُ بِخِلَافَةِ
وَقَدْ لَاحَ مِنْ وَجْهِ الْإِمَامِ لَنَا الْبَدْرُ
فَلَمَّا تَجَلَّى فَجْرُهُ صَدَقَ الْفَجْرُ
زَهَاهُ الْكَلَامُ الْحَرُّ وَالنَّسَبُ الْحَرُّ
إِلَهُ لَهُ فِي خَلْقِهِ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ

وقال في مثله ، وقد ركب رحمه الله تعالى للمعاهد حضرته :

هَنِيئًا هَنِيئًا لَا نَقَادَ لَعَدِهِ
فَقَدْ لَاحَ بَدْرُ الْمِمْ فِي أَفْقِ الْعُلَا
وَطَافَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٌ
وَلَا حَتَّ بِهَا الْأَنْوَارُ مِنْ بَشَرِ وَجْهِهِ
وَأَبْصَرْتَ الْأَبْصَارُ شَمْسَ هِدَايَةٍ
وَلَوْحَتِ الْأَعْلَامُ فِيهَا بَنْصَرِهِ
سَتَهْدِي لَهُ الْأَيَّامُ كُلَّ مَسْرَةٍ
فَسَلَّ حَسَامُ السَّعْدِ وَاضْرَبَ بِهِ الْعِدَا
فَسَيْفُكَ سَيْفُ اللَّهِ مَهْمَا سَلَّكَهُ
وَبَشَرَى لَدَيْنَ اللَّهِ إِنْجَازٌ وَعْدِهِ
وَحَلَّ كَمَا يَرْضَى مَنَازِلَ سَعْدِهِ
بِحَضْرَتِهِ الْعَلِّيَّا مَبْلَغَ قَصْدِهِ
وَفَاحَ بِهَا النُّوَارُ مِنْ نَشْرِ حَمْدِهِ
وَأَشْرَقَتِ الْأَرْجَاءُ مِنْ زَهْرِ رِفْدِهِ
كَأَنَّ لَوْحَ الصُّبْحِ الْمُبِينُ^٢ بَيْنَهُ
وَيُحْيِي بِهِ الرَّحْمَنُ آثَارَ جَدِّهِ
وَيُخَلِّ حَسَامَ الْهِنْدِ فِي كَنْزِ غَمْدِهِ
يُقِيمُ حُدُودَ اللَّهِ قَائِمُ حَدِّهِ

١ الأزهار : إمام .

٢ الأزهار : المنير .

٣ الأزهار : واضرب بحده .

٤ الأزهار : في كَنْ .

وقال ، وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار :

على الطائر الميمون والطالع السعد
وقد عدت من جبل الشوار لتجتلي عقال للفتح المين بلا عد

وقال مما رسم في طيقان^١ الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه الله تعالى :

أنا تاج كهلال أنا كرسي جمال
ينجلي الإبريق فيه كعروس ذي اختيال
جود مولانا ابن نصر قد جاني بالكمال

وفي مثله :

من رأى التاج الرفيعا قد حوى الشكر البديعا
تحسد الأفلاك منه قوسه السهل المنيعا
دمت ربعا للتهاني أنظم الشمل الجميعا

وفيه :

للغي بالله قصر للتهاني يصطفيه
فيه محراب صلاة يقف الإبريق فيه
تاليا سورة حسن^٢ والمعالي تفتفيه

وفيه :

أي قوس ذي جمال^٣ سهمه سهم السعادة

١ ق : طبقات .

٢ الأزهار : حي .

٣ الأزهار : كمال .

مَلِكُ الْإِبْرِيْقِ فِيهِ عَوْدَ الْإِحْسَانِ عَادَةً
ذُو صَلَاةٍ مِنْ صِلَاتٍ كُلَّهَا دَائِباً مُعَادَةً

وقال في المعنى ممّا كتب به لعننا الأمير « سعد » رحمة الله تعالى عليه :

انظر لأفقي جمال به الأباريقُ تَصْعَدُ
حُسْنُ بَدِيعِ حَبَاهُ به الأميرُ الممَجَّدُ
فخرُ الإمارة سعدُ به الخليفةُ يَسْعَدُ
وكيفَ لا وأبوه فخرُ الملوكِ محمدُ
عليه حلِّيُ رضاه في كلِّ يومٍ يُجَدِّدُ

وقال فيه أيضاً :

رفعتُ قوسَ سَمَائِي يُزْهِى بِتَاجِ الْهَلَالِ
قَدْ قَلَدْتَهُ نَقُوشِي دُرَّ الدَّرَارِي الْعَوَالِي
تَرَى الْإِبْرِيْقَ فِيهِ تَهْدِيكَ عَذْبَ الزَّلَالِ
قَدْ زَانَ قَصْرِي سَعْدُ بِسَعْدِهِ الْمُتَوَالِي
قَدَامَ يَعْمُرُ رَبَّنِي فِي كُلِّ مَوْلَى الْمَوَالِي

وفي الغرض :

مَا تَرَى فِي الرِّيَاضِ أَشْبَاهِي يَسْحَرُ الْعَقْلَ حَسَنِي الزَّاهِي
زَانَ رَوْضِي أَمِيرِهِ سَعْدُ وَهُوَ نَجَلُ الْغَنِيِّ بِاللَّهِ
دَامَ مِنْهُ بِمَرْتَقَى عَزِي أَمْرٌ بِالسَّعُودِ أَوْ نَاهِي

وقال في غرض الشكر عن مغطى^٢ صنهاجي أهدها إياه :

١ ق : الأمين .

٢ يستدل من القطعة أن المغطى نوع من الصناديق .

لَمَنْ قَبَّةٌ حَمراءُ مُدَّةٌ نُضارُها
وما أرضُها إلا خَزائِنُ رَحمةٍ
وقد شَبَّهَ الرَّحْمَنُ خَلْقَتَنَا بِهِ
ومَعْرُوشَةَ الأَرْجاءِ مَفْرُوشَةً بِها
تَرى الطَّيْرَ في أَجوافِها قد تَصَفَّفَتْ
ونسَبَتْها صَنْهاجَةً غَيْرَ أَنَّها
حَبَّتِي بِها دُونَ العَبِيدِ خِلافةً
وفي مثله :

ما للعِوالمِ جَمَعَتٌ في قَبَّةٍ
في صَفْحٍ صَرَحَ بِالزَّجَاجِ مِمَّوَّةٍ
ما إِنْ رَأَيْتَ ولا سَمِعْتَ كَطائِرٍ
إِنْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الطَّيُورُ تَغَرَّدَتْ
صَفَّتْ عَلَيْها لِلْفِواكِهِ كُلُّ ما
لو أَبْصَرْتَ صَنْهاجَةً أَوْضاعَهُ
عَوَّدَتِي الصَّنْعَ الجَمِيلَ تَفْضِلاً
وبِسُورَةِ الأَنْعامِ كَمْ مِنْ آيَةٍ
وقال تَذِيلاً لِبَيْتِي ابْنَ المَعْتَرِ ٢ :

سَقَتْنِي في لَيْلٍ شَبَّهَ بِشَعْرِها
« فَأَمْسَيْتُ في لَيْلٍ لِلشَّعْرِ ٣ والدَجِي
شِبْهَةً خَدَيْها بِغَيْرِ رَقِيبٍ
وشَمْسَيْنِ مِنْ خَمَرٍ وَخَدٍّ ٤ حَيْبٍ »

١ الأَزْهار : بِطائِر .

٢ انْظُرْ أَشْعارَ أَوْلادِ الخُلَفاءِ : ١٧٩ .

٣ الصَّوْلِي : فَبِتْ لَذا اللَّيْلَيْنِ بِالشَّعْرِ .

٤ الصَّوْلِي : وَفَجَرَيْنِ مِنْ رَاحٍ وَوَجْهٍ .

إلى أن بدا الصبحُ المينُ كأنهُ
شمائلهُ مهما أدبرتْ كؤوسها
مُحيّا ابن نصرٍ لم يُشَنّ بغروب
قلائدُ أسمعٍ وأنسُ قلوب

وقال مذيلاً على بيت ابن وكيع^١ :

« هي في أوجه الندامي عقيقُ
كابن نصر تراهُ في الحرب ليثاً
وهي مثلُ النصارِ في الأقداحِ »
ذكره قد نسي قُدُودَ الندامي
وهو بدرُ الندى وغيثُ السماح
وأعادَ الحياةَ في الأرواحِ^٢

وقال ممّا يرسم للغني بالله :

للفني بالله مُلكُ
دام في رفعةٍ شانٍ
بُرْده بالعزّ مُدهَبُ
ما جلا الإصباحُ غَيْهَبُ

وقال أيضاً :

يا ابنَ نصر لك مُلكُ
دمت رُوحاً للمعالي
ليس تعدوه الفتوحُ
ما سرى في الجسم روحُ

ومن مقطوعاته :

وابنُ نصر له محبّا كصبحٍ
ذو حسامٍ كأنهُ لمعُ برقٍ
إن تجلّى جلالنا^٣ كلَّ كَرَبٍ
في بنانٍ كأنها غيثُ سَحْبٍ

ومن أخرى :

وكانَ النجومَ في غَسَقٍ اللي
لم جُمانُ يلوحُ في آبنوسٍ

١ لم يرد في ديوانه المجموع .

٢ الأزهار : الأشباح ؛ وهي بمعنى الأجسام .

٣ الأزهار : جلا دجى .

وكانَّ الصِّباحَ في الأفقِ يَجلى بجلىَّ النجومِ مثلَ العروسِ
وكانَّ الرِّياضَ تَهدي ثناءً للغنيِّ بالله فوقَ الطُّروسِ

وقال من قصيدة أولها :

أضياءَ هَدْيٍ أم ضياءَ نهارِ وشذا المحامدِ أم شذا الأزهارِ
فَسَمَّا بهديكَ في الضياءِ ، وإنَّه شمسٌ تَمُدُّ الشَّهْبَ بالأَنْوارِ^١
ومنها :

كم من لطائفَ للهِدى أَوْصَحَتْها خَفِيَتْ لَطائِفُها^٢ على الأفكارِ
كم من جرائمَ قد غفرتَ عَظِيمُها مُسْتَرَلًا^٣ مِنْ رَحْمَةِ الغَفَّارِ
علمتَ ملوكُ الأرضِ أَنَّكَ فخرُها فتسابقَتْ لِرِضاكَ في مضمارِ
ومنها يصف الجيش :

سالتُ بهِ تحتَ العَجَاجِ سَفينَةً لَقِحتْ بِرِيحِ العِزِّ^٤ من أنصارِ
أرستَ بِجودِي الجودِ في يومِ الندى وجرتْ بيومِ الحَربِ في تيارِ
ومنها :

ألقى بأيدي الرِّيحِ فَضْلَ عِناهُ فيكادُ يَسْبِقُ لَمَحَةَ الأبصارِ
ومنها :

فهي العِرابُ متى أثِرتْ يومَ الوغى^٤ قد أعربتْ عن لطفِ صُنْعِ الباري

١ بين هذا البيت وسابقه في أزهار الرياض : ومنها بعد كثير .

٢ الأزهار : مداركها .

٣ الأزهار : العزم .

٤ الأزهار : متى أثِرتْ في الوغى ؛ ق : أثِرتْ يوم .

ومنها :

إن خاض في ليل العجاج رأيتَهُ
يُجْلُو دُجْنَتَهُ بوجهِ نهارِ

ومنها :

كم فيهم من قارٍ ضيفٍ طارقٍ
وضحت شواهدُ فضله للقارِ

ومنها :

يا أيها الملكُ الذي أيامُهُ
قد زاركَ العيدُ السعيدُ مبشراً
لما ازدَهتُهُ عواطفُ الطفتها
فأتى يومُ منك هدياً صالحاً
وأناكَ يسحبُ ذيلَ سحْبٍ أغدقتُ
جادت بجاري الدمع من قطرِ الندى
فأعاد وجهَ الأرضِ طلقاً مشرقاً
لما دعاكَ إلى القيامِ بسنةٍ
فأفضتَ فينا من نداءك مواهباً
فأهناً بعيدٍ عاد يشتملُ الرضى

غُرَّرَ تلوحُ بأوجهِ الأعصارِ
فاسمُحْ لآلِهمُ منهمُ بمزارِ
عطفَ الإلهُ عليك عطفَ سوارِ
كي يستمدَّ النورَ بعد سَرارِ
تغري جفُونِ المزنِ باستعبارِ
فرعى الربيعُ لها حقوقَ الجارِ
مُتضاحكاً بمباسمِ النوارِ
حكمتَ داعي الجود والإيثارِ
حسنتَ مواقعها على التكرارِ
جدلانَ يرفلُ في حلي استبشارِ

ومنها :

لا عُدَرَ لي إن كنتُ فيه مقصراً
فإذا نظمتُ من المناقبِ دُرّاً
فلذاك أنظّمها قلائدَ لؤلؤ

سدَّتْ صفاتُك أوجهَ الأعدارِ
شرقتني منها بنظْمِ دراري
لألاؤها قد شَفَّ بالأنوارِ

وأُنشد على لحده المقدّس رحمه الله تعالى ^١ :

ضريح أمير المسلمين محمد
وحبّتك ^٢ من رَوْحِ الإله تحية
وشقّت جيوبَ الزهر فيك كرائم
وصابت من الرحمى عليك غمام
وزارتك من حُور الجنان أوانس
وجاءتك بالبشرى ملائكة الرضى
وصافح منك الروض أطيب تربة
رضى الله والصفح الجميل وعفوه
ويا صدفاً قد فاز من جوهر العلا
أعندك أن العلم والحلم والحجى
وهل أنت إلا هالة القمر الذي
ويا عجباً من ذلك الترب كيف لا
لقد ضاقت الأكوان وهني رحية
قدمت على الرحمن أكرم مقدم
أقام بك المولى الإمام محمد
فجاء كما ترضى وترضى به العلا
ومد ظلال العدل في كل وجهة
وقام بمفروض الجهاد عن الورى
قضّى بعدما قضّى الخلافة حقّها

يخصّك ربى بالسلام المردّد
مع الملا الأعلى تروح وتغتدي
يرف بها الريحان عن خضيل ندي
تروى ثرى هذا الضريح المنجد
نواعم في كل النعيم المخلّد
كما جاء في الذكر الحكيم الممجّد
وعاهد منك المزن أكرم معهد
يؤالى على ذاك الصفيح المنضد
بكل ^٣ نفيس بالنفاسة مفرد
وزهر الحلى قد أدرجت طيّ ملحد
بنور هداه الشهب تهدي وتهدي
يفيض ببحر السماحة مزبد
بما حُرّت من فخر عظيم وسودد
وزوّدت من رحماه خير مزود
مؤمل فوز بالشفيع محمد
وأنجز للأمال أكرم موعد
وكف أكف البغي من كل معتد
وعوّد ذين الله خير معود
وعامل وجه الله في كل مقصد

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ١٥٢ .

٢ الأزهار : وحيك .

٣ الأزهار : حاز ... لكل .

وفتح بالسيف الممالك عنوة
 وكسر تمثال الصليب وأخرست
 وطهر محراباً وجدّد منبراً
 ودانت له الأملاك شرقاً ومغرباً
 وطبق معمور البسيطة ذكره
 وسافر عن دار الفناء ليجتلي
 وقام بأمر الله حقّ قيامه
 لئن سار للرحمن خير مودع
 فقد خلف المولى الخليفة يوسف
 سبيلك في سبل المكارم يقتضي
 محمد جلي الخطب من بعد يوسف
 ولو وجد الناس الفداء مسوغاً
 ستبكيك أرض كنت غيث بلادها
 وتبكي عليك السحب ملء جفونها
 وتلبس فيك النيرات ظلامها
 وما هي إلا أعين قد تسهدت
 فلا زلت في ظل النعيم مخلداً
 وأوردك الرحمن حوض نبيه
 عليك سلام مثل حمدك عاطر
 وصلى على المختار من آل هاشم

ومدت له أملاكها كف مجند
 نواقيس كانت للضلال بمرصّد
 وأعلن ذكر الله في كل مسجد
 وكلهم ألقى له الملك باليد
 وسارت به الركبان في كل قد قد
 بما قدّم اليوم السعادة في غد
 بعزّة لا وان ولا متردّد
 وحلّ من الفردوس أشرف مقعد
 يعيد له غرّ المساعي ويبتدي
 وهديك يا خير الأئمة يقتدي
 ويوسف جلّ الخطب بعد محمد
 فذاك ببذل النفس كل موحد
 وتبكيك حتى الشهب في كل مشهد
 بدمع يروي غلّة المجدب الصدي
 حداداً ويذكي النجم جفن مسهد
 فكحلها نجم الظلام بإمد
 ونجلك يحيا بالبقاء المخلد
 وأصدر من خلف عن خير مورد
 يفض ختام المسك عن تريك الندي
 صلاة بها نرجو الشفاعة في غد

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج :

بما قد حزت من كرمِ الخلالِ بما أدركت من رتبِ الخلالِ
 بما حوَّلت من دينٍ ودنيا بما قد حزت من شرفِ الجمالِ^١
 بما أوليت من صنعٍ جميلٍ يطابقُ لفظه معنى الكمالِ
 تغمدني^٢ بفضلِكَ ، واغضرها
 وقال أيضاً^٣ :

أَتَعْطَشُ أولادي وأنتَ غمامةٌ نعمُ جميعِ الخلقِ بالنفعِ والسقيا
 وتظلمُ أوقاتي ووجهك نيرٌ تفيضُ به الأنوارُ للدينِ والدنيا
 وجدُّك قد سَمَّاكَ ربُّكَ باسمه وأورثك الرحمنُ رتبته العليا
 وقد كان أعطاني الذي أنا سائلٌ وسوَّغني من غيرِ شرطٍ ولا ثنيا
 وشعيري في غُرِّ المصانع خالداً يحبُّه عني في المماتِ وفي المعيا
 وما زلتُ أهدي المدحَ مسكاً مُفتقاً فتحمله الأرواحُ عاطرةَ الرينا
 وقد أكثرَ العبدُ التشكِّيَ وإنه وحقُّك يا فخرَ الملوكِ قد استجيا
 وما الجودُ إلا ميتٌ ، غيرَ أنه إذا نفختُ بمنَّاك في روحه يحيا
 فمن شاء أن يدعو لدينِ محمدٍ فيدعو لمولانا الخليفةِ بالبقيا

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة :

منزلُ اليُمنِ والرضى والسعودِ أنجزتُ فيه صادقاتِ الوعودِ
 كلَّ يومٍ نزاهةٌ إن تقضتُ أنشدتها السعودُ : بالله عودي
 جمع المستعين وصفَ كمالٍ بينَ بأسِ عمِّ الملوكِ وجودِ

١ الأزهاري : المعالي .

٢ ق : تغمدلها .

٣ الأزهاري : ومن ذلك أيضاً يخاطب أغانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله تعالى عليه متوسلاً بقديم
 دُماه ، والخدم المتعددة من نظامه .

فاهنَ في غبطةٍ وعزةٍ مُلكٍ أنتَ واللهُ فخرُ هذا الوجودِ
وقال أيضاً مشيراً لتوليته العلامة :

لك غُرَّةٌ ودَّ الصُّباحُ جمالها ومحاسن تهوى البُورُ كمالها
وشمائلٌ تحكي الرياضُ خلاها وأناملٌ ترجوا الأنامُ خلاها
للمستعين خلافةٌ نصريَّةٌ عرفتْ ملوكُ العالمين جلالها^١
وأنا الذي قد نالَ منك معاليًا تهدي النجوم الزاهرات منالها
تهديه ما قد نلتَه من بعضها فالفخرُ كلُّ الفخر فيمن نالها
في كلِّ يومٍ منك منَّةٌ منعمٍ لو طاولتْ سَمَكُ السَّماءِ ما طالها
بلَغْتَ آمالَ العبيدِ فبلَّغْتَ فيك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أيا مالكا لم يَبْدُ للعين حُسْنُهُ سوى ملكٍ قد حلَّ من عالمِ القدسِ
لك الخيرُ خذها كالأناملِ خمسةٌ تُعوذُ مرآكُ المكمِّلِ بالخمسةِ
فمن أبصرت عَيْنَاكَ مرآهَ فليقلْ أعوذُ بربِّ الناسِ أو آيةِ الكرسيِ

ثم قال ابن الأحمر : وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مرَّ
معه بفحص رِيَّةٍ ، والتلج قد عمَّ أنديته ، وبسط أرديته ، في وجهة توجيهها
مولانا الجَد تغمده الله تعالى إلى مالقة :

يا مَنْ به رُتِبُ الإمارةُ تعلي ومعالمُ الفخرِ المشيدة تبتني

١ ق : ترجى .

٢ الأزهار : جمالها .

٣ الأزهار : سمك الملا .

٤ الأزهار : العالي .

ازجرُ بهذا الثلجِ فالألم إنه ثلجُ اليقينِ بنصرِ مولانا الغني
 بسطَ البياضَ كرامةً لقدومهِ وافترَّ ثغراً عن مسرةٍ معني
 فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمجتلٍ والدوحُ مزهرةٌ تفوحُ لمجني
 سبحانه من أعطى الوجودَ وجودَهُ ليدلَّ منه على الجوادِ المحسنِ
 وبدائعُ الأكوانِ في إنقانها أثرُ يشيرُ إلى البديعِ المتقنِ

ثم قال : ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب
 مادحاً قوله :

أما وانصداعِ النورِ من مَطْلَعِ الفجرِ

إلى آخره ، وقد تقدمت .

ثم قال : وقال يراجع الكاتب أبا زكريا ابن أبي دلالة^١ :

على الطائرِ الميمونِ والطالعِ السعدِ أتني مع الصنعِ الجميلِ على وَعْدِ
 وأحييت يا يحيى بها نفسَ مغرمٍ يجيلُ جِيادَ الدمعِ في ملعبِ السهدِ
 نسيتُ وما أنسى وفائي وخلتي وأقفر ربيعَ القلبِ إلا من الوجدِ
 وما الطلُّ في ثغري من الزهرِ باسمٍ بأزكى وأصفى من ثنائي ومن ودي
 فأصدقها من بحرِ فكري جواهرأ تنظم من درِّ الدراري في عقدِ
 وكنتُ أطيلُ القولَ إلا ضرورةً دعني إلى الإيجازِ في سورةِ الحمدِ

وأنشد السلطان أبا العباس المرسى في غراب^٢ من إنشائه :

إنسانَ عينِ الدهرِ جففتك قد غدا يحفك منه طائرُ اليُمنِ والسعدِ
 إذا ما هفا فوق الرؤوسِ شراعهُ أراك جناحاً مُدًّا للجزرِ والمدِّ

١ أزهار الرياض ٢ : ١٧٥ .

٢ الغراب : نوع من السفن .

وأنشد فيه أيضاً :

لك الخيرُ شأنُ الجفنِ يحرسُ عينَهُ وهذا بعينِ الله يحرسُ دائماً
تبيتُ لهُ خمسُ الثريا معيدةً تقلدهُ زهُرُ النجومِ تمانياً
فيا جفنُ لا تنفكُ في الحفظِ دائماً وإن كنتَ في لُجٍّ من البحرِ عائماً

انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر في حق ابن زمرك ، وذلك جملة من نظمه .

[موشحات ابن زمرك]

وقد رأيت أن أعزز ذلك ببعض موشحات ابن زمرك المذكور ، مما انتقته من كلام ابن الأحمر .
فمنها قوله متشوقاً إلى غرناطة ويمدح الغني بالله :

بالله يا قامة القضيبي ومجلى الشمس والقمر
من ملك الحسن في القلوب وأيد اللحظ بالخور
من لم يكن طبعه رقيقاً لم يدري ما لذة الصبا
فرب حُرٍّ غدا رقيقاً تملكه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرجيقا لكن إلى الحسن قد صبا
فعدب القلب بالوجيب ونعم العين بالنظر
وبات والدمع في صيب يقدح من قلبه الشرر

١ في الأزهار : وقد عن لي أن أذكر جملة من موشحات لغرابتها ، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخرط في سلك المغرب ، إذ أكثره من مخلع البسيط .

عجبتُ من قلبي المعنى
لو كان للصبِّ ما تمتي
وبُلبِلُ الدَّوحِ إن تغنى
يهفو إذا هبَّتِ الرياحُ
لطارَ شوقاً إلى البطاحِ
أسهرَ ليلى إلى الصباحِ

عساكَ إن زرتَ يا طيبي
أن تجعلَ النومَ من نصيبي
بالطيفِ في رقدة السَّحرِ
والعينَ تحمي من السهرِ

كَمْ شادنٍ قاد لي الختوفا
يسلُّ من لحظة سيوفا
خلقتُ من عادي ألُوفاً
بمريعِ القلبِ قد سكنَ
فالقلبُ بالروع ما سكنَ
أحنُّ لسلايلِ والسكنِ

غرناطةٌ منزلُ الحبيبِ
تبهرُ بالمنظرِ العجيبِ
وقد ربُّها السؤلُ والوطرُ
فلا عدا ربَّعها المطرُ

عروسةٌ تاجها السبيكةُ
لم ترضَ من عزِّها شريكه
أيدُّها الله من مليكه
وزهرها الحليُّ والحللُ
بحسنها يضربُ المثلُ
تملكها أشرفُ الدولِ

بدولة المرتجى المهيِّبِ
تختالُ من بُردها القشيبِ
الملكِ الطاهرِ الأغرِ
في حلةِ النورِ والزَّهرِ

كرسيُّها جنةُ العريفِ
وجوهرُ الطلِّ عن شنوفِ
والأنسُ فيها على صنوفِ
مرآتها صفحةُ الغديرِ
تحكمها صنعةُ القديرِ
فمن هديلِ ومن هديرِ

كم خرق الزهرُ من جيوبِ وكلل القُضْبَ بالدررِ
 فالقُصْنُ كالكَاعِبِ اللعوبِ والطيرُ تشدو بلا وترِ
 ولائمُ النصرِ في احتفالِ وفرحُ دينِ الهوى ١ جديدِ
 سلطانها مُعْمِلُ العوالي محمد الظافرُ السعيدِ
 ومجملُ البدرِ في الكمالِ سلطانها المجتبي الفريدِ
 أصفَحْ مَوَلَى عن الذنوبِ أكرمُ عافٍ إذا قدرِ
 وشمسُ هَدْيٍ بلا منيبِ وبحرُ جودٍ بلا حَسَرِ
 مولاي يا عاقدَ البنودِ تظلل الأوجهُ الصَّبَاحِ
 أوحِشْتَ يا نَجْمَ الوجودِ غرناطة ٢ هالةَ السَّمَاحِ
 سافرتَ باليَمْنِ والسعودِ وعدتَ بالفتحِ والنجاحِ
 يا ملُهم القلبِ للغيوبِ ومُطْعِمَ النصرِ والظفرِ
 أسمعك الله عن قريبِ : « على السلامة من السفرِ »

وقال أيضاً ٢ من الموشحات الرائقة ٢ ، في مثل أغراض هذه السابقة ، وأشار
 إلى محاسن من وصف النشار :

نَسِيمُ غرناطة عليلُ لكنّه يرى العليلِ
 وروضها زهرةٌ بليلُ ورشفه يَنقَعُ الغليلِ
 سقى بنجدِ رَبِّي المصلّى مبكراً روضه الغمامِ
 فجفنه كلما استهلاً تبسم الزهرُ في الكِمامِ
 والروض بالحسن قد تحلى وجرد النهرُ عن حِمامِ

٢ ق : ثم ذكر .

٤ الأزهار : تجل .

١ الأزهار : الهدى .

٣ الأزهار : الفائقة .

ودوحها ظلهُ ظليلُ	يَحْسُنُ في رَبْعِهِ المَقِيلُ
والبرقُ والجوُّ مستطيلُ	يلعبُ بالصارمِ الصَقِيلُ
عقيلةُ تاجها السَّيِّكةُ	تطلُّ بالمرقبِ المنيفُ
كأنَّها فوقهُ مليكةُ	كرسيُّها جَنَّةُ العَرِيفُ
تطيعُ من عسجدِ سبيكةُ	شمسُها كلَّما تطيفُ
أبدعك الخالقُ الجميلُ	يا منظراً كلَّه جَمِيلُ
قلبي إلى حُسنه يميلُ	وقبلنا قد صبا جَمِيلُ
وزاد للحسنِ فيكَ حسنا	محمدُ الحمدِ والسَّامِحُ
جدّد للفخرِ فيكَ مَغْنَى	في طالعِ اليَمْنِ والتَّجاحُ
تدعى دشاراً وفيكَ معنى	يخصَّكَ الفألُ بافتتاحُ
فالنصرُ والسعدُ لا يزولُ	لأنَّه ثابتُ أصِيلُ
سعدٌ وأنصاره قبيلُ	آبَاؤُه عِتْرَةُ الرُّسُولُ
أبدى به حكمةَ القديرِ	وتوجَّ الرُّوضِ بالقِبابِ
ودرَّعَ الزَّهرَ بالغديرِ	وزيَّنَ النهرَ بالحِبابِ
فمِنْ هَدِيلٍ ومن هديرِ	ما أَوْلَعَ الحُسنَ بالشَّبابِ
كبت على روضها القبولُ	وطرفها بالسُّرى كليلُ
فلَمْ يزلَ بَيْنَها يَجُولُ	حتى تَبَدَّتْ لَهُ حُجُولُ
للزَّهرِ في عطفها رُقُومُ	تلوحُ للعَيْنِ كالنَّجومِ
وللندى بَيْنَها رسومُ	عِقدُ الندى فوقهُ نَظِيمُ
وكلُّ وادٍ بها يهيمُ	ولم يزلْ حولها يحومُ

شَيْلَهَا مُدٌّ مِنْهُ نَيْلٌ وَالشَّيْنُ أَلْفٌ لِمُسْتَنْيَلٌ
 وَعَيْنٌ وَادٍ بِهِ تَسِيلٌ مِنْ فَوْقِ خَدٍّ لَهُ أُسَيْلٌ
 كَمْ مِنْ ظِلَالٍ بِهِ تَرْفٌ تَضْفُو لَهُ فَوْقَهَا سُتُورٌ
 وَمِنْ زَجَاجٍ بِهِ يَشْفٌ مَا بَيْنَ تَوْرٍ وَبَيْنَ تَوْرٍ
 وَمِنْ شَمُوسٍ بِهَا تُصَفُّ تَدِيرُهَا بَيْنَهَا الْبَدُورُ
 مَزَاجُهَا الْعَذْبُ سَلْسِيلٌ يَا هَلْ إِلَى رَشْفِهَا سَيْلٌ
 وَكَيْفَ وَالشَّيْبُ لِي عَذُولٌ وَصِبْغُهُ صَفْرَةُ الْأَصِيلِ
 يَا سَرْحَةَ فِي الْحَمَى ظَلِيلَهُ كَمْ نَلْتُ فِي ظِلِّكَ الْمُنَى
 رَوْضَكَ اللَّهُ مِنْ خَمِيلِهِ يُجْنِي بِهَا أَطِيبُ الْجَنَى
 وَبَرْقُهَا صَادِقُ الْمَخِيلَةِ مَا زَالَ بِالسَّافِثِ مَحْسَنُ
 أَنْجِزْ لِي وَعْدَكَ الْقَبُولُ فَلَمْ أَقُلْ مِثْلَ مَنْ يَقُولُ :
 « يَا سَرْحَةُ الْحَيِّ يَا مَطُولُ » شَرَحُ الَّذِي بَيْنَنَا يَطُولُ

وَمِنْ ذَلِكَ مَا كُتِبَ بِهِ إِلَى الْغَيِّ بِاللَّهِ :

أَبْلَغُ لَغْرَنَاطَةٍ سَلَامِي وَصِفْ لَهَا عَهْدِي السَّلِيمُ
 فَلَوْ رَعَى طَيْفُهَا ذِمَامِي مَا بَتُّ فِي لَيْلَةِ السَّلِيمِ
 كَمْ بَتُّ فِيهَا عَلَى اقْتِرَاحِ أَعْلُ مِنْ خَمْرَةِ الرِّضَابِ
 أَدِيرُ فِيهَا كُؤُوسَ رَاحِ قَدْ زَانَهَا الثَّغْرُ بِالْحَبَابِ
 أَخْتَالُ كَالْمَهْرِ فِي الْجَمَاحِ نَشْرَانُ فِي رَوْضَةِ الشَّبَابِ

أَضاحكُ الزَّهرَ في الكِمامِ مباحياً روضَه الوسيمُ
وأفضحُ الغصنَ في القوامِ إن هبَّ من جوِّها نسيمُ

بيننا أنا والشبابُ ضافٍ وظلُّه فوقنا مديدُ
وموردُ الأنسِ فيه ضافٍ وبرده رائقُ جديدُ
إذ لاح في القودِ غير خافٍ صبحُ به نبتَه الوليدُ

أيقظَ مَنْ كان ذا منامٍ لما انجلي ليله البهيمُ
وأرسلَ الدمعَ كالغمامِ في كلِّ وادٍ به أهيمُ

يا حيرةً عهدهم كريمُ وفعلهم كله جميلُ
لا تعدلوا الصبَّ إذ يهيمُ فقبله قد صبا جميلُ
القربُ من ربِّكم نعيمُ وبُعدكم خطبه جليلُ

كم من رياضٍ به وسامٍ يُزهِى بها الرائضُ المسيمُ
غديرها أزرق الحمامِ ونبتها كله جسيمُ^٢

أعندكم أنِّي بفاسٍ أكابدُ الشوقَ والحنينُ
أذكرُ أهلي بها وناسي واليومُ في الطولِ كالسنينِ
اللهُ حسبي فكم أقاسي من وحشةِ الصحبِ والبنينِ

مطارحاً ساجعَ الحمامِ شوقاً إلى الإلفِ والحميمِ
والدمعُ قد لجَّ في انسجامِ وقد وهى عقدهُ التنظيمِ

١ الأزهار : الرائد .

٢ ق : جسيم .

يا ساكني جنة العريف	أُسكُنتُمُ جَنَّةَ الخلودِ
كم تَمَّ من منظرٍ شريفٍ	قد حُفَّ باليُمن والسعودِ
ورُبَّ طَوْدٍ به منيفٍ	أدواحُه الخضرُ كالبنودِ
والنهرُ قد سُلَّ كالخسامِ	لراحة الشَّربِ مستديمٍ
والزهرُ قد راق بابتسامِ	مُقبِلًا راحة التَّدِيمِ
بلغ عييد المقامِ صحي	لا زلَمُ الدهرُ في هنا
لِقائِكُمُ بَغِيَّةُ المحبِّ	وقربُكُم غايَةُ المُنَى
فعندكُمُ قد تركتُ قلبي	فجدَّدَ اللهُ عَهْدَنَا
وداركَ الشَّمْلَ بانتظامِ	مِنْ مُرتجى فضلِهِ العَمِيمِ
في ظلِّ سلطاننا الإمامِ	الظاهرِ الظاهرِ الحَلِيمِ ^٢
مؤمنُ العلوتينِ مما	يخافُ من سطوة العِدا
وفارجُ الكربِ إنَّ الما	ومذهِبُ الخطبِ والرَّدَى
قد راقَ حسنًا وفاقَ حلما	وما عدا غيرَ ما بدا
مولاي يا نَجْمَةَ الأَنامِ	وحائِرَ الفخرِ في القديمِ
كَم أرقبُ البدرَ في التمامِ	شوقًا إلى وجهك الكَرِيمِ

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سهل التي أولها « ليل الهوى يقظان »

وهي :

نواسمُ البُستانِ	تنثرُ سِلَكَ الزَّهَرِ
والطَّلُّ في الأغصانِ	ينظمُه بالجواهرِ

١ ق : من يرتجي .

٢ ق : الحميم .

وراحة ^١ الإصباح	أضاء منها المشرق
تنشرها الأرواح	فلا تزال تخفق
والزهر زهر فاح	لها عيون ترمق
فتأبىظ الندمان	يبصرن ما لم يبصر
جواهر الشهبان ^٢	قد عرضت للمشتري
قدحت لي زندا	يا أيها البارق
أذكرني عهدا	إذ الشباب راتق
فالشوق لا يهدا	ولا الفؤاد الخافق
وكيف بالسُّلوان	والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران	تجيب وجه القمر
لولا شمس الكاس	تديرها بين البلور
وعرج الإناس	منا على ربع الصدور
لكن لها وسواس	يفري بربات الخلور
كم واله هيمان	بصبح وجه مفر
ضياؤه قد بان	من تحت ليل مفر
يا مطلع الأنوار	كم فيك من مرأى جميل
ونزهة الأبصار	ما ضر لو تشفى العليل
يا روضة الأزهار	وعرفها يبري العليل

١ الأزهار : رواية .

٢ ق : الشبان .

فَضِيكَ الْقَيْنَانُ	يُسْقَى بدمعٍ هَمِيرٍ
فَلَاعِجُ الْأَشْجَانِ	فِيضُ الدَّمُوعِ يَمْتَرِي ^١
هَلْ فِي الْهَوَى نَاصِرٌ	أَوْ هَلْ يُجَارُ الْهَائِمُ
لَوْ كَانَ لِي زَائِرٌ	طِيفُ الْخِيَالِ الْخَائِمُ
مَا بَتُّ بِالسَّاهِرِ	وَدَمْعُ عَيْنِي سَاجِمُ
وَالْحُبُّ ذُو عِدْوَانٍ	يَجْهَدُ فِي ظِلْمِ الْبَرِي
وَصَارِمُ الْأَجْفَانِ	مُؤَيَّدٌ بِالْحَوَرِ
رَحِمَاكَ فِي صَبٍّ	أَذْكُرْتَهُ عَهْدَ الصَّبَا
بَوَاعَتْهُ الْحُبُّ	قَادَتْ إِلَيْهِ الْوَصْبَا
لَمْ تَهْفُ بِالْقَلْبِ	رِيحُ الصَّبَا إِلَّا صَبَا ^٢
بَلِيلَةَ الْأُرْدَانِ	قَدْ ضُمَّخَتْ بِالْعَبْرِ
يَشِيرُ غَصْنُ الْبَانِ	مِنْهَا بِفَضْلِ الْمَثَرِ
طَيِّبَهَا حَمْدُ	فَخِرِ الْمُلُوكِ الْمُجْتَبَى
مَنْ يَرْجِعُ الطُّوْدُ	مِنْ حِلْمِهِ إِذَا احْتَبَى
قَدْ جَرَّدَ السَّعْدُ	مِنْهُ حَسَاماً مُدْهَبَا
فَالْبَاسُ وَالْإِحْسَانُ	وَالْغَوْتُ لِلْمُسْتَنْصَرِ
تَحْمِلُهُ الرُّكْبَانُ	تَحِيَّةً لِلْمُنِيرِ
عَصَابَةُ الْكِتَابِ	حَقٌّ لَهَا الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
تُخَالُ فِي أَثْوَابِ	أَلْسِنَا الطُّولِ الْجَسِيمِ
فَحْسِبَا الْإِطْنَابِ	فِي الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ الْعَمِيمِ

٢. ق : هيا .

١. ق والأزهار : يجرى ؛ وامرئى اقتل من مرى بمعنى استدر .

خليفة الرحمن
يا مورد الظمان
لا زلت سامي المظهر
ورأس مال المعسر

خذها على دعوى
جاءت كما نهوى
تزري على الروض الوسيم
أرق من لدن النسيم
قد طارحت شكوى
« ليل الهوى يقظان »
والحب تيرب السهر
« والصبر لي خوان »
من قال في الليل البهيم
والنوم من عيني بري

وله في الصبوحيات :

ريحانة الفجر قد أطلت
وراية الصبح قد أطلت
خضراء بالزهر تزهرو
في مرقب الشرق تنشر
فالشهب من غارة الصباح
وأدهم الليل في جناح
ترعد خوفاً وتخفق
أعنة البرق يطلق
بأدمع الغيث يشرق
فالبوق سيف مجوهر
صفاحه المذهبات حلت
بطيبه الزهر يشهد
في حلية النور يغمد
للطير في حين تشد
مدائحاً عنه تشكر
في سندس الروض تعثر
كم للصبا ثم من مقبل
والنهر كالصارم الصقيل
ورب قال به وقيل
فالسُن الورق قد أملت
ونسمة الصبح قد تجلت

١ الأزهار : زاهي .

والكاسُ في راحة النديمِ	يحلُّو بها غيبِهم المومِ
أقبستِ النار في القديمِ	من قبل أن تخلقِ الكرومِ
والنهرُ في ملعبِ النسيمِ	للزهر في عطفه رقومِ
فلبّةُ الحلبي ^١ قد تحلّت	والطلُّ في الحلبي ^٢ جوهر
وبهجة الكون قد نجلّت	والروض بالحسنِ يبهر ^٣
يُذكرني وجنة الحبيبِ	والآس في صفحة العذار
وشاربِ الشاربِ العجيبِ	بين أقاح وجلتار
يديرُ من ثغره الشنيبِ	سُلاقة دونها العقار
حلّت لأهل الهوى وجلّت	بالذكر والوهمِ تُسكرُ
كم من نفوسٍ بها تسلّت	فما لها الدهر منكيرُ
يا غصنَ بانٍ يميلُ زهنا	ريان في روضة الشبابِ
لو كنت تصغي لرفع شكوى	أطلت من قصة العقابِ
ومن لمثلي بيث نجوى	للبدن في رفرِفِ السحابِ
عزائمُ الصبرِ فيك حلّت	وعقدة الصبرِ تذخر
قد أكثرت منك ما استقلت	وليت لو كنت تشعر
كم ليلة بثها وبثا	ضدين في السهدِ والرقادِ
أسامرُ النجمِ فيك حتى	علّمت أجفانها السهادِ
أرقبُ بدرَ الدجى ، وأنا	قد لحت في هالة الفؤادِ

١ ق : الشمس .

٢ الأزهار : القصب .

٣ ق : يزهر .

٤ الأزهار : أجفانه .

نَفْسِي وَلَيْتَ مَا تَوَلَّيْتُ دَعَا عَلَى الشَّوْقِ تَصْبِرُ
لَوْ سُمِّتَ الْهَجْرَ مَا تَوَلَّيْتُ وَلَمْ تَكُنْ عَنْكَ تَنْفِرُ

عَلَّمَهَا الصَّبْرَ فِي الْحُرُوبِ سُلْطَانُنَا عَاقِدُ الْبُنُودِ
مَعْفَرُ الصَّيْدِ لِلْجَنُوبِ أَعَزُّ مِنْ حُفٍّ بِالْجُنُودِ
نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ فِي الْقُلُوبِ وَالْبَيْضَ لَمْ تَبْرَحِ الْعُمُودُ

عَنَابَةُ اللَّهِ فِيهِ حَلَّتْ بِسَعْدِهِ الدِّينُ يُنْصَرُ
وَالْخَلْقُ فِي عَصْرِهِ تَمَلَّتْ غَنَائِمًا لَيْسَ تُحْصَرُ

مَوْلَايَ يَا نَكْتَةَ الزَّمَانِ دَارَ بِمَا تَرْتَضِي الْفَلَكَ
جَلَلْتُ بِالْيُسْنِ وَالْأَمَانِ كُلَّ مَلِكٍ وَمَا مَلِكُ
لَمْ يَدِرْ وَصْفِي وَلَا عِيَانِي أَمَلِكُ أَنْتَ أُمَ مَلِكُ

جَنُودُكَ الْغُلْبُ حَيْثُ حَلَّتْ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ تُخْفَرُ
وَعَادَةُ اللَّهِ فَيْكَ دَلَّتْ أَنْتَ بِالْكَفْرِ تُظْفَرُ

يَا آيَةَ اللَّهِ فِي الْكَمَالِ وَمُخْجَلُ الْبَدْرِ فِي التَّمَامِ
قَدِمْتَ بِالْعَزِّ وَالْجَلَالِ وَالْدَّهْرِ فِي ثَغْرِهِ ابْتِسَامِ
يُخْتَالُ فِي حُلَّةِ الْجَمَالِ وَالْبَدْرِ قَدْ عَادَ فِي اخْتِتَامِ

رِيحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَظَلَّتْ خَضِرَاءَ بِالزَّهْرِ تَزْهَرُ
وَرَايَةُ الصَّبْحِ قَدْ أَظَلَّتْ فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تَنْشُرُ

وَقَالَ سَامِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةُ الصَّبَاحِ وَأَذِنَ اللَّيْلُ بِالرَّحِيلِ
فَبَاكَرِ الرُّوْضَ بِاصْطِبَاحِ وَاشْرَبْ عَلَى زَهْرِهِ الْبَلِيلِ

فالورقُ هبَّتْ من السُّبَّاتِ
تسجَعُ مفتتةً اللغاتِ
والغصنُ بعدَ الذهابِ يأتي
لمنبرِ الدَّوحِ تخطبُ
كلُّ عن الشوقِ يُعربُ
لأكؤسِ الطَّلِّ يشربُ

وأدمع السُّحبِ في انسياحِ
والجوَّ مستبشِرُ النواحي
في كلِّ روضٍ لها سبيلُ
يلعبُ بالصَّارمِ الصَّقيلُ

قم فاعنتم بهجةَ النفوسِ
وشفع الصَّبحَ بالشموسِ
ونبه الشَّربَ للكووسِ
ما بين نورٍ وبين نورٍ
تديرها بيئتنا البدورُ
تمزجُ من ريقة الثغورِ

ما أجمل الرَّاحَ فوقَ راحِ
تغادرُ الصَّدرَ ذا انشراحِ
صفراء كالشمسِ في الأصيلِ
للأنسِ في طيِّهِ مَقلِ

ولا تذرْ خمرةَ الجفونِ
ولتخشَ من أسهمِ العيونِ
عرضتَ منها إلى الفتونِ
فسكرها في الهوى جنونِ
فإنَّها رائدُ المنونِ
وكلُّ خطبٍ لها يهونِ

أهيم بالغداة الرِّداحِ
لو بتُّ منها على اقتراحِ
والجسمُ من حبِّها عليلُ
نقعتُ من ريقها الغليلُ

أواعدُ الطَّيِّفِ للمَنامِ
أسهرُ في ليلة التمامِ
وألُمُ الزَّهرِ في الكِمامِ
ومن لعبتيَّ بالمنامِ
وأنت يا بدرُ في التمامِ
عليه من ثغرك ابتسامِ

سفرتَ عن ميسمِ الأقاحِ
قل لي يا ربَّة الوشاحِ
وريقك العذبُ سلسيلُ
هل لي إلى الوصلِ من سبيلِ

يا كعبة الحسن زدت حسنا	واللهوى حولك المطاف
وغصن بان إذا تثنى	لو حان من زهرك القطاف
ألا انعطاف على المعنى	فالفصن يزهى بالانعطاف
أصبحت تزهو على الملاح	بذلك المنظر الجميل
ووجهك الشمس في اتضاح	لو أنها لم تكن تميل
ما الزهر إلا بنظم در	تحمد في حسنه العقود
للملك الظاهر الأغر	أكرم من حُف بالسعود
محمد الحمد وابن نصر	وباسط العدل في الوجود
مُساجل السُحب في السماح	بالغيث من رِفده الجليل
ومخجل البدر في اللباح	بغرة ما لها مثل
يا مُشرب الحب في القلوب	وواهب الصفح للصفاح
نُصِرت بالرعب في الحروب	والرعب أجدى من السلاح
قد لحّت من عالم الغيوب	لم تعدم الفوز والفلاح
مراكش نهبه افتتاح	والصنع في فتحها جليل
بُشراك بالفتح والنجاح	والشكر من ذلك القليل

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

في كؤوس الثغر من ذاك اللعس	راحة الأرواح
وتغشى الروض مسكي النفس	عاطر الأرواح
وكسا الأدواح وشياً مذهباً	يبهر الشمس

عسجدٌ قد حلَّ من فوق الربِّي	يبهجُ النفسا
فاتخذ للهِو فيه مركبا	تلحق الأنسا
منبرُ الغُصنِ عليه قد جَلَسَ	ساجعُ الأدواخ
حلَّلَ السندسَ خَضْرَاءَ قد لبسَ	عِطْفُهُ المرتاح
قُمْ تَرَى هَذَا الْأَصِيلَ شاحبا	حُسْنُهُ قد راق
ولأذبالِ الغُصونِ شاحبا	في حُلَى الأوراق
ونديمٍ قالَ لي مُخاطِبا	قولَ ذي إشفاق
عادةُ الشمسِ بغربٍ تُحْتَلَسُ	هاتِ شمسَ الراح
إنْ أَرَانَا الجَوَّ وَجْهًا قد عَبَسَ	أوقِدِ المِصْبَاح
ووجوهُ الشَّرْبِ تَغِي عن شُموسِ	كلِّما تُجَلَى
بلحاظِ أسكرتنا عن كُؤوسِ	خمرها أحلى
مظهِراتٌ من خفايا في النفوسِ	سُوراً تُنَلَى
ما زَمَانُ الْأَنْسِ إِلَّا مَغْتَلَسِ	فاغْنِمِ يا صاح
وعيونُ الشَّهْبِ تَذْكِي عن حَرَمِ	تُخَصِّمُ النَّصَّاح
ما تَرَى ثَغَرَ الوَمِيزِ بِاسْمَا	يُظْهِرُ البِشْرَا
وثَناءُ الرُّوضِ هَبَّ ناسِما	عاطِراً نَشْرَا
بَثَّ مِنْ أَزْهَارِهِ دَرَاهِمَا	قائِلًا : بَشْرَى
ركب المولى معَ الظَّهِيرِ القَرَمِ	وشَفِيَّ وارتاح
يُجْنُودُ اللَّهَ دَائِباً يَحْتَرَسِ	إنْ غَدَا أَوْ راح

وجب الشكرُ عَلَيْنَا والهنأ
 فزمانُ السعد وضأحُ السنأ
 أثمرتْ فِيهِ العوالي بالثني
 ثمرأ غَضَّأ
 يحتنى الإسلامُ منها ما اغترسُ
 فِي ضميرِ النفعِ منها قد هَجَسُ
 يا إماماً بالحسامِ المنتضى
 ثفركَ الوضأحُ مهما أومضا
 نَصَرَ الحقَّأ
 أخلجَل البرقا
 وديونُ السعدِ منه تفتضى
 توسعُ الحقَّأ
 لكَ وجهٌ من صباحٍ مقتبسُ
 وجميلُ الصفعِ منه مُلتَمَسُ
 بِشْرُهُ وضأحُ
 منعمُ صفأحُ
 هاكها تمزج لطفأ بالتسليمُ
 قد أنتَ بالبرِّ والصنعِ الحسيمُ
 تشكر الربَّأ
 أخلجت من قال فِي الصبحِ الوسيمُ
 مغرماً صبأأ
 « غرد الطيرُ فنبَّه من نفس »^١
 « وتعرى الفجرُ عن ثوب الغلس »
 يا مديبرَ الراحِ
 وانجلي الإصباحِ

وقال أيضاً ساعده الله تعالى :

قَدْ أنعمَ اللهُ بالشفاءِ واستكملت راحةُ الإمامِ
 فلتنطقِ الطيرُ بالهنأأ وليضحك الزهرُ فِي الكِمامِ
 وجُوده بهجةُ الوجودِ وبرؤه راحةُ النفوسِ

١ تفسين من شعر ابن وكيع .

قد لاح في مرقب السعود	واستبشرت أوجه الشموس
فالدوح يومي إلى البنود	أكامه غطت الرؤوس
والزهر في هروضة السماء	كالزهر قد راق بابتسام
والصبح مستشرف اللواء	والبدر مستقبل التمام
محاسن الكون قد تجلت	جمالها العقل يبهر
عراس بالها تحلت	والطل في الحلي جوهر
والسن الورق قد أملت	مدائحاً عنه تشكر
تستوقف الخلق بالغناء	كانتها تحسن الكلام
تطنب لله في الثناء	تقول سلّمت يا سلام
كم من ثغور لها ثغور	تسم إذ جاءها البشير
ومن خدور بها بدور	يشير منها له المشير
تقول إذ حفها السرور	تبارك المنعم القدير
قد أنعم الله بالبقاء	في ظل مولى به اعتصام
قد صادف النجح في الدواء	فالداء عنا له انقصام
يهنيك مولاي بل يهنّي	بيرثك الدين والهوى
فالغرب والشرق منك يعنى	بمذهب الخطب والردى
والله لولاك ما تنهنا	ما فيه من سطوة الردى
يا مورد الأنفس الظماء	قد كان يشفها الأوام
وقرة العين باليهاء	رددت للأعين التمام

١ الأزهار : إلى السجود ... حطت .

لو أبذلُ الروحَ في البشارة
فأنتِ يا نفسُ مستعاره
لم أدرِ إذ سطرَ العِبارَه
لا زلتَ مولايَ في هناءٍ
ودمتَ للملكِ في اعتلاءٍ
يذلتُ بعضَ النبي ملكُ
مولايَ بالفضلِ جَمَلُكَ
أملكُ هو أم ملكُ
مُبَلِّغُ القصدِ والمِرامِ
تسحبُ أذيالَه الغمامِ

وقال في مالفقة :

عليك يا ربةُ السلامُ
مذ حلَّ في قصرِكَ الإمامُ
والدُوحُ في روضِكَ الأنيقُ
والغصنُ في نهره غريقُ
والجو من وجهك الشريقُ
وأعينُ الزهر لا تنامُ
تنفثُ من تحتها الغمامُ
عروسةُ أنتِ يا عقيلهُ
مدت لك الكفَّ مستقيلهُ
والبحرُ مرآتكِ الصقيلهُ
والخليُّ زهرٌ له انتظامُ
قد راق من ثغره ابتسامُ
ولا عدا ربتُكَ المطرُ
فقربكِ السؤلُ والوطرُ
للشكرِ قد حطَّتِ الرؤوسُ
وفي حُلاه كما عروسُ
نحسده أوجهُ الشُموسِ
تستعذبُ السَّهْدَ والسَّهرِ
ترقيقُ من أعينِ الزهرِ
تُجلى على مَظْهَرِ الكمالِ
تمسحُ أعطافكِ الشمالِ
تشفُّ عن ذلكِ الجمالِ
يكللُ القُضْبَ بالدرِّ
والوردُ في خدَّها خَفَرُ

١ ورد بده في الأزهار :

كم فيك للمغموم المشوق
والنوح
والجو من وجهك
من منظر يبهج النفوس
(البيت)

وَمِنْ لَّهِ وَصْلُهَا مَبَاحُ	إِنْ قِيلَ مَنْ بَعَلُّهَا الْمَقْدِيُّ
مَخْلَدُ الْفَخْرِ بِالْصَفَاحِ	أَقُولُ أَسْنَى الْمُلُوكِ رَفْدَا
تَنَاوَاهُ عَاطِرُ الرِّيحِ	مَحْمَدُ الْحَمْدِ حِينَ يَهْدَى
وَالْحُبْرُ يَنْفِي عَنِ الْحَبْرِ	تَخْبِرُ عَنْ طَيْبِهِ الْكِمَامُ
وَالنَّصْرُ آيَاتُهُ الْكُبْرُ	فَالسَّعْدُ وَالرَّعْبُ وَالْحَسَامُ
وطلعة تُخَجِّلُ الصَّبَاحُ	ذُو غُرَّةٍ تَسْحَرُ الْبُلُورَا
تُظَلِّلُ الْأَوْجُهُ الصَّبَاحُ	كَمْ رَايَةً سَامَهَا ظَهُورَا
أُظْفِرُ بِالْفَوْزِ وَالتَّجَاحُ	وَكَمْ جِهَادٍ جَلَاهُ نُورَا
أَعَزُّ مَنْ صَالَ وَانْتَخَرُ	الظَّاهِرُ الظَّاهِرُ الْمَمَامُ
جَرَى بِهِ سَابِقُ الْقَدْرِ	لَسِيفُهُ فِي الْعَدَا احْتِكَامُ
لَوْ تَطَلَّبُ الْبَحْرَ تَلَحُّقُ	يَا مَرْمَلَةَ الْخَيْرِ فِي الْفَوَارِ
سَوَابِقُ الشُّهُبِ تَسْبِقُ	لَكَ الْجَوَارِي إِذَا تَجَارَى
فَالْكَفَرُ مِنْهُمْ يَمُزَّقُ	تَسْتَنُّ فِي بِلْحَةِ الْبَحَارِ
بَسِيفِكَ اعْتَرَّ وَانْتَصَرَ	فَالدِّينُ وَلِيقْصِرَ الْكَلَامُ
هُمْ نَصَرُوا سَيِّدَ الْبَشَرِ	كَذَاكَ أَسْلَافُكَ الْكِرَامُ

وقال من غير هذا البحر في المحدث^١ بمالقة :

وَاجْتَنَمَ الْأَحْبَابُ قَرَبَ الْحَيْبِ	قَدْ نُظِّمَ الشَّمْلُ أَمَّ أَنْتَظَامُ
عَنْ مَبِيعِ الزَّهْرِ الْبُرُودِ الشَّيْبِ	وَاسْتَضْحَكَ الرُّوضُ نُفُورَ الْغَمَامِ ^٢

١ المحدث : اسم بناء بمالقة .

٢ الأزهار : الكمام .

وعمم النور رؤوس الربى	وجلل النور صدور البطاح
وصافح القضب نسيم الصبا	فالزهر يرنو عن عيون وقاح
وعاود النهر زمان الصبا	فقلد الزهر ^١ مكان الوشاح
وأطلع القصر برود التمام	في طالع الفتح القريب الغريب
خدودها قامت مقام الغمام	فلا اشتكى ^٢ من بعدها بالمغيب
أصبحت يا ربة على النفوس	جمالك العين بها يهر
والبشر يسري في جميع الشموس	وراية الأنس بها تشهر
والدوح للشكر تحط الرؤوس	وأنجم الزهر بها تهر
وراجع النهر غناء الحمام	وقد شدت تسجع تسجع الخطيب
بمنبر الغصن الرشيق القوام	لما اثني يهفو بقدر رطيب
يا حبذا ميناك فخر القصور	بروجه طالت بروج السما
ما مثله في سالفات العصور	ولا الذي شاد ابن ماء السما
كم فيه من مرأى بهيج ونور	في مرتقى الجوى به قد سما
خليفة الله ونعم الإمام	أنحفك الدهر بصنع عجيب
يهنيك شمل قد غدا في التمام	ممهداً في ظل عيش خصيب
نواسم الوادي بمسك نفوخ	ونفحة الند به تعبى
وبهجة السكان فيه تلوح	وجوه من نورهم يشرق
وروضه بالسرا منه يبوخ	بلايل عن وجدته تنطق

١ الأزهار : النهر .

٢ الأزهار : لا اشتكى .

لو أن من يفهم عنها الكلام
ونهره قد سلّ منه الحسام
فهي تهنيك هناء الأديب
يلحظه الزجس لحظ المريب

فأجمل الأيام عصر الشباب
يا دُرّة القصر وشمس القباب
وأجمل الأجل يوم اللقا
وهازم الأحزاب في الملتقى
بشرك الرب بحسن المآب
متعك الله بطول البقا

ولا يزال القصر قصر السلام
يتلو عليك الدهر في كل عام :
يختال في بُرد الشباب القشيب
﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾

وقال من المخلع في الشفاء :

في طالع اليمن والسعود
فأشرق النور في الوجود
قد كملت راحة الإمام
وابتسم الزهر في الكمام

قد طلعت راية النجاح
وقال حيّ على الفلاح
وانهزم البؤس والعنا
مؤذن القوم بالمنى
فالدهر يأتي بالافتراح
مستقبلاً أوجه الهنا

تحقق منشورة البرود
والأنس مستجمع الوفود
والسعد يقدم من أمام
واللطف مستعذب الحمام

وأكؤس الطلّ مترعات
والطير مفتنة اللغات
بأعمل السوسن الندي
تشدو بأصوات معبد
والفصن يذهب ثم يأتي
بالسندس الغض مرتدي

والدُّوحُ يَوْمِي إِلَى الْمَجْدِ
وَالرَّيْحُ خَفَاقَةُ الْبُيُوتِ
شُكْرًا لِّذِي الْأَنْعَامِ الْجَمْعِ
تَبَاكَرُ الرُّوحِ بِالْغَمَامِ

مَظَاهِرُ الْجَمَالِ تُجَلِّي
وَبَاهِرُ الْحُسْنِ قَدْ تَجَلَّى
قَدْ هَنَأَتْ بِالشِّفَاءِ مَوْلَى
بَعْضُهُ تَفَخَّرُ الْعُصُورُ
قَدْ هَزَّ أَعْطَافَهَا السُّرُورُ
مَا بَيْنَ نَوْرِ وَيْنِ نَوْرِ

مَا بَيْنَ بَاسٍ وَيْنِ جُودِ
فَالدِّينُ ذُو أَعْيُنِ رُقُودِ
قَدْ مَهَّدَ الْأَمْنُ لِلْأَنَامِ
وَكَانَ لَا يَطْعُمُ الْمَنَامِ

وَالكَاسُ فِي رَاحَةِ السَّقَاةِ
يَهْدِيكُمَا رَاقِئُ السَّمَاتِ
قَدْ لَبَسْتُ ثَوْبَ عَسَجِدِ
تَرْوُحُ طَوْرًا وَتَغْتَسِدِ
مَا بَيْنَ بَرَقٍ وَفَرَقْدِ
وَالشَّمْسُ تَذْهَبُ لِلْيَبَاتِ

وَالزَّهْرُ فِي الْيَانِعِ الْمَجُودِ
وَالرُّوحُ مِنْ حَلِيَةِ الْغَمُودِ
يُقَابِلُ الشَّرْبَ بَابِتْسَامِ
قَدْ جَرَّدَ النَّهْرُ عَنِ حَسَامِ

مَوْلَايَ يَا أَشْرَفَ الْمُلُوكِ
أَهْدِيكَ مِنْ جَوْهَرِ السُّلُوكِ
وَأَنْتَ لِي الْمُنْجِدُ الْمُعِينِ
وَعَصْمَةُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ
يَقْدِفُهُ بِحَرْكِ الْمُعِينِ
جَعَلْتُ تَنْظِيمَهُ سُلُوكِي

تَحِيَّةَ الْوَاحِدِ الْمَجِيدِ
عَلَيْكَ مِنْ رَاحِمٍ وَدُودِ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ
يَا مَخْجَلِ الْبَدْرِ فِي التَّمَامِ

وقال من الرمل المجزوء :

وجهُ هذا اليوم باسمُ
وشذا الأزهاري ناسمُ

هاتها صاحِ كؤوسا	جالباتِ للسرورِ
وارتقب منها شموسا	طالعات في حُبُورِ
ما ترى الروض عروسا	في حُلَى نَوْرٍ ونُورِ
وأنت رسلُ النواسمِ	تحتلي هذي النواسمِ
قد أهلتِ بالبشائرِ	أضحكتِ ثغرَ الأزاهرِ
سنحتِ في يَمْنٍ طائرِ	ونُظْمِنَ كالجواهرِ
فأنشروها في العشائرِ	إنَّ هذا الصنعَ باهرِ
وأشيعوا في العوالمِ	الغني باللهِ سلمِ
أي نور يتوقدُ	أي بدر يتللا
أي فخر يتخلدُ	أي غيث يتوالى
إنما المولى محمدُ	رحمةُ الله تعالى
كفهُ بحرُ المقاسمِ	وبها حجُ المباسمِ
خيرُ أملاك الزمانِ	من بني سَعْدٍ ونصرِ
ما ترى أنَّ الشواني	في صعيد البرِّ تجري
قد أطارتها التهاني	دونَ بحري وبحري
مُدُّ رأت بحرَ النعائمِ	كلها جارٍ وعائمِ
فهنيئاً بالشفاءِ	يا أمير المسلمينا
ولنا حقُّ الهناءِ	وجميعُ العالمينا
إن جهرنا بالدعاءِ	ينطقُ الدهرُ أميناً
دمت محروسَ المكارمِ	بظبي البيضِ الصوارمِ

وقال يهني السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان ، وقد وجه إليه الغني بالله أمه
وعياله عند تملكه المغرب من قبلكه :

قد نُظِمَ الشَّمْلُ أتمَّ انتظامُ	ولاحتِ الأقمارُ بعدَ المغيبِ
وأضحك الروضُ ثغورَ الغمامِ	عن مبسم الزهر البرودِ الشنيبِ
وعاودَ الغصنُ زمانَ الصبا	وأشربَ الأنسَ جميعَ النفوسِ
وعتمَ النورُ رؤوسَ الرُّبى	وجلَّلَ النورَ وجوهَ الشُّموسِ
وأطربَ الغصنَ نسيمَ الصبا	فالدُّوحُ للشكرِ تحطُّ الرؤوسِ
واستقبلَ البدرُ لياليَ التمامِ	وصافحَ الصبحَ بكفِّ خضيبِ
وراجعَ الأطيارَ سجعَ الحمامِ	بكلِّ ذي لحنٍ بديعٍ غريبِ
نواسمُ الوادي بمسكٍ يفوحُ	ونفحةُ الندِّ به تبعقُ
وبهجةُ السكانِ فيه تلوحُ	وجوهُ من نوره يشرقُ
وعرفه بالطيب منه يفوحُ	كانه من عنبر يفتقُ
والنهرُ قد سُلَّ كثرَ الحسامِ	حبابُه تطفو وطورا تغيبُ
وثغرها قد راق منه ابتسامُ	يُهَنِّئُ الحَبَّ بقربِ الحبيبِ
كواكبُ أبراجهن الحدورُ	يلوحُ عنها كلُّ بدرٍ لياحُ
جواهرُ أصدافهن القصورُ	نظمها السعدُ كنظمِ الوشاحِ
يا حبذا والله ركبُ السرورِ	يشترِ المولى بنبيلٍ اقتراحِ
ابتهجَ الكونُ بموسى الإمامِ	واختالَ في بُردِ الشبابِ القَشيبِ
وعاده يُخدمُ مثلَ الغُلامِ	شبابه قد عاد بعدَ المَشيبِ

أكرم به والله وفده الكريم
مرضاتها تحظي بدار النعيم
بشر بالنصر وفتح جسيم
ومولى سفا « الحرة » في مقدمه
وتوجب التوفيق من منعمه
وخيره أجمع في مقدمه

لقاؤها المبرور مسك الختام
وقصرك الميمون قصر السلام
بشرك الله بصنع عجيب
خطاً يحفظ من سميع مجيب

مولاي يهنيك وحق الهنا
قد غزت بالفخر ونيل المنى
وقرت العين وزال الغنا
قد نظم الشمل كنظم السعود
وأنجز السعد جميع الوعود
وكلما مر صنع يعود

فلا يزل ملكك حليف الدوام
بتلو عليك الدهر بعد السلام
يتحوز في التخليد أوفى نصيب
﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾

وقال رحمه الله تعالى في وصف غرناطة والطرند وغيرهما :

لله ما أجمل روض الشباب
في عهده أدت كأس الرضاب
من قبل أن يفتح زهر المشيب
حبابها الدر بثغر الحبيب

من كل من يجل بدر التمام
ولحظه يمضي مضاء الحسام
إذا تبدى وجهه للعيون
ويذهل العقل بسحر الجفون

أبصرت منه إذ يحط التقاب
إذا تجلت بعد طول ارتقاب
شمساً ولكن ما لها من مغيب
صرقت عنها اللحظ خوف الرقيب

١ ق : ثناء ؛ وفي الأزهار : مولاتنا .

مَنْ عَازَرِي مِنْهُ فَوَادَّ صَبَاً لِلأَمْعِ البرقِ وَخَفَقَ الرِّيحُ
يَطِيرُ إِنْ هَبَّ نَسِيمُ الصَّبَا تَعِيرُهُ الرِّيحُ خَفُوقَ الرِّيحِ
مَا أَوْلَعَ الصَّبَّ بَعْدَ الصَّبَا وَهَلْ عَلَى مَنْ قَدْ صَبَا مِنْ جُنَاحِ

فَقَلْبُهُ مِنْ شَوْقِهِ فِي التَّهَابِ قَدْ أَحْرَقَ الْأَكْبَادَ مِنْهُ الْوَجِيبُ
وَالْجَفْنَ مِنْهُ سَحْبُهُ فِي انْكَسَابِ قَدْ رَوَّضَ الْخَدَّ بِدَمْعِ سَكِيبِ

غُرْنَاظَةُ رَبْعِ الْهَوَى وَالْمُنَى وَقُرْبُهَا السَّوْلُ وَنِيلُ الْوَطَرِ
وَطِيهَا بِالْوَصْلِ لَوْ أَمَكْنَا لَمْ أَقْطَعْ اللَّيْلَ بِطُولِ السَّهْرِ
عَمَّا قَرِيبٍ حَقَّ فِيهَا الْهَنَا يَمْنُ ذِي الْعُودَةِ بَعْدَ السَّفَرِ

وَيَحْمَدُ النَّاسُ نَجَاحَ الْإِيَابِ بِكُلِّ صَنَعٍ مُسْتَجِدٍّ غَرِيبِ
وَيَكْتُبُ الْقَالُ عَلَى كُلِّ بَابٍ : ﴿نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾

مَا لَذَّةُ الْأَمْلَاكِ إِلَّا الْقَنْصُ لِأَنَّهُ الْقَالُ بِصَيْدِ الْعَدَا
كَمْ شَارِدٍ جَرَعَ فِيهِ الْغُصَصُ وَأُورِدَ الْمُحْرُوبُ وَرَدَّ الرَّدَى
وَكَمْ بَذَا الْقَحْصِ لَنَا مِنْ حَصَصِ قَدْ جُمِعَ الْبَأْسُ بِهَا وَالنَّدَى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ ، وَأَنْتَ الَّذِي جَدَّدْتَ لِلْأَمْلَاكِ عَهْدَ الْجَلَالِ
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنَ الْعُودِ لَمَّا رَأَتْ مِنْكَ بَدِيعَ الْجَمَالِ
وَالرَّوْضُ فِي نَعْمَتِهِ يَغْتَنِي بِطَيْبِ مَا قَدْ حُزَّتْهُ مِنْ خِلَالِ

بَشْرَاكَ بِشْرَاكَ بِحُسْنِ الْمَأْتِ تَسْتَضْحِكُ الرُّوْضَ بِثَغْرِ شَنْيَبِ
وَدَمَتْ مَحْرُوسَ الْعُلَا وَالْجَنَابِ بِعَصْمَةِ اللَّهِ السَّمِيعِ الْمَجِيبِ

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زَمْرَك من كتاب ابن الأحمر ، رحمه الله

تعالى . وقد عرفت منه ما تسنى للغني بالله ابن الأحمر من الفتوحات والسعود
ونفاذ الأمر على ملوك المغرب ، فهو الأحق بقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه
الله تعالى :

ملكٌ إذا عاينتُ منه جَبِينَهُ فارقَتْهُ والنورُ فوق جَبِينِي
وإذا لثمتُ يمينه وخرجتُ من أبوابه لثمتَ الملوكُ يمينِي

وكان الغني بالله المذكور معتقداً في الصالحين ، حتى إنه كتب وهو بفاس
مخلوعاً إلى ضريح ولي الله سيدي أبي العباس السبتي بمراكش ، ومن إنشاء وزيره
لسان الدين علي لسانه :

يا وليَّ الإله أنت مطاعٌ

الآيات والنثر بعدها ، وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعهُ^١ ، وكان
ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ، وتنظم تلك الأماكن في سلكه ،
حتى حصل له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يُعلم ذلك من كلام لسان الدين
وابن زمرك وغيرهما .

[ترجمة الولي السبتي]

والسبتي المذكور : هو سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي
الخرزجي^٢ ، الولي الصالح العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة ،
والمناقب الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، والأخلاق الطاهرة ،

١ انظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٢٧٣ .

٢ راجع ترجمة الولي السبتي في أنس الفقير : ٧ - ٩ وتمطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس
لابن الموقت (ط . فاس ١٩١٨) ونيل الابتهاج ٣١ - ٣٧ وعن هذا الأخير ينقل المقرئ ؛
وراجع الاعلام للعباس بن إبراهيم ١ : ٢٣٩ - ٢٣٨ .

نزىل مراكش ، وبها توفي سنة إحدى وستمائة ، وولادته بسنة عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، ودفن خارج مراكش ، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء ، وقد زرته مراراً كثيرة ، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف ، وهو تريقا مجرب .

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : كان سيدي أبو العباس السبتي رضي الله تعالى عنه - مقصوداً في حياته ، مستغاثاً به في الأزمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومبتهى أمره على انفعال العالم عن الجود^١ ، وكونه حكمة في تأثير الوجود ، له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ؛ ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربيته ، وثبت بلحده ، وانسحب على مكانه عادة حياته ، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى ، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى ، وانقطع الأماكن القصوى^٢ ، تحملهم أجنحة نياتهم فتهوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة .

وقال ابن الزيات^٣ : كان أبو العباس قد أعطي بسطة في اللسان ، وقدرة على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، ولا يسأله إلا أجابه ، كأن القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العامة والخاصة ببيانه ، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مسلمين منقادين ، وشأنه كله عجيب ، وهو من عجائب الزمان . وحدثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول : أنا

١ في الأصل : الوجود ، والتصويب عن التنيكي ؛ وأورد العباس بن إبراهيم أن ابن رشد أرسل أبا القاسم الخزرجي ليعرف مغيب أبي العباس بمراكش ، فلما نقل الخزرجي خبره إلى ابن رشد قال له : « هذا رجل مذهبه أن الوجود يتفعل بالجود » وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة .

٢ نيل الابتهاج : المكان الأقصى .

٣ تنقل المصادر ترجمة السبتي عن التشوف ، ولكن ابن الزيات صرح بأنه يفرد ترجمة السبتي إذ لا يكفي في ذكره الاختصار ، وجعل ترجمته في آخر كتابه ، إلا أنها لم تطبع مع سائر الكتاب ، وقد نقل العباس بن إبراهيم ما ذكره ابن الزيات في تلك الترجمة .

القطب . وحدثني أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدامه قال : خرجت معه مرة^١ لصهريج غابة الرمان يوم عرفة ، فجلسنا هناك وصلينا ، فقال لي : إننا سمي هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرف إليه بالطاعات ، وقد فاتنا عرفة ، فتعال نمثل بهذا المكان ونعمل كما يعملون ، لعل الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم ، فعمل^٢ مكاناً دائراً بالعين الكعبة ، وعمل عنصر الماء الحِجْر ، وموضعاً آخر مقام إبراهيم ، فطاف بالعين أسبوعاً وأنا أطوف بطوافه ، وكبر على العنصر في كل طواف ، وصلى في مثل^٣ المقام ركعتين تامتين ، وأطال في سجود الثانية ، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي : يا علي ، اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تُقْضَى ، فإن الله تعالى وعد في هذا اليوم من تعرف له أن يقضي حوائجه ، فقلت له : ما أريد إلا التوفيق ، فقال لي : ما خرجت معك من باب المدينة حتى وفقت ، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته ، وبم تنفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ؟ ولم صار يأمر بالصدقة والإيثار مَنْ شكا إليه حالاً أو تعذر عليه مطلب في هذه الدار ؟ فقال لي : ما أمر الناس إلا بما ينتفعون به ، وإني لما قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السن عشرين سنة وجدت قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ فتدبرته وقلت : أنا مطلوب به ، فلم أزل أبحث عنها^٣ إلى أن وقفت على أنها نزلت حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم حكم المؤاخاة ، فأمرهم بالمُشَاظرة ، ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة ، ثم نظرت إلى حديث « تفرق أمتي على ثلاثين فرقة - الحديث » وأنه صلى الله عليه وسلم

١ ق : نعمد ؛ نيل الابتهاج : فجعل .

٢ في الأصل : قبل .

٣ نيل الابتهاج : فبحث عن الآية .

قاله صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ، وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين ، فقال لهم ذلك بأثره ^١ ، فعلمت أن الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار ، فعقدت مع الله تعالى نية أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء ، فعلمت ^٢ عليه عشرين سنة ، فأثمر لي الحكم بالخاطر ^٣ ، فلا أحكم على خاطري بشيء إلا صدق ، فلما أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل ، والإحسان ما زاد عليه ، فعقدت مع الله تعالى نية لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى ، فعلمت عليه عشرين سنة ، فأثمر لي الحكم في الخلق بالولاية والعزل فأولي من شئت ، وأعزل من شئت ، ثم نظرت بعد ذلك في أول ما فرضه الله تعالى على عباده في مقام الإحسان ، فوجدت شكر النعمة ، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ، ووجدت أصناف من تُصرف إليهم الصدقات ^٤ الواجبة [سبعة] وسبعة أصناف آخر صرّفها فيها للإحسان والزيادة ، وذلك أن لنفسك عليك حقاً ، وللزوجة حقاً ، وللرحم حقاً ، وللتييم حقاً ، وللضعيف حقاً ، وذكر صنفين آخرين ، فانتقلت لهذه الدرجة ، وعقدت مع الله تعالى عقداً أن كل ما يأتيني أمسك سبعة حق النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقيها ، فأقمت عليه أربعة عشر عاماً ، فأثمر لي الحكم في السماء ، فمتى قلت « يا رب » قال لي : لبيك ، ثم قال لي : إنها نهايتي بتمام عمري ، وهو أن تنقضي لي ستة أعوام تكملة العشرين عاماً .

قال الصنهاجي : فأرخت ذلك اليوم ، فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب ، وحققت العدد ، فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة ،

١ نيل الابتهاج : ذكر ذلك الحديث اثره .

٢ نيل الابتهاج : فبقيت .

٣ نيل الابتهاج : حكم الخاطر .

٤ نيل الابتهاج : أضاف من يعطى الصدقة .

فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .
وقال أبو بكر ابن مساعد : جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب ،
وقال له : إلى متى تحيرنا ولا تصرح لنا عن الطريق ؟ فقال له : هو الإحسان ،
فقال له : بين لي ، فقال له : كل ما أردت أن يفعله الله تعالى معك فافعله
مع عبده .

وقال له أبو الحسن الحلي : أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء ؟
فقال : إنما حبس المطر لبخلهم ، فلو تصدقوا لمطرؤوا ، فقل لأصحابك
الفلاحين : تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطرؤوا ، فقال له : لا يصدقني أحد ، ولكن
مُرني في خاصة نفسي ، فقال له : تصدق بمثل ما أنفقت ، فقال له : إن الله
تعالى لا يُعَامَلُ بالدين ، ولكن أَسْتَسْلَف ، فاحتال وتصدق بها كما أمره ،
قال : فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر ، فأيست من المطر ،
ورأيت جميع ما غرست مشرقاً على الهلاك ، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت
البحيرة حتى رويت ، وظننت أن الدنيا كلها مطرت ، فخرجت فإذا المطر لم
يتجاوزها ؛ انتهى .

والحكايات عنه في مثل هذا كثيرة .

وقال ابن الخطيب القسطيني في رحلته^٢ : حضرت عند الحاج الصالح
الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا ، وقد سأله أحد الفقراء
عن كرامة الأولياء ، فقال له : لا تنقطع بالموت الكرامة ، انظر إلى السبي ،
يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبي المدفون بمراكش ، وما ظهر
عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات ، سمعت يهودياً بمراكش
يلهج ببركته وينادي باسمه في أمر أصابه لا مع المسلمين ، فسألته عن سببه ،

١ نيل الابتهاج : الجنان .

٢ يعني أنس الفقير ، كما تقدم ، انظره ص : ٨ .

فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن ، فسألته عما بدا له في وقت ^١ ، فقال لي :
 وحق ما أنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لي ، سرّيتُ ليلة
 مع قافلة في مفازة ، فخرجتُ دابتي ، فما شككت في قتلي وسلب مالي ، فجلست
 وبكيت ، وبينني وبين الناس بعد ، وقلت : يا سيدي أبا العباس ، خاطرك ،
 قال لي : والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به ، وضربت
 دابتي ، وخف عرجها ، ثم زال ، واتصلت بالناس ، فقلت له : لم لم تُسلم ؟
 فقال : حتى يريد الله تعالى ، وعجبت من كون ذلك من يهودي ، وهذه شهادة من
 عدو في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات ، وسألت الله تعالى في أشياء يَسُرُّ
 لي فيها سؤلي : منها أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصفُ به ، وأن ييسر عليَّ
 فتحهم كتب عينتها ، فيسر الله تعالى عليَّ ذلك في أقرب مدّة . وكان السبّي آية
 في أحواله ، ما أدرك صحبته إلا الخواص من الناس ، وكان أصل مذهبه الخُص
 على الصدقة ، وكان أمره عجباً في إجابة الدعاء بتزول المطر ، واختصاصه بمكان
 دون آخر ، وقال لأصحابه : أنا القطب ، وكان تفقه على أبي عبد الله الفخار ،
 ووقفت على قبره ، وله بركات وأنوار . وكان السبّي آية في المناظرة ، وأوذِي
 باللسان كثيراً جداً فصفح وتجاوز .

ورأى ^٢ عبد الرحمن بن يوسف الحسني النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ،
 فقال له : يا رسول الله ، ما تقول في السبّي ؟ قال : وكنت سييء الاعتقاد فيه ،
 فقال لي بعد أن تبسّم : هو من السبّاق ، قال : فقلت يبيّن لي يا رسول الله ،
 فقال : هو ممن يمر على الصراط كالبرق ، قال : فخرجت بعد الصبح ،
 فلقيني أبو العباس ، فقال لي : ما رأيت وما سمعت ؟ والله لا تركتك ^٣ حتى

١ أنس الفقير : عما رأى له في أقرب وقت .

٢ ما يزال النقل مستمرّاً عن أنس الفقير .

٣ ق : لا أتركك .

تعرفني ، فعرفته ، فصاح : كلمة الصفا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛
انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن الزيات : وحدثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أن رجلاً يُعرف
بابن الشكاز^١ ، وكان غنياً فدار عليه الزمان واقتقر ، حدث أنه وصل لأبي
العباس السبتي وعليه ثوب خلقٌ تظهر منه عورته ، فشكا إليه حالته ، فأخذ
بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت ، فجاء إلى مِطْهَرَة هناك ، قال :
فدخل أبو العباس المطهرة وتجرّد من أثوابه وناداني ، وقال لي : خذ هذه الثياب ،
فأخذتها ، وكان بعد العصر ، فأردت أن أرى ما يكون من أمره ، فصعدت
إلى حائط هناك إلى قرب المغرب ، فلما بفتّى خرج من الباب على دابة معه رزمة
ثياب ، فلما رأيته نزلت إليه ، فقال لي : أين الفقيه أبو العباس ؟ فقلت : ها هو
في الساقية عُرْيَان ، فقال لي : أمسك الدابة ، فسمعت الفقيه يقول له : أين تلك
الثياب ؟ فأخذها منه وخرج ، فلما رأيته قال لي : وما لك هنا ؟ قلت : يا سيدي
خفت عليك ، فلم أقدر على الانصراف وأتركك ، فقال لي : أفترى الذي فعلت
ما فعلت له يتركني ؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه ، فذكر له أن إحدى
الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب ، وقالت له : لا تدفعها إلا للفقيه ، ولا
يلبسها إلا هو ، وهذه قصّة صحيحة مشهورة .

وقال ابن الخطيب : وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراکش غير حافلة
البناء ، ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعد الأقدار ، وزرتها ، وربما شاهدت
في داخلها أشياء من أهل التعفف والتصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط
رحمات الله تعالى عليها لكثرة زائريها ، فيقتحم^٢ ذو الحاجة بابها خالماً نعله
مستحضراً نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ، ويعين بين يدي النجوى صدقة

١ نيل الابتهاج : السكان ؛ ق : السكالك ، والتصويب من الأعلام .

٢ ق : فيقحم ؛ نيل الابتهاج : فيلج .

على قبره ، ويدسها في أواني في القبر معدة لذلك ، ومن عجز عن التقدين تصدق بالطعام ونحوه ، فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرقه على المحاويج الحافقين بالروضة ، ويحصون كل عشية ، ويعممهم الرزق المودع فيها ، وإن قصر عنهم كملوه في غده .

قال ابن الخطيب لسان الدين : وترافع خدام الروضة لقاضي البلد ، وتخاصموا في أمر ذاك الرزق المودع هناك ، فسألهم القاضي عن خسرجه اليوم ، فقالوا : يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً عيناً ، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها ، فروضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دخله ولا تحصر جبايته ، فالتبر يسيل ، واللجين يفيض ، وذو الحاجة كالطير تغدو خيماً صاباً وترجع بطاناً ؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال : وأنا ممن جرب المنقول عن القبر ، فاطردّ القياس ، وتريفت الشبهة ، وتعرفت من بدء زيارته ما تحققت من بركته ، وشهد على برهانه دعوته ؛ انتهى . وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»^١ : كان أبو العباس جميل الصورة ، أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، مقتدراً على الكلام ، حليماً صبوراً ، يُحسِن إلى من يؤذيه ، ويحلم على من يسفه عليه ، رحيماً عطوفاً محسناً إلى اليتامى والأرامل ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ، ويحض على الصدقة ، ويذكر في فضلها آيات وأحاديث ، ويأخذها ويفرقها على المساكين ، ويرد أصول الشرع إلى الصدقة ، ويفسرها بها ، ويقول : معنى قول المصلي «الله أكبر» أي : من أن نفضن عليه بشيء ، فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يُحرّم ولا كَبّر ، ومعنى رفع اليدين للتكبير : تخلّيت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيراً ،

١ انظر الأعلام ١ : ٢٤١ .

وهكذا يتكلم بنحو هذا في جميع العبادات ، ويقول : سِرُّ الصوم أن تجوع ، فإذا جعت تذكرت الجائع ، وما يقاسيه من نار الجوع ، فتصدق عليه ، فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم ، إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا . وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ، ويقول له : تصدق ، ويتفق لك ما تريده ، وأخباره في ذلك كثيرة عجيبة .

قال التادلي : وحدثني ولدُه الفقيهُ أبو عبد الله عن أبيه أنه قال : كان ابتداء أمري وأنا صغير أني سمعت كلام الناس في التوكل ، ففكرت في حقيقته^١ فرأيت أنه لا يصح إلا بترك شيء ، ولم يكن عندي منه [بد] ، فتركت الأسباب ، واطّرحت العلائق ، ولم تتعلّق نفسي بمخلوق ، فخرجت سائحاً متوكلاً ، وسرت نهاري كله ، فأجهدتني الجوع والتعب ، وقد نشأت في رفاهية [من العيش]^٢ ، وما مشيت قط على قدمي ، فبلغت قرية فيها مسجد ، فتوضأت ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء ، وخرج الناس ، فقمّت لأصلي ، فلم أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشي ، فصليت ركعتين ، وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل ، فإذا قارع يقرع الباب بعُنف ، فاستجاب له صاحب الدار ، فقال له : هل رأيت بقرتي ؟ فقال : لا ، فقال : إنها ضلت وقد أكثر عجلها من الحنين فطلبته فلم نجدها في القرية ، فقال أحدهم : لعلها [دخلت] في المسجد وقت العتمة ، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني ، فقال صاحب البقرة : ما أظنك أكلت الليلة شيئاً ، فذهب وجاءني بكسرة خبز وقدر لبن ، ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرته في داخل الدار ، فخرج لجيرانه وقال لهم : ما زالت البقرة من الدار ، وما كان خروجي إلا لهذا الفتى الجائع في المسجد ، ثم رغبني أن أمشي معه لمنزله ، فأبيت .

١ ق : دقيقه ، والتصويب عن الاعلام .

٢ سقطت من ق .

وكان في أول أمره يسكن في الفندق^١ ويعلم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك ، وينفقها على طلبة العلم الغرباء ، ويمشي في الأسواق ، ويدكر الناس ، ويضربهم على ترك الصلاة ، ويأتي بالطعام على رأسه .

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالذاكرة ، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق فقام إليهم القيم بخدمته ، فقالوا له : ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يُقتل ؟ ثم قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للوالي^٢ ، فجاء القيم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم ، وأيقننا بالهلاك ، فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي ، ثم خلا بنفسه عند السحر ساعة ثم قال لنا : لا خوف عليكم ، قد استوهبتكم من الله تعالى ، وهذان الحرسيان الواقفان غداً يُقتلان إن شاء الله تعالى ، فقليل له : الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشر ، وهما لم يفعلوا ما يوجب قتلهما ، بل جزاؤهما يروّعان كما روّعانا ، فقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وترويعكم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل ، فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال : عقوبتهما أن يضرب كل واحد منهما مائة سوط ، ثم اجتاز عبد الله الحرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم ، فوجد حانوته^٣ مفتوحاً ، ورأى الحرسيين على قرب ، فلم يشك أنهما حلاّه^٤ ، فحملاً إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر ، فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما كما أرادا قتلكما ، فتبعناهما ، وحضرنا حتى ضرب كل واحد مائة سوط .

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى .

وكان يقول^٥ : أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان ، وأصل الشرّ فيهما البخل ، قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴾ (الليل : هـ) وقال عن إبليس ﴿ ثُمَّ

١ زاد التادلي في الأصل : الفندق الذي بأجادر ، المعروف بفندق مقبل .

٢ الاعلام : لقتل .

٣ ق : تابوته .

٤ حلاه : فتحاه ؛ وفي الاعلام : فتحاهما .

٥ انظر الاعلام : ٢٥٨ .

لَا تَسِيئَتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴿ (الأعراف: ١٧) وقال ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴿ (التوبة: ٧٥) وقال ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿ (الحشر: ٩) وقال ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿ (القلم: ١٧) وقال ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ (آل عمران: ١٢٢) وقال ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ ﴿ (البقرة: ١٧٧) وقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - الْآيَةِ ﴿ (الأحزاب: ٧٢) فهذه الأمانة هي الرزق ، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر ، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال ، والجبال ما فيها كذلك ، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها ، فحزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين إنه كان ظلوماً جهولاً ، وفي الحديث « هم الأقتلون ورب الكعبة ، إلا من قال هكذا وهكذا - الحديث » ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه دعا عليهم موسى بالبخل ، فقال ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ - إِلَى قَوْلِهِ : دَعَوْتُكُمْ ﴿ (يونس: ٨٨، ٨٩) وكان رضي الله عنه في آخر عمره كثيراً ما يقرأ هذه الآية ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى - إِلَى قَوْلِهِ : سَوْفَ يَرَى ﴿ (النجم: ٢٣) وكان يقول : من قال إن الله تعالى لا يجازي على الصدقات فقد وافق اليهود في الفرية على الله تعالى لأنهم قالوا ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴿ (المائدة: ٦٤) أي لا يجازي على الصدقات ، قال الله تعالى ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ - إِلَى آخِرِهِ ﴿ أي يجازي على العطاء كيف شاء . وكان يقول في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ - الْآيَةِ ﴿ (التوبة: ٣٤) إنما كُوِّت هذه المواضع لأن الغني يُعرض عن المسكين بوجهه ، ثمَّ يَجْنِبُهُ ، ثمَّ يَظْهَرُهُ ، فعوقبت هذه المواضع بالكي بالنار لإعراضه عن الفقير ، ومنازعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة ؛ انتهى ملخصاً .

وحدث أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعمر^١ أنه دخل صحبة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي إلى الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعودده ، فقال له : ادعُ الله

١ أورده في الأعلام : ٣١٠ نقلا عن النفع .

تعالى لي أيتها الشيخ ، فقال له : ارجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقق
أنه المُسرَّض والمُعافي ، واخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس ،
لتكون ممن وُقي شح نفسه ، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ، ثم التفت
إلى الحاضرين وقال : في المرض فوائد لا ينبغي أن تُجهل : الأولى معرفة قدر
العافية ، الثانية تمحيص بعض الذنوب ، الثالثة توقع الثواب ، الرابعة تنقية
الجسم من فضول الأخلاط ، الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه ، السادسة
حلوث الرقة والشفقة ، السابعة - وهي العظمى - الصدقة والخروج عن رذيلة
البخل ؛ انتهى . وحدث الكاتب أبو القاسم ابن رضوان عن أبي بكر ابن منظور
عن بعض أعيان مراکش أنه توفي وأوصى ابناً له كان من أهل البطالة أن يعمد
إلى ألف دينار من متخلفه ، فيدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبي ، ففعل ،
وقال للشيخ : إن أبي توفي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث
شئت ، فقال له الشيخ : قد قبلتها وصرفتها إليك ، فقال له : يا سيدي ، وما
تأمرني أن أفعل بها ؟ قال : خذها ، قال : فانصرفت من عنده وسؤت ظناً
بقوله ، ثم قلت : وأنا أنفق مثل ذلك على عادي في الوجه الذي يلذ لي ، فلا فعلن
بها ما أفعل بغيرها ، فأخذتها في محفظة ، وخرجت ألتمس الزنى ، فإذا امرأة
على دابة وغلّام يقودها ، فأشرت إلى الغلام ، فقال لي : نعم ، واتبعني إلى
بستان لي ، فترلت المرأة ، فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان ، وأخذ الغلام
الدابة وصار ناحية ، وقال : أغلق الباب ، ففعلت ، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة
تبكي بكاء شديداً حتى طال بكاؤها ، وبكيت لبكائها ، فقلت لها : ما شأنك ؟
فقالت : افعل ما دعوتني لأجله ، ودع عنك هذا ، ونحيبها يزيد ، فقلت لها :
إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء ، بل مع الأتس وانشراح الصدر
وزوال الانقباض ورفع الحجل ، فقالت : نترك البكاء ونرجع للأتس على ما
تحب ويوفى غرضك ، فقلت : لا ، حتى أعلم سبب بكائك ، وألححت عليها ،
فقالت : أتعرف حاجب الملك الذي سجنه ؟ قلت : نعم ، قالت : فأنا ابنته ،

ولم يبق له أحد غيري ، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله ، فما زلت أبيع ما ترك أبي وأنفقه عليه ، حتى لم يبق بيدي شيء ، فلما أعيتني الحيلة فيما أنفقه أبلأت نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجهاً قط ، فرميت لها بالآلف دينار وقلت لها : والله لا قربت منك على هذا الوجه أبداً ، فأنفقتي الدنانير على والدك إلى أن تنفد ، وابعثي لي غلامك أعلمه بمتزلي ، ولازمي دارك ، واستمري على صيانتك وإلا فضحتك ، وتريني والله لا أزال أبيع أملاكي وأنفقتها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملكه ، ثم خرجت ألتبس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت ، وقالوا : إن الملك رضي عن والدها ، ورد عليه ضياعه وأملاكه ، ووصله بعشرة آلاف دينار ، وقعد يلتبس بنته فلم توجد ، فسقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة ، وظن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت ، فبادرته وقلت له : لا عليك ، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا ، ودخلت إلى البنت وقلت لها : إن الملك قد رضي عن والدك ، ورد عليه ماله ووصله ، فسيري إلى دارك ، فركبت دابتها وانصرفت ، فدخلت على والدها فقال لها : أين كنت ؟ وما الذي أخرجك عن دارك ؟ وهمَّ بها ، فقالت له : أخرج عني كل من في الدار ، ففعل ، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ، ورمت إليه بالآلف دينار ، وقالت له : هذا الذي أعطاني لأنفق عليك ، فقال أبوها : هذا والله هو الكبريت الأحمر ، والله لو كان أبوه كفافاً ما أنفت أن أزوجه منه ، فوجه العبد الذي كان معها إلى الشاب ، وقال له : إن سيدي يدعوك ، قال : فخضت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه ، ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه ، فدخلت عليه ، فقام إليَّ وعانقني ، وقد عرف لي مقامي ، وقال : أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قررت بك عيني ، وقال : والله لو كان أبوك كفافاً ما أنفت لبنتي أن أزوجه منها ، فما قام من المجلس حتى وجهه إلى

العدول وأشهد على نفسه بأنه زوج ابنته فلانة من هذا الشاب ، ونَقَدَها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأَجَلَ لها عنه الشطر الثاني ، وأهدى لها من الحلى كذا وكذا ، ومن الثياب كذا وكذا ، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك ، فحصل من إشارة الشيخ السبتي - رضي الله عنه - في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال ، وظفر بينت حاجب الملك ؛ انتهى .

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى :

قال الشاطبي في « الإشارات والإفادات » ما صورته :
 إفادة : أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيباه إلى وطنه من رحلة العُدْوَةِ في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً : الفقه في اللغة ، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه « قرم » و « عام » إذا اشتبه ، لكن لا يستعمل « قرم » إلا مع اللحم ، ولا يستعمل « عام » إلا مع اللبن ، فتقول : عَمْتُ إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع ، وأحمر قان ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال ، فلا يُستدل بالحوشي من اللغات ، ولا المبتذل في السن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ؛ إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه ، والإتيان بما يحصله سريعاً وبممكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتعرض السامع على الاستماع ، وأخبرني أن كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمّون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وذكر من شَرَحَ بديعة الحلّي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد الله العالبي في شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبي عبد الله المعروف

بابن زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس ، وهو قوله :

ولو أنشدت بين العذيب وبارق لقال رواة الغرب يا حبذا الشرق

ولم يظهر لي كل الظهور دلالة لي على حسن الختام ، ولا بد ، فإله سبحانه أعلم .
وقد أطلنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية تضمنت مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي هذه ^١ :

لو ترجع الأيام بعد الذهاب لم تقدح الأيام ذكرى حبيب ^٢

وكل من نام ليل الشباب يوقظه الدهر بصبح المشيب

يا راكب العجز ألا نهضة قد ضيق الدهر عليك المجال

لا تحسن أن الصبا روضة تنام فيها تحت فتيء الظلال

فالعيش نوم والردى بقطة والمرء ما بينهما كالحيال ^٣

والعمر قد مر كمر السحاب والملقى بالله عما قريب

وأنت مخدوع بلمع السراب تحسبه ماء ولا تسريب

والله ما الكون بما قد حوى إلا ظلال توهم الغافلا

وعادة الظل إذا ما استوى تبصره متتلا زائلا

إننا إلى الله عبيد الهوى لم نعرف الحق ولا الباطلا

فكل من يرجو سوى الله خاب وإتما الفوز لعبد منيب

يستقبل الرجعى بصدق المتاب ويرقب الله الشهيد القريب

١ أوردها في أزهار الرياض ٢ : ٢٠٥ .

٢ الأزهار : الأشواق . ٣ ق : ذكر الحبيب .

٤ من قول أبي الحسن التهامي :

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

يا حسرتا مرَّ الصَّبَا وانقضى
واخجلتا والرحلُ قد قُوِّضَا
وليتني لو كنتُ فيما مضى
قد حان من ركب التصابي لإيابُ
يا أكمه القلبِ بغينِ الحجابِ
كمَ ذا أناديك فلا تستجيب
« هل يحملُ الزاد لدار الكريم »^١
فجأه ذخرُ الفقيرِ العديمِ
والله سَمَاهُ الرؤوفَ الرحيمِ
فجاره المكفولُ ما إن يُضَاعِ
والمصطفى الهادي شفيعُ مطاعِ
وحبّه زادي ونعمَ المتاعِ
عسى شفيعُ الناسِ يومَ الحسابِ
يلحقني منه قَبُولُ مجابِ
يا مصطفى والخلقُ رهنُ العدمِ
مزيةٌ أعطيتها في القِدمِ
مولدك المرقومُ لَمَّا نجمِ
والكونُ لم يفتقِ كمامَ الوجودِ
بها على كلِّ نبيٍّ تسودُ
أنجز للأمةِ وعدَ السَّعُودِ
ناديتُ لو يُسمع لي بالحوابِ
شهرَ ربيعٍ يا ربيعَ القلوبِ
أطلعتُ للهدي بغيرِ احتجابِ
شمساً ولكن ما لها من غروبِ

٢ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى ، الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا^٢ ، وشرحه عليها من أبدع الشروح ، وقد نقل عن لسان الدين

١ من قول الشاعر :

هلا احتجبت الزاد قلت اكفني هل يحمل الزاد لدار الكريم

٢ يعني أرجوزة ابن سينا في الطب ، وأولها بعد التحييدات :

الطب حفظ صحة برء مرض من سبب في بدن منذ عرض

(انظر فتاوي : مؤلفات ابن سينا : ١٧٢ وما بعدها) .

كثيراً ، واعتمد عليه في أمور الطب ، وقد طال عهدي به الآن ، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم أره بهذه الديار الشرقية .

٣ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر ابن جُزَيِّ الكلبي ، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزري شيخ لسان الدين ، وبيت بني جزري بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس ، وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظرين الناظرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور ، فليراجع في الباب الثالث^١ .

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السن ، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معلوم ، وقد عرف به لسان الدين في « الإحاطة » والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالباً إلا على تلامذته ، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه ، رحمه الله تعالى ، وأنقن تاريخ أهل المغرب والأندلس ، رحم الله تعالى الجميع .

٤ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله الشريشي ، وهو الذي تولى أولاً نقل « الإحاطة » من مبيضة ، كما سبقت الإشارة إليه في كلام حفيد السلطان ابن الأحمر ، وأحكم النسخة ، فكانت في مجلدات ستة ، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتماداً منه عليه ، وثقة به ، لاشتغال لسان الدين بأمر المملكة .

٥ - ومن تلامذة لسان الدين : القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي .

١ انظر ترجمته في ما تقدم ٥ : ٥١٧ .

قال في « الإحاطة » : صاحبنا الفقيه الخطيب ، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد ، نسج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة ، مقصود المنزل ، نبيه الصهر ، معم مخول في الأصالة ، بارع الخط ، جيد القريحة ، سيال المداد ، نشيط البنان ، جكّد على العمل ، خطيب ناظم نائر ، قرأ بغرناطة ، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء ستين ببلده في حدائث السن ، ثم انتقل إلى غرناطة فجاءت به الكتابة السلطانية داحضة بالحق ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية ، فاستقل رئيساً في غرض إعانتني وانتشالي من هفوة الكلفة على جلال الضعف وإلالم المرض . ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة ، وإزعاجها من الأندلس عن سؤاة لا تُؤارى ، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى ، فسبحان من علّم النفس فجورها وتقواها ، إذ لصق بالدائل الفاسق^١ فكان آلة انتقامه ، وجارحة صيده ، وأجولة كيده ، فسفك الدماء ، وهتك الأستار ، ومزق الأسباب ، وبدل الأرض غير الأرض ، وهو يزقه في أذنه زقوم النصيحة ، وينحله لقب الهداية ، ويبلغ في شدّ أزره إلى الغاية ، عنوان عقل الفتى اختياره ، يجري في سبيل دعوته طوالاً ، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة ، بدويّاً قحاً جمهوريّاً ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة ، طرفاً في سوء العهد وقلة الوفاء ، مردوداً في الحافرة ، منسلخاً من آية السعادة ، تشهد عليه بالجهل يده^٢ ، ويقيم عليه الحجج شره^٢ ، وتبوئه هفوات الندم جهالته ، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه ، وتبرأ منه ، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطاً ، وهو الآن بحال خزي ، واحتجاب تبعات ، واستدعيت شيئاً من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به ، فكتب إليّ ما نصّه :

يا سيّداً فاق في مجدٍ وفي شرفٍ وفات سبّقاً بفضل الذات والسلف

١ يعني السلطان النصري الذي هرب منه لسان الدين إلى المغرب .

٢ ق : شره .

وفاضلاً عَنْ سَبِيلِ الذَّمِّ منحرفاً
 وَتُحْفَةً الزَّمَنِ الْآتِي بِهِ فَلَقَدْ
 وَمَعْدِنًا لِنَقِيسِ الدَّرِّ فَهُوَ لَمَّا
 وَبَحَرَ عِلْمَ جَمِيعِ النَّاسِ مَعْرِفُ
 وَسَابِقًا بَدْءَ أَهْلِ الْعَصْرِ قَاطِبَةً
 مَنْ ذَا يَخَالِفُ فِي نَارٍ عَلَى عِلْمِ
 مَا أَنْتَ إِلَّا وَحِيدُ الْعَصْرِ فِي شَيْمِ
 اللَّهِ مِنْ مُنْتَمٍ لِلْمَجْدِ مُتَسَبِّ
 لِلَّهِ مِنْ حَسْبِ عَيْدٍ وَمِنْ كَرَمِ
 إِلَيْهِ أَيْبَا مِنْ بِهِ تَبَايَ الْوِزَارَةُ إِذْ
 يَا صَاحِبَ الْقَلَمِ الْأَعْلَى الَّذِي جُمِعَتْ
 يَا مَنْ يَقْصُرُ وَصْفِي فِي عِلَالِهِ وَمَنْ
 شَرَّفَنِي عِنْدَمَا اسْتَدْعَيْتَ مِنْ نَظْمِي
 وَرَبَّمَا رَاقٍ ثَغْرُ فِي تَبَسُّمِهِ
 أَجِيلٌ قَدْرُكَ أَنْ تَرْضَى لِمُنْتَجِعِ
 هَذَا ، وَلَوْ أَنْتَ فِيمَا أَتَيْتُ بِهِ
 لَكُنْتُ أَفْضَى إِلَى التَّقْصِيرِ مِنْ خَجَلِ
 فَحَسْبِيَ الْعَجْزُ عَمَّا قَدْ أَشْرَتْ بِهِ
 لَكِنْ أَجِبْتُ إِلَى الْمَطْلُوبِ مُمَثَّلًا
 فَانْظُرْ إِلَيْهَا بَعَيْنِ الصَّفْحِ عَنْ زَلَلِ
 بَقِيَتْ لِلدَّهْرِ تَطْوِيهِ وَتَنْشُرِهِ

ثم ذكر نثرًا ، وأن مولده بوادي آتش آخر عام تسعة وسبعمائة ، وتولى
 الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام

ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة وخمسين
وسبعمائة ، ومن شعره قوله :

ألا أيها الليلُ البطيئُ الكواكبِ
وحتى متى أرى التجومَ مراقباً
أحدثُ نفسي أن أرى الركبَ سائراً
فلا فُزْتُ من نيل الأمانِ بطائلٍ
فكم حدثتني النفسُ أن أبلغ المني
وما قصرتُ بي عن زيارة قبره
ولا حُبُّ أوطان نبت بي ربوعها
ولكنْ ذنوبٌ أثقلتني فيها أنا
إليك رسولَ الله شوقي مجدداً
فأعملتُ في تلك الأباطح والرُبى
وقضيتُ من لثم البقيع لباني
ورويتُ من ماء بزمزم غلتي
حبيبي شفيعي منتهى غايي التي
محمدُ المختارُ والهاشرُ الذي
رؤوفٌ رحيمٌ خصنا الله باسمه
رسولٌ كريمٌ رَفَعَ اللهُ قدره
وشرفه أصلاً وفرعاً ومحتداً
سراجُ الهدى ذو الجاه والمجد والعلا
هو المصطفى المختارُ من آل هاشمٍ

متى ينجلي صبحٌ بليل المآربِ
فمن طالع منها على إثر غاربِ
وذنبٍ يُقْصِي بأقصى المغربِ
ولا قمتُ في حق الحبيب بواجبِ
وكم عكّلتني بالأمان الكواذبِ
معاهدُ أنس من وصال الكواعبِ
ولا ذكرُ خلٍ حلّ فيها وصاحبِ
من الوجد قد ضاقت عليّ مذاهي
فيا ليتني يمتُّ صدرَ الركائبِ
سُرّاي مجدداً بين تلك الساسبِ
وجبتُ الفلا ما بين ماشٍ وراكبِ
فلله ما أشناه يوماً لشاربِ
أرجي ومن يرجوه ليس بخائبِ
بأحمد حاز المجد من كل جانبِ
وأعظمُ بباحٍ في الثناء وعاقبِ
وأعلى لهُ قدراً رفيع الجوابِ
يزاحمُ آفاقَ السما بالكواكبِ
وخيرُ الورى الهادي الكريم المناسبِ
وذو الحسبِ العبدُ الرفيع المناصبِ

١ كأنه نسخ فيه قول ابن خفاجة (ديوانه : ٢١٧) :
وحتى متى أرى الكواكب ساهراً - فمن طالع أخرى الليالي وغارب

هو الأمد الأقصى هو الملجأ الذي
إمامُ النبيين الكرام ، وإنه
بشيرٌ نذيرٌ مُفضِّلٌ مُتَطَوِّلٌ
شريفٌ منيفٌ باهرٌ الفضلِ كاملٌ
عظيمٌ المزايا ما له من مُماثلٍ
ملاذٌ منيعٌ ملجأٌ عاصمٌ لمن
جليلٌ جميلٌ الخلقِ والخلقِ ما له
وناهيك من فرعِ نمتِه أصوله
أولي الحسبِ العدُّ الرفيعِ جنابه
لهُ معجزاتٌ ما لها من مُعارضٍ
تحدّى بهن الخلقَ شرقاً ومغرباً
فدونكها كالأنجمِ الشهبِ عدةٌ
وإحصاؤها مهما تتبعْتَ معوزٌ
لقد شرفَ الله الوجودَ بمُرسلٍ
وشرفَ شهراً فيه مولده الذي
فشهرٌ ربيعٌ في الشهورِ مقدّمٌ
فلله منه ليلةٌ قد تَلَأَلَتْ
ليهن أميرَ المسلمين بها المني
على حين أحيائها بذكرِ حبيبهِ
وَأَتَفَ شَمَلاً للمُحِبِّينَ فيهم

ينالُ به مرغوبه كلُّ راغبٍ
لكالبدرِ فيهم بين تلك الموابك
سراجٌ منيرٌ بدَّ نور الكواكبِ
نقيسُ المعالي والحلى والمناقبِ
كريمُ السجايا ما له من مناسبٍ
يلوذُ به من بين آتٍ وذاهبٍ
نظيرٌ ، ووصفُ الله حجةَ غالبٍ
إلى خيرِ مجدٍ من لؤي بن غالبٍ
بدور الدياجي أو صدور الكتابِ
وآياتُ صدقٍ ما لها من مغالبٍ
وما ذاك عمن حاد عنها بغائبٍ
ونور سناً لا يخفي للمراقبِ
وهل بعد نورِ الشمسِ نورٌ لطالبٍ
له في مقام الرُّسلِ أعلى المراتبِ
جلا نورهُ الأسنى دياجي الغياهِبِ
فلا غرو أن الفخرَ ضربةٌ لازبٍ
بنور شهابٍ بين الأفقِ شهابٍ
وأن نال من مولاه أسنى الرغائبِ
وذكرِ الكرام الطاهرين الأطايِبِ
فسار على نهجٍ من الرشدِ لاحِبِ

فسوف يُجازَى عن كريمِ صنيعه^١ بتخليد سلطانٍ وحسنِ عواقبِ
وسوف يُرِيه الله في نصر دينه غرائبَ صنع فوق تلك الغرائبِ
فيحمي حمى الإسلامِ عمّن يرؤمه بسُمرِ العوالي أو ببيض القواضبِ
ويعتزُّ دينُ الله شرقاً ومغرباً بما سوف يبقى ذكره في العجائبِ
إلهي ما لي بعد رحماك مطلبٌ أراه بعين الرشد أسنى المطالبِ
سوى زورةِ القبرِ الشريفِ وإنه لموهبةٌ فاقت جميعَ المواهبِ
عليه سلام الله ما لاح كوكبٌ وما رافق الأظفانَ حادي الركائبِ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر
والكتابة وغير هذا الشعر قران ، فقل أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاسترذال
إلى ما دون هذا النمط ، فهو بغير ثان شعراً وشكلاً وبلداً ، لطف الله تعالى بنا
وبه ؛ انتهى باختصار .

٦ - ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتبُ أحمد بن
سليمان بن فركون^١ ، ومن نظمه على لسان من يرمى بالداء العضال في فرج^٢
عبد ابن زمرك الوزير بعد ابن الخطيب :

قالوا كلفت به غلاماً حالكاً فأجبتهم في فيه ما يرضي المهج
مهما جنت بحسنه وبجبه علفت فوق من حرزاً من سبج

١ ترجم له في الإحاطة ١ : ٢٢٨ وأثنى عليه بأنه شعلة من شعل الذكاء والإدراك ومجموع خلال حميدة
وأنه طالب نبيل مدرك نجيب بذأقرانه . . . ثم عاد فترجم له في الكتيبة الكامنة : ٣٠٥ وأثنى عليه
بالذم الشديد : « جرو محذور وفي جلدة كلب عقور . . . وسفيه يقال عنه ذكره : كفاك الله
شر من أحسنت إليه » وما ذلك إلا لأن ابن فركون كان من الزمرة التي تثيرت على لسان الدين .
٢ قال لسان الدين في الكتيبة الكامنة في ترجمة ابن زمرك : « وبينه وبين معاصريه مداعبات في غلام
له غريب (لعلها : غريب) جعله مرعى غزل ونسيب . . . وجمعت الأقوال في هذا الميدان ،
فجمعت بين التذس والهدان ، والقاصي والدان . . . إلخ » .

ورأيت بخط الوادي آشي ما صورته : وجدت بخط لسان الدين ، وخاتمة
أعلام البيان المجيد ، ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في
طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ، المختص به ، المتأدب بما انفرد
به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه : يسقط هذا الساقط من الديوان ؛
انتهى .

ولعلّ لسان الدين إنّما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يُتّهم به من معنى بيته
السابقين ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك^١ ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

١ قلت هذا الترجيح من المقرئ يؤكد أنه لم يطلع على الكتيبة الكامنة ، ولا عرف سبب التغير في نفس
لسان الدين على أحد تلامذته .

الباب الثامن

في ذكر أولاده

الرافلين في حلل الجلاله ، المقفين أوصافه الجميدة وخلاله ، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لأداب الدين والدنيا ، المشتغلة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلائها ، المتقدمة من أنواع الضلالة ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر دلاله

اعلم - وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يعتبر بالدهر في معضاته - أن أولاد لسان الدين ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي ، وكلهم حدث عن أبيه وعن ابن الجياب .

أما محمد فقد نال حظه من التصوف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف ، ولم يحضرني الآن نص من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مظان ذلك ، إذ قد تركتها بالمغرب .

وقد سبق فيما مر^١ من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من ندماء السلطان وأهل خلوته ، وأن علياً كان خالصة السلطان ، رحم الله تعالى الجميع .

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين ، للملك الحضرتين ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدير الدولة ، وأكثر الناس بها كالحواص

١ فيما مر : سقطت من ق .

حونه ، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه ، وقد ألمَّ ببعض التعريف بمبدأ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » فقال في حقه ما ملخصه^١ : عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني ، حسن الشكل ، جيد الفهم ، يُخطي منه رمادُ السكون جمرةً حركه ، منقبض عن الناس قليل البشاشة ، حسن الخط ، وسَطَ النظم ، كتب عن الأمراء بالمغرب ، وأنشدتهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات^٢ والإحسان ، واختال في خيلهم ، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة ، قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني ، والخطيب أبي سعيد فرج بن لب التلجي ، واستظهر بعض المبادئ في العربية ، واستجيز^٣ له مَنْ أدركه ميلاده من أهل المشرق والمغرب . وشعره مَرَفَع عن الوسط إلى الإجادة ، يكلِّله عذر الحدائث ، فمنه قوله في مولد أربعة وستين وسبعمائة :

بحقِّ الهوى يا حُدَاةَ الحمولِ	قفوها قليلاً بتلك الطلولِ
معاهدُ مَرَّتْ عليها السحابُ	يرقِ خَفُوقٍ ودمعِ هَمولِ
أحنُّ إليها حينَ العِشارِ	وأبكي عليها بشجرِ طويلِ
فيا سعدُ عَرَّجْ عليها الركابَ	ففيها لقلبي شفاءُ الغليلِ
سقاها من المزن صوبُ الغمامِ	وحياً بعَرَفِ النسيمِ العليلِ
ولا زالَ فيها يجرُّ الذبولُ	فيحيي النفوسَ بجرِّ الذبولِ
لئن حُلَّتْ يا رَبِّعُ عَنْ عهدنا	فمهدُ الهوى ليس بالمستحيلِ
ومما شجاني وميضُ خَفُوقٍ	كقلبي غداةَ النوى والرحيلِ
وميضُ إذا سلَّه المزنُ وهنا	يضيءُ سنانه كمضِبِ صقيلِ

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٢٣٧ .

٢ الإحاطة : بالاقطاع .

٣ الإحاطة : وأجاز .

أطار الفؤادَ فؤادَ المشوقِ
فبتُ أطاولُ لَيْلَ التمامِ
ودمعَ يساجلُ دمعَ الغمامِ
فيا ليت شعري وهل من سبيلِ
وهلْ يسمعُ الدهرُ بعدَ العنادِ
وهلْ راجعُ عهدنا بالحمى
فيا حسنَ مأوى عزاءِ جميلِ
وفي ذمةَ الله ركبٌ سرّوا
نشاوى بكأسينِ كأسِ الهوى
يؤمّونَ بالعيسِ أمّ القرى
ديارُ بها الوحيُ وحيُّ السما
بها أشرقَ الدينُ كالشمسِ نوراً
فيا حاديَ العيسِ يطوي الفلا
سفائنَ آلِ طواها السرى
نشدتك بالبانِ بانِ الحمى
إذا ما حلتَ لدى طيبةِ
وقبراً ثوى فيه خيرُ الورى
فأبلغْ نحيبةَ صبٍّ مشوقِ
وقلْ يا رسولَ الهدى والشفيعِ
عليك الصلاةُ وطيبُ السلامِ
نبيُّ كريمٍ رؤوفٍ رحيمٍ
إمامُ الهدى المجتبي المصطفى

وأغرى الشهادَ بطرفِ كليلِ
بوجدِ جديدِ وصبرِ مُحيلِ
وشجّوا الحمائمَ عندَ الهدّيلِ
على الوجدِ يوماً بصبرِ جميلِ
يجبرِ الكسيرِ وعزّ الذليلِ
على رغمِ دهرٍ ظلومِ جهولِ
ويا طيبَ مأوى بظلِّ ظليلِ
يحدّونَ والليلُ مُرخى السدولِ
وكأسٍ من الأمنِ مثلَ الشمولِ
وقبرِ النبيِّ الشفيعِ الرسولِ
تنزّلُ ، أكرمُ بهِ من نزولِ
وآن من الشركِ وقتُ الأقولِ
بوخذ القلاصِ ونصّ الذمّلِ
وشقّ الحزّونِ وقطعُ السهولِ
وبالموردِ العذبِ والسلسيلِ
وجثّتْ محلّ الرضى والقبولِ
وبشرى الكليمِ وفخرِ الخليلِ
عَدَتْهُ عوادي الزمانِ الخدولِ
إذا ضاقَ صدرُ أبٍ عن سليلِ
يحييكِ عندَ الضحى والأصيلِ
بنصّ الكتابِ وحكمِ العقولِ
بأزكى شهيدِ وأهدى دليلِ

به أظهر الله دين الهدى
 وقام بأعباء دين الإله
 فأكرم بلبنة ميلاده
 لك الله من لبنة فضلها
 وأبد بالنصر مولى أقام
 أعاد بها الليل مثل النهار
 وأبدى الرضى نحوها والقبول
 سمى النبي الكريم الرسول
 محمد المرتضى المستجار
 من نفر الفر أسد الكفاح
 تراهم لدى السلم أطواد حليم
 ميد العداة ، ومحبي العفاة
 فباس حكي النار عند احتدام
 فيصلي عداه لدى الحرب ناراً
 إذا قلت البيض يوم الوغى
 ملك كفيلاً لمن يرتجيه
 وفرع كريم حميد الخلال
 فدام لنا ما سرى في الرياض
 وحن مشوق لأرض الحجاز

وعلم كيف سواء السبيل
 أتم القيام بفعل وقيل
 على كل وقت وعصر وجيل
 يجر على النجم فضل الذبول
 مواسمها فعل بر وصول
 بوجه كريم وفعل جميل
 وأكرم به من حفي كفيل
 وسيف الإله العلي الجليل
 ميد العدا ومنيل الجزيل
 وأهل السماح عشي التزول
 ويوم الكربة آساد غيل
 ومأوى الغريب ومُدني الدخيل
 وجود حكي الشحب عند الهول
 ويروي نداه زمان المحول
 فليست ترى عزمه ذا فلول
 بكل مرام بعيد وسول
 نماه إلى المجد طيب الأصول
 نسيم الصبا ومهب القبول
 إذا لاح إيماض برق كليل

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر من مدينة فاس^١:

لمن طلل بالرقمتين محيل عفت دمتيه شمال وقبول

١ أورد بعضها في نسخة الإحاطة المشار إليها .

بلوحُ كباقي الوشمِ غَيْرُهُ البلي
 فيا سعدُ مهلاً بالركابِ لعلنا
 قف العيسَ ننظرُ نظرةً تُذهبُ الأُمى
 وعرجُ على الوادي المقدسِ بالحمى
 فيا حبذا تلك الديارُ وحبذا
 دعوتُ لها سقي الحمى بعدما سرى
 وأرسلتُ دمعي للغمامِ مساجلاً
 فأصبح ذلك الرُبْعُ من بعد محلّه
 لئن حالَ رسمُ الدارِ عما عهدته
 ومما شجاني بعدما سكن الهوى
 توسدنَ فرعَ البانِ ، والنجمُ مائل
 فيا صاحبي دعُ عنك لومي فإنه
 تقول : اصطباراً عن معاهدك الألى
 فله عينا من رأيي وللأسي
 يطاولُ ليلَ التّمّ مني مُسهّدُ
 فيا ليت شعري هل يعودنَ ما مضى
 وهل راجعُ عهد الحمى سقي الحمى
 وأيامُ أنسٍ كم نعمنا بقربها
 حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى منى
 لجودُ أميرِ المسلمين محمدٍ
 ملكُ - أتاهُ اللهُ في الملكِ عَزْمَةٌ
 هو الملكُ المنصورُ والبطلُ الذي

وجادتُ عليه السّحبُ وهي همولُ
 نسائلُ ربّعاً فالمحبُّ سؤولُ
 ويشفى بها بين الضلوعِ غليلُ
 فطاب لديه مَرَبْعٌ ومَقِيلُ
 حديثُ بها للعاشقين طويلُ
 وميضُ وعَرَفُ للنسيمِ عليلُ
 فسألَ على الخدين منه مُسِيلُ
 رياضاً بها الغصنُ المروحُ يميلُ
 فعهدُ الهوى في القلبِ ليس يحولُ
 بُكاءُ حماماتٍ لهنَّ هديلُ
 وقد آن من جيش الظلامِ رحيلُ
 كلامُ على سمع الحبِّ ثَقِيلُ
 وهيهاتَ صبري ما إليه سَبِيلُ
 غداةً استقلتُ بالخليطِ حمولُ
 وقد بانَ عني منزلُ وخليلُ
 وهل يسمحنَ الدهرُ وهو بخيلُ
 وظلّ بعينِ الدمعِ فيه ظليلُ
 وقد غابَ عنا حاسدُ وعذولُ
 لهنَّ إلى البيتِ العتيقِ ذَمِيلُ
 بكلِّ مرامٍ في الزّمانِ كَفِيلُ
 يروعُ الأعادي بأسُها ويهولُ
 يهونُ عليه الخطبُ وهو جليلُ

إِذَا قُلَّتِ الْبَيْضُ الرِّقَاقُ وَجَدْتَهُ
 يَقْصَرُ بَاعُ الْمَدْحِ دُونَ صِفَاتِهِ
 مِنَ النَّفْرِ الْبَيْضِ الْوَجْوهُ لَدَى الْوَعْيِ
 هُمْ مَا هُمْ وَالْحَرْبُ قَدْ شَبَّ نَارَهَا
 إِذَا سَلُّوا يَوْمَ النَّدَى فَنَوَاهُمْ
 بِهِمْ عَزَّ دِينُ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 هُمْ السَّادَةُ الْأَنْصَارُ وَالْعَرَبُ الْأَلَى
 لَهُمْ يَوْمَ بَدْرِ وَالرَّسُولُ أَمِيرُهُمْ
 فَأَصْبَحَ أَصْحَابُ الْقَلْبِ كَأَنَّهُمْ
 وَقَدْ أَمِنَ الْإِسْلَامُ كَيْدَ عَدُوِّهِ
 وَعَدُوا رَوَاحًا لِلْمَدِينَةِ وَالرَّضَى
 فَمَنْ ذَا يَحَارِي أَوْ يَدَانِي عَصَابَةً
 لَكُمْ يَا بَنِي نَصْرِ مِنَ الْمَجْدِ هَضْبَةً
 يَا سَيِّدَ الْأَمْلاكِ وَالْوَاحِدِ الَّذِي
 لَقَدْ قَرَعَ الْأَعْدَاءَ مِنْكَ مُؤَيَّدٌ
 فَلَمْ يَدْرِكُوا مَا أَمَلُوا غَيْرَ سَاعَةٍ
 تَعَاوَيْنَ فِي بَابِ الْبَنُودِ بِسِحْرَةٍ
 أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتُوا بِغِيظِهِمْ
 فَأَضْحَوْا حَدِيثًا فِي الْبِلَادِ وَيَوْمَهُمْ
 بِسَعْدِ إِمَامٍ يُنْزِلُ الْعُصْمَ سَعْدُهُ
 وَفَرَحَ كَمَالٍ فِي الْخَلَاقَةِ ثَابِتٍ
 حَكَى وَجْهَهُ شَمْسَ النَّهَارِ إِذَا بَدَأَ
 أَعَادَ لَنَا بِالْعَدْلِ أَيْامَهُ الَّتِي

أَخَا عَزَمَاتٍ مَسَا بَيْنَ فَلُولُ
 وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْفَكْرُ وَهُوَ كَلِيلُ
 لَهُمْ غَرَرٌ وَضَّاحَةٌ وَحُجُولُ
 وَلِلْغَيْلِ فِي جَنَحِ الْعَجَاجِ صَهِيلُ
 تَفِيضُ شَأْيِبٍ لَهُ وَسَيُولُ
 وَأَصْبَحَ دِينُ الْكُفْرِ وَهُوَ ذَلِيلُ
 حَتَّى الدِّينِ حَيٍّ مِنْهُمْ وَقَبِيلُ
 تَصُولُ بِهِ أَرْمَاحُهُمْ وَتَطُولُ
 كَثِيبُ لَوْطَةٍ الْمَرْهَفَاتِ مَهِيلُ
 وَغَوْدَرُ رَبْعِ الْكُفْرِ وَهُوَ مُحِيلُ
 لَهُمْ مِنْهُ فَوْزٌ عَاجِلٌ وَقَبُولُ
 جَزَائِهِمْ عِنْدَ الْإِلَهِ جَزِيلُ
 تَزُولُ الرُّوَاسِي وَهِيَ لَيْسَ تَزُولُ
 إِذَا عُدَّ فُخْرٌ لَيْسَ عَنْهُ عَدُولُ
 لَهُ الذَّعْرُ نَصْرٌ وَالْحَسَامُ دَلِيلُ
 كَذَاكَ مَتَاعُ الْأَخْشَرِينَ قَلِيلُ
 كَلَابٌ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَوِيلُ
 فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْ مَكْرِهِمْ وَالْأَلِيلُ
 وَسَاءَ صَبَاحٌ عَنْدهُمْ وَأَصِيلُ
 وَيُرْوِي نَدَاهُ وَالزَّمَانُ مُحُولُ
 نَمَتْهُ إِلَى الْمَجْدِ الزَّكِيِّ أَصُولُ
 وَرِيَّاهُ عَرَفَ الرُّوضِ وَهُوَ بَلِيلُ
 عَهْدِنَا ، فَدَارَتْ لِلسُّرُورِ شَمُولُ

فدام لنا ما هبَّ عَرَفَ من الصَّبَا
وَحَنَّ مشوقٌ للحجاز إذا بدت
وأشرقَ نجمٌ مثلَ قلبي خافق
ولا زالتِ الأقدارُ تجري بأمره
وأومضَ برقٌ في الظلامِ كليلٍ
لعيْنِهِ منه شامةٌ وطفيلٌ
وَحانَ له عندَ الغروبِ أقولُ
وصنَعُ إلهِ العرشِ فيه جميلٌ

وقال في إعذار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورضي عنه :

أثِيرُها عزمةٌ تُنْضِي الركابا
لعلَّ الوجدَ تطفأ منه نارٌ
أما بعد الألى ترجو قلوبُ
فيا أَخَوَيَّ كُفًّا عَنْ عتابي
تذكرتُ العقيقَ فسال دمي
أقولُ لنَسْمةٍ مَرَّتْ صباحاً
ألا يا هذه كوني رسولي
نشدتك بَلْغِي صَحيي سلامي
يلومني العواذلُ في اشتياقي
وكم بين الأباطح من مَهَاةٍ
رمتني ثم قالت وهي تُزْري
إذا ما الشَّهْبُ للغرب استمالت
أوجهُ إن رَقَدْتَ إلبك طيفي
قلْتُ : لقد بَحَلْتُ على مشوقٍ
وكيفَ له بنومٍ بعد وجدٍ
وإن دَمِيتُ لها العينُ انسكابا
أَبَتْ إلا زفيراً والتهابا
تسارعُ نحو أرضهم انقلابا
فلستُ بسامعٍ أبداً عتابا
عقيقاً من تذكره مذابا
يعطرُ عَرَفُها القفرَ اليابا
وكوني إن رجعت لي الجوابا
إذا جِئْتَ المعاهدَ والقبابا
إذا ما القلبُ من وجدي تصابى
تروعُ بلحظها الأسدَ الغضابا
ولم تحذرْ بفتكتها العقابا
وقودُ الليلِ بالإصباحِ شابا
كلمعَ البرقِ يحترقُ السحابا
أبى إلا غراماً واكتئابا
يذيبُ لهيبه الصَّمَّ الصلابا

سينصره من الأنصارِ مَلَكٌ
كريمُ الذاتِ من ملائِكِرامِ
تواضعَ رَحْمَةٍ وَعَلَا مَحَلًّا
فليسَ يَصْدُ عَنْ جَدَواه راجِ
لَهُ عَظْفٌ عَلَى الرَّاجِي جَمِيلٌ
وَعَدْلٌ أَمَّنَ الْأَرْجَاءَ حَتَّى
أُمُولايَ الَّذِي أَحْيَا الْمَعَالِي
مَدَدَتْ عَلَى الْبِلَادِ جَنَاحَ عَدْلٍ
وَتَابَ الدَّهْرُ مِمَّا قَدْ جَنَاهُ
وَسَكَنَ عِزُّ دَوْلَتِكَ الدَّوَاهِي
وَبِاللَّهِ إِعْذَارُ سَعِيدٍ
عَجِبْتُ لِمُقَدِّمِ وَالرُّوعُ يَهْفُو
وَمَنْ شِبْلٍ أَطَاعَ أَخَا سِلَاحٍ
وَهَلْ عِذْرٌ لِعَاذِرِ لَيْثٍ غَابٍ
فَلَوْلَا سُنَّةُ حِكْمَتِ وَهْدِي
لَحَامَتْ عَصْبَةُ الْأَنْصَارِ عَنْهُ
مَنْ الصَّيْدُ الَّذِينَ لَهُمْ نَفُوسٌ
تَنْيرُ اللَّيْلَ أَوْجُهُهُمْ إِذَا مَا
دَعَوَتْ بِهِ الْأَنَامُ لِيَوْمِ حَشْرِ
رَأَوْا مِنْ زَخْرِفِ الدُّنْيَا مَقَامًا
وَأَبْتَهُمْ فَمَا عَاطَوْا حَدِيثًا
إِذَا نَادَاهُ مَظْلُومٌ أَجَابَا
لَقَدْ طَابَتْ سَجَايَاهُمْ وَطَابَا
وَسَهَّلَ مِنْهُ لِلنَّاسِ الْحِجَابَا
وَلَيْسَ يَسُدُّ عَنْ عَاقِبِهِ بَابَا
يَقُولُ مِنَ الرَّدَى ظُفُرًا وَنَابَا
تَرَى الْغَزْلَانَ لَا تَحْشَى الذُّثَابَا
وَقَدْ بَلَيْتُ وَأَلْخَفْتُ التَّرَابَا
وَكَفُّ الْجُورِ تَسْتَلِبُ اسْتِلَابَا
فَجَدْتَ لَهُ بِعُفُوكَ حِينَ تَابَا
فَكَانَتْ رَحْمَةً دَقَعَتْ عَذَابَا
دَعَوْتَ السَّعْدَ فِيهِ فَاسْتَجَابَا
بِأَفْئِدَةِ الْكُفَاةِ وَمَا اسْتَرَابَا
وَحَكَمَهُ اصْطِبَارًا وَاحْتِسَابَا
أُظِنَ فَوَادِهِ وَالْعَقْلَ غَابَا
أَصَبْتُ وَقَدْ سَلَكْتُ بِهِ الصَّوَابَا
بِأَسْيَافٍ تَقْدُّ بِهَا الرِّقَابَا
لَغَيْرِ الْفَخْرِ لَا تَصِلُ الطَّلَابَا
أَرَادُوا السَّيْرَ أَوْ حَثَّوْا الرِّكَابَا
وَلَمْ تَذْخَرْ لَهُمْ إِلَّا الثَّوَابَا
يَذْكُرُ بِالْجَنَانِ لِمَنْ أَنَابَا
وَلَا عَرَفُوا السُّؤَالَ وَلَا الْجَوَابَا

ولو مكثوا به دهرًا طويلًا
وطاردت الصُّوَارَ بكلِّ ضارٍ
ضربت به على الآذانِ منها
ومعصوب الجبين بتاج رَوْقٍ
تعرف أن تحت الأرض ثورًا
وكلت به هضيم الكشح أجتى
تباعد مجمع الشدقين منه
فأثبته كوخني الطرف حتى
وصاح به الصُّوَار وقد رآه
« ففض الطرف إنك من نمر
وأرسلت الجياد إلى استباق
فمن ورد أقب ومن كُمت
وساقية العماد إذا أطلت
تحوم بها العصي فَرَّاش ليل
تحف بها خيول القوم متًا
عجائب أبدعت عليك فيها
محمد لا علمت الدهر حمداً
وزكّي نفسك الرحمن لما
تداركت البلاد ومن عليها
لقد أوليتنا بيض الأيادي
رَوّت عنك العوالي في المعالي
ستفتح من بلاد الشرك أرضاً

لما ذكروا الطعام ولا الشرابا
كما أتبت عفريتاً شهابا
فلم تسطع حراكاً واضطرابا
بروع خواره الأسد الغضابا
فرام بأن يشق له الترابا
حديد الثاب تحسبها حرابا
وسال الموت بينهما لعابا
توثق منه جازره غلابا
حييس الكلب قد منع الإيابا
فلا كعباً بلغت ولا كلابا^١
كان بوارقاً شقت سحابا
وأشهب يلهب الأرض التهابا
إلى الأدواح تنساب انسيابا
تروم بسمعه منه اقترابا
فرسل نحوها الجرد العرابا
ومثلك يدع الأمر العجابا
فقد أحسنت في الملك المنابا
رأك ملكة للمجد النصابا
فأمّنت التناثف والشعابا
لقد طوقتنا المن الرغابا
حديث الفخر حقاً لا انتسابا
قد اعتقلت عقائلها اغتصابا

١ بيت لجرير بن الخطمي

وتُعمل في العدا بيض المواضي
فما كأس من الصهباء صرف
وطاف بها من الرهبان بدر
تجد الأنس عوداً بعد بدء
بأعذب من ثنائك حين يطوي
أمولاي استمعها بنت فكر
وغاص على فرائدها الغوالي
وهناك الإله بكل نعمى
ودمت لعة الإسلام ركناً
وقال ، وقد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة وستين وسبعمائة :
نفس الصبا أهدى إلي نسima
يا هل يبلغني السرى خير الورى
وأسابق الركبان فوق نجية
وأحط رحلي في كريم جواره
حتى إذا بلغوا الذي قد أمّلوا
وتزاحموا في الترب يستلمونه
قبلت ذلك الترب من شوقي إلى
وبكيت من المآقي زمزماً
صلى عليه الله ما هبت صباً
لله مولده الذي أنواره
شرعت من التأيد سيف هداية
كسر الأكاسر بالعراء ولم يدع
إلى أن ينكر السيف القرابا
تعيد الشيخ من طرب شبابا
يهتك من دجى الليل الحجابا
وربع لهم تركه خرابا
به الركب الأباطع والمضابا
تغيرها فأبرزها لبابا
وشق على نفائسها العبابا
تقود لك الأمانى الصبابا
إلى أن يشمل الشيب الغرابا
قد رام متمتعاً ورام عظيماً
فأرى معاهد للهوى ورسومها
تفري من اليد العراض أديماً
أرجو نعيماً في الجنان مقيماً
ورأوا مقاماً بالرضى موسوماً
أرأيت في الورد الظماء الهيماً
من حله وأقمت فيه لزيماً
وتركت جسمي كالحطيم حطيماً
تهدي من الطبيب الزكي شميماً
صدعت ظلاماً للضلال بهيماً
أردت ظباه فارساً والروما
أن رد قيصر قاصراً مهزوماً

لله منها ليسةٌ أضحى بها
 أبداً أميرُ المسلمين أعدّها
 ملكٌ أقام الله منه خلقة
 يحمي ذمارَ المسلمين من الردى
 بمحمدٍ قد عادَ دينُ محمدٍ
 أحيا به الله الخلافة بعدما
 من آل سعدٍ الخزرج بن عبادة
 تلقاه في يوم الكربة والوغي
 ونحالٍ كفيه إذا شحّ الحيا
 تأبى خلال العدل والشيم العلا
 كهفُ العباد وفخرها وثناؤه
 لا زال يلقي العيش طلقاً والعلا
 ما اهتر غصنٌ في الحديقة ناعمٌ

شمل الهدى لأولي الهدى منظوما
 بدعاً من القصر الكريم جسيما
 مولى رؤوفاً بالعباد رحيماً
 ويبسح ربعا للعدا وحرما
 غصن الرياض وكان قبل هشيما
 كانت بأطباق التراب رميما
 طابوا فروعاً في العلا وأروما
 والحيل عابسةً أغرّ وسيما
 ألقا بعامية الفيث غيوما
 من أن يرى في دهره مظلوما
 ترك المديح على الطروس رقيما
 مرقى وصرف الحادثات خديما
 لما أحسن من الشمال شميما

مولده بغرناطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ،

انتهى .

[أشعار لسان الدين]

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في
 « النفاضة » من قوله : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني
 حيث جرابته ووظيفته ، وانجر حديث ما فقد بغرناطة في شجون الكلام :

يا بُنيَّ عبدَ الإله احتساباً عن أناثٍ ومترلٍ وعقارٍ

٦ ق : القصد .

كَيْفَ يَأْسَى عَلَى خَسَارَةِ جِزْءٍ مَنْ يَرَى الْكُلَّ فِي سَبِيلِ الْخَسَارِ
هَدَفٌ لَا تَتَى سَهَامُ اللَّيَالِي عَنْ سَبَاقِ تَجَاهِهِ وَبِدَارِ
وَاحِدٍ طَائِشٌ وَسَهْمٌ مُصِيبٌ لَيْسَ يَنْجِي مِنْهَا اشْتِمَالُ حَذَارِ
غَيْرِ ذِي الدَّارِ صَرَفِ الْهِمِّ فِيهَا فَمَنْخُ الرِّحِيلِ لَيْسَ بِدَارِ

انتهى . وقال أيضاً رحمه الله تعالى : ممّا أنشدته ولدي عبد الله ، وأمرته
بمحفظة والتأدب به والهجج بحكمته :

إِذَا ذَهَبَتْ يَمِينُكَ لَا تُضْبِعْ يَسَارَكَ فِي الْبُكَاءِ وَلَا الْمَصِيْبَةَ
وَيُسْرَاكَ اغْتَنِمْ فَالْقَوْسُ تُرْمِي وَمَا تُدْرِي أَرَشَقَتْهَا قَرِيبُهُ
وَمَا بِغَرِيبَةٍ نَوْبُ اللَّيَالِي وَلَكِنَّ النِّجَاةَ هِيَ الْغَرِيبَةُ

قال : ومن المنظوم في قريب من هذا قولي :

أَيَا أَهْلَ هَذَا الْقَطْرِ سَاعِدِ الْقَطْرِ دَهَيْتُ فَدَلُونِي لِمَنْ يُرْفَعُ الْأَمْرُ
تَشَاغَلْتُ بِالدُّنْيَا وَنَمْتُ مَفْرَطًا وَفِي شُغْلِي أَوْ نَوْمِي سُرِقَ الْعَمْرُ

وقال رحمه الله تعالى : وممّا قلته وقد انصرف عني الولدُ عبد الله إلى مدينة
فاس لإقامة رسمه من الخدمة ، وأشجاني انصرافه لوقوع قرحة على قرح ، والله
المستعان :

بَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ قَرَّةٌ عَيْنِي حَسْبِيَ اللَّهُ أَيُّ مَوْقِفٍ بَيْنِ
لَوْ جِئْتُ مَوْقِفَ النَّوَى حِينَ حَيًّا حَانَ يَوْمُ الْوَدَاعِ وَاللَّهُ حَيِّي
ضَايَقْتَنِي صُرُوفُ هَذِي اللَّيَالِي وَأَطَالَتْ هَمِّي وَأَلَوْتُ بِدَيْي
وَطَنٌ نَازِحٌ وَشَمْلٌ شَتِيْتُ كَيْفَ يَبْقَى مُعَدَّبٌ بَعْدَ ذَنْبِ
يَا إِلَهِي أَدْرِكْ بِلَطْفِكَ ضَعْفِي إِنَّ مَا أَشْكِيهِ لَيْسَ بِهَيْنِ

وقال رحمه الله تعالى : أنشدت يوماً ولدي عبد الله وقد رأيت منه نشاطاً

ومرّحاً انتقل مني إليه بعد السن :

سَرَقَ الدهرُ شبابي من يدي وفؤادي مُشعراً بالكَمَدِ
جملةُ الأمرِ إذا أبصرته باعَ ما أفقدني من ولدي

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى .

[علي وتعليقاته على الإحاطة]

وأما علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه ،
وكان مُصاحباً للسلطان أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم ابن
السلطان أبي الحسن المريني ، رحمه الله تعالى .

وحكى بعضهم أنه حضر معه في بستان ، سَحَّ فيه ماء المذاكرة المتّان ،
وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار ،
فقال المستنصر لما لان جانبه ، وسالت بين سرحات البستان جداوله ومدانيه :

يا فاسُ إِنِّي وَأَيْمُ اللهِ ذَوْ شَغَفٍ فِي كُلِّ رَيْعٍ لَهْمُ مَغْنَاهُ يُسِينِي
وَقَدْ أَنْسْتُ بِقَرَبٍ مِنْكَ يَا أُمِّي وَنَظَرَةً فِيكُمْ بِالْأَنْسِ تَحْيِينِي

فأجابه أبو الحسن علي بن الخطيب ، بقوله المصيب :

لَا أَوْحَشَ اللهُ رَيْعاً أَنْتَ زَائِرُهُ يَا بَهْجَةَ الْمَلِكِ وَالْدُنْيَا مَعَ الدِّينِ
يَا أَحْمَدَ الْحَمْدِ ، أَبْقَاكَ الْإِلَهِ لَنَا فَخَرَ الْمُلُوكِ وَسُلْطَانَ السُّلَاطِينِ

وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ، ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله
مصر ما أُعول عليه ، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة « الإحاطة » التي وجهها
أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مرّ ، فكتب
بالخواشي كتابات مفيدة ، وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب ،

فليراجع : إما تكميل لما أغفله أبوه ، وإما إخبار عما شاهده هو ، أو رواية له عن المترجم به ، أو جواب عن أبيه فيما انتقد عليه .

[نأذج في تعليقاته من ترجمة ابن جابر]

ولنذكر شيئاً منها غير ما تقدم بعد إيراد نص « الإحاطة » فنقول :
قال في « الإحاطة » في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهواري^١ الضرير شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعة الشهيرة بالأعمى والبصير ، ما صورته :
محمد بن أحمد بن علي الهواري ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن جابر ،
من أهل المرية .

حاله - رجل كفيف البصر ، مدل على الشعر ، عظيم الكفاية والمنة على زمانه ، رحل إلى المشرق ، وتظاهر بـرجل من أصحابنا يُعرف بأبي جعفر الإلييري ، صار اروحين في جسد ، ووقع الشعر منهما بين لَحْيَيْ أسد ، وشمر للعلم وطلبه ، فكان وظيفة الكفيف النظم ، ووظيفة البصير الكتّاب ، وانقطع الآن خبرهما ؛ انتهى .

فكتب المذكور على أول الترجمة ما صورته : نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر أحسن الله تعالى إليهما ، فلقد أحسننا الصحبة ، في الغربة ، وانفردا بالتزاهة والفضل وعلو الهمة ، إلا أن المصنف قصر فيهما بعض قصور ، ومنهما يُطلب الإغضاء والصفح ، فالرجل مات ، وذكرُ الأموات بالخير مشروع ، وهما والله الشرف الباهر بقطرهما علماً وعملاً ، أمتع الله تعالى بهما ، قاله ولدُ المؤلف علي بن الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

١ قد ترجم المقرئ لابن جابر الضرير ورفيقه أبي جعفر الإلييري (المجلد ٢ : ٦٦٤ - ٦٨٧) وما هو يعود إلى الإسهاب في ذكر الرجلين في هذا الجزء .

وكتب على قول أبيه « وانقطع الآن خبرهما » ما نصّه : هما الآن باليرة من حلب ، تحت إناعام ولطف ، تحت إليهما الرواحل ، وتضرب إليهما آباط النّجب .

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من « الإحاطة » :

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه ، وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه : محسوب من طلبتها الجليّة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلّة ، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببصره ، واستهان في جنب الاستفادة بمشقة سفره ، على بيان عذره ، ووضوح ضره .

شعره - وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا حُسْنَ ذاك الحالِ في صفحة الخدِّ متى رَقَمُوا بالمسكِ في ناعم الوردِ
وقولوا لذلك الثغرِ في ذلك اللَّمَى متى كان شأنُ الدرِّ يوجدُ في الشهدِ
ومنْ هزَّ غصنَ القدِّ منها لفتني وأودعه رمائتي ذلك النهْدِ
ومن متّع القُضْبَ اللّدانَ بوصفها إلى أن أعرنَ الحسنَ من ذلك القدِ
فتاةٌ تفتُّ القلبَ مني بمقلةٍ لها رقةُ الغزلانِ في سطوةِ الأسدِ
تمنيتُ أن تهدي إليَّ نهودها فقالت رأيتَ البدرَ يهداه أو يهدي
فقلتُ اللّرّمانُ بُدٌّ من الجنى فتاهتُ وقالت : باللّواحظِ لا الأيدي
فقلتُ أليس القلبُ عندك حاصلاً فقالت قلوبُ الناسِ كلّهمُ عندي
فقلتُ اجعليني من عبيدك في الهوى فقالت كفاني كم لحسني من عبدِ
إذا شئتَ أن أرضاك عبداً فمتَّ جوى ولا تشكني واصبرْ على ألمِ الصّدِّ
ألم ترَ أنَّ النحلَ يُحمَلُ ضرّها لأجل الذي تجنيه من خالصِ الشهدِ
كذلك بذلُ النفسِ سهلٌ لذي النّهي لما يكسبُ الإنسانُ من شرفِ الحمدِ
ألسنَ ترى كفَّ ابنِ جانةٍ طالما أضاع كريمُ المالِ في طلبِ المجدِ

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته : عارضة قوية ، ونزعة
خفاجية ، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صدر صدور الأندلس علماً ونظماً
ونحواً ، زاده الله تعالى من فضله ؛ انتهى .

رجع إلى الترجمة — قال لسان الدين : وقال ، يعني ابن جابر :

عَرَّجْ عَلَى بَانَ الْعُدَيْبِ وَنَادِي	وَانْشُدْ فَدَيْتَكَ أَيْنَ حَلِّ فَوَادِي
وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الْمَنَازِلِ بِالْحَمَى	فَاشْرَحْ هُنَاكَ لَوْعَتِي وَسَهَادِي
إِيَّاهُ فَدَيْتَكَ يَا نُسَيْمَةُ خَبِيرِي	كَيْفَ الْأَجْبَةُ وَالْحَمَى وَالْوَادِي
يَا سَعْدُ ، قَدْ بَانَ الْعُدَيْبُ وَبَانُهُ	فَانْزِلْ فَدَيْتَكَ قَدْ بَدَأَ إِسْعَادِي
خُذْ فِي الْبَشَارَةِ مُهْجَتِي يَوْمًا إِذَا	بَانَ الْعُدَيْبُ وَنَوْرُ حَسَنِ سَعَادِ
قَدْ صَحَّ عَيْدِي يَوْمَ أَبْصِرُ حَسَنَهَا	وَكَذَا الْهَلَالُ عَلَامَةُ الْأَعْيَادِ

ومما نقلته من جزء قبده لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي الزواوي ممّا
ادعاهُ لنفسه :

عَلِيٌّ لِكُلِّ ذِي كَرَمٍ ذِمَامُ	وَلِي بِمَدَارِكِ الْمَجْدِ اهْتِمَامُ
وَأَحْسَنُ مَا لَدَيَّ لِقَاءُ حُرٍّ	وَصَحْبَةُ مَعْشَرٍ بِالْمَجْدِ هَامَا
وَلَأَنْتِي حِينَ أَنْسَبُ مِنْ أَنْاسٍ	عَلَى قَمَمِ النُّجُومِ لَهُمْ مَقَامُ
يَمِيلُ بِهِمْ إِلَى الْمَجْدِ ارْتِيَاخُ	كَمَا مَالَتْ بِشَارِبِهَا الْمُدَامُ
هُمْ لَبَسُوا أَدِيمَ اللَّيْلِ بُرْدًا	لِيُسْفِرَ عَنْ أَدِيمِهِمُ الظَّلَامُ
هُمْ جَعَلُوا مَتُونَ الْعَيْسِ أَرْضًا	فَعَمَزُوا الرِّحِيلَ فَقَدْ أَقَامُوا
فَمَنْ كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا ارْتِمَالُ	وَفِي كُلِّ الْبِلَادِ لَنَا مَقَامُ
وَحَوْلَ مَوَارِدِ الْعِلْيَاءِ مَنَّا	لَنَا مَعَ كُلِّ ذِي شَرَفٍ زَحَامُ
تَصِيبُ سَهَامُنَا غَرَضَ الْمَعَالِي	إِذَا ضَلَّتْ عَنْ الْغَرَضِ السَّهَامُ
وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَجْدِ اقْتِنَاعُ	وَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ لَنَا خِيَامُ

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها ، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتاً ، ولم نشبتها لطولها ، ثم قال بعدها : نجزت وما كادت ، ثم قال بعدها أيضاً : وقد وطئاً لإمطاء قروحها ، وأعياء لإكثار سروحها ، ثم قال بعده : والله ولي النجاة بفضلته ؛ انتهى .

وكتب ابنه علي أول القصيدة وهو : « علي لكل ذي كرم ذمام » ما نصه : نزعة معرّية ، قاله ابن المؤلف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله « نجزت إلى آخره » ما صورته : ما أنصف المصنف هذا الفاضل في ترجمته ، وقدره شهير ، ومكانه من الفضيلة كبير ، وعلمه غزير ، ولعله لم يطلع إلا على ما أودعه .

وكتب إثره ابن لسان الدين ما صورته : نعم يا سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجم به المؤلف ، ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه ، ولو حصلنا تحت الصفيح لم نعملوا فيهما قلماً ، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شنشنة معروفة ، والحق قد على الأموات شأن المغاربة ، قاله علي ابن المصنف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[استطراد بأشعار ابن جابر]

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهواري المذكور مع أن له محاسن جمّة . ومن محاسنه رحمه الله تعالى :

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقّاً فبالقرب من خير الورى حُرِّمُ السبقا
فلا يتحرّك ساكنٌ منكمُ إلى سواها وإن جار الزّمانُ وإن شقا
فكم ملكٍ رام الوصولَ لمثل ما وصلّم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فبشراكمُ نلّم عناية ربكمُ فما أنتمُ في بحر نعمته غرقى

تروون رسول الله في كل ساعة
متى جئتم لا يغلّق الباب دونكم
فيسمع شكواكم ويكشف ضرركم
بطيبة مثواكم ، وأكرم مرسل
فكم نعمة الله فيها عليكم
أمنتم من الدجال فيها فحوها
كذلك من الطاعون أنتم بآمن
فلا تنظروا إلا لوجه حبيبكم
حياة وموتاً تحت رحمته أنتم
فيا راحلاً عنها لدنيا يريدّها
أخرج عن حِرْزِ النبي وحوْزه
لئن سرت تبغي من كريم إعانة
هو الرزق مقسوم فليس بزائل
فكم قاعد قد وسّع الله رزقه
فعش في حمى خير الأنام ومث به
إذا قمت فيما بين قبر ومنبر
لقد أسعد الرحمن جار محمد

ومن يره فهو السعيد به حقاً
وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا
ولا يمنع الإحسان حرّاً ولا رقاً
يلاحظكم فالدهر يجري لكم وفقاً
فشكراً ، وشكر الله بالشكر يستبقي
ملائكة يحمون من دونها الطرّقا
فوجه الليالي لا يزال بكم طلقاً
وإن جاءت الدنيا ومّرت فلا فرقاً
وحشراً فسرّ الجاه فوقكم ملقى
أطلب ما يفنى وترك ما يبقى
إلى غيره ؟ تسفيه مثلك قد حقاً
فاكرم من خير البرية ما تلقى
ولو سرت حتى كدت تحترق الأفقا
ومرّحّل قد ضاق بين الورى رزقا
إذا كنت في الدارين تطلب أن ترقى
بطيبة فاعرف أين متلك الأرقى
ومن جار في ترّحاله فهو الأشقى

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة ، وهي قوله ١ :

بادر قلبي للهوى وما ارتأى
فقرّب الوجد لقلبي حبها
لما رأى من حسنها ما قد رأى
وكان قلبي قبل هذا قد نأى

١ واضح أن هذه المقصورة من « المشرات » على حروف المعجم وقد فصلنا بين أجزائها لتتضح للقارئ صورتها .

يا أيها العاذلُ في حبي لها
لو أبصر العاذلُ منها لمحةً
سرحتُ طرفي طالباً شأوا العُلا
إنني لأرعاها على تتبعها
من منصفٍ من شادنٍ لم أرجه
وإن قبضتُ النفس عن سُلوانه
لأقطعنَّ اليدَ أفري حاذها
حتى أزورَ ربةَ الخدرِ وقد
أقصرُ في سماعٍ عن العذلِ بأى^١
ما فضَّ بابَ عدله ولا فأى^٢
وتابعاً في حبه ما قد شأى^٣
عهدي ، ومثلي من وفي إذا وأى^٤
لحاجة من وصله إلا زأى^٥
مدَّ أديمَ هجره لي وسأى^٦
بضامٍ يقرى الحصى إذا جأى^٧
زاد الكرى عني الوشاة وذأى^٨

* * *

يا ربَّ ليلٍ قد تعاطينا به
في روضةٍ تعانقتُ أغصانها
نادمتُ فيها من بني الحسنِ رشاً
حلوا رخيماً الدلَّ في أعظافه
أيامَ كان العيشُ غصاً حسنه
أيَّ زمانٍ ومحلٍّ للمنى
يا مربّعاً ما بينَ نجدٍ والحمى
حديث أنسٍ مثلَ أزهار الرُّبى
إذ واصلتُ ما بينها ريعُ الصبا
يصبو له من لم يكن قط صبا
لين وفي الحاظه بيضُ الظبي
عذب الخنيرين من ماء الصبا
ما ضاق مغناه بنا ولا نبا
ويا زماناً قد حبابي ما حبا

١ بأى يباى : فخر ؛ وفي ق : في قلب . . . نأى .

٢ فأى : شق وخرج .

٣ شأى : قد تعني « يمد » أو « أعجب وأطرب » .

٤ وأى : وعد ؛ وفي ق : ومثلي من فأى . . . إلخ .

٥ زأى : تكبر ، عن ابن الأعرابي .

٦ سأى الثوب والأديم : مده حتى انشق .

٧ الحاذ : طريقة المتن وهو موضع اللد من الفرس ؛ وجأى : قذف .

٨ ذأى : ساق سوقاً شديداً وطرد .

اللهُ يرعاهُ زماناً لم يحُلْ
فأيّ مَغْنَى أَهْلَ بِمَتَهُ
هل تُرْجِعُ الأَيَّامُ عِيشاً باللوى
عن بذل ما نأمله ولا أبى
لمقصد حُلّت لنا فيه الحبا
فراقه كان اللّهُيْمَ الأَرَبى^٢

تالله لا أعبا بعيش قد مضى
مذ علقت كفي بالهادي الذي
كالبحر لا يغيض يوماً وردّه
متصل البر لمن قد أمّه
ولا يناجي نفسه في ضيقة
إنّ رسول الله مصباح هدى
كفّ بني الجور بعدل واضح
كم ذي هوى قد راضه بهديه
قد خالط الحلم سجايا طبعه
أقسمت لا زلت أوالي مدحه
ولا زمان قد تعدى وعنا
ساد الورى طفلاً وكهلاً وفَتى
لوارِدٍ إذا أصاف أو شتا
لا يكره العودَة ممتن قد أتى
أيّ نهارٍ سرّ هذا ومتى
يُهنّدى به من في دجى الليل متاً^٣
كما تكفّ اليدُ كفّاً من فتى
فانقاد كالعبد إذا العبد قتا^٤
كمثل ما قد خالط الثوبُ الستا^٥
ما اشتدّ بالناس زمانٌ ورتا^٦

لولا اشتياقي للديارِ كَرُمْتَ
ومدحُ مَنْ أَرْجُو بأمداحي له
لم أجعل الشعرَ لنفسِي خلّة^٧
ليبعدها يَرْتِي لنا من قدرتي
إصلاح ما قد عاثَ مني وعثا
ولم يحشُ فكري به ولا غثا^٧

١ ق : أملكه .

٢ الهيم : الداهية ؛ الأربى : الشديدة .

٣ متاً في الأرض مثل مطا ، أي مشى .

٤ قتا العبد : خدم ، أو أحسن الخدمة .

٥ سى الثوب يستيه بمعنى سداه يسديه .

٦ رتا - من الأضداد : شد وأرعى .

٧ غثا : كثر غشاؤه .

فما أرى الأيام تبدي منصفاً
يا ضيعة الأبواب في دهر غدا
يا ويل أمّ ليس تزجي ضيمها
هل مارست إلا أخوا عزم إذا
تسيل من جهد السرى أعطافه
له اعتصام بالرسول المجتبى
من ليس للدينا محلّ عنده

* * *

أنا الفتى لا يطيبني طمع
لكن إذا اضطر زمان جائر
لا أسأل النذل ولو أني به
حسبي بنو عبد مناف بهم
أولئك القوم الألى من أمهم
يلقاك منهم كل وجه مشرق
إني منذ أملتهم لم يشني
إن أنا قد نكرني دهر عدا
يطوي العدا ذكرى ومجدي ناشري
أنا الذي أعملت للمجد السرى

فأبدل الوجه لينيل برزجي
أملت من ليس يرُد من رجا
أملك ما حاز النهار والدجى
يغنى من استغنى وينجو من نجا
أمن ممن لام يوماً وهجا
كأنه البدر إذا الليل سجا
عن طلب المجد زمان قد شجا
فظالما عرفني فضل الحجى
آليت لا زال لهم مني شجا
لا أسام الأين ولا أشكو الوجى

* * *

- ١ الخنى : جمع خنى ، وهو روث الثور .
- ٢ الخنا : التراب المعضو أو المحثى .
- ٣ جثا : جلس على ركبتيه للخصومة أي لمواجهة الخطب ، فهو مستوفر .
- ٤ اللثى : شيء ينضجه ساق الشجرة أبيض خاثر .
- ٥ يريد بملء الكفين .

كم سرت في البيداء لا يُقلقني
أرسلها غرّ الذرا تسري بنا
يطيح مفتوت الحصى من دونها
فكم بذلت الجهد في كسب العلا
أرغم أعداي بحزم نافذ
أزود عن عرضي وأحمي حسي
أقسم بالبيت ومن طاف به
وكل من أغلّ الله الخطا
ومعشر تجّوا وعجّوا فلهم
لا زلت أزجيها لإدراك العلا

حرّ الهجير لا ولا برد الضحى
كل عويص السير صعب المنتحى
كأنه سهم عن القوس طحا^١
وجدت بالنفس لحاني من لحا
يعركهم عرك الثقال بالرحى
بكرم جزل ومجد قد ضحا
ومن نحا وجهته فيمن نحا
نحا بها من الخطايا ما نحا
بمرتقى المروة ذكر^٢ ووحي^٣
حتى ترى من جهدها مثل اللّحا

يا عجباً من حاسد لي قد زها
كأنّني لم أعرف العزّ ولا
ولنما الدهر له تقلّب
إن الذي لا يشي عن جوده
خير الورى طراً من الله به
شرفه الله وحلى جیده
زينته تواضع على علا
فكم حمى بهديه وكم وفى

بعيشه الغض عليّ وانتخى
صاحبت دهرى في سرور ورخا
إن ارتخى شد وإن شد ارتخى
إن بخل الدهر لنا وإن سخا
أذهب عنا كل غي فامتخى^٤
بجوهر من كل مجد موئخى^٥
فما ازدهى بعزة ولا نحا
وكم أفاد آملاً وكم نحا

١ طحا : ذهب بعيداً .

٢ الوحي : الصوت .

٣ يقال اغنى من الشيء أي تبرأ منه وتخرج .

٤ موئخى : متجرى .

٥ نحا : زهي ، وقال الأصمعي ، يقال : نخي وانتخى ولا يقال نحا .

خَلَّصَ مِنْ أَسْرِ الْخَطَايَا جَاهَهُ فَمَا عَلَى قَلْبِ أَمْرِي مِنْهَا طَخَا^١
خَفَّفَ عَنَّا ثَقْلَ مَا نَحْمَلُهُ فَلَمْ نَبْتَ مِنْ ثِقَلِهِ نَشْكُو السَّخَا^٢

* * *

إِنْ تَحْسَبِ الرُّسُلَ سَمَاءً قَدْ بَدَتْ فَإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هَدَى
وَلِنْ يَكُنْ كُلُّ كَرِيمٍ قَدْ مَضَى طَلَاءٌ فَقَدْ أَضْحَى لَنَا غَيْثٌ جَدَا
وَلِنْ يَكُونُوا أَنْجَمًا فِي فَلَكَ فَإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَدْرٌ بَدَا
وَاسْطَةُ السَّلَكِ إِذَا مَا نُظْمُوا وَمَلَجَأَ الْقَوْمَ إِذَا الْخَطْبُ عَدَا
كَالْبَحْرِ بَلْ كَالْبَدْرِ جُودًا وَسَنَا فَحَبَّذَا مِنْ اجْتَدَى أَوْ اقْتَدَى
أَحْسَنَ أَخْلَاقًا مِنَ الرُّوْضِ إِذَا مَا اخْتَالَ فِي بُرْدِ الصَّبَا أَوْ ارْتَدَى
وَسَاقَطَ الْقَطَرُ عَلَيْهِ دَمْعُهُ فَابْتَلَّ بُرْدُ الزَّهْرِ مِنْهُ وَانْتَدَى
تَفْدِيهِ نَفْسِي مِنْ شَفِيعِ الْوَرَى وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مِنْي فِدَا
هُوَ الَّذِي أَنْعَشَنَا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ يَبِسَ الْغَصْنُ وَأَذْوَاهُ الصَّدَى
وَكُنْتُ فِي لَيْلِ الْهَوَى ذَا حَيْرَةٍ فَجَاءَ بِالْحَقِّ وَأُنْجَى وَهَدَى

* * *

فَكَمْ كَسَا مِنْ ثَوْبِ نَعْمَى قَدْ ضَفَا وَكَمْ هَدَى بِعِلْمِهِ وَكَمْ غَدَا
مَنْ اقْتَدَى بغيرِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّبِعْ سُبُلَ الْهَدَى وَلَا حَذَا
هَلْ هِيَ إِلَّا سَنَّةُ الْحَقِّ الَّتِي أَرشَدَ مَنْ لَازَ بِهَا أَوْ احْتَدَى
كَفُّ اللِّسَانِ وَانْبِسَاطُ الْكَفِّ بِالْأَ خَيْرٍ وَطِيبِ الذِّكْرِ هُمْ قَدْ شَدَا^٣

١ الطخا : قطع السحاب .

٢ السخا : ظلع يصيب البعير حين يشب بالحمل الثقيل .

٣ شذا : آذى ، أي أن هذه الواجبات تغلق من يريد الاحتفاظ بها ، وفي التجارية : عرف قد شذا ، ويكون شذا بمعنى تطيب .

أحسنُ ما نالَ الفقي من كرمٍ والصمتُ عمّا لا يفيدُ قوله
لا شيءٌ كالصمتِ وقاراً للفقي من عيبه يشغله عن غيره
ومن يعب عيباً ومن يحسنُ إذن ومن تكن دنياه أقصى همه
أن لا يرى من أجله من اثتدى من كليمٍ يهذي به فيمن هذى
يوماً ولا أنجي له من الأذى بات سليم العريض نفّاح الشذا
لان له كلُّ عَصِيٍّ وخذا^١ لم يرو من ثدي الحجي ولا اغتذى

* * *

لا تنفق العمرَ سوى في حبٍّ من يهديك من رشدٍ ومجدٍ واضح
أجاد هدياً وأفاد نائلاً ترى بني الحاجاتِ نحو بابهِ
لهم إلى رؤيته تشوقُ ذا يبتغي علماً وهذا نائلاً
كانتهم إذا رأوا غرته وجهٌ لديه يُحمدُ السيرُ ، كذا
هذا إذا ما أخلفَ الناسُ وفي إذا شددتِ الكفَّ في أمر به
هو الذي في سنِّ الحقِّ جرى روضين من علمٍ وذكر قد سرى
وجاد حتى عمّم الجودَ الوري قد أعملوا العيس بحزنٍ في البرى
تشوقُ الساري إلى نارِ القري وخائبٌ من قصده ليس يرى
وقد حجيج عابنوا أم القري وعند الصباح يحمدُ القومُ^٢ السرى
نائي المدى في مجده سامي الذرا فليس بالواني ولا الواهي العرى

* * *

أنهضي بهديه إلى التقى بعد قصور العزم والباع الوزى^٣

١ خذا : لان واسترخى .

٢ ق : الساري ؛ وقوله « عند الصباح . . . » مثل .

٣ الوزى : القصير .

هو الشفيعُ المجتري بجاهه
 مذزرته لم أشكُ من شحط النوى
 وما وجدتُ غربةً ولم يجدُ
 متصلُ البشرِ غضوبٌ للهدى
 أصبح من أياته في مأمنٍ
 تحذتهُ كهفاً فبتُ آمناً
 أدبنا بسنةٍ أفلحَ منُ
 يجزي أخا الحسنى على إحسانه
 لستُ أجازي الشرَّ بالشرِّ ، ولا
 لم ترَ عينُ كرسول الله ذا

إذا ملّمتُ الأمورَ قلّقلّتُ
 بخلقه فليقتدِ المرءُ فما
 كنُ حذراً وإن رأيتَ ثمرةً
 لا تياسنَّ إن تنأى أملُ
 وإن بدا صبحُ المشيبِ فاطرحُ
 ولا تظنَّ الشيبَ يرجي طبهُ
 إذا الفى قوسٌ واعتدَّ العصا
 فاذكرُ زمانَ الشيبِ في حال الصبا

ألفيته كأنه طودٌ رسا
 أكرمها من مقتدَى ومؤتسى
 فمثلها توقدُ جَمرةَ الأسى
 وكلّما عثا زمانٌ قد عسا
 ما كان إذ ليلُ الشبابِ قد غسا^١
 بزورِ صِبغٍ أو مُدامٍ يُحتسى
 لقوسه عن وترِ أعيانِ الأُسا
 عسى يلينُ للتقى قلبٌ قسا

١ رزا : إذا قبل البر ، وأرزي إلى : لجا .

٢ حزا : عرف وجرب ، والجازي : الكامن .

٣ غسا الليل يفسو : أظلم .

ما أقيح اللهو على المرء إذا ما اشتعل الرأسُ مشياً واكتسى

لا تحسب الراحة راحاً قَرَفَفاً
إذا أداروها وقد جنَّ الدجى
قد حُجِبَتْ في دنِّها دهرأ إلى
لم يبقَ من جوهرها إلا سنا
كانتها والكأسُ قد حَفَّتْ بها
يدبرها مختلفُ الحسن إذا
يحكي القطا والظبي والغصن إذا
ولنما الراحة زهدُ المرء في
والمجدُ إيقادك نيران القري
والجود أن تعطي قباء للندي

للشرب منها قَبَسٌ ومنتشى
وشى بهم نيرها فيمن وشى
أن برزت كأنها صبحُ فشا
ينشى أفراس الفتي إذا انتشى
متيمٌ أصبح مضروم الحشا
أقبل بدرٌ ، وإذا تاه رشا
ما قد تثنى أو تجننى أو مشى
أعراض دنيا تورث العين غشا
يعشوها في الأزمات من عشا
لا لافتخار أو لجلاه يخنشى

خاب امرؤ لم ير أرضاً حلَّها
أرسله الله هدى ورحمة
وخلص الأنفس من أسر الهوى
ذو رافة تلقاه يوم العرض قد
صلّى عليك الله يا من جاهه
يا من جرى من كفه الماء ومن
بك اعتصامي يوم يدنو من دنا

من اصطفى رب السماء وانتصى
أوصى ووالى الخير فينا ووصى
في يوم هول فاز فيه من فصى^١
مال بنا عن الجحيم ومصى^٢
يوم الحساب ملجأ لمن عصى
حنّ له الجذع وسبّح الحصى
من رحمة الله ويقصى من قصا

١ فصى الشيء من الشيء : فصله ، ولعله يعني هنا : ميز الخير من الشر .

٢ مصى : لم أجِدْ له معنى ملائماً للسياق هنا .

هل غير إحسانك يرجو مذنب
يا مَنْ سما في يوم بدر بدره
أحصاهم رب السماء عدداً
طالب به خوف الخطايا وانتصى
عزاً ليشقى كل من شقّ العصا
وانتهم أدنى الفريقين حصى

* * *

يا مجتنبى من خير قوم حسباً
يا من تدانى قاب قوسين ومن
ومن أتى والناس من ظلمهم
فكان كالصبح جلاً جنح الدجى
رُضيت للإرسال إذ آدم يـ
اختارك الله رسولاً هادياً
يا أحلّم الناس على من قد جنى
يا مُصغّر الألف إذا ما جاد أو
يا ناصحاً أحكم تشييد الهدى
يا مُضنياً للناس ظلّ رحمة
فيما أتى من زمن وما مضى
قيل له سلّ تعطّ قد نلت المضى
في ظلمة ليس لها من مرتضى
فأذهب الإظلام عنا وانتضى
ن الماء والطين فكنت المرتضى
أكرم بما اختار لنا وما ارتضى
وأعدل الخلق إذا ما قد قضى
جرّد في الهيجاء سيفاً أو نصاً
عزماً فلماً ينتفض ولا انقضى
بات العدا منها على جمر الغضا

* * *

ادفع الشرّ بحسنى فإذا
وانف لنفس كرهت أعمالها
إن يدرك الهوى الفتى في بيته
وإن خيراً من صديق مـي
ولا ترّم ما لا تطيق نيله
وبت من الدنيا مبات خائف
وخلّها عنك ولا تعباً بما
به أخو صدق وإن كان سطا
كمن يريك قدرها حث الخطا
ليس كمن سعى إليه وخطا
أن يصحب الإنسان في البيد القطا
فخجلة الخيبة شرّ مُمتطى
فلليالي عدوات وسطا
تبوأ المكر منها وعطا

وجنب الحرص تعش ذَا عِزَّةٍ أفلح مَنْ إن شِده الحرص نطاً^١
ولا تجد للنفس حظاً واطرح من امتطى الكبر فبئس ما امتطى
لا تطرين صاحباً بغير ما فيه فإطراء الفتى كسر المطأ^٢

• • •

لا يحسن المدح سوى لمن يرى مادحه بمدحه قد احتظى
خير عباد الله ذو العز الذي لظله يأوي الشريف والشظى^٣
كم آمن ببابه وقبل أن يلقاه لاقى ما عجا وما عطا^٤
أصبح من حرمة في حرم يرقل في ظل هبات وحظا
في منزل سنان فيه ربّه وضيفه فيما اقتنى وما حظا^٥
إن رسول الله غيث واكف إذا لهيب الصيف داج والتظى
إذا أعد للمؤمن القرى لم يدخر عن ضيفه ولا حظا^٦
لما علمت جودة الجزل وما هناك من علم وحلم وبظا^٧
يمتته فوق طمير ضامر منتظم الأعضاء مكموم الشظا
ليس بمس الأرض من سرعته كأنما يخشى بها مس الظى

• • •

يا موسع الألف بصاع شبعاً ومن مشى الدّوح إليه وسعى
وأخصب الضرع بلمس كفه وبادر المزن له لما دعا

١ نطاً : بعد أو امتد .

٢ المطأ : الظهر .

٣ الشظى من الناس : الموالي والأتباع .

٤ يقال لقي الإنسان ما عجا وما عطاء وما أورمه : إذا لقي شدة وبلاء .

٥ كأنه يعني : أصاب حظاً .

٦ حظا : فاضل بين .

٧ البظا : اكتناز اللحم ، ويريد هنا وفرة العلم .

وسلّم الظبي عليه كرمًا
واستشهد الضبّ فحيًا معلنا
إليك أعملت المطايا في القلا
مسوغًا^١ جاهلك علي في غد
أزكى صلاة وسلام أبدأ
وسبّح الرعدُ بحمد من سقى
فاشتملت بالتّور كلّ فدغد
وباكر البيداء غيث مُسبِل^٢
وكلم الميت فقام ورعى
بصدقه ومشتا لما ادعى
تنساب ما بين أراك ولعا
أكون ممن قد أجاد ورعا
عليك ما ارتاح الظليم وارتمى
صوب الحيا فقال للأرض لعا
لم يك للسارح فيه مرتعى
فأخلف النبت الهشيم ورعى

• • •

ودقُ سحب تحسبُ البرق به
واخضرت الدوح ومدت قضيها
وساقطت لها السحاب حملها
تري خريز الماء في قضيه
فسكن القيط لبيب حصره
غيث حمى الرمضاء عنا مثلما
ناه عن الفحشاء داع للهدى
أسنة قد أشرعت يوم وغى
فيئها حسن الثام وصفا^٣
إذ خوف الرعد تساقط الفعا^٣
كأنه ميّت ذود قد رغا
وفرّ لما أن رأى الماء طغى
حمى رسول الله جور من بغى
لم يتنطق بباطل ولا لعا

• • •

هذا إذا استكفيت في أمر به
تهفو به ريح العلا إلى الندى
محبي الهدى والعدل في زمانه
أجدالك فيما تنتجيه وكفى
كأنه ناعم غصن قد هفا
من بعد ما ألفاهما على شفا

١ ق : مسوغًا .

٢ الصفا : الميل .

٣ الفعا : البسر الفاسد المغبر ، أو ما يخرج من الطعام فيرمى به .

أخفى الهدى قومٌ فأضحى وهو قد
 إن يقض يعدل أو متى يسأل يهب
 وإن يحدّ يجزل وإن جاد يعد
 بحرطما، بدر سماء، غضب حمى
 لمجتد أو مقتد أو معتد
 ما لي لا أضفي له المدح وقد
 أسس خلقي الجود فينا فاغتدى
 أظهره بعدله فما أخفى
 وإن يقل يصدق وإن يعد وفي
 وإن تسيء يحسن وإن تجن عفا
 روض نما، طب أفاد وشفى
 أو مجذب أو مشتك خطباً جفا
 أضحي به الحق علينا قد ضفا
 به لنا ورد المعالي قد صفا

* * *

الجود يعلي المرء والبخل لقد
 والعز ما أحسنه لكنّه
 والجهل للإنسان عيب قادح
 والعلم في حال الغنى والفقر لا
 ولا ألوم المال فالمال حمى
 قد جبّل الناس على حب الغنى
 وما للذي الفقر لديهم رتبة
 إن الغنى طب لعلاّت الفتي
 والحزم أخرى ما به المرء اقتدى
 من لم يبت مع الليالي حازماً
 يحط عن رتبته من ارتقى
 إن كان هذا مع علم وتقى
 ولو حوى مالا ككتابان نقا
 يزال يرقى بك كلّ مرتقى
 من جاهل يلقاك شرّ ملتقى
 فربّه فيهم مهاب متقى
 ولو أفاد وأجاد واتقى
 والفقر داء لا تداويه الرقى
 في أمره وما به النفس وفى
 لغدرها غادرته فيها لقي

* * *

أمضيت طرفي كي يرى طرفي ما أخبرته من طب مجد قد زكا

١ ق : أو مجتز .

فَصَدَّقَ الْحَاكِي مَا أَبْصَرْتَهُ
فَسَهَّلْتُ رَوَيْتُهُ جَهْدَ السَّرَى
عَجِبْتُ لِلْأَيَّامِ مَنْ عَزَّ بِهَا
فَكَمْ لَهَا مِنْ كَرَّةٍ عَلَى فَنَى
تَجَنَّبُ الْأَسَدُ سَطَاهُ فِي الْوَغَى
وَكَمْ صَرِيحٌ غَادَرْتُ لَيْسَ لَهُ
عَدَتْ عَلَى نَفْسٍ عَدِيٍّ وَسَقَتْ
وَاسْتَلَبَتْ مُلْكَ بَنِي سَاسَانَ لَمْ

لَمْ يَأْمَنِ الْمَأْمُونُ مِنْ صَوْلَتِهَا
وَأَتَبَعْتُ جَعْفَرًا الْفَضْلَ وَكَمْ
وَغَالَتْ الزَّبَاءُ فِي مَنَعَتِهَا
وَأَنْفَذْتُ فِي آلِ بَكْرِ حَكْمَهَا
وَكَمْ سَبَبَتْ مِنْ سَبَلٍ مِنْ نِعْمَةٍ
وَأَهْلَكْتُ عَادًا وَأَفْنَيْتُ جَرَهْمَا
فِرْعَوْنَ مُوسَى أَوْلَجْتُ فِي بَلْعَةٍ
وَأَظْفَرْتُ بِابْنِ زِيَادٍ مِثْلَمَا
وَسَيْفٌ اسْتَلَّتْهُ مِنْ غُمدَانِهِ

وَلَا ابْنُ هَنْدٍ مِنْ عَوَادِيهَا خَلَا
بَاتَ الْطَلَا^١ يَسْقِيهِمَا صِرْفَ الْطَلَا
فَأَظْفَرْتُ عَمْرًا بِهَا فَمَا أَلَا^٢
وَجَرَعْتُ مَهْلَهْلًا كَأْسَ الْبِلَى
فَمَزُقُوا فِي كُلِّ قَفَرٍ وَقَلَا
وَزَوَّدْتُ مِنْهَا تَيْمًا بِالصَّلَى^٣
فَمَاتَ قَهْرًا بَعْدَ عَزٍّ وَعُلَا
أَفْنَيْتُ يَزِيدَ حَسْرَةً لَمَّا اعْتَلَى^٤
مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ خَضَعَتْ لَهُ الطُّلَى^٥

١ الذكا : الجمرة الملتهبة .

٢ المرتكى : المموّل .

٣ الطلا : الغلام ، شبهه بولد الظبية .

٤ ألا يالو : قصر .

٥ الصلى : الوقود ، يشير إلى ما فعله أحد المناذرة ببني تميم حين حرقهم .

٦ الطلى : الرقاب .

ثم أعادته فحزَّ الجيشُ عن حوزته حزَّ النبات المختل^١

* * *

هي الليالي ليس يرعى صرفها	لا خاملاً فيها ولا من قد سما
ولا رسول الله فينا لم يزل	كهف حمى ^٢ ، فهو لنا نعم الحمى
الله ما أكرمه من سيد ^٣	ينمى من المجد لأعلى متنى
سليم صدر ذو وفاء لم يحش	في صدره غش أمرى ولا غمى ^٤
أوسعنا فضلاً فما خاب امرؤ	أوى إلى ذاك الجنب وانمى
يا من غدا للخلق كهفاً وحمى	فأكرم المثوى وآوى وحمى
إنّا أتينا من ديار دونها	موحشة يبداء أو بحر طما
وإنتي من قبج ما أسلفته	ذو كبد رُضت ودمع قد همتى
فلا تخيبنى ممّا لك من	شفاعة ترُجى وفضل قد نما
إنك من قوم بهم يشفى العنا	ويُدركُ الشاؤم البعيد المرتنى

* * *

أعرض عن الجاهل مهما قد أسا	وحسبه من جهله ما قد حوى
ولا تلم ذا سَفَه فإنه	إن لمته لم يتشد ولا ارعوى
وإن رأيت من كريم عثرة	فقلّ لعمّا ولا تعيب بما احتوى
وإن ترُعك من زمان فرقة	فاصبر لها فالصبر أشفى للجوى
لم أشكر البعد على خير حمى	قد صدّني عن أنسه شحط النوى
يا مترلاً ما بين نجد والحمى	ويا دياراً بين كنان اللوى

١ المختل : المقطوع .

٢ ق : حياً .

٣ ق : من سند .

٤ غمى : غطى .

هل لي إلى تلك المعالي عودة*
لا تعجبوا من لعب الدهر بنا
إن عشت لا قيتهم وإن أمت
إن رسول الله مدّ أمله
أو جرعة من ذلك الماء الروى
فأيّ إنسان على حال سوا
فإنما الدنيا فناء وتوى
فالدهر قد أضمر نصحي ونوى

أي والذي ما زال يسري جاهداً
فقدّم الغسل وصلى ونضا
ثم نوى ملكياً ثم مضى
ثم أتى باب بني شيبة قد
فقبل الركن وطاف وسعى
ثم أتى الموقف يدعو راغباً
ثم رمى ثم أفاض وانبرى
ثم مضى مرتحلاً فيمن مضى
يبغي التي شرفها الله بمن
فلم يكن ممن إذا حج جفا
حتى أتى ميقاته وما وني
أثوابه مستغفراً ممّا جنى
حتى رأى ذات السناء والسنى
أبصر ما أملّ قدماً مذ دنا
ثم مضى مرتحلاً نحو منى
حتى إذا ما نفر القوم اثني
مُعْتَمِراً قد نال غايات المنى
ميمماً طيبة لا يشكو العنا
شاد به الدين القويم وابني
بل يمم القبر وزار واعتنى

خلق على لم يحوها إلا امرؤ
فإن يقل: من حازها؟ قل: الذي
معتصم الراجين إن خطب دنا
المرشد الناصح لله فما
من جدّ في إدراك ما رام يجد
فلا يقصر بك خوف خيبة
واكتسب الحمد بما تبديه من
نهاه عن نبذ العلا رعي النهي
له تسامى كل مجد وانتهى
وكهفهم إن راع أمر ودهى
قصر في نصر الهدى ولا لها
ولم يصب من قد توانى وسها
من خيل الخيبة في البدء وهي
فتح الله بمستدامات الله

واحرص على المجد ودينك اطرح
والمرء من إن فاته لم يكتب
من لازم الكبر على الناس اغتدى
فأمرها أمرٌ زهيدٌ المشتى
وإن ينل لم يفتخر ولا ازدهى
متنصع القدر ولو نال السها

• • •

أنى تخيب اليوم آمالي ولي
يدني الفتى إلى مدى آماله
إن أهزل القوم زمانٌ معورٌ
وإن أمات الجذب كلٌ مخصبٌ
أرسل سحبٌ هديه جاريةً
أوقع في الأنفس من ماء لدى
لم تعني من فعل جميل كفه
ما لي لا أبلغ أقصى غاية
لكل شخص غايةً يبلغها
تعيأ يدُ السائل من معرفه
من كفه أكرم من صوب الحيا
ولو غدا من دونها الأرض البيا^١
أنعشهم حتى يرى لهم حيا^٢
بدا لنيران القرى منه حيا^٣
بالحق حتى حيي الدر حيا^٤
ظالم إذا ما اشتد بالشمس الحيا
ولا له في المكرمات معتبا
في مدح من بالغ جوداً واغتيا
وما له في العلوات مُغتبا^٥
ولم يقصر كرمأ ولا اعتيا

• • •

والآن قد أكملت في مدحه
ضممتها من كل فن درأ
حليتها جيد معاليه وما
مقصورة يقصر عنها من خلا
نظماً فأضحت من نفيسات الحل
أملح حلتي المدح في جيد العلا

١ الأرض اليا : التي بعد ما زها واشتد السير فيها .

٢ الحيا : الخصب .

٣ لعله شبيه بقولهم : حاييت النار أي أحييتها .

٤ الحيا : المطر .

٥ مغتيا : موضع غاية أو نهاية .

جعلتها مني وداعاً فاعتجبُ لنظمها الحلو الجنى كيف حلا

• • •

مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى	كيف أجاد النظم يوماً أو درى
أرسلتها من خاطر خامره	وَجَدُّ جلا عن مقلتي طيب الكرى
وكيف لا آسى على بعدي عن	قوم جرى من جودهم ما قد جرى
أنصار دين الله والهادي الذي	لولا وضوح هديه ضلّ الورى
فالقلب بين مشرق ومغرب	مُقَسَّم اللوعة مجذوب العرى
إذا ذكرت الغرب حنت مُهَجِّي	وبلّ دمي من جوى الشوق الثرى
وإن ذكرت حباً من في مشرق	أبطأ بي حبهم عن السرى
إن يصف من وجه لشخص مورد	كدر من أخرى فلا صقرو يرى
فإن ترحلت فقلّبي عندكم	لم يرحل عن بابكم ولا سرى

• • •

ولا تزال رُسُلُ شوقي أبدا	تترى على مجدكم الحزل الندى
ولن تمر ساعة إلا هفا	بذكركم مُقْصِحُ نظمي وشدا
فليس عندي للنجاة مخلص	إن لم يكن منكم نوال أو جدّا
بكم ملاذي وحماكم ملجئي	ليس سوى ذاك السماح المجتدى
وما ذخرنّا عُدّة سواكم	مثلُكم من يُرتجى ويحتدى
لا أوحش الله دياراً أنم	فيها ولا أزرى بمرعاها الصدى
ولا نأت داركم ولا خلا	ربكم ما راح يوم واغدى

ومن محاسنه أيضاً البديعة المشهورة ، وهي المعروفة ببديعة العميان ، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلم لكفى ، وهي من غرر القصائد ، وكثير من الناس ينسبها للقاضي

الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض ، وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة ، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر ، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر ، وهي :

في كل فاتحة للقول معتبره حق الثناء على المبعوث بالبقرة
في آل عمران قديماً شاع مبعثه رجالهم والنساء استوضحوا خبره
من مدّ للناس من نعماء مائدة عمت فليست على الأنعام مقتصره
أعرافُ نعماء ما حلّ الرجاء بها إلاً وأنقالُ ذلك الجود مبتدره
به توسّل إذ نادى بتوبته في البحر يونسُ والظلماء معتكره
هود ويوسف كم خوف به أمنا ولن يروّع صوت الرعد من ذكره
مضمون دعوة إبراهيم كان ، وفي بيت الإله وفي الحجر التمس أثره
ذو أمة كدوي النحل ذكرهم في كل قطر ، فسبحان الذي فطره
بكهف رحماه قد لاذ الوري ، وبه بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره
سماء طه ، وحضّ الأنبياء على حجّ المكان الذي من أجله عمّره
قد أفلح الناس بالنور الذي غمروا من نور فراقه لما جلا غمره
أكابر الشعراء اللسن قد عجزوا كالنمل إذ سمعت آذانهم سورة
وحسبه قصص للعنكبوت أتى إذ حاك نسجاً بباب الغار قد ستره
في الروم قد شاع قديماً أمره ، وبه لقمان وفق للدرّ الذي نثره
كم سجدة في طلي الأحزاب قد سجدت سيوفه فأراهم ربّه عبره
سبّاهم فاطر السبع العلا كرمأ لمن يباسين بين الرّسل قد شهره
في الحرب قد صفّت الأملاك تنصره فصاد جمع الأعادي هازماً زمره
لغافر الذنب في تفصيله سور قد فصلت لمعان غير مختصره
شوراه أن تهجر الدنيا فزخرها مثل الدخان فيعشي عين من نظره

عَزَّتْ شَرِيعَتُهُ الْبَيْضَاءُ حِينَ أَتَى
فَجَاءَ بَعْدَ الْقِتَالِ الْفَتْحُ مُتَصِلًا
بِقَافِ وَالذَّارِيَّاتِ - اللَّهُ أَقْسَمُ فِي
فِي الطُّورِ أَبْصَرَ مُوسَى نَجْمَ سُوْدُدِهِ
أَسْرَى فَنَالَ مِنَ الرَّحْمَنِ وَاقِعَةً
أَرَاهُ أَشْيَاءَ لَا يَقْوَى الْحَدِيدُ لَهَا
فِي الْحَشْرِ يَوْمَ امْتِحَانِ الْخَلْقِ يُقْبَلُ فِي
كَفٍّ يُسَبِّحُ اللَّهَ الْحِصَاةُ بِهَا
قَدْ أَبْصَرْتُ عَنْدهُ الدُّنْيَا تَغَابُنَهَا
تَحْرِيمُهُ الْحَبَّ لِلدُّنْيَا ، وَرَغْبَتُهُ
فِي نُونٍ قَدْ حَقَّتْ الْأَمْدَاحُ فِيهِ بِمَا
بِجَاهِهِ سَالَ نُوحٌ فِي سَفِينَتِهِ
وَقَالَتْ الْجَنُّ جَاءَ الْحَقُّ فَاتَّبِعُوا
مَدْتَرَأً شَافِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَلْ
فِي الْمُرْسَلَاتِ مِنَ الْكُتُبِ انْجَلَى نَبَأُ
الْطَافَةِ النَّازِعَاتِ الضَّمِيمِ فِي زَمَنِ
إِذْ كَوَّرَتْ شَمْسُ ذَاكَ الْيَوْمِ وَانْقَطَرَتْ
وَلِلسَّمَاءِ انْشِقَاقٌ وَالْبُرُوجُ خَلَّتْ
فَسَبَّحَ اسْمَ الَّذِي فِي الْخَلْقِ شَقَّعَهُ
كَالْفَجْرِ فِي الْبَلَدِ الْمُحْرُوسِ عُرَّتَهُ
وَاللَّيْلُ مِثْلُ الضُّحَى إِذْ لَاحَ فِيهِ أَلَمٌ
وَلَوْ دَعَا التِّينَ وَالزَّيْتُونَ لَا ابْتَدَرَا

أَحْقَافَ بَدْرٍ وَجُنْدَ اللَّهِ قَدْ نَصَرَهُ
وَأَصْبَحَتْ حُجُرَاتُ الدِّينِ مُنْتَصِرَهُ
أَنَّ الَّذِي قَالَهُ حَقٌّ كَمَا ذَكَرَهُ
وَالْأَفَقُ قَدْ شَقَّ إِجْلَالًا لَهُ قَمَرَهُ
فِي الْقُرْبِ ثَبَّتَ فِيهِ رَبَّهُ بِصَرِهِ
وَفِي مُجَادَلَةِ الْكُفَّارِ قَدْ نَصَرَهُ
صَفٍّ مِنَ الرُّسُلِ كُلِّ تَابِعٍ أَثَرَهُ
فَاقْبَلْ إِذَا جَاءَكَ الْحَقُّ الَّذِي قَدَّرَهُ
نَالَتْ طَلَاقًا وَلَمْ يَصْرِفْ لَهَا نَظَرَهُ
عَنْ زَهْرَةِ الْمَلِكِ حَقًّا عِنْدَمَا نَظَرَهُ
أَتْنِي بِهِ اللَّهُ إِذْ أَبْدَى لَنَا سَيَرَهُ
سَفْنَ النِّجَاةِ وَمَوْجَ الْبَحْرِ قَدْ غَمَرَهُ
مُرْمَلًا تَابِعًا لِلْحَقِّ لَنْ يَذَرَهُ
أَتَى نَبِيٌّ لَهُ هَذَا الْعُلَا ذَخَرَهُ
عَنْ بَعَثِهِ سَائِرَ الْأَخْبَارِ قَدْ سَطَّرَهُ
يَوْمَ بِهِ عَبَسَ الْعَاصِي لَمَّا ذَعَرَهُ
سَمَاوُهُ وَدَعَتْ وَبِلَ بِهِ الْفَجْرَهُ
مِنْ طَارِقِ النُّشُبِ وَالْأَفْلَاقِ مُنْتَرَهُ
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْخَوْضِ إِذْ نَهَرَهُ
وَالشَّمْسُ مِنْ نُورِهِ الْوَضَاحُ مُسْتَرَهُ
نُشْرَحُ لَكَ الْقَوْلَ فِي أَخْبَارِهِ الْعَطِرَهُ
إِلَيْهِ فِي الْحَيْنِ وَاقْرَأْ تَسْتَبِينَ خَبَرَهُ

في ليلة القدر كم قد حلَّ من شرف
 كم زلزلت بالجياد العاديات له
 له تكاثر آيات قد اشتهرت
 ألم تر الشمس تصديقاً له حبست
 أريت أن إله العرش كرمه
 والكافرون إذا جاء الوري طردوا
 إخلاص أمداحه شغل ، فكم فلق
 أزكى صلاتي على الهادي وعوته
 صديقهم عمر الفاروق أحزمهم
 سعد سعيد عبيد طلحة وأبو
 وحمة ثم عباس وألما
 أولئك الناس آل المصطفى وكفى
 وفي خديجة والزهراء وما ولدت
 عن كل أزواجه أرضى ، وأوتر من
 أقسمت لا زلت أهدبهم شذا مدحي

في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره
 أرض بقارعة التخويف مُنتشره
 في كل عصر فويل للذي كفره
 على قریش ، وجاء الروح إذ أمره
 بكوثر مرسل في حوض نهره
 عن حوضه فلقد تبَّت يدا الكفرة
 للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره
 وصحبه ، وخصوصاً منهم عشره
 عثمان ثم علي مهلك الكفرة
 عبيدة وابن عوف عاشر العشرة
 وجعفر وعقيل سادة خيرة
 وصحبه المقتلون السادة البره
 أزكى مديحي سأهدي دائماً دره
 أضحت براءتها في الذكر منتشره
 كالروض ينثر من أكامه زهره

[معارضات لقصيد ابن جابر في ضمن السور]

انتهت القصيدة ، وقد عارض منحاه جماعة فما شقوا لها غباراً ، ومن
 معارضاتها قول بعضهم :

بسم الإله افتاح الحمد والبقرة
 على نبي له الرحمن ممتدح
 كذا بمائدة الأنعام فضله
 أنقاله نزلت أيضاً براءة من

مُصلياً بصلاة لم تزل عطره
 في آل عمران أيضاً والنسا ذكره
 ووصفه ألم في الأعراف قد نشره
 يحبه وهو مشغول بما أمره

به نجا يونس من حوته ونجا
 أقسم برعد إبراهيم أن له
 سبحانه جاصله كهفا لآت
 طه به الأنبياء للحج قد وفلوا
 آيات فرقان ذلت لها الشعرا
 والعنكبوت على غار له نسجت
 لقمان حكمته من بعض حكمته
 كم في سبا عبرة للقلب قد فطرت
 قد صفت الأنبياء والرسل قلطبة
 إن صاد قلبي الهوى تنزيل منقده
 كم خلعة فصلت للطائعين له
 لم تلهم زينته الدنيا وزخرفها
 إذا جثا الخلق والأحقاف قد شرفت
 محمد خص بالفتح المبين وقد
 قاف الوفاق وذو الطور نجم هدى
 رحن واقعة كل الحديد بها
 من بمنحن صفتنا في يوم جمعنا
 مظهر من نفاق ليس بينهم
 وحرموها وفي ملك لها زهدوا
 إن تسألوني عن نوح نبي هدى
 مؤمل اسمه مدثر، وله
 للمرسلات نبأ في يوم نازعة

هود ويوسف من سجن به عبره
 في حجر نخل ترى الآيات مشتهره
 ومريم زوجة في جنة نصره
 والمؤمنون على النور اقتضوا أثره
 وسورة النمل قد قصت لنا سيره
 والروم ولت برعب منه منكمره
 فاسجد لرب على الأحزاب قد نصره
 فلكد ياسين تنجو يا أبا البره
 خلف النبي بأمر الله مؤتمره
 وغافر الذنب كم ذنب له خضره
 وأمرهم بينهم شورى بلا نكره
 كانوا يروها كدخان له قتره
 فذاك يوم على الكفار قد نصره
 أنه في الحجرات الوحي بالخيره
 وشق رب السما للمصطفى قمه
 كم من مجادلة في الحشر محذره
 فليس يلقى به غش ولا كدره
 تغاين طلقوا دنياهم القدره
 كزهد صاحب نون حقق خيره
 والمصطفى سامع الجن الذي جهره
 يوم القيامة للإنسان ما ضميره
 عبوس تكوير شمس فيه منقطره

مطفف الكيل قد بانَتْ خسارته
 كم طارقٍ سبَّحَ الأعلى بغاشيةٍ
 والليلُ قُمْنُه ولا تترك صلاةَ ضحى
 بسورةِ التينِ اقرأُ أُنْتها نزلت
 ولم يكن مثل خير الرُّسلِ أحمدنا
 بعادياتٍ لها قرع بهامته
 من كان في عصره هَمَّازةً أبداً
 ويلٌ للمانع ماعون تراه غدا
 الكافرون إذا جا نصرُ خالقنا
 أخلص لربِّ فلق الناس تنجُ إذا
 وصل ربُّ على الهادي وعِترته
 في يوم شقَّ السَّما أبراجها النضرة
 والفجر بلدته بالشمس مستتره
 يشرح لك الصدر والخيرات مُدَّخره
 في ليلة القدر ، والأنوارُ منتشره
 منه تزلزلت الكفَّارُ والفجره
 أعمى التكاثر من قلبٍ له بصره
 يلقاه قبل قریش قاهرٌ قهره
 مباعداً كوثر الهادي الذي أثره
 نبأ لهم لُعِنوا همُ أمةٌ كفره
 يومَ المعاد غدا من شرِّه عسره
 وآله وعلى أصحابه العشره

وممن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال :

عوذت حبي برب الناس والفلق
 إخلاص وجدي له والعذر يقلقني
 يهدي لأمتي والنصر يعضده
 هذا له كوثر والدين شرعته
 ألم ترَ الماء قد سحَّت أصابعه
 في كلِّ عصر ترى آياته كثرت
 وعند قارعة فهو الشفيع لنا
 وزلزلت من غرامي كلَّ جارحة
 يا عالي القدير رفقا مسني ضرر
 المصطفى المجتبي المدوح بالخلق
 تبَّتْ يدا عاذل قد جاء بالملق
 والكافرون وعدَّالي على نسق
 والمصطفى من قریش دينٍ وتقي
 ويلٌ لكلِّ جهول بالنبي وشقي
 أضحي تكاثُرُها في سائر الأفق
 والعاديات من الأجفان في طلق
 وكلُّ بينة تحكي لكم علق
 فאלله قد خلق الإنسان من علق

ولو دعا التين والزيتون جاء له
يبدو كشمس الضحى والليل طرته
إنني بغاشية لولاك يا أملي
كم طارق منك بالإحسان يطرقني
وفي انشقاق فؤادي عبرة ، وبه
والانفطار به مما يكابده
والصب في عبس والنازعات به
ومرسلات دم الإنسان جارية
وبالمدثر إنني ماسك أبداً
فالجن والإنس في خير بيعته
وفي المعارج معراج الرسول علا
والله مرسله في نون بشره
وجاء بالحل والتحريم أمته
وفي التغابن تجار به ربخوا
يا صاحب الجمعة الغراء يا أملي
وأنت في الحشر عوني في مجادلتي
وعند واقعة إن كان لي رمتي
لم أرع يا قمرى للتجم في سهر
قلبي الكليم غدا للطور مرتقياً
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم
إننا فتحنا قتالاً للعدول فقي
دخان زخرف ما العدال فيه هبا

والشرح عنه ١ طويل غير مختلق
كالشمس في بلد والفجر في أفق
أنت الشفيح إلى الأعلى وخير تقي
مثل البروج أنى في أحسن الطرق
ويل من الصد ، والأجفان في أرق
والشمس قد كورت في القلب ذي الحرق
وقد أنى نبأ من دمه الغدق
إلى القيامة من دمعي ومن حرقي
وبالزمل إن ألحمت بالعرق
هذا ونوح به أنجي من الفرق
حقاً ، وفي حاقة كثر لمخترق
والملك خيره حتى رأى ولقي
وبالطلاق من الدنيا لمنطلق
إذ المنافق في خسر وفي نفق
في الصف عند امتحاني أنج من زلقي
عسى تزيل حديد النار من عنقي
فاشفع إلى ربك الرحمن من رمقي
إلا لعلك من نار الحميم تقي
ودر دمي غدا بالذاريات سقي
وليس في حجرات الدمع من رمق
أحقاف جائية في الغيظ والحق
شوراي تركه في أنف محرق

وعزَّ مَنْ قُصِّلَتْ فِي مَدْحِهِ سِوَرُ
فَغَاغِرُ الذَّنْبِ كَمْ أَهْدَى بِهِ زُمْرًا
وَلَيْسَ غَيْرُكَ فِي الصَّافَاتِ أَقْصَدُهُ
يَا فَاظِرًا قَدْ سَبَا الْأَحْزَابَ طَلْعَتُهُ
لَقَمَانُ يَشْهَدُ أَنَّ الرُّومَ تَعْرِفُهُ
هَذَا وَلِي قِصَصٍ بِالنَّمْلِ قَدْ كَتَبْتُ
تَبَارَكَ اللَّهُ مِنَ النُّورِ كَلَّلُهُ
يَا أَبَتَا الْأَنْبِيَا طَهَّ خَتَامَكُمْ
لَا ذُوَا بِكَهْفٍ لَهُمْ سُبْحَانَ خَالِقِهِ
فَالرُّكْنَ وَالْحَجَرَ حَقًّا قَدْ أَضَاءَ لَهُ
وَاللَّهُ رَبِّي بِرُعْبِ الرُّعْدِ يَنْصُرُهُ
فِيُوسُفُ مَعَ هُودٍ وَالْخَلِيلِ إِذَا
لَتَوَيْتِي أَرْغَمِي الْأَنْفَالَ مِنْهُ غَدَا
أَعْرَافُ أَنْعَامٍ لِنِعْمٍ لَهُ اشْتَهَرَتْ
كُلَّ النَّسَاءِ لَمْ تَلِدْ مِثْلَ الرَّسُولِ إِذَا
أُعْطِيَتْ خَاتَمَةٌ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ
فَأَنْتَ فَاتِحَةُ الْأَنْبِيَا وَخَاتَمُهُمْ
وَالْقَلْقَشَنْدِي حَبُّ قَالَ سِيرَتُهُ
فَاقْبَلْ هَدِيَّةَ عَبْدٍ أَنْتَ مَالِكُهُ
صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا طَلَعَتْ

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي مما يُتبرك به ،
والأعمال بالنيات .

ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى

قصيدة ابن جابر ، وهي :

بحمد إله العرش أستفتح القولا
وفي آل عمران أنى ذكر أحمد
بأعراف رحماه بأنفال جوده
له يونس نادى وهود ويوسف
ودعوة إبراهيم كان محمد
له أمة كالنحل قد صبح فضلهم
علا فضله والناس في كهف نيله
وطه له فضل على الخلق كلهم
ولولاه ما حُجَّ المقامُ وكعبة
ومن نوره الوهاج كل منور
ترى الشعرا كالنمل حول محمد
علا ديننا روما ولقمان عالم
والاحزاب يسيهم بحكمة فاطم
وصاد جميع الكافرين بزمرة
وشوراه في الدنيا بها كل زلفة
لقد رأوا الدخان حول بيوتهم
محمدنا لم يخلق الله مثله
وقد أنزل الجبار قافاً بذكره
بطور سما والنجم ما ضوء أحمد
به الله رحمن وفي وقعة ترى
وفي آية الكرسي أستمنح الطولا
نسالهم بالعقد قد أنعموا القولا
شرفنا وفضلنا وتبنا إلى المولى
وذاكره في الرعد لا يسمع الهولا
وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا
فبجان من أسرى بأحمدنا لبلا
ومريم في الأخرى يكون لها بعلا
ولكن جميع الأنبياء علا فضلا
فأفلح من قد طاف فيها ومن حلا
وفرقانه قد أحمد الكفر والبطلا
إذا قصص في العنكبوت لهم تتلى
بأن السيوف أسجدت كل من ضلا
وياسين قد صفت له الملائ الأعلى
له غافر في الحرب قد فصلت فصلا
وقد زخرف الكفار في دينهم جهلا
بجائية الأحقاف قد قتلوا قتلا
وفي الحجرات فضله أبداً يتلى
كما تذر الكفار ريح بها تبلى
كما قمر بل نور خير الورى أجلى
حديداً به الكفار يحلهم جدلا

وقد سمع الغفار دعوة أحمد
صفقنا يجمع للأعادي فمنهم
يرى غيبته في الخير منهم مطلق
لأحمد ملك لا يوازيه سيد
بحق لقد سالت أباطح مكة
صحيح بأن الجن جاءت لأحمد
للدثر فضل القيامة واضح
وعم يمدواه فلا من منازع
لقد كورت شمس بها انفطر السما
ولكن بروج الجوّ تزهو بأحمد
وغاشية كالقنجر حلت ببلدة
وفاق الضحى حقاً جبين محمد
فأقسم بالتين الذي عم نفعه
ألم يكن الكفار قد ضل سعيهم
وقارعة جلّت وألهاهم الهوى
ألم تر أن الله فضل أحمداً
أريت بأن الكوثر العذب خصه
لقد نصر الرحمن ربي محمداً
فيا أحد إني بفضلك عائد

بحشر ، ولكن بامتحان به تبلى
مناق إن الكفر في درك سفلى
ولكن من يحرم نعيماً فقد ضللاً
ونون لقد قلنا مقالاً به استعلى
بفضل الذي قد كان نوح به استعلى
ومزمل كان الغمام له ظلاً
أناه ، وجمع المرسلات حوت سبلا
فحيث تراه لا عبوساً ولا بخلاً
لويل أتى الكفار وانشق واستولى
وفي طارق الأفلاك فضله الأعلى
بها حرم أمن كشمس جلت ليلاً
كما بانشرائح الصدر قد خصه المولى
وبالقلم الأعلى لقدّر له أعلى
وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى
ووالعصر إن الويل يقرهم نزلاً
لأمن قريش حيثما سلكوا السبلا
به ، وجميع الكفر لن يردوا أصلاً
فأردى أبا هب ولم يكتسب نيلاً
إذا غسق الديجور ناديت يا مولى

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة ، وقد سقط منها كما رأيت
سورة الناس ، فقلت مكملًا على نمطه :

ويا مالكا للناس إني لائد بعفوك فاغفر عمداً عبدك والجهلا

ويا رب عاملنا بما أنتَ أهله من الجود والرحمى وإن لم نكن أهلاً
وصلَّ على مسك الختام محمد أتمَّ صلاة تملأ الحزن والسهلا

[خطبة لعياض يورى فيها بأسماء السور]

وتذكرت بهذا الموضع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمنها سور
القرآن على المهيح الماضي آنفاً ، وهي : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ،
وبين في سورة البقرة أحكامه ، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه ،
وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وألر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف
الصدِّيق في دار الكرامة ، وسبَّح الرعد بحمده ، وجعل النار برداً وسلاماً على
إبراهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ
إلاَّ إليه ولا يُظلمون قلامه ، وجعل في حروف كهيعص سرّاً مكنوناً قدم بسببه
طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر لإجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمر
حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلاً وصغاراً لعظمته ،
وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم ،
نزل به الروح الأمين على زين من وافى القيامة ، وأفصح لقمان الحكمة بالأمر
بالسجود لرب الأحزاب فسبا فاطر السموات أهل الطاغوت ، وأكسبهم ذلاً
وخزياً وحسرة وندامة ، وأمدَّ ياسين صلى الله عليه وسلم بتأييد الصافات
فصاد الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القلب مكدوس ومكبوب
حين شالت بهم النعمامة ، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدرين رضي الله
عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة
العذاب وأيس من السلامة ، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف
الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى الله عليه
وسلم يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح وبؤتوا حجرات الجنان وحين

تلووا ﴿قاف والقرآن المجيد﴾ وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم
 الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السامة ، ذلك بأنهم آمنهم الرحمن إذا وقعت
 الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهُزِمَ المجادلون وأخرجوا من ديارهم
 لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة .
 أحمدته حمد من امتحتة صفوف الجموع في نفق التغابن فطلق الحرمات حين
 اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمارج يمينه وشماله
 وخلفه وأمامه ، وناح نوح الجن فترمل وتذر فرقا من يوم القيامة ، وأنس
 بمرسلات النبل فترع العيوس من تحت كور العصاة ، وظهر له بالانقطار
 التطيف فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأهل وغشيت الشهامة ، فارب
 الفجر والبلد والشمس والليل والفصحى لقد انشرفت صدور المتقين ، حين
 تلووا سورة التين ، وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه بين ، ولم يكونوا
 بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات
 ليطفثوا نور القارعة ، ولم يلهمهم التكاثر حين تلووا سورة العصر والهمزة وتمثلوا
 بأصحاب القيل فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ،
 أرأيتم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة ، فالكوثر مكتوب لهم
 والكافرون خذلوا وهم نصروا وعدل بهم عن لب الطامة ، وبسورة الإخلاص قروا
 وسعلوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعينوا من كل حزن وهم وغم وندامة ،
 وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
 شهادة ننال بها منازل الكرامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت
 في الأيك حمامة ، انتهت .

وممن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي العباس
 أحمد بن أبي جمعة الوهراني ، وفي نفسي من نسبتها له شيء لأن نفس القاضي
 في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .
 وكنت رأيت بتلمسان المحروسة بخط عمي ومفيدي ولي الله تعالى العارف

المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المقي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المقي -
صَبَّ الله عليه سجال الرضوان - خطبة من هذا النمط نصها :

[خطبة على مثالا لأبي جعفر الطنجالي]

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفى من آل عمران
رجالا ونساء وفضلهم تفضيلا ، ومدّة مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال
كرمه وحقّه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سيلا ، ونجّى هوداً
من كربته وحزنه ، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه ، وسبّح الرعد بحمده
ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلًا ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً
نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد
شيد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً ، وفضل طه على جميع
الأنبياء فأثنى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ،
إذ جعل نور الفرقان دليلاً ، وصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت
الشعراء عن صدق نفعه ، وشهدت النمل بصدق بعثه ، وبين قصص الأنبياء في
مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه في الغار سترًا مسدولاً ، وملئت قلوب الروم
رعباً من هيئته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان
بدعوته ، وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذاً ويلاً ، فلقبه فاطر السموات
والأرض بياسين كما نفذ حكمه في الصافات ، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات ،
وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلاً ، فغفر له غافر
الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم
شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخرت المشركون
جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سيلاً ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال
وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحجر الحجرات الحريز ، وبقاف القدرة

قُتِلَ الْخِرَاصُونَ تَقْتِيلًا ، كَلَّمَ مُوسَى عَلَى جَبَلِ الطُّورِ ، فَارْتَقَى نُجْمٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَرَبَتْ بِطَاعَتِهِ مِبَادِي السُّرُورِ ، وَأَوْقَعَ الرَّحْمَنُ وَاقِعَةَ الصُّبْحِ
عَلَى بَسَاطِ النُّورِ ، فَتَعَجَّبَ الْحَدِيدُ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَكَثُرَتِ الْمَجَادِلَةُ فِي أَمْنِهِ ، إِلَى أَنْ
أُعِيدَ فِي الْحَشْرِ بِأَحْسَنِ مَقِيلًا ، اِمْتَنَحَنَ فِي صَفِّ الْأَنْبِيَاءِ وَصَلَّى بِهِمْ إِمَامًا ،
وَفِي تِلْكَ الْجُمُعَةِ مَلَكَتْ قُلُوبَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ التَّغَابِينِ خَسِرًا وَإِرْغَامًا ، فَطُلِقَ وَحَرُمَ
تَبَارُكُ الَّذِي أَعْطَاهُ الْمَلِكُ وَعَلَّمَ بِالْقَلَمِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، وَعَنْ عِلْمِ الْحَاقَّةِ كَمْ
سَأَلَ سَائِلٌ فَسَالَ الْإِيمَانُ ، وَدَعَا بِهِ نُوحٌ فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الطُّوفَانِ ، وَأَنْتَ إِلَيْهِ
طَائِفَةُ الْجَنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ،
فَكَمْ مِنْ مَذْثَرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَقَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أُرْسِلَ مَرَسَلَاتِ الدَّمْعِ فَعَمَّ
يَتَسَاءَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَمَا تَقْبَلُ مِنْ نَازِعَاتِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا عَبَسَ عَلَيْهِمْ
مَالِكٌ وَتَوَلَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ، وَكَوَّرَتِ الشَّمْسُ وَانْفَطَرَتِ السَّمَاءُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ
كُثْبًا مَهِيلًا ، فَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ إِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ، وَطُوِيَتْ ذَاتُ الْبُرُوجِ
وَطَرَقَ طَارِقُ الصُّورِ بِالنَّفْخِ لِلْقِيَامِ ، وَعَزَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى لَغَاشِيَةِ الْفَجْرِ فَيَوْمَئِذٍ
لَا بِلَدٍ وَلَا شَمْسٍ وَلَا لَيْلٍ طَوِيلًا ، فَطُوبَى لِلْمُصْلِينَ الضَّحَى عِنْدَ انْشِرَاحِ
صُدُورِهِمْ إِذَا عَايَنُوا التِّينَ وَالزَّيْتُونَ وَأَشْجَارَ الْجَنَّةِ فَسَجَدُوا بِأَقْرَأِ بِاسْمِ رَبِّكَ
الَّذِي خَلَقَ هَذَا النِّعِيمَ الْأَكْبَرَ لِأَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ مَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَتَبَتَّلُوا
تَبْتِيلًا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ الزَّلْزَلَةِ مِنْ صَدِيقٍ وَلَا
حَمِيمٍ ، وَتَسَوَّفَهُمْ كَالْعَادِيَاتِ إِلَى سِوَاءِ الْحَمِيمِ ، وَزَلْزَلَتْ بِهِمْ قَارِعَةُ الْعِقَابِ وَقِيلَ
لَهُمْ : أَهْلَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، هَذَا عَصْرُ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ وَحُشِرَ الْمُهْمَزَةُ وَأَصْحَابُ
الْقِيلِ إِلَى النَّارِ فَلَا يُظْلَمُونَ فِتِيلًا ، وَقَالَتْ قَرِيشٌ : مَا أَمْنُكُمْ مِنْ هَوْلِ
الْمَحْشَرِ ، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْإِيمَانِ كَيْفَ طُرِدَ عَنِ الْكُوثرِ ، وَسِيقَ الْكَافِرُونَ
إِلَى النَّارِ وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سُورَةِ
الْإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فَنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَنَعُوذُ بِرَبِّ
النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ، وَنَتُوبُ

إليه ، وتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، انتهى .
وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن
الشيخ الفقيه العدل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي
رحمه الله تعالى ونفعنا به وبسلفه^١ الطاهر .

[عود إلى نظم ابن جابر]

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله :

جعلوا لأبناء الرسول علامة^١ إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم يعني الشريف عن الطراز الأخضر
وفي هذا المعنى يقول شمس الدين^٢ الدمشقي :

أطراف تيجان أنت من سندس خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصهم بها شرفاً لتشرقهم من الأطراف

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون
الصالح الألفي ، رحمهم الله تعالى .

وقال الرحالة ابن بطوطة في رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح
ابن الملك المنصور ما نصه^٣ : وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض الشام والعراق

١ ق : وينسله .

٢ ق : شمس الدين الحزین .

٣ رحلة ابن بطوطة : ٢٣٨ ، وقال ابن بطوطة في الملك المنصور : والد الملك الصالح : كان كريماً
شهيراً الصيت ولي الملك بها (أي بماردين) نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر وصاهر
السلطان خدابنده بابنته ديار خاتون .

ومصر أكرم منه ، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جرياً على سنن أبيه ،
قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحاً فأعطاه
عشرين ألف درهم ؛ انتهى .

ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى :

وفي الخيامِ وَمَنْ لي بالخيامِ رَشاً لا أحسبُ البدرَ في حُسْنٍ يقاومُهُ
مثلُ الغزالةِ إن تاهتْ وإن طلعتْ فكيف يصرفُ عنه الصبُّ لائمهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

في القلبِ من حبِّكم بدرٌ أقام بهِ فالطرفُ يبصرُ نوراً حين يبصرُهُ
تَشابهُ العقدُ حسناً فوق لبتهِ والثغرُ نظماً إذا ما لاحَ جوهرُهُ

وقوله :

ردفٌ أقام لنا بها فنَّ الهوى وإذا أنت لتقومَ قالَ لها اقعدي
أبصرتها ما بينَ ذاكَ وبينَ ذا فوقعتُ منها في المقيمِ المقعدِ

وقوله :

سامحَ بالوصلِ على بخلِهِ وقال لي أنت بوصلي حقيقُ
فقلتُ ما رأيك في نزهةِ ما بينَ كاساتِ وروضِ أنيقِ
فقال يعني خده واللمى : هذا هو الروضُ وهذا الرحيقُ
فبتُ مِنْ دمعِي ومن خده ما بينَ نعمانٍ وبينَ العقيقِ
وإذ تذلتُ على حبه قال : أما تخشى ؛ أما تستفيقُ ؟
قدي وخدي خفَّهُما يا فتى هذا هو الرمحُ وهذا شقيقُ

وقوله :

وَقَفَّتْ للوداع زينبُ لَمَّا رَحَلَ الركبُ والمدامُ تُسْكَبُ
مَسَحَتْ بالبنانِ دُمعي ، وحلوا سكبُ دُمعي على أصابعِ زينبُ
رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى :

ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين ابن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه ، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قوله :

ما لي بحملِ الهوى يَدانِ مِنْ بَعْدِ ما أعوزَ التداني
أصبحتُ أشكوه من زمانِ ما بَتُّ منه على أمانِ
ما بالُ عَينيكِ تَسْجَمانِ والدُمعُ يَرَفُضُ كالأحمانِ
ناداك والإلفُ عنك وانِ والبعدُ من بعده كواني
يا شقة النفسِ من هوانِ لِحَجِّ في أبجرِ الهوانِ
لم يثنه عن هواك ثانِ يا بغيّة القلبِ قد كفاني

وقال بعض الحفاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق : إنّه أخذ عن جماعة غيرهم ، كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسيني السبتي نزيل تلمسان ، والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد الله محمد المقرئ التلمساني القرشي ، والشريف العالم أبي القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وليس لإدريس المذكور هنا بملك المغرب وجدّ الأدارسة .

قال : وروى أيضاً عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثمّ السبيّ نزيل غرناطة ،
والقاضي أبي البركات البليقي ، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر ابن صفوان
القيسي المالكي ، وابن خاتمة ، والفقيه الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح
العالم أبي عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل
فاس ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم من الأئمة الأعلام ، نجوم الإسلام ؛ انتهى .

[خطبة للكفعمي في تضمين أسماء السور]

وقد وقفت للكفعمي رحمه الله تعالى في شرح بديعته على خطبة وقصيدة من
هذا النمط . قال رحمه الله تعالى ما نصه :

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، في فنّها عزيزة ، وجعلناها في مدح سيد البرية ،
وتورياتها في السور القرآنية ، فكن لسورها قارياً ، ولمعارجها راقياً ، وعلّ
وانهل من شرابها السكري ، وفكه نفسك بتسجييعها النميري ، وهي هذه :

الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسيح المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنعام ،
وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له الذي نجّى يونس وهوداً ويوسف من قومهم برّعد الانتقام ، وغذى
إبراهيم في الحجر بلعاب النحل ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلته تخبر ، ولقصص العنكبوت الروم تذكر ،
ولقمان في سجدته يشكر ، والأحزاب كأياذي سبا تُقهر ، وفاطر يس لصافاته
ينصر ، وصاد مقلة زمره تنظر الأعلام ، قال حم بقتال فتحه في حجرات قافه
قد ظهرت ، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عطرت ، وبالرحمن واقعة حديده
يوم المجادلة قد نصرت ، وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت ،

وصف جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحريم
ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام ، وفي الحاقة أعلى الله له المعارج على نوح
المتطهر ، وخصته من بين الإنس والجن بيا آيتها المزمّل وبيا آيتها المدثّر ، وشقّعه
في القيامة إذا دمّوع الإنسان مرسلات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نيل النازعات
وقد عبس الوجه كالهلال المتثور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين
وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حرست لمولده السماء بالطارق
الأعلى وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللثام ، فهو البلد الأمين وشمس
الليل والضحي المخصوص بانسراح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج
من أمشاج العلق الطاهر العلي القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة
تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهزيمة وأصحاب القيل
إذ مكروا بقريش ولم يتواصوا بالحقّ ولم يتواصوا بالصبر ، المخصوص بالدين
الحنيفي والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى
آله وأصحابه ما تبّت يدا معاديه ، ونعم بالتوحيد مواليه ، وما أفصح فلق الصبح
بين الناس وامتد الظلام .

[قصيدة على مثالها للكفعمي]

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن ، في مدح سيد ولد عدنان ،
يحسن هنا أن ننضي عن فرائد نقائسها لطلابها ، ما أغدق من خمورها وستورها ،
ونجّلني عن خرائد عرائسها لخطابها ، ما أسدق من غرورها في خدورها ،
فانظر إلى سور أبياتها وصور تورياتها ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، فحفظاً لها
ووعياً ، وهي هذه :

يا مَنْ له السبعُ المثاني تتلُّ وخواتم البقره عليه تتلُّ
في آل عمران النساء لم تلد كنظيره الأجساد ذلك تفعل

مولى له الأنعام والأعراف والا
 بعلاه توبة يونس قبلت كذا
 وكذلك إبراهيم في حجر له
 يا كهف مريم أنت طه الأنبيا
 يا نور يا فرقان يا من مدحه
 والنمل في قصص الحديث به دعت
 والروم تتلو اسمه ولكم به
 وبعزمه الأحزاب جمعهم سبا
 يس سماه الإله بذكره
 يا ليتني صاد شربت بكأسه
 كم مؤمن قد فصلت أعلامه
 ودخان جاثية على أحقابها
 حجرات قاف ذاريات سمائه
 ودنا له القصر المنير وشقيقه ال
 زغف الحديد بحربه أصواتها
 وله لدى الحشر العظيم شفاعته
 عن صف جمعته المتلفق نائياً
 يا من به شرع الطلاق ومن له ال
 يا من به ذو التون لاذ بيمنه
 يا من سأل نوح بظاهر اسمه
 مدثر يوم القيامة شافع
 يا من نزول المرسلات بيعته

أنقال والحكم التي لا تجهل
 هود ويوسف رعدهم يتجلجل
 والنحل في الإسرا عليه تعول
 والحج ثم المؤمنون الأفضل
 نطقت به الشعراء وهو المرسل
 وعليه نسج العنكبوت يهدل
 لقمان حقاً في المضاجع يسأل
 وبه الملائكة الكرام تفضل
 وكواكب بسعوده لا تأفل
 وعليه في زمر وردت فأنهل
 من زخرف يجدها يا من يعقل
 بقتاله أظنى وقع أدخل
 في طورها نجم منير يكمل
 رحمن واقعة له لا تجهل
 رعد مجادلة لقوم أبسلوا
 في أمة بالإمتحان تسربلوا
 يوم التغابن من حديد ينعل
 تحريم والملك العظيم الأكل
 لما أصيب بحاقة لا تعدل
 يا من أته الجن يا مزمل
 ومخلص الإنسان وهو الموئل
 يا أيها النبا العظيم الأكل

والنازعات نزعن نفسَ عدوة
وهو الشفيع إذا المنيرة كورت
ولدى ذوي التطفيف ويلٌ والسما
والله قد حرس السماء بطارق
وأزال غاشية العذاب ونوره
بلدٌ أمين ثم شمس أشرقت
شمس الضحى من وجهه ولصدره
يا من أتى في التين حقاً ذكره
يا من ليالي القدر بيّنة له
بالعاديات أزال قارعة العدا
ولقد أتى من قبل عصر نبينا
هو صاحب الإيلاف والدين الذي
والكافرون لنصره في جيدهم
يا خاتماً فلق الصباح كوجهه^١
أبياتها ميقات موسى عدة^٢
صلّى عليه الله مع أصحابه^٣

هذا ، وقد عبس الجبين وأذهلوا
والإنفطار من السماء يجعل
في الإنشقاق إذ البروج تبدل
لولادة الأعلى به يفضل
كالفجر إذ أنواره تنهلل
والشعر ضاهى الليل بل هو أيل
الأنشراح ، وقلبه لا يفقل
فاقرأ ولا يرتاب فيه ، واسألوا
وعده بالزلزال منه تزلزلوا
وبقوله الهاكم ما تجهل
ويل لأهل القيل منه وقتلوا
يُسقى غداً من كوثر يتسلسل
مسد إذا التوحيد عنه تعدل
والناس منه مكبر ومهلل
والكفعمي بمدحه يتجمل
ما زال طير العذليب يعنل

[ترجمة الكفعمي]

والكفعمي هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر
عيما^٢ قرية من قرى أعمال صفد ، كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار :

١ ق : بوجه .

٢ ق : ثم صحابه .

٣ في ق والتجارية: عتبا ، والكفعمي نسبة إلى كفر عيما إحدى قرى جبل عامل، كما ذكره صاحب=

عبدري ، وإلى حصن كيفا : حصكفي ، وشرحه لبديعته سماه نُور حَدَقَة
البديع ونُور حديقة الربيع^١ وما رأيت مثله في سعة الحفظ والجمع .

ومن نظمه في أسماء الكتب :

يا طريقَ النجاةِ بحرَ فلاح	أنتَ دفعُ الهموم والأحزان
أنتَ أنسُ التوحيدِ عِدَّةُ داعٍ	ثم روحُ الإحيا وفلكُ المعاني
نهجُ حيٍّ ونثرُ درّ نبيّه	ورياضُ الآداب ذكرى البيان
فاتقُ رائعَ مسرةٍ راضٍ	متهى السؤلِ جامعٌ للأمانِ
نزّهةٌ عِدَّةُ ظرائفٍ لطفٍ	روضةٌ مبهجُ جنانِ الجنان
زاهرٌ كاملٌ شهابٌ وكثر	مجتبى من ذخيرة الإخوان
فصحاحُ الألفاظ فيه تلقى	وشنورُ العقود والمرجان
وهو قوتُ القلوب نهجُ جنان	وكنوزُ النجاح والبرهان

فناسب بين أسماء الكتب ، وقصدُه غيرُ ذلك ، وأكثر هذه الكتب التي
ورى بها غير موجودة بأيدي الناس ، بل ولا معروفة لديهم ، وهذا دليلٌ على
سعة اطلاعه .

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتبَ بها إلى قاضي القضاة العالم العلامة
أبي العباس ابن الفرفور^٢ في شأن أستاذ دار قاضي القضاة المذكور الأمير علاء

= روضات الجنات (٧) نقلا عن بهاء الدين العاملي ، والنسبة الشائعة إليها كفعيماوي . والمترجم به
إمامي المذهب ، وله كتب وأشعار وتصانيف منها : كتاب جنة الأمان الواقية المشتهر باسم المصباح
وكتاب البلد الأمين والدرع الحصين وكتاب نهاية الأرب في أمثال العرب وغيرها ، وقد توفي سنة
٩٠٥ .

١ ذكره حاجي خليفة (١٩٨٢) وأوله : الحمد لله الذي شيد بنيان صرح البيان .
٢ هو شهاب الدين أحمد بن محمود بن عبد الله بن محمود الشهير بابن الفرفور الدمشقي الشافعي (٨٥٢ -
٩١١) ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر سنة ٩١٠ فأُنبأ عنه
بدمشق ولده ولي الدين (الكواكب السائرة ١ : ١٤١) .

الدين ، ويخرج من أثنائها قصيدة منها : يقبل الأرض وينهي (سلام) عبد لكم
(محب) وعلى المقة مكب (لو بدا) للناظرين (عشر) معشار (شوقه)
وغرامه (لطبتق) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) لشدة
هيامه (تراه) حقاً (لكم) حافياً (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور
(داعياً) لا جرم (وهذا) الثناء المتوالي و (الدعا) للمقام العالي (لا شك)
من لازم الفرض) ملكه الله تعالى أزيمة البسط والقبض ، (وأنجلك) ربي من
المعاطب (في) دينك و (دنياك) وأقذك (من) شر (كل) صغير (شدة)
وكبيرها ، (وأرضاك) ، وجعلك أميناً (في) الأرض ، إلى (يوم القيامة)
والنشور (والعرض ، كما أنت) أمن (لي) من المخاوف و (عون) في كل
شدة (وغوث) وملجأ (وعدة) وأنجحت آمالي (ووفرت) بإخداذك (لي)
مالي) وأحسن قرضي (ووفرت) بإجلالك (لي) عيرضي ، وينهي (المملوك
إلى) سيده (قاضي القضاة) وكافي الكفاة (بأن) المتولي الأمين (ذا) الفخر
المبين (علي ابن) المرحوم (فخر الدين) قوله (في أمركم) العالي (مرضي)
وفعله مقضي (ومدحكم) عليه (فرض) واجب (قراه) أبداً (لسانه) ويذكر
المناب (وحكمكم) له واختياركم (إياه) دالاً بأنه أمين حليم (شاهده) حقاً
(يقضي) يجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم)
ليس من مدائحه ، و (لا يمر) أبداً (بقلبه) وجوارحه (وإن مر) في خاطره
(لا يخلو) قطعاً (وحكمكم) عليه شرعاً ، ومرسومكم (يمضي) وأمركم يقضي
(بتيه) سروراً (به) رؤساء أهل الشام ، ومن في (القيبيات) من الأنام ،
(عزة) وعلواً (لخدمته) الشريفة (إياك) ولأته (يا قاضي) قضاة الدين
و (الأرض) لا يريد سواك ، (فإن يك) الخادم المذكور (في) بعض (أفعاله)
غافلاً (أو) في (مقاله) غير كامل و (عصاكم) في بعض الأمر (فعين
العفو) والستر (عن ذنبه) لا جرم (تغضي) ، وهو بتوبته إليه يقضي ،

و (سلام) الله (عليكم) ورحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذرّ) في
المشارك (شارق) وما دارت الأفلاك ، (وسبّحت) بلغاتها (الأملاك ، في)
فسيح (الطول و) رجب (العرض) ، دوماً ما بين السماء والأرض .
وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة :

سلام محب لو بدا عُشْرُ شوقه لطبّق ما بين السّموات والأرضِ
تراه لكم بالأمن والسعد داعياً وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض
وأُنْجَاك في دنياك من كل شدة وأَرْضَاك في يوم القيامة والعرض
كما أنتَ لي عون وغيث وعدة ووفرت لي مالي ووفرت لي عِرْضي

هذا ، ويصح أن يقرأ « عوناً » بالنصب على الحالّة ، وهو الذي رأيته
بخطه ، أعني الكفعمي ، ثم قال :

وينهي إلى قاضي القضاة بأنّ ذا عليّ بن فخر الدين في أمركم مرّضي
ومدحكمُ فرض قراه لسانه وحبّكم إيّاه شاهده يقضي
حديث سواكم لا يمر بقلبه وإن مرّ لا يحلو وحبكمكم يمضي
يَتِيهِ بِهِ أَهْلُ الْقَبِيَّاتِ عِزَّة لخدمته إياك يا قاضي الأرض
فإن يكُ في أفعاله أو مقالهِ عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضي
سلام عليكم كلّما ذرّ شارق وسبّحت الأملاك في الطول والعرض

قلت : وهذه طريقة بدیعة ، وقد تبارى فيها البلغاء ، فبعضهم يعتمد إلى
أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها ، ويفرقها في أبياته أو سجعاته ، ويكتبها
بلون مخالف للأصل ، وقد ذكرت في روضة الورد من « أزهار الرياض » من
كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه ، فليراجعه مَنْ أراد ، وذكرت في غيره
أيضاً نبذة .

رجع إلى نظم ابن جابر - فمن ذلك قوله :

ناديتُ مَنْ أُسْرِي به بحياة من أُسْرِي به
سلْ مدمعاً تجري به بلكواه في تجريه

وقوله :

أيها العاذلُ في حيي له خلّ نفسي في جَوّاهَا تحترق
ما الذي ضَرَّكَ منهُ بعدَ ما صار قلبي في هواه تحت رِقْ

وله :

بَرْدُ الصِّباحِ على بَرْدِ الصِّبَا سَحَرًا ما زالَ يَذْكرُني أوقاتِ نَعمانِ
لهفي لعيشِ قضينا في معاهدِها ما بينَ حُسْنٍ من الدنيا وإحسانِ

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضاً :

جعلتُ ملاكَ العين والقلبِ في الهوى بناطقةَ القُرْطَيْنِ صامتةَ القلبِ
تصحَّفُ لي ألحاظُها لِنَ قدَّها وتقلُّبه كيما تصيدَ به قلبي

قال بعض علماء المشرق : أجاد والله هذا العالم المغربي المقال ، وأراد أن لفظ لين إذا قلب صار « نيلًا » ، وإذا صحف صار « تَبْلًا » ، وهذا زيادة على ما فيه من التحريف ؛ انتهى .

[من شعر أبي جعفر رقيق ابن جابر]

وقريب منه لرقيق المذكور قولُه :

يفترُّ عَنْ بَرْدٍ يثير ببردِه حرَّ الغرامِ ولا سبيلَ لرشفه
أخذ الرشا من حُسْنه طَرَفًا لذا نَسَبَ الوري ملح الجمالِ لظرفه

وله :

تجرُّ فرعيها على إثرها رافلةً في حُللِ الحسنِ
فتُطْلَعُ البدرُ لنا في الدجى وترسلُ البدرَ على الفصنِ

وله :

قد نعمنا بجزعِ نَعْمَانٍ لكنْ عَقْنَا البعدُ ، والعقوقُ قبيحُ
قُلْ لأهلِ الحيامِ أمّا قواذي فجريحُ لكنْ ودِّي صحيحُ

وقوله :

مُقَدَّمَاتُ الرقيبِ كيف غَدَتْ عند لقاء الحبيبِ مُتَّصِلَةٌ
نَمْنَعُنَا الجَمْعَ وَالْحُلُوءَ مَعَا وإنّا ذاك حُكْمُ مُنْفَصِلَةٍ

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين :

رحمةً أَرْسَلَهُ اللهُ لَنَا وشفيعاً قد غدا فينا غدا
وَهَبَ الْمَالَ لِمَنْ مَالَ لَهُ وفقدى من ذنبه مَنْ وفدا
ليس يحصي فضلهُ إلا الذي هو أحصى كلَّ شيءٍ عددا

وله :

حَسَنَ النِّيَّةِ مَا اسْطَعَتْ وَلَا تَتَّبِعْ فِي النَّاسِ أَسْبَابَ الْهَوَى
إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، مَنْ يَنْوِ شَيْئاً فَلَهُ مَا قَدْ نَوَى

وله :

قَالَتْ وَقَدْ حَاوَلْتُ نَيْلَ وَصَالِهَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ لَا تَجُوزُ الْمَسْأَلَةُ
بِاللهِ قُلْ لِي أَيْنَ نَحْوُكَ يَا فَي أَرَأَيْتَ مُوَصُولًا يَجِيءُ بِهَا صَلَةُ

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرتِه ، وقضيةُ ابن عنين في ذلك مع المعظم دالةٌ على توقُّد فكرته ، وما ذاك إلاَّ أنَّه مرض فكتب إلى الملك المعظم :

انظرْ إليَّ بعينِ مولَى لم يزلْ يُولي الندى وتلافَ قبلَ تلافِي
أنا كالذي ، أحتاجُ ما يحتاجُه فاعنمْ دعائي والثناء الوافي

فعاده المعظم وأعطاه ألفاً ، وقيل : ثلاثمائة ، وقال له : هذه الصلة ، وأنا العائد .

قال بعض المغاربة في هذا : قد تطف ابن عنين في الصلة والعائد ، وأجاد وسبق المعظم إلى فهم مقصوده مطابقة الجوار فأتى بما يُستغرب عن سيويه ونظرائه ، فلذلك جعل الشرف ابن عنين ديوانه مملوفاً بمدحه وأطرابه ، ونقلته من حفطي وفيه بعض تغيير بيتين .

[عود إلى شعر ابن جابر]

وقال ابن جابر المذكور :

يا دارَ ليلي لا صمَّتْكِ يدُ البلى وسقاكَ دَرَّ القيثِ كلُّ سحابِ
أصبو إلى تلك الربوعِ ، وكيف لا أصبو وهنَّ منازلُ الأجابِ

وقال من قصيدة :

وأطلبُ تشويقَ الأنامِ بحسنِه فأذكرُ من أسمائِه كلَّ طيبِ

ومنها :

ولائيَ لم أمدحُه إلا تشوقاً وإن كان مشهوراً بشرقٍ ومغربِ

وقال :

أمر الشباب [.....]
أسر الهوى مهج الأنام لها
فَهَفَا فقالت : دَمَعَتِي أغلى
إذ سلَّ من أعطافها أسلا

وقال :

ظعنوا [والقنود] منهم رماح
جاد دَمَعِي لهم وقد حاد صبري
طعنوا في الحشا بها فأصابوا
حين سارت بالطاعنين الركابُ

وقال :

شاه وجهُ الرقيبِ إذ شاء وصلي
زارني بالنَّهارِ في الليلِ لكنْ
قمرِي ، والأنامُ عَنَّا نيامُ
ليلُ فرعٍ يحارُ فيه الظلامُ

وقال :

يا أيتها الجائرُ في حكمه
قدْ كَ من أعدلِ شيءٍ يرى
إني فيما قد جرى حائرُ
وأنت في أهلِ الهوى جائرُ

وقال :

قدْ زعم العاذلُ لي أنه
ما هو هادٍ لي ولكنَّه
يُهدي لي الرُّشدَ بما يصنعُ
هاذٍ فسمعي قال لا تسمعوا

وقال :

شفى فؤادي من شقا هجره
وزارني يحكي غزالَ النقا
وبيتٌ من لقياهُ في عيدِ
في الحسنِ لولا الحلْيُ في الجيدِ

وقال :

سلب القلب غزالٌ قدُهُ قد حكي البان لنا والسَلَمَا
ساحرُ العينِ إذا أبصره كاتبٌ ألقى لديه القَلَمَا

وقال :

يكفي الأنامَ بسيفه وبسييه عقَد المكارهَ والمكارمَ دائما

وقال :

تحلّت بما يحكي محاسن ثغرها وحلّت عقودَ الصبرِ مني عقودُها
ثقيلةُ أردافٍ فصعبُ قيامُها بما حملت منها وسهلُ قعودُها

وقال :

أبى حُسْنُها إلاّ افتتانَ قلوبنا فكَم قد أباد الحسنُ فيها من الناسِ
وقالت تحمّلُ طولَ هجري إن تُردّ وصالَ ذواتِ الحسنِ قلتُ على راسي

وقال :

أرى أناساً ، من أراد الرضى منهم رجا ما ليس بالممكنِ
سيّان أن يعطوا وأن يمنعوا قد ضاعَ فيهم كرمُ المحسنِ

وقال :

يا جيرةَ الحيّ حيّا الله وإديكم فكَم سرورٍ به للقلبِ قد عرّضا
فلن أنالَ حياةً أَسْتلذّ بها إذا أنا لم أنلُ من وصلكم غرضا

وقال :

شَبَّ حرّ الفؤادِ ماءَ رضابِ منه قد حارَ فيه ماءُ الغمامِ
زان بالحليّ جيدهُ قلتُ : ماذا ؟ قال : شيءٌ نظمتهُ من كلامي

وقال :

صادَ قَلْبِي وَصَدَّ عَنِي صَدُودَا وَاثْنَى يَسْحَبُ النُّوَابِ سَوْدَا
فَرَأَيْتُ الصَّبَاحَ فِي اللَّيْلِ يَبْدُو وَشَهِدْتُ الرَّشَا يَصِيدُ الْأَسْوَدَا

وقال :

لَأَنْتِ سَمِيتُ مِنَ الزَّمَانِ لَطُولِ مَا قَدْ صَدَّ عَنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ رَجَالَهُ
وَمِنَ النُّوَادِرِ فِي زَمَانِكَ أَنْ تَرَى خِلَاً حَمَدَتْ وَدَادَهُ وَخِلَالَهُ

وقال :

إِنْ قَابَلَ الْغَصْنَ بِأَعْطَافِهِ فَقُلَّ أَنْ تُبْصَرَ مِنْ فَرْقِ
قُلْتُ قَدْ اسْتَبْعَدَ كُلُّ الْوَرَى فَقَالَ ذَاكَ الْبَعْضُ مِنْ حَقِّي

وقال :

صَحَّ أَنْ الصَّبَاحَ مِنْ وَجَنَتِيهَا وَغَصُونِ الرِّيَاضِ مِنْ مَعْطَفِيهَا
قَاتَلَ اللَّهُ عَاذِلِي قَلْبِي يَوْمٌ لَيْسَ يَسْعَى بِالْعَدْلِ فِيهِ إِلَيْهَا

وقال :

شَدُّوا عَامِلَهُمْ يَوْمَ الرِّحَالِ وَقَدْ عَارِسُومَ اصْطِبَارِي فَقَدْ مَنْ رَحَلَا
هَزُّوا الْغَصُونَ عَلَى الْكُثْبَانِ حِينَ مَضَوْا وَأَسْبَلُوا فَوْقَ أَقْمَارِ الدَّجَى كِلَلَا

وقال :

خَدَّ تَرَى الْوَرْدَ بَعْضًا مِنْ مَحَاسِنِهِ تَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَبْهَى شَمَائِلَهُ
لِصَارِمِ الْحِظِّ قَدْ أَرْخَى حِمَائِلَ مِنْ عِذَارِهِ فَحَمَى عَنَّا خَمَائِلَهُ

وقال :

قام حادي الركاب ليلاً فغنى
قيلَ نام الأنامُ فاهجعَ قليلاً
فاستقامَ السرى وثارَ العَـسَـرامُ
قلتُ دونَ الحبيبِ لستُ أنامُ

وقال :

ترامى بنا في البيد شوقاً إلى الحمى
فلما رأينا ربّعَ مَنْ سَكَنَ الحشا
ترى عندهُ الأُحْجَافَ منهلةَ الدمعِ
نزلنا فقبلنا ثرى ذلك الرّبعِ

وقال :

يراودني الواشي على حبٍّ غيرها
موقرةُ الأردافِ ، مهضومةُ الحشا
وإنَّ محالاً أن يرى مثلَ حسنِها
يُريكِ الثغاةَ الظبي فأنرُ جفنها

وقال :

سلّت علينا سيوفاً من لواخطها
أضحّت لسفكِ دمِ العشاقِ هادرةً
ومَن لنا من سيوفِ اللحظِ من وافي
فما ترى ديةً في قتلِ عشاقِ

وقال :

في خدّها شبهٌ للخالٍ أو شبيهةٌ
وتشّي من الحسنِ لم يحتجْ لصنعِ يدِ
بما حوى الحسنُ من الطافِ أسرارِ
تبارك اللهُ هذي صنعةُ الباري

وقال :

بين الجوانح لو علمت من الجوى
فدعِ المدامعَ في مدى جريّانها
نارٌ عليها سَكَبُ عيني بهمّعِ
فالدمعُ بعدَ فراقهم لا يُمْنَعُ

وقال :

قالوا بدارين قد قالوا ، وقد وردوا
ماء العقيق ، وبالزوراء قد باتوا

بانوا عن العين لكن بالقلوب ثووا وفي الهعاد عن الأحباب آفات
وقال :

مليحة الخد به شامة كالورد قد نُقِطَ بالغالية
قلت لها : ما اسمك ؟ قولي لنا قالت : فما تعرفني غاليه
وقال :

جارية جارية في مدى شبابها من أُمْلَحِ الخلق
ما بين فرّق الصبح لما بدا ووجهها للناس من فرق
وقال :

لصبه منه امتداد النوى فلا يلامُ الدمعُ في صبّه
في قدّه لين فهلاًّ قضى بقلبه منه إلى قلبه
يريد بالقلب الأول التحويل والنقل : أي فهلاًّ قضى بتقل اللين الذي في
قدّه إلى قلبه .

وقال :
يا لابس اللام والأسياف عارية قد انعطفت على الأعطاف واللام
ويا ضجيع رماح الخط يرسلها في كل هام لها باللحظ في الهام
الهام الأول : جمع هامة ، والثاني اسم فاعل من همي يهمي .
قال رفيقه : لو قال « من الهام » لكان أليق بالمعنى وأطف .
وقال :

من مال يعني كسب مال له من حريمه إن جاء أو حيله

فلا تثقُ يوماً بهِ واحترزْ منهُ فما يُبقي على خِلتهِ
وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية :

للهِ عيشٌ بالمريةِ قد ذهبَ أخباره بالحسنِ تكتَبُ بالذهبِ
وهبتُ لنا تلك الليالي مدةً ثم استردَّ الدهرُ منا ما وهبَ
وقال :

أنَّ من شوقه فثار الضَّرامُ لا تسَلُ ما جرى من الدمعِ لما
ودرى الناسُ أنَّه مُستهامُ قيل هذي النقا وهذي الخيامُ
وقال :

صلاةُ إلهِ العالمين على الذي أقلُّ العطايا منه وادٍ من النِّعمِ
يجودُ على الراجي وإن كان مذنباً وما قوله للسائلين سوى نعمِ
وقال :

قد سبَّ قلبي غزالٌ فاتنٌ مسلٌ به كيف اعتدى في سلكه
أنا لا أعتبُ فيما قد جرى صفحَ الله له عن ذنبه
وقال :

صبرتُ له فتماذى بهِ هوأه ، فكانت هي الفاصلةُ
وأنكر بيري ويا طالما أتاني يوماً فألقى صلهُ
وقال :

وليلٍ نظمنا بهِ شملنا كما انتظم البيتُ بالقافية
وفرقتنا الدهرُ من بعد ذا فلستُ من اليوم ألقى فيه

أي فئة ، ولا يكمل التجنيس فيه إلا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ، ولما أنشده
قال :

ومن هذا النوع قول بعض الأندلسيين :

وقائل قال ألا صِفْ لنا بستاننا هذا ونارنجنا
قلت لهم بستانكم جنةٌ ومَنْ جنى النارج ناراً جنى

وقال ابن جابر المذكور :

قلْ بحقْ الهوى سمحتِ بوصلِ ربةِ القلبِ أم نهاكِ الرقيبُ
رُمْتُ نيلَ الوصالِ منها فقالت لك وصلْ غداً فقلتُ : قريبُ

وقال :

زَيْنَ الخدِّ منه صدغٌ كنونِ قد بدا نَحتهُ عذارُ كلامِ
قلتُ هذي محاسنُ ابنِ هلالِ فانشئ وهو ضاحكٌ من كلامي

وقال :

لها حُسْنٌ لها عن كلِّ شيءِ به قلبي ، فما أنا أستفيقُ
على وجَّاتِها نعمانٌ يبدو لنا وشافهاها هنَّ العقيقُ

وقال :

تمرُّ في ذكركم ، والله ، أحياني ولو سرى طيفكم ليلاً لأحياني
لا يعذبُ العيشُ لي بعد العَذيبِ ولا نعيمٌ مثلُ ليالينا بنعمانِ

وقال :

مدارةُ هذا الخلقِ أوليكِ بينهم صفاتٌ هي الأعمارُ والنظمُ داراتُ

وشارتُ حمدَ المرء أن لا تُرى له على الناسِ ممّا لازمَ الحلمِ داراتُ
وقال :

أرى كدأً سعيي إلى خاملٍ ، ولو أراكَ مدّى في فرقدٍ بلغَ السّها
وما الخيرُ يوماً من لثيمٍ بممكنٍ وإن كان منه الخيرُ يوماً فقد سها
وقال :

أرى حَيْدِي عن كلِّ طارئٍ نعمةً أراحَ يدي من أن يُقَيِّدَها الذلُّ
فمن أخذَ المعروفَ من غيرِ أهله تروحُ الليالي وهو في عُنُقِهِ غُلُّ
وقال :

شبا لحظها الماضي وحسنُ شبابها هُما حملاً نفسي من الوجدِ ما بها
كثيبُ النقا من ردفها ، وقضيئه لمعطفها ، والبدرُ تحتَ نقابها
وقال :

حلَّ عَقْدَ الصبرِ مني عَقْدُها إذ سبَّ قَلْبِي بما في قَلْبِها
تحسُّ الدُرَّ على لَبَّتِها أنجماً قد كُتِلَ البدرُ بها
وقال :

شَعَرٌ كالليلِ يَبْدُو نَحْتَهُ قمرٌ قد حارَ شعري في صفاته
نَقَلَ المسواكُ عن ميسمه أن ماءَ الوردِ يجري من لثاته
وقال :

مَنْ سَنَّ تلكَ اللحاظَ فَاتَّبَعَتْ من سُنَّةِ الحبِّ كلَّ متبِعٍ
تقتلُ عشاقها بلا سببٍ وذاك في الحبِّ غيرُ مبتدِعٍ

وقال :

وما شجُوْ صالٍ لوعةَ الهجرِ قد قضى زمانَ وصالٍ لم تُكدَّرْ مشاربه
كشجوْ محبٍ لم يذقْ لذةَ الرضى ولا باتَ والغيدُ الحسانُ تلاعبه

وقال :

سَرَتْ في رحالِ العيسِ منه أهلةٌ فأيسرُ حالٍ أن أزودها قلبي
بعيشك قل لي هل دروا كيف علتي وفيض دموعي بعد مُنصرفِ الركبِ

وقال :

مَنْ جنى باللحاظ زهراً المعاني من جَناب الحمى إذا الناسُ ناموا
هو قد نالَ كلَّ ما يتمنى وسَعَتْ في مُرادِهِ الأيامُ

وقال :

لطائفُ حسنِها بربوعِ قلبي لطائفُ الجأثني للغرامِ
تريك تكاسلاً في اللحظِ منها لتحسبه تنبّهً من مَنامِ

وقال :

إذا زُرْتَ حَيًّا بالعقيقِ فحيِّهم وذكرهمُ عهدي وحقَّ ودادي
حرامُ فراقِ العيسِ حتى تُحلّتي بواديه من تلك الوجوهِ بوادي

وقال :

مِنْ فرطٍ ما في الطرفِ من فتنَةٍ قد غلبَ الحبُّ على الناسِ
قالتْ نَسيتَ العهدَ قلتُ اكفني عني فما عبدك بالناسي

وقال :

بينَ نعمانٍ وسَلَعٍ مَلاَ ليسَ مِنْهُمُ لِمَحَبَّةِ أَلَمِ
كَلَفِي مِنْهُمُ بِبَسْدِرٍ حَلٍّ فِي فَتَلَكِ الْعِلْيَاءِ فَاعْرِفْ مَنْ هُمْ

وقال :

أراقبها وحينَ أرى سبيلاً أقاربها فتتفرُّ كالغزالِ
وقالت أنتَ مرتقبٌ لماذا فقلتُ لها : ارتقابي للهِلالِ

وله من قصيدة مطوّلة في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت ، فمما يختص منها بأبي بكر رضي الله تعالى عنه قوله :

فمنهم أبو بكر خليفةُ الذي	له الفضلُ والتقديمُ في كلِّ مشهدٍ
وصديقُ هادي الخلقِ والمؤثرِ الذي	لإنفاقه للمالِ في الله قدَّ هُدي
وصهرُ رسولِ الله ، وابنتُهُ التي	يبرئها نصُّ الكتابِ المُتجدِّ
وصاحبه في الغارِ إذ قال لا تخفُ	فثالثنا ذو العرشِ أوثقُ منجدٍ
وسدَّ على المختارِ مخرجَ حيَّةٍ	هناكَ برجلٍ منه فازتُ بأسعدٍ
وفيه وفي خيرِ الأنامِ تسامعوا	بمكةَ صوتِ الهاتِفِ المتقصدِ ^١
« جزى الله ربَّ الناسِ خيرَ جزائه »	رفيقين حلاًّ خيمتي أمَّ معبدٍ ^٢
وعتقُ بلالٍ حسبهِ ، فهو سيّدٌ	تأثَّلَ في الإسلامِ ، إعناقُ سيّدٍ

١ يقال إن أهل مكة سمعوا بعد هجرة الرسول ومعه أبو بكر هاتفاً يقول : جزى الله ... إلخ البيت التالي ؛ وقد مر الرسول وصاحبه بخيمتي أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية فقلا عندها ، ويقال إنها ذبحت لهما شاة وطبختها (انظر إمتاع الأسماع : ٣ ؛ وعيون الأثر ١ : ١٨٨ - ١٨٩) .

٢ رواية البيت في عيون الأثر (١ : ١٨٨) :

جزى الله خيراً والجزاء يكفه رفيقين قالا خيمتي أم معبد

وقد وردت الرواية المثبتة في النسخ مع وضع « قالا » موضع « حلا » في ص : ١٨٩ من الكتاب المذكور .

وقال رسولُ الله إنَّ أَمَنَّاكُمْ
فصدَّق إذ كذبتُم ، وأطاع إذ
ولو أنَّتي من أمتي كنت أخذاً
لكان أبو بكر ، ولكن أخوة
فلما أراد الله قبضَ نبيِّه
تقدم في نيلِ الخلافةِ بعُده
وقد فارقت يومَ السقيفةِ فرقة
وقام عليٌّ بعد ذلك مبيعاً
وأظهر عذراً في تأنيهِ صادقاً
قَابَ بحمدٍ منهم غيرَ قاصرٍ
وما أشبه الصديقَ في الفضلِ مشبهٌ

عليٌّ أبو بكر وأوفى بموعِدٍ
عصيمٌ ، ووافاني موافاةً مُسعدٍ
خليلاً تولَّى خلَّتِي وتودُّدِي
في الاسلامَ مهما تنقصُ الناسُ تزدَدِي
وصار إلى دارِ النعيمِ المخلَّدِ
بإجماعهم لا بالحسامِ المهنَّدِ
فلما رآته الحقُّ لم تزدَدِ
فأنَّي ثناءَ المخلصِ المتودِّدِ
وباع طوعاً لا لفقدانِ مسندِ
ومن يتبع الإنصافَ والحقَّ يُحمدِ
ولا أحصيت أوصافُهُ بتعدَدِ

ومما يختص بعمر رضي الله تعالى عنه قوله من هذه القصيدة :

ويتبعه في فضله عُمُرُ الذي
وما كلُّ مَنْ رام السعادةَ نالها
هو المرءُ لم يتركْ له الحقُّ صاحباً
ولا سلك الشيطانُ فجاً قد اغتدى
ومِنْ ظلَّهُ قد كان ينفرُ هيبَةً

رمى عن قسيِّ الصديقِ قوسَ مُسدِّدٍ
ولكنَّهُ مَنْ يُسعدِ الله يُسعدِ
ولا قعد الشيطانُ منهُ بمَقعدٍ
لَهُ سالكاً من خوفهِ المتردِّدِ
لَهُ حيثما أضحي يروُّحُ ويغتدي^٣

١ يشير إلى الحديث : « ما من أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر وأساني بنفسه وماله » رواه الطبراني ، وفيه أرطاة أبو حاتم وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٩ : ٤٦) .

٢ هو تعبير عن الحديث : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن إياه ومودة إلى يوم القيامة » رواه الطبراني ، وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك (المصدر السابق ٩ : ٤٥) .

٣ في الأحاديث : « إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خسر لوجهه » (مجمع الزوائد ٩ : ٧٠) وهناك أحاديث أخرى في خوف الشيطان منه ؛ وفي صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك .

وقد جاء عنهم : ما برحنا أعزةً
ومن قولهم : إسلامه كان غرة
وامرته كانت على الناس رحمة
ومن فضله رعي النبي بغيرة
وقد قيل للفاروق : هذا ، ومن به
فأقبل يبكي قائلاً كيف غيرتي
ورؤيا رسول الله للقدح الذي
وناوله الفاروق من بعد ما ارتبوا
فأولاه العلم الذي منه ناله
فصارت له غرباً فأروى بها الورى
ورؤياه أيضاً في قميص يجره
فأول خير الخلق طول قميصه
وتفريقه ما بين حق وباطل
وسمي بالفاروق من أجل هذه
وحسبك أن الله وافق رأيه
كذا في أذان والحجاب وجعلهم

بإسلامه فانكف من كان يعتدي
وهجرته فتحاً شجاً كل ملحد
فأبوا إلى فتح وعز مهتد
له فأنشئ عن قصره المنشد
فأنبأه عن ذا النعيم المؤبد
عليك ، ولولا أنت ما كنت أهدي
تناول من در به غاية الصدي
إلى أن غدا من ظفره الري يتدي^٢
وأول رؤيا الدلو حسن التأيد
فكان افتتاح الأرض فتح مهتد
وللناس قمص بعضها يبلغ الشدي
بما حاز في إيمانه من تأيد^٣
يوم سقى الكفار أظف مود
وما زال في نص الهدى ذا تجلد
لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدي
مصلتي مقاماً للخليل بمسجد^٤

- ١ يشير إلى الحديث : « دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصرأ فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك ؛ فبكى عمر وقال : أي رسول الله ، أو عليك يفا ؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٣ وورد فيه الحديث بصورة أخرى وانظر مجمع الزوائد ٩ : ٧٤) .
- ٢ عن ابن عمر عن النبي (ص) أنه قال : بينا أنا نائم إذ رأيت قدساً أتيت به فيه لبن فشربت حتى لأرى الري يجرى في أطافيري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٣ عن أبي سعيد عن النبي (ص) قال : بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرض علي عمر وعليه قميص يجره . فقال من حوله : ما أولت يا نبي الله ذلك ؟ قال : الدين . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٤ عن عمر أنه قال : وافقت ربي في ثلاث : مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر (وانظر =

شديدٌ على أهل الهوى رحمةٌ لمن
ومما رَوَوْا إن كان في أمةٍ فتى
عن الحقِّ لمَ يَجْنَحْ ولم يتحيَّد
يُحَدِّثُ فالفاروقُ من ذاك فاعددا
وما أبغض الفاروقَ إلا مُفارقُ
لدين الهدى ذو مذهبٍ لم يسدِّد
ومما يختصُّ بعثمان رضي الله تعالى عنه قوله :

وحسبي عثمانُ بن عفان أنه
إمامٌ صبورٌ للأذى وهو قادرٌ
هو الجامعُ القرآنَ والقانتُ الذي
ويقطعُ بالصوم النهارَ ويتشي
وقال رسولُ الله في بشر رومةٍ
له الجنةُ العليا بذلك فاشترى
فقال رسولُ الله إذ جاءه بما
هنيئاً لعثمان بن عفان فعله
وقولُ ألا أبدي حياة لمن له
وبلغ بشرى الهاشميُّ بأنّه
ولكن على بلوى ، وقال سأرتضي

عليه اعتمادى وهو سؤلى ومقصدي
حليمٌ عن الجاني جميلُ التعود
إذا جنَّ ليلٌ ليس بأوي لمرفد
مدى ليله في خشيةٍ وتهجد
أما مشترٍ يبغى بها الأجرَ في غد
وتجهيزُ جيش العسرة اذكر وعدد
قد احتاج من مالٍ وظهْرٍ وأعبُد
وما ضرّه ما بعدُ مع هذه اليد^٢
قد استحييت الأملاكُ أشرفُ محدث^٣
من الجنة العليا بأكرمٍ مقعد
وأصبرُ صبر الطائع المتجلد

= تفصيل ذلك في الرياض النضرة ١ : ٢٦١ وما بعدها وانظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ .

١ في صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) قد كان يكون في الأم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم ؛ قال ابن وهب في تفسيره محدثون : ملهمون . وانظر الرياض النضرة ١ : ٢٦٠ .

٢ من فضائل عثمان أنه جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بغير أتم الألف بخمسين فرساً (وقيل أكثر من ذلك) وقال فيه الرسول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » - وهو حديث حسن غريب - وأنه اشترى بشر رومة بعشرين ألف درهم (انظر الرياض النضرة ٢ : ١٢٠ - ١٢٢) .

٣ يشير إلى الحديث الذي ينص على أن الرسول (ص) كان مضطجعا في بيته كاشفاً عن فخذه أو ساقه، فاستأذن أبو بكر ثم عمر وهو على تلك الحال، فلما استأذن عثمان جلس وسوى ثيابه، فلما سئل في ذلك قال: « ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤-٢٣٥) .

فأظهر يوم الدار صبر أولي النهى
ولم يرضَ ، صوناً للدماء ، بحروبهم
فمات شهيداً صابراً فهو خير من
على بنتي المختار أرخى ستوره
ولم يدع ذا النورين إلا لأته
وإن لعثمان بن عفان رتبة
ومما يختص بعلي رضي الله تعالى عنه قوله :

وإن علياً كان سيف رسول
وصهر النبي المجتبي وابن عمته
وزوجه رب السما من سمائه
بخير نساء الجنة الغرّ سؤدداً
فباتا وحلّي الزهد خير حلاهما
فأثرت الجنات من حلل ومن
وما ضر من قد بات والصوف لبسه
وقال رسول الله إني مدينة
ومن كنت مولاه علي وليه
وإنك مني خالياً من نبوة
وقال غداً أعط اللواء محبياً
فباتوا وكل يشتهي أن ينالها
فنأدى علياً ثم أبرأ عينه
فأعطاه إياها وقال له ادعهم

وصاحبه السامي لمجد مشيد
أبو الحسين المحتوي كُلى سؤدد
وناهيك تزويجاً من العرش قد بُدي
وحسبك هذا سؤدداً لمسود
وقد آثرا بالزاد من جاء يجتدي
حلي لها رعباً لذلك التزهد
وفي السندس الغالي غداً سوف يفتدي
من العلم وهو الباب ، والباب فاقصد
ومولاك فاصدق حب مولاك ترشد
كهرون من موسى وحسبك فاحمداً
إلي وللرحمن بالنصر مرتدي
إلى أن بدا وجه الصباح المجود
بتفت كأن لم يمس قبل بأرمد
ومهما أبوا فأنهد إليهم تؤيد

١ أشار في هذا البيت وما سبقه إلى أحاديث في فضائل علي منها : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « من كنت مولاه فعلي مولاه » ومنها « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

فجدل منهم من جنى عندما دعا
وقاتل طول اليوم والباب ترسه
فأعجزهن الباب من بعد عشرة
وكان من الصبيان أول سابق
وجاء رسول الله مرتضياً له
فمسح عنه التراب إذ مس جلده
وقال له قول التلطف « قم أبا
وفي ابنه قال المصطفى ذان سيدا
وأرسله عنه الرسول مبلغاً
وقال هل التبليغ عني ينبغي
وقد قال عبد الله للسائل الذي
وأما علي فالتفت أين بيته
بأمرين من حرّ وبرد فلم يجد
وما زال صواماً منياً لربه
فتنوعاً من الدنيا بما نال ، معرضاً
لقد طلق الدنيا ثلاثاً ، وكلّما
وأقربهم للحق فيها وكلّهم

إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرد
يجرّ به للقوم في كل مرصدا
فما الظن في هذا القوي المؤيد
إلى الدين لم يسبق بطائع مرشد
وكان عن الزهراء بالمشرد
وقد قام منه ألفاً للتفرد
تراب « كلام المخلص المتودد
شبابكم في دار عز وسودد
وخص بهذا الأمر تخصيص مفرد
لمن ليس من بيتي فبالقوم فاقتد
أتى سائلاً عنهم سؤال مندّد
وبيت رسول الله فاعرفه وأشهد
أذى بردها أو حرّها المتوقد
على الحق قواماً كثير التعبد
عن المال ، مهما جاءه المال يزهد
رأها وقد جاءت يقول لها ابعدني
أولو الحق لكن كان أقرب مهتد

ومنها في ذكر السبطين رضي الله تعالى عنهما :

١ قص في هذه الأبيات إعطاء الراية لعلي يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه »
ثم سأل عن علي فقيل : إنه يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرئ.
حتى كأن لم يكن به وجع ؛ وفي الهجوم على الحصن طرح ترسه وتناول باباً عند الحصن فترس به
نفسه . . . إلخ . (الرياض النضرة ١ : ٢٤٢ - ٢٤٧) .

٢ في سبب تلقيب علي بأبي تراب انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٢٨ .

وبالحسنين السيدين توسلي
هما قرنا عين الرسول وسيدا
وقال : هما ريحاناي ، أحب من
هما اقتسما شبه الرسول تعادلا
فمن صدره شبه الحسين أجله
وللحسن السامي مزايا كقوله
سيصلح رب العالمين به الوري
وإن تطلبوا ابنا للنبي فلن تروا
بدا سيذا ظهر الرسول قد ارتقى
فقالوا له طال السجود فقال لا
وكان الحسين الصارم الحازم الذي
شبهه رسول الله في البأس والندی
لمصرعه تبكي العيون وحققها
فبعداً وسحقاً لليزيد وشمره

يجدهما في الحشر عند تفردي
شباب الوري في جنة وتخلد
أحبهما ، فاصدقهما الحب تسعد
وماذا عسى يحصيه منهم تعددي
وللحسن الأعلى وحسبك فاعدد
هو ابني هذا سيد وابن سيد
على فرقة منهم وعظم تبدد
سواي : مقال منه غير مفند
فقر ولم يعجله وهو بمسجد
ولكنما ابني خفت إن قمت يشردا
متي يقصر الأبطال في الحرب يشدد
وخير شهيد ذاق طعم المهند
فله من جرم وعظم تمرّد
ومن سار مسرى ذلك المقصد الردي

ومنها في ذكر حمزة رضي الله تعالى عنه :

ومن مثل لث الله حمزة ذي الندى
فكم حز أعناق العداة بسيفه
فقال رسول الله : هذا أمرته
وقال أبو جهل : أصبت محمداً

مبيد العدا مأوى الغريب المطرد
وذب عن المختار كل مشدد
ولي أسد ضار لدى كل مشهد
بما ساءه فاهتز هزة سيد

١ إشارة إلى الحديث : إن ابني هذا سيد وليصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . (مجمع

الزوائد ٩ : ١٧٨) .

٢ انظر الخبر عن الحسن كيف جاء وهو طفل فصعد على ظهر النبي وهو ساجد . (المصدر السابق

ص : ١٧٥) .

وأهوى له بالقوس ما بين قومه ، وقال له : إني على دينه فإن فذلَّ أبو جهل وأبدى تلطفاً فعاد وقد نال السعادة واهتدى وفي يوم بدرٍ حثَّ عند سؤالهم لمن كان لإعلامٍ بريشٍ نعمامةٍ فذاك الذي والله قد فعلتُ بنا وفي أحدٍ نال الشهادة بعدما ففاز وأضحى سيد الشهداء في وصلي رسول الله سبعين مرة وقال : مصابٌ لن نصابَ بمثله وأسنعهم لكن حمزة ما له نوائحهُ وزاد إلى فضل العمومة أنه وما زال ذا عرضٍ مصونٍ عن الأذى كريمٌ متى ما أوقد النار للقري

وقال : وأخرى بالحسام المهتدٍ أطقنتَ فرجاً عن طريقي وأردد ومن ينصر الحقَّ المبين يؤيد^١ وأضحى لدين الله أكرم مسعد لما شهدوا من بأسه المتوقد يشردنا مثل النعام المشرّد أفاعيله في الحرب ما لم نُعوّد أذاقَ سباعاً للردى شرّ مورد ملائكة الرحمن يسعى ويغتدي عليه إلى ثنتين عند التعدّد وإن كان لي يومٌ سأجزي بأزيد وبشر بالنار التوائح ما عدي ... وقلن يا أعين اسعدي^٢ أخوه رضاعاً هكذا المجد فاشهد ومال مهانٍ في العطايا مبدد « تجد خير نار عندها خير موقد »^٣

ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه :

- ١ يتحدث عن إسلام حمزة بعد أن سمع أن أبا جهل أساء إلى النبي فجاء إلى أبي جهل بفناء الكعبة ، وجمع يديه بالقوس وضربه بها فيقال إن أبا جهل قال له : « ما كنت يا أبا عمارة فاحشاً » وعلى أثر هذه الحادثة أعلن إسلامه . (مجمع الزوائد ٩ : ٢٦٧) .
- ٢ يتحدث كتيب السيرة بإسهاب عن استشهاد حمزة يوم أحد على يد وحشي ، وحزن النبي عليه ، وصلاته عليه كلما صل على شهيد من أمته ، وقوله « لكن حمزة لا بواكي له ... » وقوله « لن أصاب بمثلك أبداً » .
- ٣ شطر بيت للحطيئة (ديوانه : ٥١) وصدره : متى تأت تعشو إلى ضوء ناره .

وقد بلغ العباسُ في المجد رتبةً
ألا إنه فضلُ السقايةِ قد حوى
وكان طويلَ الباعِ في الباسِ والندى
ويومَ حنينٍ ليس يُنسى ثباته
وقال رسولُ الله فيه عليٌّ ما
ألا إنَّ عمَّ المرءِ صنو أبيه كي
وبشَّره أنَّ الخلافةَ في الوري
بشيئته استسقوا إذ المحلُّ شاملٌ
تقولُ لبدرِ التَّم : قصَّرتَ فابعدِ
فكان لوفدِ الله أكرمَ موردِ
كريمًا متى يسترفدِ القومُ يرفدِ
ودعوته مستنجداً كلَّ منجدِ
عليه وأيضاً مثله في التزيدِ
يزيدهم في برِّه المتأيدِ
لأولاده من سيدٍ ومسودِ
فجاءهم غيثٌ سقى كلَّ فدغدِ

انتهى ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة ، وليس بيدي الآن ديوان
شعره حتى أكتبها بكمالتها فإنها مناسبةٌ لهذا الباب الذي جعلناه ختمًا للكتاب
كما لا يخفى .

ومن مقطعات ابن جابر :

شغفتُ بها حيناً من الدهر لم يكنْ
وما أصلُ هذا كله غيرُ نظرةٍ
سوى سكبِ دمي في محبتها كسبي
إلى مُقلةٍ منها أضعتُ لها قلبي

وقال :

قد بانَ عذري في مליحٍ له
إني على الهجرِ مطيعٌ له
لحظاً رشاً يلحظُ من دُعرٍ
ممثلٌ في السرِّ والجهرِ

وقال :

هذا الرشا يقنصُ ليثَ الشرى
لو عارضَ العاذلَ يوماً له
بنظرةٍ منه فلا مخلصُ
لكان من أولٍ ما يقنصُ

وقال :

ظبيةٌ في ثغرها لَعَسُ يُجْتَنِي من رشفه عَسَلُ
سَلَكَ التيهُ بمقلتها مسلِكاً قد زانه كسلُ

وقال :

رَقَمَ الخالُ خَدَّها فَرَأينا قَمَرَ الأفقِ فيه نقطةٌ ليلِ
قلتُ: أين الكُثيبُ والغصنُ؟ قالتُ: كلُّ ما قد ذكرتهُ تحتَ ذيلي

وقال :

إن خفتَ من فتك المَهْدِ والقنا فإذا رَكَتْ وإذا مشَتْ لا تقربِ
في قلبِ بُرقعها محاسنُ أنزلت قَمَرَ السماءِ لنا بقلبِ العقربِ

وقال :

رأى عذولي حُسْنَهَا بعدما حَقَّقَ كوني للهوى جانحا
فقال إن كنتَ محباً لها فقد حمدنا رأيك الناجحا

وقال :

ذكرَ اللهُ بالمريةَ عيشاً لستُ عن ذكره الجميلِ أحولُ
طالَ عهدي بها وما دمتُ حيّاً لا يزيدُ الرجاءُ بل قد يطولُ

وقال :

مَرَّتْ ليالٍ بالمريةَ طالما قَضَيْتُ من ليلٍ بهنٍ مآربا
لم أسألُ عن تلك الديارِ وإنما جعلَ الفضاءَ لكلِّ نفسٍ غالباً

وقال :

لا تَعْقُتِي عن العقيقِ فلأني بينَ أكنافه تركتُ فؤادي
وعلى تُرْبِهِ وقفتُ دموعي ولُسْكَانِهِ وهبتُ ودادي

وقال :

عرف المنزل الذي دار فيه زمنُ الأنسِ والشبابِ النصيرِ
فشجاه قلبُ التلاقي فراقاً وانشئ عنه ذا فؤادٍ كبيرِ

وقال :

جمالُ هذا الغزالِ سحرٌ يا حبّذا ذلك الجمالُ
هلالُ خَدَيْهِ لم يُغَيِّبْ عني وإن غُيِّبَ الهلالُ
غزالُ أنسٍ يصيدُ أسداً فاعجب لما يصنعُ الغزالُ
دلّاه دلّ كلّ شوقٍ عليّ إذ زانتهُ الدلالُ
كماله لا يخافُ نقصاً دام لهُ الحسنُ والكمالُ
نباله قد رمت فؤادي يا حبّذا تلکم النبالُ
حلالُ وصلي لهُ حرامٌ وحكم قتلي لهُ حلالُ
زُلالُ ذاك الحمى حياتي وأين لي ذلك الزلالُ
قتاله لا يطاقُ لكنْ يعجيني ذلك القتالُ

وقال :

بينَ تلكَ الخيامِ أكرمَ حيٍّ طَرَبْتُ للندى عليهم خيامُ
قد أقاموا بينَ العقيقِ وسلعٍ فحياةُ النفوسِ حيثُ أقاموا

وقال :

إذا جئتَ نجداً كرمَ الله عهدَه فسلمَ على أهلِ المنازلِ من نجدِ

لئن حال بُعدُ الدار بيني وبينهم فإني لأرعاهمُ على ذلك البعدِ
وقال :

خَجَلْتُ عندما نظرتُ إليها وانثنتُ وهني بين تيهٍ ومنعٍ
إنما وَرَدُ خدَّها زرعُ طرفي حين مروا فكيف أحرَمُ زرعِي
وقال :

لكَ نفسي إذا بدت لك نَجْدُ فلَقَدُ سرَّني الزَّمانُ بنجدِ
فلتلكَ الحيامِ عندي عهدُ وأبى الله أن أضيِّعَ عهدي
وقال :

سلْ عن القومِ إن بدت لك سَلْعُ فقَوَّادي عندَ الذين بسَلْعِ
لي على تلکمُ المعاهدِ دمعُ كادَ يُغني بها عَنِ اللَّثِّ دمعِي
وقال :

صفحوا عَن محبهم وأقالوا من عثارِ النوى ومَنّوا بوصلِ
لستُ أَسْتوجبُ الوصالَ ولكن أهلُ تلكَ الحيامِ أكرمُ أهلِ
وقال :

مال الزمانُ بهم عَنِّي وقد بعدوا لم يُلْهني عنهمُ أهلٌ ولا مالُ
إنِّي لأخشى وما الأيامُ طوعُ يدي أنِّي أموتُ ولي في القلبِ آمالُ
وقال :

بينَ وادي النقا وبانِ المِصْلَى ملأَ ألبسوا الوجودَ جَمالاً
إن يكن قد نوى لي الدهرُ قرباً منهمُ فهو قد كَفاني نوالاً

وقال :

زرتُ الديارَ عن الأُحبةِ سائلاً ورجعتُ إذلالاً بدمعِ سائلٍ
ونزلتُ في ظلِّ الأراكَةِ قائلاً والرَّبعُ أخرمُ عن جوابِ القائلِ

وقال :

لا أوحشُ اللهَ المنازلَ منهمُ منهمُ غدت تلكَ الديارُ حسانا
فاشكرْ لدهركَ أن أراكَ بحاجرٍ بأن الحمى وأراكهُ قد بانا

وقال :

لكَ يا واديَ العقيقِ عَليْنا كلُّ ما شئتَ من ذمامٍ وثيقٍ
فَمَنْ البرِّ أنْتي أنْبري مِنْ عقوقٍ لمتزلٍ بالعقيقِ

وقال :

يا أهلَ ذي سَلَمٍ بشرى لستلمِ ذاكَ الثرى مُقَدِّمٍ في السيرِ لم ينمِ
يَوْمُ داراً بها خيرُ الوري حسباً الخاتمُ الرسلِ من عَرَبٍ ومن عجمِ

ولنقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضع على هذا المقدار ، وإنما أطنبت فيه لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيقه بحق المذكور وحق رفيقه ، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضاً فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب ، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خيرهما في الشرق أشهر .

[من شعر رفيق ابن جابر]

وأما رفيقه شارح بديعته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع بعض حاله وكلامه ، ولتَنزِدْ هنا ما تيسر ، فنقول : من نظمه :

لَمَّا عدا في الناس عقربٌ صُدَّعَهَا كَفَّتْ أَذَاهُ مِنَ الْوَرَى بِالْبَرْقِ
وَالصَّبْحُ تَحْتَ خَمَارِهَا مُتَسَرُّ عَنَّا مَتَى شَاءَتْ تَقُولُ لَهُ أَطْلِعْ

وقال :

تَجَنَّتْ فَجَنَّ فِي الْهَوَى كُلُّ عَاقِلٍ رَأَاهَا وَأَحْوَالُ الْمَحَبِّ جَنُونُ
وَمَا وَعَدَتْ إِلَّا عَدَتْ فِي مِطَالِهَا كَذَلِكَ وَعَدُّ الْغَايَاتِ يَكُونُ

وقال :

لَا تَجِدُوا فِي الْهَوَى عَلَى كَلْفٍ نَظِيرُهُ فِي الْغَرَامِ لَنْ تَجِدُوا
لَهْفَانُ مَا يَشْتَكِي إِلَى أَحَدٍ ظَمَانُ غَيْرِ الدَّمْعِ لَا يَرُدُّ

وقال :

رَبِّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِالْجَزِيرَةِ فَتَذَكَّرْتُ أَهْلَنَا بِالْجَزِيرَةِ
قَصَّرَ الْأَنْسُ مَا تَطَاوَلَ مِنْهُ وَكَذَا أَزْمَنُ السَّرُورِ بِسِيرَةِ

قال : والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمى بالعاصي ،
والثانية جزيرة الأندلس .

وله أيضاً :

وَمَا لِي وَالتَّزِينَ يَوْمَ عِيدٍ وَجِيدُ صِبَابَتِي بِالْدمْعِ حَالِي
وَقَدْ أُرْسَلْتُ أَشْهَبُهَا بِرِيدٍ وَبَعْدَ كَيْتِهَا يَنْبِي بِحَالِي

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء ؛ وبالكُمَيْتِ الدمع المشوب
بالدم ، قال رحمه الله في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصّه :
قلت : وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ذا قصور محفّفة ،
وحدائق ملتصقة ، وبنيان مشيد ، ونخل طلعه نصيد ، وجنات تؤتي أكلها كل حين ،

وسواقٍ تجري بهِ بماءٍ معين ، ثم لعبت بهِ أيدي السنين ، وغيرت معالمه
فصار عبرةً للناظرين ، فلم يبق من معاهده إلا آثارٌ تشهد بحسنه ، ونضرة نعيم
تدلُّ على ما سلف من نضارة غصنه ؛ وقد خرجنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا
بالمدينة الشريفة ، وهو يتدفق بمائه ، ويعارضُ بجوهرِ حَبابه أنجم سمائه ، وقد
سالتُ شعبه ، وفاض عُبابه ، والناسُ تفرقوا في جهاته ، وافرشوا غصنُ نباته ،
والشَّيخُ قد توشَّحَ بالندى ، والأنسُ قد راح به وغدا ، والأصيلُ مُذهَّبُ الرداء ،
والبيداءُ مخضرةُ الأنداء ، وبخافته آثارُ قصور ، ليس لها في الحسنِ قصور ، قد
بليتَ وحسنها جديد ، وخربت وربَّعها بالأنسِ مَشِيد ؛ انتهى .

ومن بديع نظمه قوله :

مهلاً فما شِيمُ الوفا منقادةً لمنِ ابتنى من نيلها أوطارا
رُتِبُ المعالي لا تُنالُ بحيلةٍ يوماً ولو جهد الفقى أو طارا

وقوله رحمه الله تعالى :

على وادي العقيق سكبتُ دمي بلا عينٍ فيلذو كالعقيقِ
فكم غصنٍ ورقيقٍ منه يحكي قوامَ رشا شهيٍّ فمٍ ورقيقِ

وقال :

سألتك بالله يا مَنْ غدا يصرفُ بالقلبِ أفعالهُ
تداركُ محباً بدرياقٍ وصلٍ فإنَّ بَعادَكَ أُنْفَى لَهُ

وقال :

لا تأمننَّه على القلوبِ بِ فمه أصلُ غرامها
فلحاظه هنَّ التي رَمَتِ الوريَّ بسهامِها

ومن فوائده رحمه الله تعالى في شرح البديعية ما نصه : ومن غريب ما في

« لَدَى » أن أبا علي حكى في تذكرته عن المفضل أنها أتت بمعنى « هل » وأنشد :

لَدَى مِنْ شَبَابٍ يُشْتَرَى بِمَشِيبٍ وَكَيْفَ شَبَابُ الْمَرْءِ بَعْدَ ذَهَابِ ١ ؟

رجع - وقال رحمه الله تعالى يتشوق إلى حَمْرَاءِ غرناطة :

ذَابَتْ عَلَى الْحَمْرَاءِ حُمْرُ مَدَامَعِي وَالْقَلْبُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ ذَائِبٌ
طَالَ الْمَدَى بِي عَنْهُمْ وَلِرَبِّمَا قَدْ عَادَ مِنْ بَعْدِ الْإِطَالَةِ غَائِبٌ

وقال :

مَا هَبَّ مِنْ نَحْوِ السَّيِّكَةِ بَارِقٌ إِلَّا غَدَا شَوْقِي لِقَابِي شَابِكَا
وَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ الْفِرَاقَ لِرَبِّعِهَا لَكِنْ قَضَاءُ اللَّهِ أَوْجَبَ ذَلِكَ

وقال :

مَنَازِلُ سَلَمَى إِنْ خَلَّتْ فَلَطَمْنَا بِهَا عَمَرْتُ فِي الْقَلْبِ مَنِي مَنَازِلُ
رِسَائِلُ شَوْقِي كُلَّ يَوْمٍ تَزُورُهَا وَمَا ضَيَّعْتُ عِنْدَ الْكَرَامِ الرِّسَائِلُ ٢

وقال :

بِجَوْرِ الْوَدَاعِ لَنَا مَوْقِفٌ أَذَابَ الْفُؤَادَ لِأَجْلِ الْوَدَاعِ
فَمَا أَنَا أَنْسَى غَدَاةَ النَّوَى وَحَادِي الرِّكَائِبِ لِلْبَيْنِ دَاعِي

قال : وجور الوداع موضع بظاهر غرناطة ، عادة من سافر أن يودّع هناك .

وقال :

نَاولَتْهُ وَرْدَةً فَاحْمَرَّتْ مِنْ خَجَلٍ وَقَالَ : وَجْهِي يُغْنِينِي عَنِ الزَّهْرِ

١ ق : ذهب .

٢ ق : الرسائل .

الحدُّ وردٌ ، وعيني نرجسٌ ، وعلى خدِّي عذارٌ كريمانِ على نهر
وقال رحمه الله تعالى في التشريع :

يا راحلاً ينبغي زيارة طيبة نلتَ المني بزيارة الأخيارِ
حيَّ العقيق إذا وصلت وصف لنا وادي مني بأطياب الأخبارِ
وإذا وقفت لدى المعروف داعياً زالَ العنا وظفرت بالأوطارِ
وقال :

يا أولاً في المرسلين وآخرأ الله خصَّكَ بالكمال ليرضيك
من قبل آدم قد جعلت نبيّه قديماً فقدّمك الإلهُ ليُعَلِّبك
أوحى إليك لكي تكون حبيبهُ ويتمَّ نعمتهُ عليك ويهديك
وقال :

صبرتني في هواك اليوم مشتهراً لا قيسُ ليلي ولا غيلانُ في الأوّل
زعمت أن غرامي فيك مكتسبٌ لا والذي خلق الإنسان من عَجَلٍ
وقال :

لا تُعادِ الناس في أوطانهم قلّما يُرعى غريبُ الوطنِ
وإذا ما شئتَ عيشاً بينهم «خالقِ الناسَ بخلقِ حسنٍ»
وقال :

نسختي اليوم في المحبة أصلٌ فعليها اعتمادُ كلِّ عميدٍ
نقلُوا مرسلَ المدامع منها وصحيحَ الهوى بغير مزيدٍ
قد رواها قبلي جميلٌ وقيسٌ حينَ هاما بكلِّ لحظٍ وجيدٍ

ومن فوائده : أنه لما أنشد في « طراز الحلة » قول سعد الدين محمد بن عربي
في ابن مالك :

إنَّ الإمامَ جمالَ الدينَ فضَّلَه

« إلى آخره » قال ما ملخصه : ولما أورده الصفدي في « فض الختام » قال :
هذا في غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى « الفوائد » وإنما هو « تسهيل
الفوائد » فذكر المضاف إليه دون المضاف ، وهي تورية ناقصة ، قلت : ابن مالك
له كتابان : أحدهما « الفوائد » صنعه أولاً ثم صنع « تسهيل الفوائد » بعده ،
وكأنه سهَّلَ فيه كتابَ الفوائد ، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمّى بالفوائد
ببلدنا غرناطة ، فلمّا وصلنا إلى هذه البلاد بحثنا عنه فلم نجده ، وتمادى الأمر
على ذلك إلى سنة ٧٦٠ ، فوجدناه في حلب ، وهو الآن عندنا ، وهو عزيزُ
الوجود ، ولذلك خفي على القاضي صلاح الدين ؛ انتهى وبعضه بالمعنى .
وقال أبو جعفر أحمد المترجم به : كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين
خليل الناسخ :

مَدَدْتَ النوى وَقَصَرْتَ اللَّقا أَرْضِي بِهِذا وَأَنْتَ الْخَليلُ
وَتَرَكْ أَحْمَدَ ذَا وَحْشَةٍ لَدَيْكَ وَأَنْتَ لَهُ ابْنُ جَلِيلٍ

وقال :

قد كان لي أنسٌ بطيب حديثكم والآن صار حديثكم برسولٍ
ولقد مددتُ من النوى مقصوره إنَّ الخليلَ يراه غيرَ جميلٍ
وله رحمه الله تعالى :

ما للنوى مُدَّتْ وَأَنْتَ خَليلنا ولقبِلُ قد قصرت برغم الكاشحِ
أَتَبَعْتَ فِي ذَا مَذْهَباً لَا يُرْتَضَى أبداً وليس الرأيُ فيه بِصالحِ

وله :

ولما رأى الحسادُ منك التفاتةً إلى جانب الله الذي كان مرفوضاً
أضافوا إلى عتياك كلَّ نصيحةٍ حقيقٍ لدينا بالإضافة مخفوضاً

وله :

حُسْنُكَ ما بين الوري شائعٌ قد عُرِفَ الآن بلام الطلر
فجاء منه مبتدأ للهوى خبَرُهُ الآسُ مع الجلتار
ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا .

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى :

وقد قلنا أن علي بن لسان الدين كان نديمَ السلطان وخاصَّته ، كما ذكرنا
في مخاطبته لابن مرزوق في الباب الخامس قوله : فالسلطانُ يرعاه الله تعالى يوجب
ما فوق مزية التعظيم ، والولدُ هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قلَّ أن يتألوه
بغير هذا الإقليم ، والخاصةُ والعامةُ تعامل بحسب ما بكتته من نصيحٍ سليم
وترك لما بالأيدي وتسليم ، وتدير عاد على علوها بالعذاب الأليم ، إلا من
أبدى السلامة وهو من إيطان الحسد بحال السليم ؛ انتهى .
ولقد صلق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصيح وغيره .

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان ، ونصه : « من
عبد الله أمير المسلمين محمد وصل الله تعالى سعده ، وبلغه من فضله العميم
قصدَه ، إلى أوليائنا المخصوصين منا ومن سلفنا بذيام الجوارِ القريب ،
والمساكنة التي لا يتطرقُ إلى حقها الذي بني استرايةُ المستريب ، المعتمدين إذا
عدَّت الرعايا ، وذكرت المزايا ، بمزيد الاعتناء والتقريب ، من الأشياخ
الجلَّة الشرفاء والعلماء ، والصُدُور الفقهاء ، والعلول الأذكيا ، والأعيان

الوزراء ، والحماة المدافعين عن الأرجاء ، والأمناء الثقات الأتقياء ، والكافة الذين نصل إليهم عوائد الاعتناء ، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السواء ، من أهل حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربّضها ، شرّح الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صدورهم ، وكنتف بتناج الاستقامة سرورهم ، وأصلح بعنايته أمورهم ، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم وأمورهم : سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعد حمد الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباساً ، والذكرى لبناء المتآب أساساً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى الفوز العظيم ابتغاء لرحمته والتماساً ، والرضى عن آله الذين اختارهم له ناساً ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباساً ، فلنّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى إعزازكم وحرس أحوازكم ؛ وجعل للعمل الصالح اهتزازكم ؛ وبقبول النصائح امتيازكم - من مستقرنا بمحروسة الحمراء ، حماها الله سبحانه ، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأقوال والأعمال ، وعناية تحف من اليمين والشمال ، وتوكل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال ، وأنتم أولياؤنا الذين لا ندّخر عنهم نصحاً ، ولا نهمل في تدبيرهم ما يثمر نجحاً ، وبحسب هذا الاعتقاد لا تغفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفلتم ، وموعظة نقصها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلفتم ، وذبح عنكم تارة بسلم نَعْقِدُها ، ومطاولَة نُسَدِّدُها ، وتارة بسيف في سبيل الله تعالى نَحْدِّدُها ، وعمارة للشهادة ترددها ، ونفوس بوعد الله نَعِدُّها ، ونرضى بالسهر لتمام أجفانكم ، وبالكَدِّ لتتدبّع صبيانكم وولدانكم ، وباقتحام المخاوف ليتصل أمانكم ، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا ، أو أمكنّا أن لا تفضلكم رعيةً بصلاح دينٍ أو دنيا لفعلنا ، هذا شغل زماننا منذ عرفناه ، ومَرَمَى هَمِّنا مهما استهدفناه ، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم ، ومَلَأْنَا طاعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ،

والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيبة ، ويتتبع مساقط الغمام الصيبة ، ويوردها الماء النмир ، ويتبع لها النماء والثمار ، ويصلح خللها ، ويداور عللها ، قلَّ عَدَدُها ، وعدمت غلتها وولدها ، فندم على ما ضيعه في أمسه ، وجنى عليها وعلى نفسه .

« وألفيناكم في أيامنا هذه الميامن عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه ، وملأت أيديكم مواهبه وقسمته ، وشغل عدوكم بفتنة قومه فنتمم للعافية فوق مهاد ، وبَعَدَ عهدكم بما تقدم من جهدٍ وجهاد ، وخمصةٍ وسُهاد ، فأشفقنا أن يجركم توالي الرخاء إلى البطر ، أو تحملكم العافية على الغفلة عن الله تعالى وهي أخطرُ الخطر ، أو تجهلوا مواقع فضله تعالى وكرمه ، أو تستعينوا على معصيته بنعمه ، فمن عرف الله تعالى في الرخاء وجدّه في الشدة ، ومن استعد في المهل وجد منفعة العدة ، والعاقل من لا يغرّ في الحرب أو السلم بطول المدة ، فالدهر مبلي الجدة ، ومستوعب العدة ، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شغلوا بأنفسهم عن جبركم ، وسلموا لله في نصركم ، ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوة إلا بالله بشغركم ، وأهمتهم فتن تركت رسوم الجهاد خالية خاوية ، ورياض الكتاب الأخضر ذابلة ذاوية ، فإن لم تشمروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون ؟ وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون ؟ وإذا لم تستعدوا في المهل فمَن تستعدون ؟ لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة بالدون ، فلا تأمنوا مكر الله ﴿ فلا يأمن مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون ﴾ (الأعراف : ٩٩) .

« ومن المنقول عن الملل ، والمشهور في الأواخر والأول ، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، وانقطعت عنهم الرحمات ، ووقعت فيهم المثالات والنقمة ، وشحت السماء ، وغيبض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجفت الضروع ، وأخلفت الرضوع .

« فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التي توقظ من السَّنة ، ونفرع آذانكم بقوارع الألسنة ، فأفزعوا الشيطان برعيتها ، وتقربوا إلى الله تعالى برعيتها ، الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها المعروفة فكمملوها ، فهي الركن الوثيق ، والعلم المائل على جادة الطريق ، والخاصة التي يتميز بها هذا الفريق ، وبادروا صفوفها المائلة ، وأتبعوا فريضتها النافلة ، وأشرعوا إلى تاركها أسنة الإنكار ، واغتموا بها نواشيء الليل وبوادي الأسحار ، والزكاة أختها المنسوبة ، ولدتها المكتوبة المحسوبة ، فمن منَّعها فقد بخل على مولاه ، باليسير ممّا أولاه ، وما أحقّه بذهاب هبة الوهاب وأولاه ؛ فاشترؤا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصدقات ، وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النقات ، وواسؤا سؤلاكم كلّما نُصبت الموائد ، وأعيدت للترفّ العوائد ، وارعوا حق الحوار ، وخذلوا على أيدي الدَّعرة والفجّار ، وأخرجوا الشَّان من الصدور ، واجعلوا صِلّة الأرحام من عزّم الأمور ، وصونوا عن الاغتيال أفواهكم ، ولا تعوّدوا السفاهة شفاهكم ، وأقرضوا القرض الحسن إلهكم ، وعلموا القرآن صبيانكم ، فهو أسُّ المبني ، وازرعوه في تراب تراثهم فعسى أن يُجتنى ، ولا تركوا النصيحة لمن استنصح ، وردوا السلام على مَنْ بتحية الإسلام أفصح ، وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، وثابروا على حلق العلم والتعلّم ، وحفوا بمراقى التكلّم ، وتعلّموا من دينكم ما لا يسعكم عند الله تعالى جهله ، ويتبين أنكم أهلّه ، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على وقاية بُره وشعبيره ، ورعاية شاتيه وبغيره ، ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده ، ويُعده منجاة ليوم معاده ، والله عزّ وجل يقول ولقوله يرحل المتجعون ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لِئِنَّا لَا تَرْجِعُونَ ﴾ (المؤمنون : ١١٥) .

« واثقفوا من الحوادث الشنيعة ، والبدع التي تفت في عصد الشريعة ، فقد شنّ علينا الملبسة بأهل التصوف المغار ، ونال حملتها بل حملتها بإغماضهم

الصغار ، وتؤول المعاد والجنة والنار ، وإذا لم يَغُرَّ الرجل على دينه ودين أبيه
فعلى مَنْ يَغَارُ ، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء ، هم أئمة الاقتداء ،
والكواكب التي عينها الحق للاهتداء ، فاحذروا معاطب هذا الداء ، ودسائس
هذه الأعداء .

« وأهم ما صرفتم إليه الوجوه ، واستدفعتم به المكروه ، العمل بأمره جل
وعلا في الآية المتلوة - ، والحكمة السافرة المجلوة ، من ارتباط الخيل وإعداد
القوة ، فمن كان ذا سعة في رزقه ، فليَقُمْ لله بما استطاع من حقه ، وليتخذ
فرساً يعمر محلته بصهيله ، ويقتنه من أجل الله وفي سبيله ، فكم يتحمل من
عيال يلتمس مرضاتهن باتخاذ الزينة ، والتنافس في ترف المدينة ، ومؤونة
الارتباط أقل ، وعلى المهمة والدين أدل ، إلى ما فيه من حماية الحوزة ، وإظهار
العزة ، ومن لم يحسن الرمي فليتدرب ، وباتخاذ السلاح إلى الله فليقترب ، وقبل
الرمي ترأس السهام ، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام .

« والسكّة الجارية في حوادث نواديكم ، وأثمان العروض التي بأيديكم ،
من تحيّف حروفها ، ونكّر معروفها ، أو سامح في قبول زيف ، أو مبخوس
حيف ، فقد اتّبع هواه ، وخان نفسه وسواه ، قال الله عز وجل ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشراء : ١٨١) ولتعلموا أن
نبيكم صلوات الله عليه إنما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً ، وعن الهفوات
حليماً متغاضياً ، فتمسكوا بحبله ، ولا تعدلوا عن سبيله ، يروكم الله تعالى
من سجله ، ويراعىكم من أجله ، مراعاة الرجل لنجله ، فهو الذي يقول
﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾
(الأنفال : ٢٢) وإن كان في وطنكم اليوم سعة ، وقد ألحفكم أمن من الله تعالى
ودعة ، فاحسبوا أنكم في بلد محصور ، وبين لحبي أسدٍ هصور ، اكتنفكم

بحرٌ يعبُّ عبابه ، ودار بكم سورٌ يبدِ عدوكم بابه ، ولا يدرى متى ينتهي
السُّلم ، وينشعب الكَلَم ، فإن لم تكونوا بناءً مرصُوصاً ، وتستشعروا الصبر
عموماً وخصوصاً ، أصبح الجناح مقصوفاً ، والرأي قد سلبته الحيرة ، والمال
والحریم قد سلبت فيه الضمانة والغيرة ، وإن شاء الله تهبُّ ریح الحمية ، ونصرة
النفوس على الخيالات الوهمية ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله مُنم
نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين ﴿ وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

« واعتقدوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير ، ولو مثل جراد
مزرعة أثارها مثير ، بل بإخلاص لا يبقی لغير الله افتقاراً ، ونفوس توسع ما
سوى الحق اقتداراً ، ووعد يصدق ، وبصائر أبصارها إلى مثابة الجزاء تحدق ،
وهذا الدين ظهر مع الغربة ، وشظف التربة ، فلم ترعه الأكاسرة وفيولها ،
والقياصرة وخيولها ، دين حنيف ، وعلم مُنيف ، من وجوه شطر
المسجد الحرام تولى ، وآيات على سبعة أحرف تتلى ، وزكاة من الصميم تنتقى ،
ومعارج ترتقى ، وحج وجهاد ، ومواسم وأعياد ، ليس إلا تكبير شهير ، وأذان
جَهير ، وقوة تعد ، وثغور تسد ، وفيء يقسم ، وفخر يرسم ، ونصيحة تهدي ،
وأمانة تؤدى ، وصدقة تحفى وتبدى ، وصدور تشرح وتشفى ، وخلق على خلق القرآن
تحذى وتقفى ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا العقد قد سَجَل ،
والوعدُ به قد عَجَل ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) ولا ينقطع لهذا الفرع عادة
وصليه ، ما دام شبيهاً بأصله ، وإنما هو حَلَبٌ لكم زبدته المخوضه ،
وخلاصته المخوضه ، والعاقبة للمتقين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾
(ص : ٨٨) .

« وحضر تكم اليوم قاعدة الدين ، وغاب المجاهدين ، وقد اخترعت بنا أيامنا
هذه وأيام والدنا المقدس الآثار الكبار ، والحسنات التي تنقلت بها الأخبار ،

وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة ، والمنقبة المبرورة ، وهي يمارستان بقيم منكم المرضى المطرحين ، والضعفاء المغترين منهم والمعرضين في كل حين ، فأنتم تطؤونهم بالأقدام ، على مرّ الأيتام ، ينظرون إليكم بالعيون الكليّة ، ويعربون عن الأحوال الدليّة ، وضرورتهم غير خافية ، وما أنتم بأولى منهم بالعافية ، والمجانين تكثّر منهم الوقائع ، وتفسو منهم إمانة العهد الذائع ، عار تحظره الشرائع ، وفي مثله تُسدّد الذرائع .

«وقد فضلتُ أهل مصر وبغداد ، بالرباط الدائم والجهاد ، فلا أقل من المساواة في معنى ، والمنافسة في مَبْنَى ، يذهب عنكم لؤم الحوار ، ويزيل عن وجوهكم سِيَمَات العار ، ويدل على همتكم ، وفضل شيمتكم ، أهل الأقطار ، وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع ، وحرص اعتراه على ممنوع ، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع ، ولولا اهتمامنا بمرتزة ديوانكم ، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم ، لسبقناكم إلى هذه الزُلفَة ، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمّل الكُلفَة ، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنة بينائه ، وأسهمناكم في فريضة أجره وثنائه ، فنحن إن شاء الله تعالى نعيّن له الأوقاف التي تجري عنها المرفقة ، وتتصلّ عليه بها الصدقة ، تأصيلاً لفخركم ، وإطابة في البلاد لذكركم ، فليشاور أحدكم هِمَّتَه ودينه ، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه ، ونسأل الله تعالى أن يوفّق كلّاً لهذا القصد ويعينه ، ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيها إلى غايتها ، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورايتها ، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول ، وتلقوا داعي الله تعالى فيها بالقبُول ، والدنيا مزرعة الآخرة ، وكم معتبر للنفوس الساخرة ، بالعظام الناخرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (فاطر: ٥) وأنتم اليوم أحقّ النَّاس بقبول الموعدة نفوساً زكية ، وفهُوماً لا قاصرة ولا بطيّة ، وموطن جهاد ، ومستسقى غمام

من رحمة الله تعالى وعياده ، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن ،
وألقوا فيها العَظَن ، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم ، وصحة إيمانكم ،
وتساوي أسراركم وإعلانكم ؟

« اللهم إنا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحملة ، وبلغناهم نصيحتك
المكملة ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة ، فيسّرنا وإياهم لليسرى ،
وعرفنا لطائفك التي خفي فيها المسرى ، ولا تجعلنا ممن صمّ عن النداء ،
وأصبح شماعة الأعداء ، فما ذلّ من استنصر بجانبك ، ولا ضلّ من استنصر
بسنتك وكتابك ، ولا انقطع من توسّل بأسبابك ، والله سبحانه يصلّ لكم
عوائد الصنع الجميل ، ويحكمكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، ويصل
سعدكم ، ويحرسُ مجدكم ، والسلام الكريمُ ينخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .
انتهى .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام :
« الله الله في الهمم فقد خمدت ریحها ، والله الله في العقائد فقد خفيت
مصاييحها ، والله الله في الرجولية فقد قلّ حدّها ، والله الله في الغيرة فقد
تعسّر جدّها ، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله ، والله الله في الحريم
فقد مدّ إلى استرقاقه يدَ تأميله ، والله الله في الملة التي يريد إطفاء ستّائها ، وقد
كلّ فضلها وتناهى ، والله الله في الحريم ، والله الله في الدين الكريم ، والله الله
في القرآن ، والله الله في الجيران ، والله الله في الطارف والتالد ، والله الله في الوطن
الذي توارثه الولد عن الوالد ، اليوم تستأسد النفوس المهينة ، اليوم يستنصر
الصبر والسكينة ، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذمّم ، اليوم يسلك سبيل
العزم والحزم والشدة والشتم^١ ، اليوم يرجع إلى الله المصرون ، اليوم يفيق من
نوم الغفلة المغترون ، قبل أن يتفاقم الهول ، ويحقّ القول ، ويُسد الباب ، ويحقّ

١. اليوم . . . والشتم : سقطت من ق . .

العذاب ، ويسترق الكفر الرقاب ، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار ، والطيور ترفرف لتحمي الأوكار ، إذا أحست العيث^١ بأفراخها والإضرار ، تمر الأيام عليكم مر السحاب ، وذهاب الليالي لكم ذهاب ، فلا خبر يفضي إلى العين ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كد إلا لزيئة يُحَلَّى بها نحرٌ وجيد ، ولا سعي إلا لمتاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد ، وبالأمس نُدْبِتُمْ إلى التماس رُحْمَى مسخَرِ السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الديمة ، ومحبي البشر والبهيمة ، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء ، وأغبرت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء ﴿ وفي السماء رزقكم وما تُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات : ٢٢) وإليها الأكف تمدون ، وأبرابها بالدعاء تقصدون ، فلم يُضْحِرْ منكم عدد معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا الصدقة خبر ، وثقل عن إعادة الرغبة إلى الولي الحميد ، والغني الذي ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم : ١٩) وإيم الله لو كان هوأ لارتقت الساعات ، وضافت المسعات ، وتزاحمت على أنديته الجماعات .

« أنعزأ على الله وهو القوي العزيز ؟ أتليسا على الله وهو الذي يميز الخبيث من الطيب والشبه من الإبريز ؟ أمعاندة والنواصي في يديه ؟ أغروراً بالأمل والرجوع بعدُ إليه ؟ مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يتزل الرزق ويفيده ؟ مَنْ يُرْجَعُ إليه في الملمات ؟ مَنْ يُرْجَى في الشدائد والأزمات ؟ من يوجد في المحيا والممات ؟ أفي الله شك يختلج القلوب ؟ أئتمَّ غير الله يدفع المكروه ويسر المطلوب ؟ تفضلون على اللجلإ إليه عوائد الفضل ، ونزه الجهل ، وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب ، وتستكشف بالخضوع لعظمته العقاب ، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب ، وكأنتكم عن كرمه

١ ق : العياث .

٢ ق : الحالة .

قد استغنيتم ، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم .
« أما تعلمون كيف كان نيتكم صلوات الله عليه من التبليغ^١ باليسير ، والاستعداد
للرحيل إلى دار الحق والمسير ، ومداومة الجوع ، وهجر المجوع ، والعمل
على الإياب إلى الله تعالى والرجوع : دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها ويدها كسرة
شعير فقال : ما هذا يا فاطمة ؟ فقالت : يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت
أن تأكل منها ، فقال : يا فاطمة أما إنّه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث .
وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر في اليوم سبعين مرة يلتمس رحمه ، ويقوم
وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ورمت قدماءه ، وكان شأنه الجهاد ،
ودأبه الجِد والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الرُّبى والوهاد ، ومقامات رفقته
تحوم على مراتبها الزهاد ، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون ؟ وإذا لم تهتدوا به
فبمن تهتدون ؟ وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعتزُّونَ إليه وتنتسبون ؟ وإذا
لم ترغبوا في الاتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً ، وتقللاً من العَرَضِ
الأدنى وسهاداً ، فقيم ترغبون ؟

« فابتروا حبال الآمال فكل آت قريب ، واعتبروا بمثلات من تقدّم من
أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب ، وتفكروا في منابرها التي يعلو عليها
واعظ وخطيب ، ومطيل ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة ،
المعمورة بأنواع الطاعة ، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم ،
وعاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله تعالى عُقُوبِي
جميعهم ، وذهبت النجمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم ، وأصبحت
مساجدهم مناصباً للصلبان ، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان ، هذا
والناس ناس والزمان زمان .

« فما هذه الغفلة عمن إليه الرجعى وإليه المصير ؟ وإلى متى التساهل في حقوقه

وهو السميع البصير ؟ وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير ؟ وإلى متى نسيان اللجج إلى الولي النصير ؟ قد تداعت الصلبان مجلبة^١ عليكم ، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم ، أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم ؟ وألسنة الآيات تنادىكم ، لم تمتح سطورها ، ولا احتجب نورها ، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل ، وصابر فيها كل خطب جليل ، فوالله لو تمحض الإيمان ، ورضي الرحمن ، ما ظهر التثليث في هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأييد ، لكن شمل الداء ، وصم النداء ، وعميت الأبصار فكيف الاهتمام ؟ والباب مفتوح ، والفضل ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً فهو الغفور الرحيم ، ونستقل مقيل العثار فهو الرؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم ، سُدَّتْ الأبواب ، وضعفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهَّاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (عبد : ٧) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ، وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنْتُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) أعدوا الحيل واربطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها ، فمن خاف الموت رضي بالدنية ، ولا بد على كل حال من المنيّة ، والحياة مع الذلّ ليست من شيم النفوس السنية ، واقتنوا السلاح والعدة ، وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدة ، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم ، واستميتوا من دون أبنائكم ، وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم ، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم ، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم . ذكروا أن امرأة

١ ق : مجابة ؛ التجارية : متراكمة .

احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة ، فتصدقت برغيف ، فأطلق السبع ولدها ، وسمعت النداء : يا هذه لقمة بلقمة ، وإنا لما استنودِناه لحافظون .

« واهجروا الشهوات ، واستدركوا البقية من بعد الفوات ، وأفضلوا المساكينكم من الأقوات ، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات ، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات ، والمواساة في المهمات ، وأيقظوا جفونكم من السّنات ، واعلموا أنكم رضعاء ندي كلمة التوحيد ، وخيران البلد الغريب والدين الوحيد ، وحزب التمحيص ، ونفز المَرَام العويص ، ففقدوا معاملاتكم مع الله تعالى ، ومهما رأيتم الصدق غالباً ، والقلب للمولى الكريم مراقباً ، وشهاب اليقين ثاقباً ، فثقوا بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب ، ولا ينالكُم لأجلها عدو مطالب ، فإنكم في السرّ الكثيف ، وكنف الخير اللطيف ، ومهما رأيتم الخواطر متبدّدة ، والظنون في الله مترددة ، والجهات التي تخاف وترجى متعددة ، والغفلة عن الله ملامسها متجددة ، وعادة دواعي الخذلان دائمة ، وأسواق الشهوات قائمة ، فاعلموا أن الله تعالى منقذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين ، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عدوّان إلاّ على الظالمين ، والتوبة تردّ الشارد^١ إلى الله تعالى والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وهو القائل ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (هود : ١١٤) .

« وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحّت العزائم ، وتوالت على حزب الشيطان الهزائم ، وخملت الدنيا الغريبة في العيون ، وصدقت فيها عند الله الظنون ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (فاطر : ٥) وثوبوا سراعاً إلى طهارة الثوب ، وإزالة

١ ق : وعظة .

٢ ق : السارح .

الشُّوب ، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب ، واعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشدائد ، ويسد طرق العوائد ، فلا تطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله فتغشوا إيمانكم ، ولا تعلقوا متابكم بالضرائر ، فهو علام السرائر ، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنا أولى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة - علم الله تعالى - عن صدق القرينة ، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنما لكم لدينا نفس مبذولة في جهاد الكفار ، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسن وعقبي الدار ، والاختيار لله ولي الاختيار ، ومصرف الأقدار ، وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد ، والحريم المستضعف والأولاد ، ونصلي من دونهم نار الجلال ، ونستوهب منكم الدعاء لمن وعد بإجابته ، فإنه يقبل من صرف إليه وجه إجابته ، اللهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً ، وعلى أعدائك ظهيراً ، ومن انتقام عبدة الأوثان كفيلاً ، اللهم قو من ضعفت حيلته فأنت القوي المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أنت فيناك نعبد وإياك نستعين ، اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام ، ولا تسليمننا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام ، اللهم دافع بملأكتك المؤمنين ، اللهم اجعلنا على تيقظ وتذكر من ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمُ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٧٣) .

«وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهدهم ، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم ، بني مَرِين أُولِي الامتعاض لله تعالى والحمية ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية ، بعزمهم على الامتعاض لحق الجوار ، والمصارحة التي تليق بالأخرار ، والنفرة

لانهتك ذِمَار نبيِّهم المختار ، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ، ومدافعة
أحزاب الشيطان وأهل النار ، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم
الآثار ، والسعي الضمين للْعزِّ والأجر والفَخار ، والسلام الكريم يَخَصِّكم أيها
الأولياء ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

وممَّا كتبه ابنُ لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغني بالله تعالى
والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته :

« هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور ، مصلحاً
بإعانة الله تعالى للأُمور ، مُلْحَقاً بالعدل^١ والإحسان الخاصة والجمهور ، يعلم
من يسمعه أو يقف عليه ، ومَنْ يقرؤه ويتدبر^٢ ما لديه ، ما عاهدنا الله تعالى
عليه من تأمين النفوس وحقِّقْ الدماء ، والسير في التجافي عنها على السَّنَنِ السَّوَاءِ ،
ورفع التناوب عن البعيد منها والقريب ، والمُساواة^٣ في العفو والغفران بين
البريء منها والمريب ، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محمَّل
الحبيب ، وترك ما يتوجَّه بأمر المطالبات ، ورفض التبعات ، ممَّا لا يعارض
حكماً شرعياً ، ولا يناقض سنناً في الدين مرعياً ، فمن كان رهن تبعه أو طريد
تُهْمَةٍ ، أو منبوزاً^٤ في الطاعة برية توجب أن نريق دَمَهُ^٥ ، فقد سحبتنا عليه
ظلال الأمان وألحفناه أثواب العفو والغفران ، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق
والإحسان ، حكماً عاماً ، وعفواً تاماً ، فاشياً في جميع الطبقات ، منسحباً على
الأصناف المختلفة ، غاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال ، ولا يضيع السؤال ،
واستغفرنا عن نفسنا وعنم أخطأ علينا من رعيتنا ممن يدرأ الشرع غلظته ،

١ ق : ملحقاً جناح الله للعدل .

٢ ق : وييلي .

٣ ق : والمساواة منها .

٤ ق : منبوزاً .

٥ توجب . . . دمه : سقطت من ق .

وَيَقْبَلُ الْحَقَّ قِيَّاتَهُ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النساء : ١١٠) لما رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمائر ، وخلص القلوب والسرائر ، في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر ، ومسه بتقدم الفتنة الضر ، وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا ، وهياه بنا في نادينا ، فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة ، ورفع من بأس وإحنة ، وكشف من ظلمة ، وسدل من نعمة ، وأصفى من مورد عافية ، وأولى من عصمة كافية ، بعدما تخربت الثغور ، وفسدت الأمور ، واهتضم الدين ، واشتد على العباد كلب الكافرين المعتدين ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ (يوسف : ٣٨) فله الحمد دائماً ، والشكر واجباً ، ومن الله نسال أن يتم نعمته علينا كما أتمها على أبونا من قبل إن ربك حكيم عليم .

« ونحن قد شرعنا في تعيين من ينوب عنا من أهل العلم والعدالة ، والدين والحلالة ، للتطوف في البلاد الأندلسية ، ومباشرة الأمور بالبلاد النصرية ، ينهون إلينا ما يستطلعون ، ويبلغون من المصالح ما يعرفونه ، ويقيدون ما تحتاج إليه الثغور ، وتستوجه المصلحة الجهادية من الأمور ، ونحن نستعين بفضلاء رعيتنا وخيارهم ، والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم ، على إنهاء ما يخفى عنا من ظلمة تقع ، أو حادث يبتدع ، ومن اتخذت بجواره خمر فاشية ، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية ، فنحن نقلده العهد ، ونطوقه القلادة ، ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهده ، وإحسان سعي من أبلغه وأداه ، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه ، والتقرب به إليه ، فمن أهدي لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره ، ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » انتهى .

[وصية لسان الدين لأبنائه]

وإذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه الله تعالى من

النصائح والمواعظ والوصايا ، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا ، كلٌّ دون شأوه ، وقصر عن أمدّه مديدُ خطّوه ، وقد تقدّم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة ، فلتراجع في محلّها المتكاثرة ، وقد آن أن نسرد في هذا المحل الوصية التي أوصى لسانُ الدين رحمه الله تعالى بها أولاده ، وهي وصية جامعة نافعة ، يحصل بها انتعاش ، لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش ، ونصّها^١ :

الحمد لله الذي لا يروعه الحِمام المرقوب ، إذا شيم نجمه المثقوب ، ولا يبغته الأجل المكتوب ، ولا يفجؤه الفراق المعتوب ، ملثم الهدى الذي تظمن به القلوب ، وموضح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب ، لا سيما للولي المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) ﴿ ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقُوب ﴾ (البقرة : ١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زُرَّتْ على نوره جيوبُ الغيوب ، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تفتححه الغيون ولا تَصِمُهُ العيوب ، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ، والأمل المسلوب ، والاقتداء الموصل للمرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

وبعد ، فإنّي لما علاني المشيب بقمته ، وقادني الكبر في رمته^٢ ، وادكرت الشباب بعد أمته^٣ ، أسفت لما أضعت ، وندمت بعد الفطام على ما رضعت ، وتأكدت وجوب نصحي لمن لزمني رعيه^٤ ، وتعلق بعيني سعيه ، وأملت أن

١ قارن نص هذه الوصية بما ورد في أزهار الرياض ٦ : ٣٢٠ .

٢ ق : برمه ، والتصويب عن الأزهار .

٣ ق : بهمه .

٤ الأزهار : بسمي .

تتعدى إلى ثمرة^١ استقامته وأنا رهين قَوَات ، وفي برزخ أموات ، ويأمن العثور
في الطريق التي اقتضت عثاري ، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على
آثاري ، فقلت أحاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ، بعد الضراعة إلى الله تعالى
في توفيقهم ، وإيضاح طريقهم ، وجمع تفريقهم ، وأن يمين علي^٢ منهم بحسن
الخلف ، والتلافي من قبل التلف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف ،
فهو ولي ذلك ، والهادي إلى خير المسالك :

اعلموا هذاكم الله تعالى الذي بأنواره تهدي الضلّال ، وبرضاه تُرفع
الأغلال ، وبالتماس قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ،
وتبرأت من يمينها الشمال - أني مُودعكم وإن سألني الردي ، ومفارقكم وإن
طال المدى ، وما عدا ممّا بدا ، فكيف وأدوات السفر تجمع ، ومناذي الرحيل
يسمع ، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر ، وعجالة مقتصر ، ورثيمة^٣
تُعقد في خنصر ، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر ، تتكفل لكم بحسن العواقب
من بعدي ، وتوضح لكم من الشفقة والحنوّ قصدي ، حسبما تضمن وعد الله
من قبل وعدي ، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه ، ولا ينالكم المكروه ما رفّ
عليكم سقفه ، وكأنّي بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ، وبتناشطكم قد
كسل ، واستبدل الصاب من العسل ، ونصول الشيب تروع بأسل ، لا بل
السام^٤ من كل حذب قد تسلّ ، والمعاد للحد ولا تسل ، فبالأمس كنتم فراخ
حجر ، واليوم أبناء^٤ عسكر مجرّ ، وغداً شيوخ مضبغة وهجر ، والقبور
فاغرة ، والنفوس عن المألوفات صاغرة ، والدنيا بأهلها ساخرة ، والأولى تعقبها

١ الأزهار : ثمرات .

٢ الرثيمة : الحيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة .

٣ السام - بتخفيف الميم - : الموت .

٤ الأزهار : آباء .

الآخرة ، والحازم من لم يُتَعَظْ به في أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ،
فاقتنوها من وصية ، ومَرَّام في النصيح قصية ، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا ،
ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً ، ولكن
ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، ولا رضي الدنيا مثلاً ، ولا لطف بمن أصبح عن
فئة الخير منزلاً .

ولتلقنوا تلقيناً ، وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجلدوا بعد أن أفرد بذنبي ،
ويقرش التراب جنبي ، ويسح انسكابي ، وتهول عن المصلّي ركابي ، أحرص
مني على سعادة إليكم تُجَلِّب ، أو غاية كمال بسبيكم تُرْتَاد وتُطَلِّب ،
حتى لا يكون في الدين والدنيا أَوْزَفَ منكم ظلاً ، ولا أشرف عملاً ، ولا أغبط
نَهْلاً وعملاً ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصبخوا إلى قولي الآذان ،
وتستلمحوا صُبْحَ نصحي فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان : أعوذ بالله
من الشيطان الرجيم ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَنْهَ
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ،
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان : ١٣ - ١٩) وأعيد وصية خليل الله
وإسرائيله ، حكم ما تضمنه حكم تنزيله ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ
فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) والدين الذي ارتضاه واصطفاه ،
وأكمله ووفّاه ، وقرّره مصطفاه ، من قبل أن يتوفّاه ، إذا أعمل فيه انتقاد ، فهو
عمل واعتقاد ، وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدم ،
وبناؤه مع رفض أخيه متهدم ، فالله واحد أحد ، فردٌ صمد ، ليس له والد ولا ولد ،

١ قوله قالتها الزباء حين انتحرت وأبت أن تستلم لعمرو بن عدي .

تنزه عن الزمان والمكان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ، خالق الخلق وما يعملون ، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون ، الحي العليم المدبّر القدير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس^١ إلى النجاة من الشقاء ، وتوجّه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ، ثمّ ختم ديوانهم بنبي ملتنا المريعة الحمل^٢ ، الشاهدة على الملل ، فتلخصت الطاعة ، وتعيّنت^٣ الإمرة المطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ، ثمّ إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً ، وترك دينه يضم من الأمة نشرأ ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه تورّط^٤ عنه في متشبهه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي : كتاب الله ، وسنتي ، فعضوا عليهما بالنواجذ »^٥.

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، ومشفق شفقة والد ، واستشعروا حبه الذي توفّرت دواعيه ، وعوّا مرّاشد هديه فيا فوز واعيه ، وصلّوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به مجملأ^٦ أو مفصّلاً^٦ على حسبه ، وأوجبوا التجارة لصحبته الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير ، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولا تع التشاجر بينهم أذن^٧ واع ، فهو عنوان

١ الأزهار : المباد .

٢ الأزهار : المريعة للحمل .

٣ الأزهار : وتبينت .

٤ ق والتجارية : تورط .

٥ هو من حديث العرياض بن سارية السلمي الصحابي عن الرسول ؛ وعضوا عليهما بالنواجذ أي تمسكوا بهما كما يتمسك العاص بجميع أضراره ، وروي الحديث « فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين عضوا عليها بالنواجذ » (أسد الغابة ٣ : ٣٩٩) .

٦ أو مفصلاً : سقطت من ق والأزهار .

السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة ، وأئمتها الجيلة ، فهم صقلة نصولهم ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم .

واعلموا أنني قطعت في البحث زماني ، وجعلت النظر شاني ، منذ برآني الله تعالى وأنشاني ، مع نبل يعترف به الثاني ، وإدراك يسلمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ، ولا نازع خطام ، ولا متكلف فطام ، ولا مقتحم بحر طام ، إلا وغايته التي يقصدها قد فضلتها^١ الشريعة وسبقتها ، وفرعت نيتها وارقتها ، فعليكم بالترام جادتها السابلة ، ومصاحبة رفقتها الكاملة^٢ ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) وقد علت شرائعه ، وراع الشكوك رائعه ، فلا تسترلکم الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدین ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أحسن ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت فأت خير الشاهدين .

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الجلود ، واستعينوا برضى الله من سخطه ، واربأوا بنفوسكم عن غمطه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بفرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل اثلافكم ، واقتنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا على ما فات وتعلمر ، فإنما هي دجنة ينسخها الصباح ، وصفقة يتعاقبها^٣ الخسار والرباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها .

١ الأزهار و ق : فضلتها ؛ وفضلتها : سبقتها وبذتها في الرمي .

٢ الأزهار : الكافلة .

٣ الأزهار : يتعقبها .

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه^١ عمل ، وكل ما سوى
 الراعي همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت^٢ أمل ، وتمسكوا بكتاب
 الله تعالى حفظاً وتلاوة ، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في
 آياته ومعانيه ، وامثلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتألولوه ولا تغلوا فيه ، وأشربوا
 قلوبكم حب من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر
 الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم .
 الله الله في الصلاة ذريعة التجلة ، وخاصة الملة ، وخافقة الدم ، وغنى المستأجر
 المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناحية عن
 الفحشاء والمنكر وإن^٣ عرض الشيطان عرضهما ، ووطئاً للنفس الأمارة سماءهما
 وأرضهما ، والوسيلة إلى بل الجوانح بمرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض
 الفكر ، وضامنة^٤ حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواسمة
 بسمة السلامة ، والشاهدة للبعد^٥ برفع الملامة ، وغاسول الطبع إذا شانه طبع ،
 والخير الذي كل ما سواه له تبع^٥ ، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة ،
 فالخير عادة ، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية ، وتأثروا على العلية الدنية^٦ ،
 فإن أوقاتها^٧ المعينة بالانقلاط تنبئ^٨ ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ، وإذا
 قورنت^٩ بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل ،

١ الميت : سقطت من الأزهار .

٢ الأزهار : مهما .

٣ الأزهار : وضابطة .

٤ الأزهار : للعقد .

٥ الأزهار : كل خير له تبع .

٦ وتأثروا . . . الدنية : سقطت من ق وأصل الأزهار .

٧ ق : فأوقاتها .

٨ تنبئ : تسرع .

٩ الأزهار : قرنت .

والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت ، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتوها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحققت^١ الكمال ، ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال^٢ ، وذلك أخرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف برئاسه . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفرقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، وكان في درج الرجولية ذا انتقال ، واستقاض صدأه بصقال ، وإن تراخى فهقر الباع ، وسرقتة الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشمّل الضبايع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولدتها القرية ، مفتاح السماحة بالعرض الزائل ، وشكران المستول على الصدقة من درجة السائل ، وحق الله تعالى في مال من أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعنته ، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه ، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه . فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، في اختيار عرضها ونتاجها ، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عدل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرون أين تسلكون ، فوهب وأقدر ، وأورد بفضله وأصدر ، ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ،

١ الأزهار : استحق .

٢ زاد في الأزهار : وثأروا عليها في الجماعات ، وبيوت الطاعات ، فهو أرفع للام ، وأظهر لشرائع الإسلام وأبر بإقامة ... إلخ .

فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نواله .
وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلْفَى ، المحوضة لمن يعلم السر
وأخفى ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ، والاجتهاد ،
ولإثارة التهجد^١ على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سنته المرعية ، ولواحقه
الشرعية ، فبذلك تحسن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب
قسوة الطباع ، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع .
والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب ، والفرص على العين لا يحجبه
الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما قرّض عن ربه
وسنته ، وقال ليس له جزء عند الله إلا الجنة .
ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى
لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيده وبطيعة ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .
هذه عمد الإسلام وفروضة ، ونقود مهره وعروضه ، فحافظوا عليها تعيشوا
مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مبذّلين ولا مُغَيِّرِينَ ،
ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .
واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلي محاسنها من بعد
الانتخاب ، فعليكم بالعلم النافع ، دليلاً بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا
الباب ، والموصل إلى الباب ، والله عز وجل يقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩)
والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشرطه الخشية لله تعالى
والخليفة ، وخاصة الملاء الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تتلى ، والسبيل في
الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة ، والذخر الذي قليله ينفع ،

وكثيره يشفع^١ ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا مال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فالتمسوه لبنينكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودرسه ، واجعلوا طباعهم ثرى^٢ لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه ، وسهر يهجر له الجفن كراه ، تعقدوا لهم ولاية عز لا تُعزل ، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحطّ فارعا ولا يُستزل ، واختاروا من العلوم التي ينفعها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت .

وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابها المريعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضابق ثمرات المعاد حصولها ، فإنما هي آلات لغير ، وأسباب إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً لازدياد ، وألقى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحة من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة ، المهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التي هي أسمى ، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وليأكم العلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطويق الاحتقار ، وسمة الصغار ، وخمول الأقدار ، والحسّف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ، وأوفق^٣ من قطع العمر في الجidal ، هذا ابن رشد قاضي مصر

١ الأزهار : والذخر الذي قليله يشفع وينفع وكثيره يمل ويرفع .

٢ ق : ندى .

٣ ق : وأشفق .

ومُفْتِيهِ ، وملتَمِس الرشد ومُؤَلِّيهِ^١ ، عادت عليه بالسخطِ الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخلطوا سامكم بحامها ، إلا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فممحجور ، وضرم مسجور ، وممقوت مهجور .

وأمرُوا بالمعروف أمرأ رقيقاً ، وانها عن المنكر نهياً حريئاً بالاعتدال حقيقةً ، واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مُفِيَقاً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقاً .

وأطيعوا أمر من ولاه^٢ الله تعالى من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفتنة جَمَراً ، ولا تُدْخِلُوا في الخلاف زيداً ولا عمراً .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُؤَارَى ، والسوأة التي لا يُرْتَابُ في عارها ولا يُتَمَارَى ، وأقل عقوبات الكذاب ، بين يدي ما أعد الله له من العذاب ، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نَطَقَ .

وعليكم بالأمانة فالحيانة لُوم ، وفي وجه الديانة كُتُوم ، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الحشمة والصيانة ، ولا تجزوا من أقرضكم دينَ الحياة ، ولا توجدوا للغدر قَبُولاً ، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٤) ولا تستأثروا بكثرة ولا خزن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزن ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن ، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في

١ الأزهار : ومؤتبه .

فُسْحَة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير مُنْسَدَة ، ما لم يَنْبِذ إلى الله تعالى بأمانِهِ ،
ويغمس في الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَنًا قويمًا ،
وجلى من الجهل والضلال ليلًا بهيمًا ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء :
٩٣) واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرم طباعه ، وامتد في سبيل
السعادة باعه ، لو لم تلتقَ نور الله الذي لم يهد شعاعه ، فالخلال لم تضق عن الشهوات
أنواعه ، ولا عدم إقناعه ، ومن غلبت عليه غرائر جهله ، فلينظر هل يجب أن
يُزْنَى بأهله ، والله قد أعدَّ للزاني عذابًا ويلاً ، وقال ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ
كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (النساء : ٢٢) .

والخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ، والله لم يجعله الله في الحياة
شرطًا ، والمحرم قد أغنى عنه بالخلال الذي سَوَّغ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية
أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد ،
والله تعالى قد جعلها رجسًا محرماً على العباد ، وقرَّنها بالأنصاب والأزلام في
مباينة السداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مَتَاهي الدين ، والله تعالى يقول ﴿ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٧٨) وقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٩) في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق
يبسحه ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ، والتمسوا الحلال يسعى فيه
أحدكم على قدمه ، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلجأوا إلى المشابهة
إلا عند عدمه ، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع ، والمحافظة عليه
مغبوط ، وإياكم والظلم فالظلم ممقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح
العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان . والنميمة فساد
وشتات ، لا يبقى عليه متات ، وفي الحديث « لا يدخل الجنة قَتَاتٌ »^١ .

١ القَتَات : النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون (النهاية ٣ : ٢٢٧) .

واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغية فباب الخير معها مسدود ،
والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود . وإياكم وما يُعتذر منه فمواقع الخزي
لا تستقال عثراتها ، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها ، وتفقدوا أنفسكم
مع الساعات ، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات ، ورقوا على ذوي الزمانات
والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات . وعولوا عليه وحده
في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نصّبتم الموائد ، وتقربوا إليه باليسير من
ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعوا
حقوق الجار ، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ، وتعاهدوا أولي الأرحام ،
والوشائج البادية الالتحام ، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد
السّرّ والجهر ، والرّشا فإنّها تحط الأقدار ، وتستدعي المذلّة والصغار ، ولا
تساعوا في لعبة قمر ، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر . وصونوا المواعيد من
الإخلاف ، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلّاف ، وحقوق الله تعالى من
الإزراء والاعتساف ، ولا تلهجوا بالآمال العجاف ، ولا تكلفوا بالكهانة
والإرجاف . واجعلوا العمر بين معاش ومعاد ، وخصوصية وابتعاد . واعلموا أن
الله سبحانه بالميرصاد ، وأن الخلق زرع وحصاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية
الهموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم . واعلموا أن الخير أو
الشر في الدنيا محال أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذية المؤذين ، ولا تقارضوا مقالات
الظالمين ، فالله لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام
كلّما نزلت ، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت ، فكل منقرض حقير ،
وكل مُنقّض وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى
الأرج ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى
لعبد إليه جانح]^١ ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجاؤا إليه في البأساء والضراء ،

١ واجنحوا . . . جانح : سقطت من ق وأصل الأزهار .

وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، ويعذب الوارد ، وأسهموا منها للمساكين وافضلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ، فمن الآثار « يا عائشة ، أحسن جوار نعم الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » . ولا تطفوا في النعم فتقصروا عن شكرها ، وتلفكم الجهالة بسكرها ، وتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجدكم حلتها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلترم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يُهْمَل . وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصلوا التعاهد والتراور ، ترفعوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهاوشوا تهاوش السباع على الحيفة ، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شرٌّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقرّوه .

والله الله لا تنسوا مقارضة سجلي ، وبروا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلبي المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العفار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام الثوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر معاذة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ، ويسر من رضى

١ زاد في التجارية : فإنه دأب الفر ، والمباراة ساقطة من ق والأزهار .

الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير نقصان ، والزعازع تسلم اللدن اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ^١ وغلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً ، فليتلق^٢ وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة وعنة ، وأسر وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلال بعبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل ، ومزلة قدّم ، واستتباع ندّم ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيبي التي أصدرتها ، وتجارتي التي لربحكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ، وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ، اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيّمة ، استكثرتم من بواعث الندم . ومهما سئتم إطالتها ، واستغرتم مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلّة الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعلها الله من وراء خطة النجاة^٢ ، ونفق بضائعها المزجاة ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيبكم المودع ، والله سبحانه يأمه حيث شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ، ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية القريدة في حسنها ، الغريبة في فنها ، المبلغة نفوس الناظرين

١ التجارية : الخطوب .

٢ ق والتجارية : جعل ... خطة النجاة .

فيها فوق ظنتها ، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التأليف العديدة كـ « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب » - وهو في ست مجلدات [ولولم يكن له غيره] لكان كافياً ، وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك ، ولم يؤلف في المذهب مثلها - [كثيراً ما يدخل منها في خطبه]^١ .

[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]

رجع إلى ما كنا فيه :

أقول : لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعمالهم باقتفاء النهج الذي يرون فيه السلوك ، وقد وقفت للفقيه الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الجنان المرسي الأندلسي رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بد منه ، فرأيت أن أذكرها هنا تتيماً للفائدة ، ونصها بعد الصدر :

من مجاهد الدين ، وسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود ، أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بتمكينه ، وأعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه ، إلى صينونا المبارك ، وقسيمنا وأخينا المخصوص بتبجيلنا وتكریمنا ، وحسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا ، الأمير الأعلى ، الموقر الأسمى ، الميمون النقيية المحمود السجية ، الأحب النية ، الأعز علينا ، المتمم بمساعيه الصالحة كل ما نؤينا ، أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده ، وأمضى في الحق قواضيه وصيعاده ، ووالى معونته وإنجاده ، وتولى توفيقه

١ قد سقط ما بين معقنين من ق والتجارية ، وزدناه حسب المعنى من أزهار الرياض .

وإرشاده ، سلام طيب كريم زاكٍ يخلصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .
 أمّا بعد — فالحمد لله الذي أوضح للحق سبيلاً ، ومد ظل رحمته على الخلق
 ظليلاً ، وجعل العدل يحفظ نظام الإسلام كفيلاً ، ونزل الأحكام على قدر
 المصالح تنزيلاً ، ونصّب معالم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً ، وأهم إلى ما
 يرضاه عملاً ومعتقداً وقيلاً ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصيّبة ، على سيد
 العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد رسوله الذي فضّله بخلته واصطفاه تفضيلاً ، وبعثه
 بالحنيفية السمحة فينبها تبييناً وفصلها تفصيلاً ، ورتبها كما أمره ربه بإباحة وتندباً
 وتحريماً وتحليلاً ، حتى ثبتت سنة الله ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ
 تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر : ٣) وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم
 به عليه الصلاة والسلام نصّاً وتأويلاً ، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة ، وأحكامهم
 العادلة ، أساساً للمتقين جليلاً ، ومآثر للمفتنين تسبّح الأفهام والأقلام في
 بحارها سبّحاً طويلاً ، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً ،
 ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته ، وحامل أمانته إلى خليفته ، الذي كمل
 الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً ، وأناله من هدي النبوة أفضل ما كان
 للهداة منيلاً ، سيدنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبي جعفر المنصور أمير
 المؤمنين المتبوء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفاً جليلاً ، والمنتخب من
 بحبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده مَعْرَساً ومقيلاً ، والدعاء له من
 لدن العزيز القوي بنصر يأتي لإمداده بمدد الملائكة قبيلاً ، وفتح يؤتي الإيمان من
 الظهور بغية وتأميلاً — .

فإنّا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزماً لا يزال عَضْبُهُ صقيلاً ، وعزّاً
 يروق بإظهار الحق غرةً وتحجيلاً ، ورأياً لقداح السداد والنجاح مُجِياً ، وسعداً
 يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلاً ، من حضرتنا بمرسية حرسها الله تعالى ، ونحن
 نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على فضله الذي أناله جسيماً جزيلاً ، ونتوكل
 عليه ، توكل من يلجأ في كل أحواله إليه ، وكفى بالله وكيلاً ، ونستعينه على أمور

المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعيبتنا ثقيلاً ، وتقف بالضراعة بين يديه ، طلباً لما يخلصنا لديه ، عساه أن يجعل لرغبتنا قبُولاً وتوسيلاً ، ونعوذ به من كل عمل لا يكون حاصله إلا مآلاً وبيلاً ، وعرضاً من الدنيا قريباً ومتاعاً قليلاً .

إنّا - والله المرشد - لنعلم أن هذا الأمر الذي قللنا الله تعالى منه ما قللده ، وأسندته إلينا من أمور خلقه فيما أسنده ، قد ألزمتنا من حقوقه الواجبة ، وفروضه الراتبة ، ما لا يستطيع إلا بمعرفته أداؤه ، ولا يستتب إلا بتوفيق الله تعالى انتهاؤه وابتدأؤه ، فهو المشكور عز وجهه على نعمته ، والمستعان على ما يلقي من رضاه ويقرب من رحمته ، وأن كل امرئ بشأنه مشغول ، وعن خوِيصة نفسه مسؤول ، ونحن بما أسرعنا الله تعالى مشغولون ، وعن الكبير والصغير مسؤولون ، وعلينا النصيحة لله في عباده وبلاده ، والنظر لهم بمتهى جد المجتهد واجتهاده ، ولا قوة إلا بالله عليه توكلنا ، وبه إليه توصلنا ، فعيننا تسهر لتمام للرعية عيونهم ، ونحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم ، وأملنا أن لا نقر فيهم بحول الله تعالى ظلماً ولا هضماً ، ولا نخرم لهم في إقامة حقوق الله ما استطعنا نظماً ، وأنتى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته ، من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوز ظلم ظالم في بريته ، ولعل الله الذي حملنا ما حملنا ، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا ، أن يهب لنا توفيقه ، ويسلك بنا إلى هداه طريقه .

ألا وإن من وليناها أمراً من أمور المسلمين فهو مطلوب به ، وموقوف عليه عند ربه ، فليُنظر امرؤ في جزئية ما نيظ به وكلية ، وليراقب فيما لديه عالم خفيته وجليته ، ألا وكلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته ، فمن حفظ الله حفظه الله في نفسه وآله ، وقضى له بالسعادة في حاله ومآله ، وأُنجاه يوم عرضه وسؤاله ، والتلق عيال الله فأحبهم إليه أحبهم لعياله . العدل العدل فيه قامت السموات والأرض ، وإقامته أقيمت السنة والفرص ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة : ٨) وأقوى ما تشد به أركان الدين وتقوى ، أما إن الحق في أن لا تتعدى

أساليب الشرع وقوانينه ، وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه ، وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .
 ألا وإننا قد عثرنا لبعض قواد الجهات وحكامها على أمور أنكرنا معرفاتها ، واستقبلنا مستوصفاتنا ، وبرئنا إلى الله تعالى من متغيراتها ومخرفاتها ، وعلمنا أن منهم أقواماً لا يتورعون عن الأموال والدماء ، ولا يحذرون فيما يأتون ويتدرون جبار الأرض والسماء ، فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه ، وعجلنا ابتغاء رضاه محقة ومحوة ، وابتعثنا لنظر جديد ، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد ، وتقليظ في المحرمات وتشديد ، واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطاً وضبطاً ، ويفيض على الأمة بعون الله تعالى عدلاً وقسطاً ، وتعين علينا فيما رأيناه لإنفاذ الخطاب إلى كل من استكفينا بالبلاد ، وولينا النظر عنا في مصالح العباد ، بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فصوله ، والاستناد إلى محصوله ، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله :

فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كل حال ، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء وانتحال ، والوقوف عند حدود الله التي حدها ، وأرصدها بإزاء موجباته وعدّها ، فإنه لا يتعداها إلا من رام تعقّي رسمها وطمسه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (الطلاق : ١) والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة ، والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولى الحيطة المنبئة ، والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء ، والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاعتداء ، والطريقة المثل ، وآيات الله التي تتلى ، وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى ، وخفض الجناح ، والأخذ بالرفق والإنجاح ، وتوخي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الإصباح ، والحلم والأناة ، والمذاهب المستحسنات ، والأمور البيّنات .

والله الله في الدماء فإنّها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ، ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل المسلم

لأخيه ، وقد قال مالك الأمر والخلق ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: ١٥١) فتبتوا فيها فأمرها جليل ، وتحريمها لا يدخله تحليل ، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاية الجهاد حكماً أو نظراً ، أو تَكِلُوا إليهم منها مستكراً أو مستتراً ، فإنه إذا استبد بالقضاء فيها كل وال ذهب هدرأ ، واستباحها الجاهل والجائر أشراً وبطراً ، وربما كان فيهم من في طباعه سبعية فيقتل بها الناس قتلاً ذريعاً ، ويتسهل بذلك من جورهِ صعباً ويرتكب بجهله شنيعاً ، ويذهل عن قول الله تعالى ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢) فأنى تحمل المساعدة في هذا الشأن ، أو يحكم به كل إنسان في نفوس أهل الإيمان ؟ معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه ، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزيلة ولا نصرفه ، فسدوا هذا الباب سداً ، وصدوا عنه مَنْ أمه صدأ ، وكفوا كل ما كان من الأيدي للدماء ممتداً ، وَمَنْ وجب عليه القتل شرعاً وتعين ، وانضج موجب القصاص فيه وتبين ، فليس لكم إلا القاعدة الكبرى ، تُتَحَرَّى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضي والشهود كما يجب أن يتحرى ، بعد أن يتثبت في نازله لديكم ويستجلى ويُستَبْرأ ، فلا تحمل القضية إلا على بصيرة ، وحقيقة مستنيرة ، فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس ، ويتعذر بعد الإقادة إعادة النفس .

وملاك الأمر في انتقاء من يتصرف ، وتولية من لا يضيع ولا يتحيف ، فتخبروا للأنظار والجهات ، مَنْ تُرْتَضَى سيرته من الولاية ، ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة ، والمصرين على الراحة والبطالة ، فإنهم إذا استرعوا أضاعوا ، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا ، وميلوا باختياركم إلى المتسمين بالصلاح ، المرتسمين في ديوان الكفاة النصاح ،

١ شرعاً : سقطت من ق .

وأطيلوا مع ذلك التنقير عنهم والتنقيب ، ولا تغفلوا عن التعهد بالبحث البعيد منهم والقريب ، ومن عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال ، وإضاعة للحقوق وإهمال ، فخذلوا على يده ، وجازوه بفاسد مقصيده ، وأنزلوه بالمنزل الأقصى ، وعاملوه معاملة من أوصي بتقوى الله فما استوصى .

واصرفوا نظركم إلى القضاة فإن مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم ، ويقصر من الأحكام عليهم ، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة ، وذوي التزاهة والصيانة ، أمسكهم الورع بزمامه ، وبلغ العهد بهم غاية تمامه ، وإذا كانوا بضدّ هذا قبلوا الرشوة ، وأوطأوا العشوة ، وأطالوا النشوة ، وأحلّوا من الدماء والفروج محرماً ، وطمسوا من السنّة بالليل والمين معلمها ، وحكموا بالهواة والهوى ، وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى ، فانتهوهم فهم أولى بالانتقاء ، وشرّ جاسرهم وجاهلهم أحق بالانتقاء ، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل ، ولكن قدموهم بتورعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل .

ومما نؤكد عليهم فيه أمر الشهود ؛ فإن شهادة الزور هي الداء العضال ، والظلمة التي يتستر بها الظلمة والضلال ، والحجة الداحضة التي بها يحلّل الحرام ويحرم الحلال ، وقد كثر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة ، فتقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لا يقبلوا إلا مشهوراً بركاء وعدل ، موفوراً حظّه من راحة وعقل ، ومن كان مغموراً عليه في أحواله ، منبوراً بالاسترابة في شهادته وأقواله ، فلتردّ شهادته على أدراجها ، وليبطل ما يكون من حجاجها . وأكدوا عليهم عند تعارض العقود في الترجيح ، والنظر في التعديل والتجريح ، لتجري أمور المسلمين على مستوى الحقّ المستين ، وتبدو المعدّلة مشرقة الغرة مؤتلفة الجبين .

ومما نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ، ولا تولّوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال ، ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين المرعية ، ناصحاً لبيت المال

رفيقاً بالرعية ، وكان في أمانته حائداً عن الحادة السوية ، قائلاً كما قال قبله ابن التتية^١ ، فليُعوَّض منه غيره ، وليُرفع عن الجائنين ضيره ، فإنه ما كانت الحياة قط في شيء إلا أهلكته ، ولا وضعت في إنسان طبيعة سوء إلا ملكته .

ولأنما هو مال الله تعالى الذي يرزق منه الحماة ، وبه تُسد الثغور المهمات ، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته في كله وبعضه ، فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين ، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والقصد والاعتماد الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن تظلم من أحدهم متظلم ، واشفوا شكوى كل متشكك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بجرمة الدماء لاحقة ، وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » .

وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ، ولا يؤخذن أحد بجريرة أحد ، ولا ينجي ولد على والد ولا والد على ولد ، فكتاب الله تعالى أولى بالاتباع وأحرى ، لقول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام : ١٦٤)^٢ اللهم إلا من آوى محدثاً فإنه مأخوذ بما أجرم ، وملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فارفعوا — أعاننا الله تعالى وإياكم — للعدل بكل علم مناراً ، واتخذوا الرفق بالإمامة شعاراً ، فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرفق لا يكون

١ يسمى عبد الله بن التتية بن ثعلبة الأزدي ، قال ابن حجر في الإصابة (٤ : ١٢٣) : مذكور في حديث أبي حميد الساعدي في الصحيحين أن النبي (ص) بعث رجلاً على الصلقات يدعى ابن التتية وذكره الفيروزابادي في تحفة الأييه (ص : ١٠٧) باسم عمر بن التتية وقيل الأتبية الأول قول ابن دريد والثاني قول ابن الكلبي .

٢ وردت الآية أيضاً في سورة الإسراء : ١٥ وفاطر : ١٨ والزمر : ٧ .

في شيء إلا زانه ، ولا يُترع من شيء إلا شأنه » وقد نصّ الكتاب والسنة على مواضع اللين والاشتداد ، ونبها على منازع المقاربة والشداد ، فلا غضب لأمر إلا بما غضب له الله عز وجل ، ولا رضى به إلا إذا استقر فيه رضى الله تعالى وحل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الذي يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عز وجل : عبدي ، لم جلدت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : رب غضبت لغضبك ، فيقول : أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي ؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبدي ، لم قصرت عما أمرتك به ؟ فيقول : رب رحمته ، فيقول : أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي ؟ » قال : فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي ، إلا أنه قال : صيروهما إلى النار ، أعاذنا الله تعالى منها بفضلله ورحمته ! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع ، واحتاطوا في الرعية فإنه رأس المال ، والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال ، ومع توفيقكم لما سطرناه ، في هذا الكتاب وشرحناه ، من أبواب الخير السعد في المآب والمآل ، فاستوفوا ضروب الصالحات واستقصوها ، واعملوا أعمال البر وخصوها ، واذكروا آلاء الله وقصوها ، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) واشتدوا في تغيير المنكرات كلها ، واحسموا أدواءها من أصلها ، ورغبوا الناس في الطاعات واندبواهم إليها ، ووضحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها ، وانتهوا في كل سعي ناجح ، ورأي راجح ، إلى أفضل ما ينتهي إليه المتصحون ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وخلوا بعمارة مساجد الله التي هي بيوت الأتقياء ، وحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .
ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفىء غضب

الرَّبِّ ، ونعم الشفيع يوم القيامة ، والمتوسل فيما يتوج القاريء وأباه تاج الكرامة ،
وأرشدوا للخير ما استطعتم ، واتبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم ، والله ولي التوفيق
والإرشاد ، والملجئ بالهداية إلى طريق الفوز والسداد .

وهذه أوامرنا إليكم امثلنا أمر الله تعالى فامثلوها ، وأحضروها في خواطركم
مع كل لحظة ومثلوها ، وإنّا لما يكون منكم فيها مستمعون ، ولآثاركم فيما
يوفيها لمتطلعون ، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمنا في التذكير ، ونهجننا لكم
منها التقديم والتأخير ، والله تعالى يعلم أنّنا إنّما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم
الحساب ، وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب ، لنرعى حقه
سبحانه فيمن استرعانا ، ونسعى في صلاح الأمة عسى الله تعالى أن ينجح فيه
مسعانا .

اللهم عَبْدُكَ يضرع إليك ، ويخضع بين يديك ، في أن تلهمه إلى ما يحمل
قصداً ومعتداً ، وتهب له من لدنك رحمة وتيسر له من أمره رشداً ، اللهم
منك المعونة على ما وليت ، ولك الشكر على ما أوليت ، فاللهدي من هديت ،
والخير كله فيما قضيت . اللهم من أعاننا على مرضاتك فكن له معيناً ، وأورده
من توفيقك عذاباً معيناً ، إنك الولي النصير ، العلي الكبير .

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصوه^١ على الناس مفصلاً ومجملًا ، وأظهروا
مضمونه لهم قولاً وعملاً ، واسلكوا بهم من مرآشده سنناً مستجملًا ، إن شاء
الله تعالى ، والله سبحانه يديم علاكم ، ويصل إعادتكم في كل محمّد وإبداكم ،
ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم ، بمنه وكرمه لا ربّ سواه . والسلام
الأكرم الأزكى بخصمكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة ،
انتهى .

[ترجمة ابن الجنان]

وهذا ابن الجنان^١ له الباع المديد في النظم والنثر ، ومن شعره رحمه الله تعالى في مرضه الذي توفي فيه ، وهو آخر كلامه :

جهل الطبيبُ شكايتي ، وشكايتي أنَّ الطبيبَ هو الذي هو ممرضي
فإن ارتضى برئي تداركَ فضلَهُ وإن ارتضى سقمي رضيتُ بما رضي
ما لي اعتراضٌ في الذي يقضي به لكن لرحمته جعلتُ تعرّضي

ومن نظمه رحمه الله تعالى ملفزاً في بطيخة :

وحبلى بأبناء لها قد تمخضوا بأحشاها من بعد ما ولدوها
كسوها غداة الطلق بُرداً معصراً على يققٍ أزرارها عقدوها
ولما رأوها قد تكاملَ حُسْنها وأبدَرَ مِنْهَا طالعٌ حسدُها
فقدوا أقميصَ البدرِ بالبرقِ واجتَلوا أهْلَها من بعد ما فقدوها
ولو أنصفوا ما أنصفوا بدرَ تمها ولا أعدموا الحسناء إذ وجدوها

وقال أيضاً ملفزاً في الميل ، وهو المِرْوَد :

مسترخص السوم غال عال له أيُّ حظوه
ما جاوز الشبر قدراً لكنَّهُ أَلْفُ خطوه

وهذا استخدام ما به باس ، لأنه اكتسى من الحسن خير لباس ، وكم لهذا

١ كتب حيشما ورد في ق والتجارية « ابن الجيان » - بالياء - وهو خطأ ؛ فقد ذكره ابن عبد الملك في مواضع من الذيل والتكملة (٤ : ١٠٨ و ٥ : ٣٢٧ . . .) بالنون ؛ ونسخة الجزء الخامس من الذيل والتكملة مضبوطة مصححة . وكذلك ثبت اسمه في المصادر التي ترجمت له (انظر الإحاطة ٢ : ٢٥٦ - ٢٦٤ وعنوان الدراية : ٢١٣) . وله في الذيل والتكملة (٥ : ٣٢٧) رسالة إلى أبي عبد الله ابن عابد ، وفي (٤ : ١٠٨) تغزية في أستاذة سهل بن مالك ، والجزء الذي ترجم له فيه ابن عبد الملك لا يزال مفقوداً ، وعنه ينقل لسان الدين .

الكاتب من محاسن ، ماؤها غير آسن .

وقد عرّف لسان الدين في الإحاطة بابن الجحنان ، وأطال في ترجمته ، ونشير إلى بعض ذلك باختصار .

وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية ، أبو عبد الله ابن الجحنان .

كان محدثاً راوية ضابطاً ، كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً ، رائق الخط ، ديناً فاضلاً ، خيراً ذكياً ، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرم من ذلك ويقول^١ منه ، ثم خلصه الله تعالى منه ، وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة ، حتى يظن رائيه الذي استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها ، متناسب الخلقة ، لطيف الشمائل وقوراً ، خرج من بلده حين تمكن العدو من قبضته سنة ٦٤٠ ، فاستقر بأريولة إلى أن دعاه إلى سبنة الرئيس^٢ أبو علي ابن خلاص^٣ ، فوفد عليه ، فأجل وفادته ، وأجزل إفادته ، وحظي عنده حظوة تامة ، ثم توجه إلى إفريقية ، فاستقر ببجاية ، وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته ، وروى ببلده وغيره عن أبي بكر ابن خطاب وأبي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع ابن سالم وأبي عيسى ابن أبي السداد وأبي علي الشلوين وغيرهم ، وكان له في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بدائع ، ونظم في المواعظ للمذكّرين كثيراً ، انتهى مختصراً ، وإلا فترجمته في الإحاطة متسعة ، رحمه الله تعالى .

ولما كتب له أبو المطرف ابن عميرة برسائلته الشهيرة التي أولها « تحييك الأقلام تحية كسرى ، وتقف دون مداك حسرى » وهي طويلة ، أجابه بما

١ الإحاطة : ويضيق .

٢ هو الحسن بن خلاص تولى سبنة سنة ٦٣٧ ثم ثار فيها في زمن السعيد أبي الحسن ابن المعتض بالله من خلفاء الموحدين سنة ٦٤١ وبايع للأمر أبي زكريا الحفصي صاحب تونس . وكانت وفاته سنة ٦٤٦ (ابن عذاري ٣ : ٣٥٩ ط . تطوان) .

نصه : « ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية ؟ أتُنكِتُ من الأقلام ؟ أو تُبكِتُ من الأعلام ؟ أو كلا الأمرين توجّه القصدُ إليه ، وهو الحق مصداقاً لما بين يديه ؟ وإلاّ فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه ^١ ، ويترامى للغاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانت أنابيه للعاجم ، ودانت أعاريه للأعاجم ؟ واعجباً لقد استنوق الحمل ، واختلف القول والعمل ، لأمرٍ ما جدّ ع أنفه قصير ^٢ ، وارند على عقبه الأعمى أبو بصير ، أمس استسقي من سحابه فلا يسقيني ، وأستشفي بأسمائه فلا يشفيني ، واليوم يُحَلّتي محلّ أنوشروان ، ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان ^٣ ، ويزعم أنني أبطلت سحره ببشر ذروان ^٤ ، ويخفي في نفسه ما الله مبديه ^٥ ، ويستجدي بالأثر ^٦ ما عند مستجديه ، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة ، والشرعية المبتدعة ؟ أيظن أن مُعَمّاه لا ينفك ، وأنه لا ينجلي هذا الشك ؟ هل ذلك منه إلا إحماض التّيه ، وإحماض تفتّيه ، ونشوة من خمر الهزل ، ونخوة من ذي ولاية آمنٍ من العزل ؟ تالله لولا محله من القسم ، وفضله في تعليم النّسم ، لأسمعته ما ينقطع به صلّقه ، وأودعته ما ينصدع به صدّقه ، وأشرت بطرف المشرقي وحده ، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده ، ولكن هو القلم الأوّل ، فقلوه على أحسن الوجوه يُتأوّل ، ومعلود في تهذيبه ، كل ما لسانه يهذي به ، وما أنساني إلا الشيطان أياديه أن أذكرها ^٧ ، وإتّما أقول :

١ أي عن الملك .

٢ هذا مثل يرد في قصة الزبلاء وجذيمة .

٣ الزيدية : أتباع زيد بن علي ، وقد قتله الأمويون في زمن هشام بن عبد الملك .

٤ بشر ذروان : بناحية المدينة ، وفي حديث هشام بن عروة أن لبيد بن الأعصم سحر الرسول ونخباً السحر في تلك البئر .

٥ إشارة إلى الآية : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس » .

٦ ق : بالأسد ؛ التجارية : بالأثر .

٧ من الآية : « وما أنساني إلا الشيطان أن أذكره » .

ليت النجى كانت لي فأشكرها^١

ولا عتب إلاّ على الحياء ، المبرحة بالبرحاء ، فهي التي أقامت قيامتي في الأندية ، وقامت عليّ قيام المتعدية ، يتظلم وهو عين الظالم ، ويُلين القول ونحته سم الأراقيم ، ولعمر اليراعة وما رضعت ، والبراعة وما صنعت ، ما خامرني هواها^٢ ، ولا كلفت بها دون سواها ، ولقد عَرَضَتْ نفسها عليّ مراراً ، فأعْرِضْتُ عنها ازوراراً ، ودفعتها عني بكل وجه ، تارة بلطفٍ وأخرى بنَجْه^٣ ، وخفْتُ منها السامة ، وقلت : انكحي أسامة ، فرضيت مني بأبي جهم^٤ وسوء ملكته ، وابن أبي سفيان وصعلكته^٥ ، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة ، وأسمح من سجاح^٦ في استنجاح تلك الخطبة .

« ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عشرتها ، واستئصال الاجتماع من عترتها ، وأرى من الغبن والسفاه ، أخذها وترك بنات الأفواه والشفاه^٧ ، إذ هي أيسر مؤونة ، وأكثر معونة ، فغلطني فيها أن كانت بمزل تتوارى صوناً عن الشمس ، ومن نسوة خفوات لا ينطقن إلا بالهمس ، ووجدتها أطوع من البنات للكف ، والعنان للكف^٨ ، والمعنى للامم ، والمغنى للرسم ، والظل للشخص ، والمستدل للنص ، فما عرفت منها إلاّ خيراً أرضاه ، وحسبتها من الحافظات

١ من شعر كثير عزة ؛ وتماه : مكان يا جبل حيث يا رجل .

٢ الضمير عائذ إلى « الحاء » ولعله يعني قصيدة أو رسالة بنيت على تكرير الحاء في كل كلمة .

٣ النجى : الرد القبيح .

٤ في ق والتجارية : أبو جهل ، وهو خطأ ، انظر التعليق التالي .

٥ يشير إلى قصة فاطمة بنت قيس أخت الضحّاك حين خطبها معاوية وأبو جهم : أما معاوية فوصف بأنه صعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه (أي يضرب النساء) ، وتزوجت فاطمة بعد ذلك أسامة بن زيد .

٦ قصة زواج سجاح من مسيلة مشهورة ؛ وقد ضرب بها المثل في الإسماح .

٧ بنات الأفواه والشفاه من الحروف مثل الباء والميم . . . إلخ .

٨ الكف : الكبح والمنع .

للغيب بما حفظ الله ، فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها ، ونشرت فنشرت ما استكنمها بعلمها ، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن أبي عبيد^١ ، وضربت في الأرض تسعى علي^٢ بكل مكر وكيد ، وزعمت أن الجيم خدعها ، وألان أخذعها ، وأخبرها أن سيلغ بخبرها الخابور^٣ ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور^٤ .

« فقد جاءت إفكاً وزوراً ، وكثرت من أمرها متروراً ، وكانت كالقوس أرنت^٥ وقد أصمت القنيص ، والمراودة قالت ﴿ مَا جَزَاءُ ﴾ وهي التي قدت القميص^٦ ، وربما يظن بها الصدق وظن الغيب ترجيم ، ويقال : لقد خفضت الحاء بالجوار لهذا الجيم ، وتنتصر لها التي خيمت بين الرجسة والريحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبي على الله سبحانه ، فإن امتعضت لهذه التكلفة ، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة ، فأنا ألوذ بعلمها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها ، وتعمل بمقتضى ﴿ فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (النساء : ٢٥) .

« على أن هذه التي قد أبدت مئنتها ، ونسيت الفضل بيني وبينها ، إن قال الحكمان : منها كان الشوز ، عادت حرورية^٧ العجوز ، وقالت : التحكيم في دين الله تعالى لا يجوز ، فعند ذلك يحصص الحق ، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق ، ويصيبها ما أصاب أروى ، من دعوة سعدية حين الدعوى ، وبها ويحها أرادت أن تجني علي^٨ فجننت لي ، وأناخت لي مركب السعادة وما ابتغت إلا ختلي ، فأتى شرها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضير ، أتراها علمت

١ المختار بن أبي عبيد الثقفي النائر المطالبة بدم الحسين ؛ حوالي ٦٥ هـ . لم يكن ثابت الرأي بخاص النية .

٢ أي سيلغ خبرها إلى مكان ناء ، والخابور من روافد الفرات .

٣ يعني سابور ذا الأكشاف ويقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يد قيصر .

٤ إشارة إلى قصة امرأة العزيز « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » وعندما انفصح الأمر قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . . الآية » .

٥ أي ترفض التحكيم وتقول : لا حكم إلا لله .

بما يثيره اعوجاجها ، وينجلي عنه عجاجها ، فقد أفادت عظيم الفوائد ، ونظيم
الفرائد ، ونفس الفخر ، ونفيس الدر ، وهي لا تشكر أن كانت من الأسباب ،
ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب .

« وإنما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذي يتضوع نسيماً ، الذي شرف
إذ أهدى أشرف السحاءات ، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في
الحاءات ، فإنه وإن ألمَّ بالفكاهة ، بما أملَّ من البداة ، وسمَّى باسم السابق
السُّكَيْتِ ، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت ، وتلاعب في الصفات تلاعب
الصفاح والصَّبَّ بالبانة ، والصَّبَّ بالعاشق ذي اللَّبَّانة ، فقد أغرب بفنونه ، وأغرى
القلوب بفنونه ، ونفت بخفية الأطراف ، وعبث من الكلام المشقَّق بالأطراف ،
وعلم كيف يحض البیان ، ويخلص العقيان ، فمن الحق شكره على أياديه البيض ،
وإن أخذ لفظة من معناه في طرف التقيض .

« تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المستمطر ، والحبر الذي يشفى سائله ،
والبحر الذي لا يرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المسلك ، ومن أين حصل ذلك
النور لهذا الحلک ، وصح أن يقاس بين الحداد والملك ؟ إنَّه لتواضع الأعزَّة ،
وما يكون عند الكرام من الهزَّة ، وتحريض الشيخ للتلميذ ، وترخيص في إجازة
الوضوء بالنبيذ ، لو حضر الذي قُضِيَ له بجانب الغربي أمرُ البلاغة ، وارتضى
ما له في هذه الصناعة ، من حسن السبك لخليها والصياغة ، وأطاعته فيما أطلعته
طاعة القوافي الحسان ، واتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان ، لأذعن كما أذعنت ،
وظعن عن محل الإجادة كما ظعنت ، وأنتى يضاهي الفرات بالنغبة ، ويباهى
بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة ، وأي حظ للكلالة
بالنشب ، وقد اتصل للورثة عمود النسب ، هيهات والله المطلب ، وشتان
الدر والمخشب ، وقد سيم الغلب ، ورجع إلى قياده السلب .

« وإن كنا ممن تقدّم لشدة الظلم إلى المنهل ، كن أقدم إلى عين تبوك بعد
النهي للعل والنهل ، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة عياناً ، وملاً ما هنالك جناناً ،

وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم ، ولكن علمنا أن آخر الشَّرْبِ ساقى القوم ، وإن أسهبنا فما لنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز ، فلكم قصيرات الحجال ، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال ، وإكثارنا في قلة ، وجارنا من الفقر في فقر وذلة ، ومن لنا بواحدة يشرق ضياؤها ، ويخفي النجوم خجلها منها وحياتها ؟ إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل ، وفي الجموع ككيلة الوصل ، فلو سطع نورها الزاهر ، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت تفحات ريتاها في أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرت نحوها النفوس لإسراع الحجيج يوم النفر . وسار خبرها وسرى فصار حديث المقيمين والسفر ، وما ضرَّ تلك السخرة في تجليها ، الساحرة بتجنيها ، أن كانت بمنزلة ريبتها بل ريبتها ، هذه التي سبقتني لما سبقتني بسيتها^١ ، ووجدت ريحها لما فصلت من مصر غيرها ، وحين وصلت لم يدلني على ساربيها إلا عبيرها ، وكم رامت أن تستر عني بليل خبرها في هذه المغاني^٢ ، فأغراني بهاؤها^٣ وكل مغرم مغرى بيباض صبح الألفاظ والمعاني ، وهل كان ينفعها ، تلفحها بمرطها وتلفعها ؟ إذ نادتها المودة ، قد عرفناك يا سودة ، فأقبلت على شم نشرها وعرفها ، ولثم سطرها وحرفها ، وقريتها الثناء الحافل ، وقرأتها فزيت بها المحافل ، ورمت أمر الجواب ، فعزني في الخطاب ، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزي وأشية ، وإليكم مني على استحياء ماشية ، وإن رقَّ وجهها فما رقت لها حاشية ، فمنا بقبولها على عللها ، وانقعوا بماء سباحتمكم حرَّ غُلَّها ، فلأنها وافدة من استقر قلبه عندكم وثوى ، وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى ، بقيم سيدي للفضل والإغضاء ، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء ، واقتضيت السعادة

١ السيتة : اللبن قبل نزول الدرة .

٢ ق : أن يستر عني الليل خبرها في هذه المغاني .

٣ ق : بها .

المتصلة مدة الاقتضاء ، ييُمن الله سبحانه » انتهى .

ومن نثر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم :
« لمحمد خير الأنام ، ولتينة التمام ، عليه أفضل الصلوة والسلام ، خيرة المفاخر ،
يتضاءل لعظمتها المُفاخر ، والمعالى ، يتصاغر لغزتها المعالى ، والمكّارم ، يعجز
عن مساجلتها المُكّارم ، والمناقب ، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب ، والمحامد ، لا
يبلغ مداها الحامد ، والمماجد ، لا يتعاطى رتبهن المُماجد ، والمناسب ، سمت
بجلالهن المناصب ، والعناصر ، طيّبها الشرف المتناصر ، والفضائل ، تفجرت
في أرجائهن الفواضل ، والشمائل ، تأرّجتْ بعرفهن الجنائب والشمائل ، فلا
مُجاريّ لسيد البشر ، الآتي بالندارات والبُشُرى ، فيما حباه الله تعالى به وخصّه ،
وقصّه علينا من خلقه العظيم ونصّه ، عند رسم مدائحه يوجد المعوّل ، وفي الثناء
عليه يُستَقْصَرُ الكلام الطوّل ، هو الآخر في ديوان الرسالة والأوّل ، ولَهُ
في الفضيلة ، وقبول الوسيلة ، النص الذي لا يؤوّل ، نوره صدع الظلم ، وظهوره
رفع لدين الله تعالى العلكم ، بدأه الوحي وهو بحراء ، وأسرّ إليه سر تقدم الإسراء ،
حتى إذا نصب له المعراج ، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج ، ناجى الحبيب
حبيبه ، وجلا عن وجه الجلاء جلايبه ، فتلقى ما تلقى ، لما علا وترقى ، ثم صدر
عن حضرة القدس ، وجين هدايته يَبْهَرُ سنا الشمس ، فشق لمعجزاته القمر ،
ونهى بأمر ربه وأمر ، وأزال الجهالة ، وأزاح الضلالة ، وكسر منصوب الأوثان ،
ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان ، وبنى الملة على قواعدها
الخمس ، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفَاتاً بالرمس ، فرفلت الحنيفية البيضاء في
بردة الجدة ، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودة ، وانتشرت الرحمة
بنبيها ، ومطرت المرحمة من سحب حياها ، وافتننت الآيات الباقيات البينات في
مساقتها واتساقها ، وإشراقها في آفاقها واتلاقها .

« وشهد الحجر والشجر ، والماء من بين البنان يتفجر ، والظبية والضب ،
والجذع المشتاق الصب ، والشاة والبعر ، والليث إذا هداً أو سمع منه الزئير ،

والحي والحمد ، والقَصَّة والزاد ، بأن محمداً رسول الملك الحق ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق ، وصاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والخواص المورود ، والقول المسموع ، والذكر المرفوع ، والصدر المشروح ، والفخر الباهر الوضوح ، والأنوار المتناقلة ، والآثار المتداولة ، والنبوة التي عهدُها تقادم ، من قبل خلق آدم ، والمزية المعروفة قدرها الخليل ، المقبول فيها ما دعا به الخليل ، والرتبة التي استشرف إليها الكليم ، حتى قال له ﴿ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٤) ربُّه الكريم ، والبشارة التي كان بها يصبح حين يسبح ، روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح ، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ، ويقرّع بها الباب المرتج المبهم ، فما لبينا المختار ، من علو المقدار ، واصطفاء الجبار ، والاختصاص بالآخرة ، والاستخلاص للحضرة ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

« وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والوجود الذي لم يزل عظيماً ، أن بعث الله تعالى فيه رسولاً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً ، عزيزاً على ربِّه الكريم كريماً ، بسرّه سجدت الملائكة لآدم تعظيماً ، وبذكره ينظم سلك المادح لحضرته العلية تنظيماً ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً ، صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبته فكان مزاجه تسنيماً ، وسلاماً يتزل دار دارين فيرسل بيضائعها إلى روضة الرضى نسيماً » .

ومن خطبه المرتجلة قوله سامحه الله تعالى :

« الحمد لله الذي حمده من نعمائه ، وشكره على آلائه من آلائه ، أحمده حمداً عارف بحق سنائه ، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه ، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آثائه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه ، المتقدس عما يقوله الملحدون في أسمائه . وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه ، محمد المفضل على العالمين باجتماعه

واصطفائه ، المتقى من صميم الصميم وصریح الصريح بجملة آياته ، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه ، أرسله الله للناس كافة عموماً لا يتخصص باستثنائه ، وفَضَّلَه بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونُظرائه ، ورقاه إلى الدرجات العلا وأنجاه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه ، وحباه بالخصائص التي لا يضاهى بها بهاء كماله وكمال بهائه ، وردَّاه رِداء العصمة فكانت عناية الله تكفنه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه^٢ ، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيتة على الليث والغيث في إياته وانهمائه ، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه ، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندفاق أنوائه ، وسلم تسليمًا .

ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم ، وهي :

«السلام العميم الكريم ، والرحمة التي لا تبرح ولا تريم ، والبركة التي أولها الصلاة وآخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة ، ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفاً ومروءة ، مقام سيد العالمين طراً ، وهاديهم عبداً وحرّاً ، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألفوا العيش ضنكاً والدهر مرّاً ، ومقر الأنوار المحمدية ، والبركات السمرمية ، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها ، وكلاءة ظلها العلية وأفيائها ، وأقر عين عبدها بلثم ثراها ، والانخراط في سلك من يراها .

«السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، سلام من يمد إليك يد الغريق ، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق ، ويتقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلما ازدلف إليك فريق ، وعمرت نحوك طريق ،

١ ق : مجد .

٢ ورداه . . . ورائه : سقطت من ق .

ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يحفز ريق .

« كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون وأقيمت ، واستقام المستعدون وما استقامت ، وبيني وبين لثم ثراك النبوي ، ولح سنالك المحمدي ، مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه ، بماء تَوْبِهِ ، وسر وَصَمَ عِيهِ ، بظهر غِيهِ ، فكلما رُمّت المتاب رُدِدت ، وكلما يَعمت الباب صُدِدت ، وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك ، والوفادة عليك ، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تُنْثِي وتُبعِدُ ، والأيام لا تُدْثِي ولا تُسعد ، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المُقِيمُ المُقْعِدُ ، ولئن كنت ممّن خلّفته عيوبه ، وأوبقته ذنوبه ، ولم يرض للوفادة وهو مذنس ، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس ، فعندي من صلوق محبتك ، وحُبّ صحبتك ، والاعتلاق بدمتك ، ما يُقدّمني وإن كنت مبطناً ، ويقربني وإن كنت مخطئاً .

« فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المني ، وتوسل لي إلى مولّي بَيِّنَ فضيلتك ، وتقبل وسيلتك ، في الثقلة من هناك إلى هنا ، واقبلني وإن كنت زائفاً ، وأقبل عليّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفاً ، فأنت عماد أمتك جميعاً وأشتاتاً ، وشفيعهم أحياء وأمواتاً . ومن نأت به الدار ، وقعدت بعزمه الأقدار ، ثم زار خطّه ولفظّه ، فقد عظم نصيبه من الخير وحظّه ، وإن لم أكن سابقاً فعسى أن أكون مُصَلِّياً ، وإن لم أعد مُقْبِلاً فلعلي أعد مُولِياً ، ووحقك وهو الحق الأكيد ، والقسم الذي يبلغ به المُقسِم ما يريد ، ما وَخَدَت إليك ركاب ، إلا وللقلب إثرها التهاب ، وللدمع بعدها سَحّ وانسكاب ، ويا ليتني ممّن يزورك معها ولو على الوجنتين ، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين ، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال ، ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال ، والله تعالى بمن علي كتابي بالوصول والقبول ، وعلي بلحاق بركتك ولو بعد طول .

« ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا سيد الخلق ، وأقربهم من الحق ، ولمولاه بإحراز قَصَب السبّقي ، ومن طهر الله مثواه وقَدَّسه ، وبناءه على

التقوى والرضوان وأسسه ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفسته ،
وعلى ضجيعيك السابقين لمهاجرينك وأنصارك ، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك ،
وعلى أهل بيتك المطهرين أوائل وأواخر ، الشهيرين مناقب ومفاخر ، وصحابتك
الذين عزروك ووقروك ، وآووك ونصروك ، وقدموك على الأنفس والأموال
والأهل وأثروك ، وأقرئك سلاماً تنال بركته مَنْ مَضَى من أمتك وغبر ،
ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسَطَّر ، إن شاء الله تعالى .

« كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى ، اللائد بحرمك الأمنع الأوقى ،
المتأخر جسماً المتقدم نطقاً ، فلان ، والسلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك
وسلم تسليمًا كثيرًا ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وله من خطبة طويلة : « ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الصفوة المجتبي ،
الكریم أمةً طاهرة وأباً ، المختار من الطيبين مباركاً طيباً ، المصطفى نبياً إذ كان
آدم بين الماء والطين مُتَقَلِّباً ، المتقدم بمقام تأخر عنه مقام الملائكة المقربين ،
انتخبه الله وانتجبه ، وأظهره على غيبٍ عن غيره حَجَّيَّه ، وشرفه في الملا
الأعلى وأعلى رُتَبَه ، وخطَّ اسمه على العرش سَطْرًا وكتبه ، فهو وسيلة النبيين ،
 والمرشح أولًا لإمامة المرسلين ، بعثه ربّه لحُجْم الرسالة ، ونعته بنعت الشرف
والجلالة ، وأيده بالحجة البالغة والدلالة ، وجعله نوراً صادعاً لظلام الضلالة ،
وأثنى في ذكره الحكيم ، على خلقه العظيم ، فما عسى أن يبلغ بعدُ ثناء المُثْنِينَ ،
بفضله التصريح وإليه الإشارة ، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى
البشارة ، وعليه راقّت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة ، وهو المخير
بين الملْك والعبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة والاستشارة ، فبتواضعه
حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه ، ووفد أكرم وفادة عليه ،
وأذناه قاب قوسين لديه ، ووضع إمامة الرسالة العظمى في يديه ، وقال له
﴿ اصدعْ بما تؤمّرْ وأعرضْ عنِ المُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر : ٩٤) فصعد بأمر الله

صَدْعاً ، وَأَوْتِي مِنَ الْمَآثِي سَبْعاً ، وَمِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ آلَافاً وَإِنْ كَانَ أَوْتِي مُوسَى تَسْعاً .

«فَمَا مَشَى الشَّجَرُ إِلَيْهِ يَجْرُ عُرْوَقُهُ إِلَّا كَرَجُوعِ الْعَصَا حِينَ تَسْعَى ، وَمَا تَفْجَرُ الْحَجَرُ بِالْمَاءِ بِأَعْجَبَ مِنْ بَنَانِهِ نَبْعَتُ بِالْعَذْبِ الْفَرَاتِ نَبْعاً ، فَارْتَوَى مِنْهُ خَمْسَمِائَةَ وَقَدْ كَانَ يَكْفِي آلَافاً فَكَيْفَ الْمِثْنِ ، وَكَمْ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَعْجَزَةٍ تَبْهَرُ ، وَآيَةٍ هِيَ مِنْ أَخْتِهَا أَكْبَرُ ، رَجَعَتْ لَهُ الشَّمْسُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، وَكَلَّمَهُ الضَّبُّ وَأَخْبَرَ بِهِ الذَّنْبَ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ الشَّجَرُ وَالْحَجَرُ ، وَكَانَ لِلْجَذْعِ عِنْدَ فِرَاقِهِ إِعْلَاناً بِوُجْدِهِ وَاشْتِيَاقَهُ أَنَّهُ وَحْنِي ، أُعْطِيَ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَكَانَتْ لَهُ فِي الْغَارِ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ خَفِيَ بِهَا عَلَى الْقَوْمِ الْأَثَرُ ، وَارْتَجَّ لِمَوْلَدِهِ لِيُؤَانَ كَسْرِي وَخَمَدَتْ نَارُ فَارَسَ وَكَانَ ضَرْمُهَا يَتَسَعَّرُ ، وَأَتَتْهُ أَنْخَبَارُ السَّمَاءِ فَمَا عَمِي فِي الْأَرْضِ الْخَبَرُ ، فَحَدَّثَ عَنِ الْغُيُوبِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ، وَجَعَلَ لَهُ الْقُرْآنُ مَعْجَزَةً تُثَلِّى ، يَبْلُغُ الزَّمَانُ وَهِيَ لَا تَبْلُغُ ، وَتَعْلُو كَلِمَاتُهَا عَلَى الْكَلَمِ وَلَا تَعْلَى ، وَتَجْلِي آيَاتُهَا فِي عَيْنِ آيَاتِ الشَّمْسِ حِينَ تُجَلِّي ، فَيَتَوَارَى مِنْهَا بِالْحِجَابِ حَاجِبٌ وَجِيْنٌ ، يَهْرُ إِعْجَازُ التَّنْزِيلِ الْعَلِيِّ ، وَظَهَرَ بِهِ صَدَقَ النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ ، فَكَمْ نَادَى لِسَانُ عَزَّةٍ فِي النَّدْيِ ، بِأَهْلِ الْبَدِيَّةِ مِنَ الْفَصَحَاءِ وَالرُّوِيِّ : قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَلَمْ يَكُونُوا لَهَا مُسْتَطِيعِينَ .

«لَقَدْ خَصَّ نَبِيْنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْآيَاتِ الْكُبْرَى ، وَالْإِشَارَاتِ الْوَاضِحَةِ الْغُرُورِ ، وَالْمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ الْمَظْهَرِ ، وَالْكَرَامَاتِ الْمُخَلَّدَةِ لِلْمُفَخَّرِ ، فَهُوَ سَيِّدُ الْمَلَائِكَةِ النَّبَوِيِّ وَالْمَعْشَرِ ، وَحَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ فِي الْمَحْشَرِ ، وَصَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ وَالْكَوْثَرِ ، وَالشَّفِيعُ الْمَشْفَعُ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ ، وَذُرِّيَّتِهِ الْمُبَارَكِينَ ، وَصَحَابَتِهِ الْأَكْرَمِينَ ، وَأَزْوَاجِهِ أُمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، صَلَاةٌ مُوَصَّلَةٌ تَرُدُّ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَتَصْعَدُ إِلَى السَّمَوَاتِ الْعَلَا فَتَكُونُ كِتَاباً فِي عِلِّيَّيْنِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيماً .

وَمِنْ ثَرِهِ فِي خُطْبَةٍ قَوْلُهُ : «أَيُّهَا النَّاسُ ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، أَصْبَحُوا

أسماعكم لمواعظ الأيام ، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام ، وأخضروا لفهم موادّها أوعى القلوب وأصحّ الأفهام ، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النوّام ، ولا تحذعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام ، ولا تنسينكم خدعها الموهّة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام ، فهي دار انقياب النوائب ، ومصاب المصائب ، وحدوث الحوادث وإلزام الآلام ؛ دار صفوها أكدار ، وسلمها حرب تدار ، وأمنها خوف وحذار ، ونظمها تفرق وانتشار ، واتصالها انقطاع وانصرام ، ووجودها فناء وانعدام ، وبنائها تَضَعُضُعٌ وانهدام ، ينادي كل يوم بناديا منادي الحِمام ، فلا قرار بهذه الفراّة^١ ولا مقام ، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام . « فبست الدار داراً لا تدارى ، ولا تُقِيلُ لعائريها عِثارا ، ولا تقبل لمعتدر اعتذارا ، ولا تقي من جورها حليفاً ولا جاراً ، وليس لها من عهد ولا ذِمّام ، كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام ، كم نازلت بنوازها من قباب وخيام ، كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسقام ، كم رمت أغراض القلوب بمُصْصِيات^٢ السّهام ، كم جردت في البرايا للمنايا من حُسام ، كم بددت بأكف النائبات الناهبات من عطايا جسام ، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلام . لا تبقي على أحد ، ولا ترثي لوالد ولا ولد ، ولا تخلد سروراً في خلد ، ولا يمتد فيها لآمل أمد ، بينا يقال قد وجد ، إذ قيل قد فقد . بُعداً لها قد طُبعت على نكد وكمد ، فالفرح فيها تَرَحّ ، والخبرة عبرة ، والضحك والابتسام ، بكاء وأدمع سِجّام . تفرق الأحبة بعد اجتماعهم ، وتسكن الوحشة مؤنس رباعهم ، وتبيح بالحِمام حمى الأعزّة فلا سبيل إلى امتناعهم ، وتستحثّ ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم ، إلى مصيرهم إلى الله عزّ وجل وارتياعهم ،

١ ق : القرارة .

٢ ق : بمزاياها بمصيات .

فيسيرون طوع الزمام ، ويلقون مقادة التذلل والاستسلام ، حتى يلجأوا بالرغام ،
ويتزلوا بطون الرجام ، ويحلثوا الوهد بعد المقام السام ، فلا ناج من خطبها العظيم
ولا سليم ، يتساوى في حكم المنية الأغر والبهيم ، والأعز والمضيم .

«ولو أنه ينجو من ذلك مجد صميم ، وجدّ كريم ، وحظ عظيم ، ومضاء
وعزيم ، ومزية وتقديم ، وحديث في الفضل وقديم ، وشرف لسمك السموات
مُسام ، وعُلّي على ساق العرش المجيد ذو ارتسام ، لنجا حبيبُ الملك العلام ،
وسيد السادات الأعلام ، وصفوة الصفوة الكرام ، وخاتم الأنبياء ولبينة التمام ،
وصباح الهدى ومصباح الظلام ، والأبيض المُستَسقى به غيثُ الغمام ، ثمال
الأرامل وعصمة الأيتام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لكن مع قدره الجليل
وفضله الجلي ، أقدم الموت على جانبه العلي ، وتقدم ملك الموت لقبض روحه
القدسي وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي ، وتفيض ماء السماء والندى ، لملك
السماحة النبوية والندى ، وأصيب المسلمون وأعظم بها مصيبة بنيهم العربي ،
الهاشمي القرشي ، فيا له وللإسلام ، من مصاب أسلمنا للحزن أيّ إسلام ،
وأسال مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام ، وأرانا أن الأمسى في رزية
لخير البرية واجب وأن التأسى حرام .

«وهل يسوغ الصبر الجميل ، في فقيد بكنه الملائكة وجبريل ، وكثر له في
السموات السبع النحيب والعويل ؟ انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتزير ،
وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف^١ والتمثيل ، غداة أقفر منه الرّيع
المُحِيل ، وأوحش من أنسه السفح والنخيل ، وكان من تلك الروح الطاهرة
الوداع والرحيل ، وقامت البتُولُ تندب أباها بقلب قريح وجفن دام ، وتنادت
الأمّة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والترام ، وحارت الألباب
والعقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام . ولما نُعيّت إليه صلى الله عليه

١ الوصف : مقطعت من ق .

وسلم نفسه ، وأن أن تأفل من تلك المطالع شمس ، آذن أمته بالفراق وأعلمهم ،
وناشدهم في أخذ القصاص وكتبتهم ، مخافة أن يمضي إلى الملك الحق ، وعليه
تباة لأحد من الخلق ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، من صفات جائر للأمة
ظلام ، ولكنه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام ، ثم استمر به صلوات
الله وسلامه عليه وتمادى ، وزاد به السقم المتأب وتهادى ، حتى واره ملكه ،
وخلا منه ربه ومسجده ، فعم الحزن والاكتئاب ، وتوارى النور فأظلم
الجناب ، وعاد الأصحاب ، وكأنما دموعهم السحاب ، فقالت فاطمة وقد رابها
من دفن أبيها الكريم ما راب : أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله
عليه وسلم التراب ؟ فكان كلامها للقلوب المفجعة كلام ، وللعيون المفجرة
بالدموع انسحاق وانسجام .

«وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع ، المشيد بذكر الأشجان المذيع ، كانت وفاة
هذا النبي الهادي الشفيع ، وانتقاله إلى الملا الأعلى والرفيق الرفيع ، حين ناداه ربه
إلى قربه ، فلبى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع ، وحسن إلى حضرة القدس فانظم
حين حل بها ما كان من شمله الصديق ، وانتظر من صنع الرب جميل الصنيع ،
وإنجاز وعد الشفيع في الجميع ، إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام ، ووقف
على الخوض ينادي : هلموا إليّ أروكم من العطش والأوام .

«اللهم اسقنا من حوضه المورود ، وشرقنا بلوائه المعقود ، وشفعه فينا في
اليوم المشهود ، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحد ، اللهم اجعله لنا
تعزية من كل مفقود ، وأوجد لنا من بركاته أشرف موجود ، وجازه عنا بما
أنت أهله من فضل وإحسان وجود ، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابه الرُكع
السجود ، واجعلنا معهم في الجنة دار الخلود ودار السلام . واخصصهم عنا
بأكرم تحية وأفضل سلام ، وصلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيّ
استلام ، وتنظم له كرامات إحسانك أيّ انتظام .

«فصلوات الله عليه ، وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه ، وأجزل بركاته ،

ما تجدد في ربيع ذكر وفاته ، وتمهد كهف القبول لطالبي فضله وعفاته ، وتعزى به كل مصاب في مصيباته ، وترجى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته ، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنباته ، حظوظ من بَرَّ الله تعالى وأقسام ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦) اللهم صلِّ عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، اللهم صلِّ عليه من نبي أوجبت حبه وعظمته تعظيماً ، اللهم صلِّ عليه من نبي صليت عليه تجلّة وتكريماً ، وأمرتنا بالصلاة عليه لإرشاداً وتعليماً ، فلنا بأمرك اقتداء واثتمام ، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام ، وكلامك يا ربنا أشرف الكلام ، ولوجْهِكَ وحده البقاء والدوام ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧) ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٥) انتهى .

وترجمة ابن الجنان واسعة جداً ، وكلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل ، رحمه الله تعالى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ما صورته : ومحاسنه عديدة ، وآماده بعيدة ، ثم قال : إنه انتقل إلى بجاية فتوقفي بها في عشر الخميس وستمائة ؛ انتهى .

وقال صاحب « عنوان الدراية » في حق ابن الجنان المذكور ما ملخصه^١ : الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الأديب ، أبو عبد الله ابن الجنان ، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف ابن عميرة المخزومي ، وكثيراً ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ، ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ، ونثره ونظمه

١ عنوان الدراية : ٢١٢ .

كلته حسن ، ونظمه غزير ، وأدبه كثير ، ومن ذلك قصيدته الدالية التي مطلعها :

يا حادي الركب قف بالله يا حادي وارحم صباية ذي نأي وإبعاد

وله أيضاً :

تركُ التزاهة عندنا أدى إلى وصف التزاهة
ما ذاك إلا أنهنا تدعو الوقور إلى الفكاهة
وإذا امرؤ نبذ الوقا رَفَقْد تلبس بالسفاهة

[نغمات من المدائح النبوية]

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد
الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم^١ :

اللهُ زاد محمداً تكريماً
وحبَّاهُ فضلاً من لدنه عَظيماً
واختصَّهُ في المرسلين كريماً

ذا رَافَةٍ بالمؤمنين رحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

جلّت معاني الهاشمي المرسل
وتجلّت الأنوارُ منهُ لمجتلي
وسمّا بهُ قدرُ الفخارِ المعتلي

فاحتلّ في أفقِ السّماء مُقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ وشرف وكرم : سقطت من ق .

حاز المحامدَ والمادحَ أحمدُ
وزكتَ مناسبهُ وطابَ المحتدُ
وتأثَّلتَ علياؤه والسؤددُ

مجداً صميماً حادثاً وقديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شمسُ الهداية ، بدرُها المتناحُ
قطبُ الجلالة ، نورها الوضاحُ
غيثُ السماحة للندي يرتاحُ

يروى بكوثره الظماء الهيما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تاجُ النبوة ، خاتمُ الأنبياء
صفوُ الصريح ، خلاصةُ العلياء
نجلُ الذبيح ، سلالَةُ العلماء

بشرى المسيح ، دعاء إبراهيم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فخرُ لآدم قد تقادم عصره
من قبل أن يدري ويجرى ذكره
سرُّ طوّاهُ الطينُ فهمَ نشره

معنى السجودِ لآدم تفهيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لله فضلُ المصطفى المختارِ
ما إن له في المكرمات مُجاري
ولا مبارٍ باختصاص الباري

بالحقِّ قدّم مجدهُ تقدّماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أوصافُ سيّدنا النبيّ الهادي
ما نالها أحدٌ من الأجدادِ
فالرُّسل في هدي وفي إرشادِ

قدّ سلّموا لنبيّنا تسليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

آياته بهرّت سنا وسناء
وأفادت القمرين منه ضياء
وعلّت بأعلام الظهور لواء

فهدي به الله الصراط قويمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

دنت النجومُ الزُّهرُ يومَ ولادته
ورأت حليلةُ آيةٍ لسيادته
وتحدّثت سعدٌ بذكرِ سعادته

فتفّاءلوا نعمَ اليتيمِ يتيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لمّا ترعرع جاءه المَلَكُ
بالطستِ فيها حكمة الرحمنِ
فاستخرجوا القلبَ العظيمَ الشانِ

منه وطهرتْ ثمّ عادَ سليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

كرمتْ مناصي أحمدٍ خيرِ الورى
وجرى له القلمُ العليُّ بما جرى
ما كان ذلكمُ حديثاً يُفترى

لكنّه الحقُّ الجليُّ رسوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ما زال برهانُ النبيُّ يُلوحُ
يغدو به الإعجازُ ثمَّ يروحُ
حتى أتاهُ بعدَ ذاكَ الروحُ

يُوحى لهُ وحيُ الإلهِ حكيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

شهدتْ لهِ بمزيةِ التفصيلِ
سُورٌ وآياتٌ من التنزيلِ
وصلاةُ خالقهِ أدلُّ دليلِ

فافهمهُ واسمعِ قولهُ تعظيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

إنَّ الرسولَ المعتلي المقدارِ
لمؤيدٌ من ربِّه القهارِ
بالمعجزاتِ جَلَّتْ عَمَى الأبصارِ

وشفت من آدواء الضلال سقيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

كَمْ شَاهدٍ لمحمدٍ بنبوتهِ
في أيدي تأييدِ الإلهِ وقوتهِ
فبذاك أَعْلَى الله دعوةَ حجتهِ

فمضت حساماً صارماً وعزيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

البدرُ شقَّ لهُ ليُظهرَ صدقهُ
والشمسُ قد وقفت تعظّمُ حقّهُ
والمزنُ أرسلَ إذ توصلَ ودقهُ

فاخضرَّ ما قد كان قبلُ هشيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

والماء بينَ بَنَانِهِ قَدْ سَالَ
عَذْباً مَعِيناً سَائِغاً سَلْسَلَا
كَتَدَاهُ يَمْنَحُ رَفْدَهُ مِنْ سَالَ

وَيُنِيلُ رَاجِيهِ النَّوَالِ جَسِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

بِرَكَاتِهِ أُرْبَتْ عَلَى التَّعْدَادِ
كَمْ أَطْعَمَتْ مِنْ حَاضِرِينَ وَبَادِي
مِنْ قِصْعَةٍ أَوْ حَنِيَّةٍ مِنْ زَادِ

رِزْقاً كَرِيماً لِلْجِيوشِ عَمِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

سَجَدَ الْبَعِيرُ لَهُ سَجُودَ تَذَلُّلٍ
وَشَكَكَ إِلَيْهِ بِحَرْقَةٍ وَتَمَلُّلٍ
وَالشَّاةُ قَالَ ذَرَاعَهَا : لَا تَأْكُلِ

مَنْتِي فَإِنِّي قَدْ مَلَأْتُ سَمُوماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

وَالْغَصْنُ جَاءَ إِلَيْهِ يَمْشِي مُسْرِعاً
وَالصَّخْرُ أَفْصَحَ بِالتَّحِيَّةِ مَسْمَعاً
وَالظُّلُمَةُ الْعَجَمَاءُ فِيهَا شُفْعاً

وَالضَّبُّ كَلَّمَ أَحْمَداً تَكْلِماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

وَالْجَذْعُ حَنَّ لَهُ حَنِينَ الْوَالِهِ
يَبْدِي الَّذِي يَخْفِيهِ مِنْ بَلْبَالِهِ
أَفْلا يَحْنُ مَتِيماً بِجَمَالِهِ

يَشْتَاقُ وَجْهاً لِلنَّبِيِّ وَسِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

ما بالنا نسلو وحبٌ حيينا
يقضي بيتٌ غرامنا ونحيننا
لو صبح في الإخلاص عقد قلوبنا

لم ننسَ عهداً للرسولِ كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أين الدموعُ نُفِضُهَا هَتَانَا
أين الضلوعُ نُقِضُهَا أَشْجَانَا
حتى نقيمَ على الأُمى برهانَا

لنتممِ إرشادنا تَتَمِّمِا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أو ليس هادينا إلى سُبُلِ الهدى
أو ليس منقذنا من أَشْرَاكِ الردى
أو ليس أَكْرَمَ من تعمّم وارتدى

أو لَمْ يَكُنْ أَزْكَى البريّةِ خَيْمِا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ذاك الشفيعُ مقامه محمودُ
ولواؤه بيدِ العلا معقودُ
فإذا توافقتِ للحسابِ وفودُ

قالوا : تقدّمْ بِالْأَنَامِ زَعِيمِا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فيقومُ بِالْبَابِ الْعَلِيِّ ويسجدُ
ويقولُ : يَا مَوْلَايَ أَنْ الْمَوْعِدُ
فيجَابُ : قُلْ يُسْمَعُ إِلَيْكَ عَمْدُ

وَنُزِيرِكَ مِنَّا نُصْرَةً وَنَعِيمِا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أَعْظِمُ بَعْرَ مُحَمَّدٍ وَبِحَاجِهِ
أَكْرَمُ بِهِ مَتَوَسِّلًا لِلَّهِ
شَرِبْتُ كِرَامَ الرُّسُلِ فَضْلَ مِيَاهِهِ

فَعَدْتُ تَعْظُمُ حَقَّهُ تَعْظِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا سَامِعِي أَخْبَارِهِ وَمُفَاجِرَتِهِ
وَمُطَالَعِي آثَارِهِ وَمَآثِرَتِهِ
وَمُؤْمِلِي وَافِي الثَّوَابِ وَوَافِرَتِهِ

إِنْ شِئْتُمْ فَوْزًا بِذَلِكَ عَظِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

قلت : وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس ،
وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح
النبوية مَقِيلٌ وتَعْرِيسٌ ، وهي قصيدة ميلادية - كأننا لم ينظمها مؤلفها إلا مقدّمة
لهذه القصيدة الفريدة ، وهي :

اسْمَعْ حَدِيثًا قَدْ تَضَمَّنَ شَرَحُهُ رَوْضًا مِنَ الْإِبْنِاسِ أَيْنَعَ دَوْحُهُ
فِيهِ الشِّفَاءُ لِمَنْ تَكَاثَرَ بَرَحُهُ وَافِي رَيْعٌ قَدْ تَعَطَّرَ نَفْحُهُ
أَذْكَى مِنَ الْمَسكِ الْفَتِيحُ نَسِيمًا

شَهْرٌ حَوَى بِوُجُودِ أَحْمَدَ أَسْعُدَا بِالْمُصْطَفَى بَيْنَ الشُّهُورِ تَفَرَّدَا
يَا مَا أَجَلَ سَنَا عَلَاهُ وَأَمْجَدَا لَوْلَادَةِ الْمُخْتَارِ أَحْمَدَ قَدْ غَدَا
يَزْهَوُ بِهِ فَخْرًا تَرَاهُ عَظِيمًا

يَا مَنْ بِأَدَمِ مَقْلَتِهِ يَغْتَنِّدِي كَمْ ذَاتُنَادِي حَسْرَةً : مَنْ مُنْقِذِي
وَتَقُولُ لِلزُّفَرَاتِ : هَلْ مِنْ مَنفَذٍ بُشْرَى بِشَهْرِ فِيهِ مَوْلَدُهُ الَّذِي
سَرَّ الزَّمَانَ غُلُوهُ تَعْظِيمًا

١ ق : بز .

يا ليلة رُفعت بأحمد حُجبها لَمَّا دنا بعد التباعِدِ قريبا
وتطلعت للسعدِ فينا شهبها ضاءت لها شرقُ البلادِ وغربها
وتأنّقت أرجاؤها تنعِما

أسدى إليك الدهرُ حُسْنَ صنيعه وحبّاك من غصن الجنى ببيدعه
وافى هلال محمدٍ بربيعه فاعتزّ أمر الله عند طلوعه
وغدا به دين الإله قويا

نظم الزمانُ بجيدِ عمرك درّةً فاشكرْ مآثره وواصلِ بيرةً
وافاك بالسِرِّ المصونِ فسرّه واعرف لهذا الشهر حقّاً قدره
فلقد غدا بين الشهورِ كريما

يا صاحِ جاءت بالأمانِ أسعدُ وأطلّ بالبشرى الكريمةَ مولدُ
هذا ربيعٍ فيه أنجز موعدُ شهرٍ كريمٍ جاء فيه محمدُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثم قلت أنا عند ختمِ درّس « الشفا » ، موطناً لقصيدة ابن الجنان المذكور
ولعذب براعتها مرتشفا ، ما نصه والأعمال بالنيات :

انشقّ أزاهر عن فنونِ رياضٍ للعلمِ واكرّع من عذابِ عياضٍ
واسقِ الرياضِ بذكره الفياضِ واحفظْ كلاماً للإمامِ عياضِ
قدّ تمت أقسامه تنعِما

للهِ روضٌ منه أنبع دوحهٌ ينجي به من الكريمِ ومنحهُ
فهو الشفاء لمن تكاثر برّحهُ مسكُ الختام به تعطر نفعهُ
فشذاه في الأرجاء صار شميما

فاضت علينا من هده عوارفُ زهرٌ وأنوارٌ وظلٌّ وارفُ
ونمارقٌ مصفوفة ومطارفُ يا حُسْنُ ما أبداه فذُّ عارفُ
دُرّاً بأسلاك الحديث نظيما

لمْ لا وبالمملك الشقيع تشرفا خيرُ البرية ركن أرباب الصفا
من أسعد الراجي وقصدا أسعفا طهَ النبي الهاشمي المصطفى
صلوا عليه وسلموا تسليما

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة
ابن الجنان المذكور في روي تلك القصيدة غير خمسة مستقلة بنفسها ، وهي قوله
رحمه تعالى :

وأجلُّ مَنْ حازَ الفخارَ صميما	صلوا على خيرِ البرية خيما
أرجاء مكةَ زمزماً وحطيميا	صلوا على من شرفتُ بوجوده
بذراه خيمتِ العُلا نخيما	صلوا على أعلى قريش منزلاً
فجلا ظلاماً للضلال بهيما	صلوا على نور تجلّى صبحه
نهجاً من الدين الحنيف قويما	صلوا على هادٍ أرانا هديه
من لم يزلْ بالمؤمنين رحيماً	صلوا على هذا النبي فإنه
ما مثله في المرسلين كريما	صلوا على الزاكي الكريم محمداً
قد نُظِّمْتُ في سلكه تنظيماً	ذاك الذي حاز المكارم فاغتدتُ
ولدى الندى يحكي الحيا تجسيما	من كان أشجع من أسامة في الوغي
وسطَ النديّ وزاده تعظيماً	طلقُ المحيّا ذو حياء زانهُ
في الوحي جاء بها الكتابُ حكيماً	حكمتُ له بالفضل كلُّ حكيمةٍ
بدرَ الدجى لقسيمه تقسيماً	وبدت شواهد صدقه قد قسّمتُ
وجهاً وسيماً للنبي وسيماً	والشمسُ قد وقفت له لما رأتُ
حتى الجمادُ أجابه تكليماً	كم آيةٍ نطقَتْ تصدّقُ أحمداً

والجلدعُ حنَّ حنينَ صبَّ مغرمٍ
جلَّتْ مناقبُ خاتمِ الرُّسلِ الذي
وسمت به فوق السماء مراتبُ
قله لواء الحمدِ غيرَ مدافعٍ
نرجوه في يوم الحساب ، وإنما
ما إن لنا إلا وسيلةً حبه
ولخير ما أهدي امرؤً لنبيّه
يا أيها الراجون منه شفاعته
أضحى للوعاتِ الفراقِ غريماً
بالتور ختمَ والهدى نخيماً
بمقام صدق عزٍّ فيه مقيماً
وله الشفاعةُ إذ يكون كليماً
نرجو لموقفه العظيم عظيم
ونحيمةً تذكرو شدةً وشميماً
أرجُ الصلاة مع السلام جسيماً
صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلاء إدريس بن موسى القرطبي^١ في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقف عليها أبو عبد الله ابن الجنان المذكور وقرظها بما سنذكره بعدها قريباً ، وهي :

أهلاً بكم يا أهل هذا النادي
أهدوا الصلاة إلى النبي الهادي
يئدي نسيماً
أهل اعتقاد الوعد والميعاد
وصلُّوا السلام له مع الآباد
مذكراً تسنيماً

هو أولُ الشفعاء يومَ المحشرِ
بهت الحضورُ لهول ذاك المحضرِ
قد هيمت
وسواه بين تقدُّمٍ وتأخُّرٍ
والكلُّ في الخطب العميم الأكبرِ
ألبابهم تهيماً

ذاك المقامُ الأشهرُ المحمودُ
هو للنبيِّ محمد موعودُ
فيه الشفاعةُ ذخرها موجودُ
درك المراد وحوضه المورودُ
فضل الكليم به وإبراهيم

١ هو إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي ، مال إلى العربية والآداب وأقرأ ذلك بقرطبة إلى أن تملكها الروم فخرج إلى سبتة وأقرأ هناك ؛ وكانت له مشاركة في النظم والنثر مع غلبة الانقياض عليه والصلاح ؛ توفي آخر سنة ٦٤٧ (التكملة : ١٩٧) .

عيسى وموسى والخليل مروّع من هول مطلع هنالك يَفْظَعُ
فيقال أحمدُ قل فإنك تُسَمِّعُ فيقومُ بحمد ربه فيشفعُ
فضلاً من الرب العظيم عظيماً

يا أمة المختار أنتم أمة والهول قد عم البسيطة بعمه
والأنبياء سواء كل همته تخلص مهجته وليس بهمة
من كان في الدنيا عليه كريماً

صلى الإله على الذي صلى عليه عشرأ بواحدة يزكيها لديه
وأراه في الدارين قرّة ناظرية يا قاصدين إلى وصولكم إليه
راجين من أرج القبول نسيماً

لولا وصيّة صاحب التنزيل أن لا يقال له غلّو القيل
قول الغلاة لصاحب الإنجيل لغلّوت في التعظيم والتبجيل
عظم المكانة يوجب التعظيم

طوبى لقلب قد تلا لا إذ صفا بالسر منه قد ثبت إذ هفا
خطت به آيات حب المصطفى فغدا لصاحبه بذلك مصحفا
يهدي إلى نهج النجاة قويماً

فاقت علا ذكره إذ راق حلى ملأ النبوة أهم حين اعلى
في ليلة الإسراء أعلى معلى كتب الإله له التقدم في العلا
وعليهم التفرّض والتسليماً

وكذاك يسلم في الشفاعة كلهم وعملهم عند الإله محالهم
ظل النبي محمد هو ظلهم يمشون تحت لوائه فيدلهم
يندى عليهم بهجة ونعيماً

أوصافه من كل حسن أبهج العرف ينفع والسنا يتبلج
فتأرج الأرجاء منه وتبهج فاق الزواهر نورها يتوهج
والزهر تفاح النسيم وسيما

طلّق الحياء منهلّ للنائل أنحى على الدنيا بزهدٍ كامل
هو مثل الدنيا بظل زائل لم ترضيه حال النعيم الحائل
ما حاول الترفيه والتنعيم

ما ورث المختار مال مؤمل إلا جواهر في الكتاب المتزل
أشهى لقلب الناظر المتأمل وأقر إعجاباً لعين المجتلي
من كل قيمة مقتض تقويما

وفقت يا من لم يخالف نصه حزت الكمال وليس تخشى نقصه
نهج الهدى قول النبي اقتضه بالوحي شرفه الإله وخصه
شرفاً على شرف السناء صميما

سبحان موح لا يحد له الكلام من قال ذات كلام خلاق الأنام
خلق فذلك آثم كل الأنام ذاك الذي في الدين ليس له ذمام
إلا ذمام لا يزال ذميما

ضلّ الذي يبغي الهدى مما سواه وهوى به في كل مهواة هواءه
من فارق الفاروق قد تبّت يذاه حيران لم يهّد السبيل إلى هداه
لا يعرف التحليل والتحرّما

بالملاح مجد المصطفى بتمته من حكي أوصاف له نظمته
لم أبلغ المعشار إذ أحكمته بعضاً نسب وبعضه أهتمته
قلّده جيد الزمان نظيما

لو فزت بالإحسان من حسان وسحبت أذيالي على سحبان
أو أيدتني لسن كل زمان من كل ذي زعم عظيم الشأن
ما كنت بالمعشار منه زعيما

إدريس حقتك الحقوق خفوا هلا خفت إلى الرسول خفوا
وقريت بالزعم المموم ضبوا وشلوت أن هال الزمان صروفا
مهلا كفاك معلمي التعليما

ثقة بفضل الواحد القهار ملك الملوك مصرف الأعصار
جعل النبي مكرم الآثار وأمدته بالنصر والأنصار
وأمم نعمته له تميما

هل أجلون بصري بكحل سناه يا سعد من كحلت به عيناه
ظفرت يده ، وساعدته مناه لله ذاك الأفق ما أسناه
كرم المحل فيقتضي التكريما

ونص تقریظ ابن الجنان على هذه القصيدة هو قوله :

ما زال كل حليف	لله أضحى وليا
وللعلوم خليلا	وعن سواها خليلا
يصوغ عقبان مدح	للهاشمي خليلا
ويوجب الحق فيه	إجابته الأوليا
ويقتفي في رضاه	نهجا جليلا جليلا
والكل أحظاه حظ	فالفوز يلقى مليا
لكن إدريس منهم	حاز المكان العليا

ولا يخفك أنه الترم في هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء ، رحمه

الله تعالى .

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجنان المذكور السابق أولاً في البحر والروي والمنحى الذي لا يضل قاصده ، وكيف لا وهو مدح^١ الجنب الرفيع العظيم النبوي .

فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي ، فإن بعضاً ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والاثام^٢ :

جعل المهيمن^٣ حباً أحمد شيمه^٤
وأنتى به في المرسلين كريمة^٥
فقداه هواه على القلوب تيمه^٦

وغدا هداه هديهم تيمما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أبدى جين^٧ أيه شاهد نوره
متجعت به الكهّان قبل ظهوره
كالطير غرد^٨ معرباً بصفيره

عن وجه إصباح بطل^٩ نسима صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أنس^{١٠} الرسالة بعد شدة فقرة
متنجى البرية وهي في يد غمرة
محبي النبوة والهدى عن فقرة

فكانتما كفل^{١١} الرشاد يتيمما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

١ مدح : سقطت من ق .

٢ لم أجد هذه الخمسة منسوبة لابن سهل الإسرائيلي إلا في النسخ ، ولم ترد في ديوانه (ط . صادر

١٩٦٧) .

اللهُ أَوْضَحَ فَضْلَهُ فَتَوَضَّحَا
وَاللهُ يَبَيِّنُ حَبَّهُ فِي (وَالضَّحَى)
وَالْجَذْعُ حَنَّ لَهُ هَوَى فَرْتَحَا

والمساء فاض بكفه تسليما صلوا عليه وسلموا تسليما

رَبِّا الرَوَابِ عَنِّ عُلَاهُ زَكِيَّةُ
نَجْوَاهُ رَبَّانِيَّةُ مَلِكِيَّةُ
أَوْصَافُهُ عُلُوِّيَّةُ فَلَكِيَّةُ

فإنخال شعري عندها تنجيما صلوا عليه وسلموا تسليما

اِحْتَثَّ فِي السَّيْعِ الطَّبَاقُ بُرَاقَهُ
وَالْأَرْضُ وَالْجَمَّةُ تَخَافُ فِرَاقَهُ
سُبْحَانَ مَنْ أَدْنَى مُرَاهِ فَسَاقَهُ

شخصاً على ملك الملوك كريماً صلوا عليه وسلموا تسليما

فَاشْتَمَّ رِيحَانَ الْقُلُوبِ الطَّيِّبَا
وَدَدْنَا فَاسْتَمِعْ يَا مُحَمَّدُ مَرْحَبَا
إِنِّي جَعَلْتُكَ جَارَ عَرْشِي الْأَقْرَبَا

إن كنتُ قبلك قد جعلتُ كليماً صلوا عليه وسلموا تسليما

يَا لَيْلَةَ يَجْرِي الزَّمَانُ فَتَسْبِقُ
الْحَجَبُ فِيهَا وَالْأَرَائِجُ تُفْتَقُ
مَا كَانَ مَسْكُ اللَّيْلِ قَبْلَكَ يَعْبَقُ

١ ق : تفخيماً ، وما أثبتته أنسب .

بُشْرَى مُحَمَّدِ اسْتِفَادَ نَسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

حَتَّى إِذَا اقْتَعَدَ الْبَرَقَ لِيَتَزَلَا
نَادَتْهُ أَسْرَارُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا
يَا رَاحِلًا وَدَعَّتْهُ لَا عَنْ قَلِي

مَا كَانَ عَهْدَكَ بِالْغُيُوبِ ذَمِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

صَعَدَ النُّجُودَ وَسَارَ فِي الْأَغْوَارِ
سَمَكَ السَّمَاءَ طَوْرًا وَبَطْنَ الْغَارِ
مُنْقَسِمًا فِي طَاعَةِ الْجَبَّارِ

مَا أَشْرَفَ الْمَقْسُومَ وَالتَّقْسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

الشَّافِعُ الْمُتَوَسِّلُ الْمُتَقَبِّلُ
الْقَائِمُ الْمَدْتَرُّ الْمَزْمَلُ
وَافِي وَظَهَرُ الْأَرْضِ دَاجٍ مِمَّحِلُ

فَجَلَا الْبَهِيمَ بِهِ وَأَرَوَى الْهِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

دَفَعَتْ كِرَامَتَهُ الزُّنُوجَ عَنِ الْحَرَمِ
وَدَعَاهُ جَبْرِيلُ الْمُتَرَهَ فِي الْحَرَمِ
وَعَزَّتْ لَهُ آيَاتُ نُونٍ وَالْقَلَمِ

خُلُقًا بِهِ شَهِيدَ الْإِلَهِ عَظِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

طَاوٍ يُفَيِّضُ الزَّادَ فِي أَصْحَابِهِ
غِيثٌ وَلَكِنْ كَانَ يُسْتَضْحَى بِهِ
طَابَتْ ضَمَائِرُ قُلُوبِهِ وَتَرَاهِ

منهُ بَسْرٌ لَمْ يَكُنْ مَكْتُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا شَوْقِيَّ الْحَامِي إِلَى ذَاكَ الْحَمِي
فَمَتَى أَقْضِيهِ غَرَامًا مَغْرَمًا
وَمَتَى أَعَانِقَهُ صَعِيدًا مَكْرَمًا

بِضَمِيرٍ كُلِّ مُوَحَّدٍ مِلْثُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ الْوَعَاظِ ، وَأَظْهَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ :

جَلَّ الَّذِي بَعَثَ الرَّسُولَ رَحِيمًا
لِيُرِدَّ عَنَّا فِي الْمَعَادِ جَحِيمًا
وَبِهِ نُرْجِي جَنَّةً وَنَعِيمًا

أَضْحَى عَلَى الْبَارِي الْكَرِيمِ كَرِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

مَا ضَلَّ عَنْ وَحْيِ الْإِلَهِ وَمَا غَوَى
حَاشَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْطِقُ عَنْ هَوَى
الصَّادِقُ الثَّقَةُ الْأَمِينُ بِمَا رَوَى

قَدْ نَالَ مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ عُلُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وَأَفَى لَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ مَبَشْرًا
نَادَى بِهِ يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى
أَجِيبِ الْمُهَيْمِنَ يَا مُحَمَّدُ كَيْ تَرَى

مَلَكًا كَرِيمًا فِي السَّمَاءِ عَظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

فَأَجَابَهُ الْمُخْتَارُ حِينَ دَعَا بِهِ

ربُّ السموات العُلا خطابه
ركبَ البراقَ وقد أتى لجنابه

أُسمى لهُ الروحُ الأمينُ نديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فمتى أرى الحادي يبشّرُ باللقاء
ويضمّه بانُ المحصّب والنقا
وأرى ضريحَ المصطفى قد أشرقاً

مولي حليماً لن يزالَ رحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وأقول للزوّار قد نلتُ المنى
يهنيكمُ طيبُ المسرةِ والهنا
فاستبشروا من بعد فقرٍ بالغنى

فالله زادكمُ به تكريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثمّ الرضى عن آله الكرماء
وكذاك عن أصحابه الخلفاء
فهوهم ديني وعقد ولائي

قوماً تراهم في المعاد نجوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ومنها قول بعض فضلاء المغاربة رحمه الله تعالى :

يا أمةَ الهادي المبارك أحمد
يهنيكمُ نيلُ الأمانى في غدٍ
بمحمدٍ فزتم ومن كمحمدٍ

إن شتم أن تدركوا التتيميا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صلّوا على البدر المنير الزاهر
صلّوا على المسك الفتيق العاطر
صلّوا على الغصن البهي الناضر

وتنعمّوا بصلاتكم تنعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ بالنبوة زينا
صلّوا على من بالكمال تمكنا
بمحمد فرنا بإدراك المني

فضلا منحنّا حادثا وقديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير اللائح
صلّوا على الهادي الحبيب الناصح
صلّوا على المسك الفتيق الفائح

للرشد فهمّ والهدى نفهيا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ مجده قد أسسا
والماء بين بنانه قد بُجّسا
وأنت إليه سرّحة حتى اكتسى

بفروعها إذ خيمت نفهيا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصر من قفا
وعليه سلّمت الجنادل والصفّا
والذئب قال صدقت أنت المصطفى

وشكا إليه بازل قد ضيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريقِ
عينَ الضرير ولدغةَ الصديقِ
وأعاد طعمَ الماءِ مثلَ رحيقِ

إذ مجَّ فيه العنبر المختوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ باللائك جيشا
وغدت تظله الغمامُ إذا مشى
حرست سماء الله لما أن نشأ

ليكون سرّ حبيبهِ مكتوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا عليه كلَّ حينٍ تربحوا
وبهديه مهما اهتديتم تفلحوا
والأجر يشملكم فجدوا تنجحوا

وإذا أردتم أن يكون عظيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا يجمعكم على شمس الهدى
صلّوا على بدرٍ يزينُ المشهدا
صلّوا عليه به الرشادُ تمهدا

والذكرُ بينَ فضله تفعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا بإخلاصٍ على خير البشرِ
صلّوا على من فاق حسنا واشتهر
ونمت فضائله وشقّ له القمر

ولكم دليل في علاه أقيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ رَأَى الرَّحْمَانَا
بِالْقَلْبِ أَوْ بِالْعَيْنِ مِنْهُ عَيَانَا
عَنْ قَابِ أَوْ أَدْنَى مَقَامِ كَانَا

فَخُذِ الْفَوَائِدَ كَيْ تَفَادَ عُلُومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَيْهِ كُلُّكُمْ لَا تَسْأَمُوا
وَتَبَرَّكُوا بِصَلَاتِهِ وَتَنَعَّمُوا
فَعَلَيْهِ صَلَّي الْأَنْبِيَاءُ وَسَلِّمُوا

شَرْفًا لَهُمْ إِذْ أَمَّهُمْ تَقْدِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

يَا حَاضِرِينَ بَلِّغْتُمْ كُلَّ الْمَنَى
عَنْ جَمْعِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ذَهَبَ الْعَنَا
وَالْيَكُمُ وَاللَّهُ قَدْ وَجَبَ الْهَنَا

بِمُحَمَّدٍ كَرَّمْتُمْ تَكْرِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

قُولُوا بِرَغَمِ مَعَانِدِينَ وَحُسَّادِ
كَيْ تَرْغَبُوا أَنْفًا لِكُلِّ مَفْنَدِ
صَلِّ الْإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

أَبْدًا وَزَادَ لِقُدْرِهِ تَعْظِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

يَا رَبُّ يَا ذَا الْمَنِّ وَالْإِحْسَانِ
جُدْ بِالرَّضَى وَالْعَفْوِ وَالْغَفْرَانِ
لِلْوَالِدِينَ وَمَنْشَدِ الْأَوْزَانِ

وَالسَّامِعِينَ أُنْهِمُ تَنْعِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلى عليه الله ما اجتمع الملا
صلى عليه الله ما قطع الفلا
صلى عليه الله ما انتجع الكلا

أبدأ وما رعت السّوامُ هَشيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن ذلك قولُ الإمام العالم الشهير الأديب مالك بن المرحل المالقي ثم السبتي ،
وهي من غرر القصائد ، وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم
بجعلها بدأ وروياً على اصطلاح المغرب :

ألف : أجلُ الأنبياء نبيء
بضيائه شمس النهار تضيء
وبه يؤملُ محسن ومسيء

فضلاً من الله العظيم عظيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

باء : بدا في أفق مَكّة كوكبا
ثمّ اعتلى فجلا سناه الغيها
حتى أثار الدهرُ منه وأخصبا

إذ كان فيضُ الخيرِ منه عميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

تاء : تبيّنت الهدى لما أتى
فنفى الشريك عن القديم وأثبتا
أحديةً من حاد عنها قد عتا

وتلا كلاماً للكريم كريما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثاء : ثوى في الأرض منه حديثُ

في كلِّ أفقٍ طيبُهُ مبثوثُ
داعٍ بأنواعِ الهدى مبعوثُ

يتلّو نجومًا أو يهز نجومًا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

جيم : جلا بسراجِه الوهاجِ
ما جنَّ من ليلِ الظلامِ الداجي
وسقى القلوبِ بمائه الثّجاجِ

فأصارها بعدَ الغيومِ غيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حاء : حمى دينِ الهدى بصفائحِ
وسما يشمُّ كالجبالِ أراجيحِ
من كلِّ أزهرٍ هاشميٍّ واضحِ

لولا نداهُ غدا النباتِ هشيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

خاء : خبّثَ نيرانِ جهلِ شامخِ
آياتِ علمٍ للرسالةِ راسخِ
مِنْ مُثبِتِ ماحٍ ومنسٍ ناسخِ

قد خصّ بالذكرِ الحكيمِ حكيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذال : دعا فأجاب كلُّ سعيدي
وأنتي بوعدٍ صادقٍ ووعيدِ
حتى أقرَّ الناسُ بالتوحيدِ

ونجّبوا الإشراكِ والتّجسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذال : ذُبَابُ حِصَاةٍ مَشْحُودُ
لِلنَّكَاشِينَ ، وَعَهْدُهُمْ مَنبُودُ
أَمَّا السَّعِيدُ فَبِالنَّبِيِّ يَلُودُ

فِيدَالٌ مِنْ ذُلِّ الشَّقَاءِ نَعِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

راء : رَوَيْنَا عَنْ ذَوِي الْأَخْبَارِ
أَنَّ النَّدَى وَالْبَاسَ مَعَ إِثَارِ
بَعْضِ صِفَاتِ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ

كَمْ قَدْ تَقَدَّمَ بِالْأَنَامِ زَعِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

زاي : زَعِيمٌ بِالتَّرَالِ عَزِيزُ
وَبَلِيغٌ مَعْنَى فِي الْمَقَالِ وَجِيزُ
فَلَقَوْلَهُ مِنْ فَعَلِهِ تَعْرِيزُ

وَلَرُبَّمَا عَادَ الْكَلَامُ كُلُّوْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

طاء : طَوِيلُ السِّيفِ مَتَسَعُ الْخُطَا
رَحْبُ الذِّرَاعِ وَمَنْ يَمُدُّ لَهُمْ سَطَا
يُرْدِي الْعَدَا وَإِذَا ارْتَدَى مَتَخَطَا

يَعْرِى عَذَابًا إِذْ أَلَامَ أَلِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ظاء : ظَهِيرٌ لِلْعِبَادِ حَظِيزُ
حَظٌّ لَدَى رَبِّ الْعِبَادِ حَظِيزُ
حَقٌّ لَهُ التَّابِينَ وَالتَّقْرِيزُ

مِيمًا وَحَبِيبًا ظَاغَنًا وَمُقِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

كاف : كريمٌ الغنصرين مبارَكُ
متفردٌ بالجاه ليس يشاركُ
فهو الذي بمقامه يتداركُ

والهولُ يغدو مُقْعِداً ومقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لام : لهُ عقد اللواء الأَحفلُ
ولهُ الشفاعةُ في غدٍ إذ تسألُ
وإذا دعا فدعاؤه متقبَّلُ

حق الرحيم بأن يرى مرحوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ميم : ملائكة الإله تسلم
فوجاً عليه إذ بدأ وتعظم
ويعمرُ جبريل بها يتقدم

فيضاعف التعظيم والتكريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

نون : نبيُّ جاءنا ببيان
و بمعجزاتٍ أبرزت لعيان
وبحسبه أن جاء بالقرآن

يشفي قلوباً تشنكي وجسوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صاد : صَفِيٌّ للإله ومخلصُ
ومقرَّبٌ ومُفَضَّلٌ ومُخَصَّصُ
ذهبَ سبك وزنه لا ينقصُ

قد طاب خيماً في الوري وأروماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ضاد : ضميرٌ نصحه محوضٌ
ضافي القراءة بالعلوم يفيضُ
إن غاض ماء البحر ليس يغيضُ

لما استمرَّ زلاله تسنما صلوا عليه وسلموا تسليما

عين : عزيزٌ ذكره مرفوعٌ
في الأنبياء وقوله مسموعٌ
مشروح صدر حبه مشروعٌ

من لا يدينُ بذاك كان ذميما صلوا عليه وسلموا تسليما

غين : غزا من زاغ عنه ومن طغى
وغدا يشبُّ لمن طغى نار الوغى
حتى أقامت من عصي بعد الصفا

وَتَقَوْمُ النارُ العصا تقويما صلوا عليه وسلموا تسليما

فاء : فواتحُ سورة الأعرافِ
وبراءة والرعد والأحقافِ
أحظتهُ بالأقسام والأوصافِ

فمى توقى حقه منظوما صلوا عليه وسلموا تسليما

قاف : قوافي النظم عنه تضيقُ
أيطيقه الإنسان ليس يطيقُ
فالخلقُ في التقصير عنه خلقُ

وَلَوْ أَنَّهُمْ مَلَأُوا الْفُضَاءَ رَقوما صلوا عليه وسلموا تسليما

سين : سلام كالنَّفيس تنفّساً
وقد اجتنى ورداً وصافح نرجساً
أهدى إليه في الصباح وفي المساء

بقصائد كادت تكون نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شين : شمائله الكريمة تعطشُ
من كان من سكر المحبة يرعشُ
لكن أضع العمرَ فيما يوحشُ

فقدت ندامته عليه ندباً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

هاء : هو الهادي الذي اقتدح النّهي
فتفكرت في ملك من رفع السّها
وقضى بحدّ للأمور ومتهى

فأفادها النظر السديد عموماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

واو : وهى ركن التجلّد، بل هوى
لمّا ثوى في التّرب من بعد التّوى
فحوى الضريح الرّحب نجماً ما غوى

أجرى من الدمع السجوم سجوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لام : لأجلك فاض دمي جلولا
فاخضّر آس أساك إذ ييس الكلا
يا خير من كلّ المكارم والعلا

وحى الحنى ورمى فأعمى الروما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يَاء : يَحْيِيهِ وَيَسْقِيهِ الْحَيَا
رَبُّ الْعِبَادِ مَجَازِيًا وَمَوْفِيَا
وَمُشْرِفًا وَمُسْلِمًا وَمُصْلِيَا

يَا مُسْلِمِينَ وَرَثْتُمُ التَّسْلِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب « منتهى السؤل في مدح الرسول »^١ للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بقصده ، وهي أيضاً مرتبة على حروف المعجم ما عدا الابتداء وبيوت الانتهاء ، غير أن ترتيب حروف المعجم في آخر الأشرطة ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما فعل مالك بن المرحل ، رحمه الله تعالى :

الله زادَ المصطفى تعظيماً
وقضى لهُ التفضيلَ والتقدima
وأنا لهُ شرفاً لديه جسيماً

فهو التَّمَمُ فخرُهُ تميماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلُّوا على مَنْ خُصَّ بالأنباء
وأبوه ما بينَ الثرى والماء
ثمَّ استمرَّ النور في الآباء

فتوارثوه كريمة وكرima صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

١ قد ذكرت في المقدمة نقلاً عن رحلة المياشي قول هذا الرحالة إن المقرئ لم يطلع على كتاب « منتهى السؤل » وهذا هو المؤلف يذكر اطلاعه على الجزء الخامس والعشرين منه ؛ وبما أن الكتاب كثير الأجزاء فكلام المياشي يظل يعني أن المقرئ لم ير الجزء الذي ذكر فيه مدح النمل النبوية .

صلّوا على بدرٍ بدا من يثربِ
فأضاء بالأنوار أقصى المغربِ
وجلا عن الدنيا دياجي الغيبِ

فبدا لنا نهج الرشاد قويا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالشرائع قد أتى
وأباد أحزاب الطغاة وشتّتا
وأبان أسباب النجاة ووقتّا

للأمة التحليل والتحريما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالغيوب يحدثُ
وبروعه الروح المقدس ينثُ
محبوبنا وشقيقنا إذ نُبعثُ

في يوم لا يدري الحميم حميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على صبح الهدى المتبلّج
صلّوا على بحر الندى المتموج
صلّوا على روض الجمال المبهج

كيما تنالوا الفوز والتنعيم صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على غيث الأنام السافح
صلّوا على المسك الذكي النافع
أزرت روائحه بكلّ روائح

فالأرض طبّقها شذاه نسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ عَهْدُهُ لَا يُفْسَخُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ شَرْعُهُ لَا يُنْسَخُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ حِزْبُهُ لَا يُمَسَخُ

نَبَأُ يَفْهَمُ فَضْلَهُ تَفْهِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ فَخْرُهُ لَا يَنْفَدُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ فَضْلُهُ لَا يَمُحُّ
أَنْتَى وَكُتِبَ الرُّسُلُ طُرًّا تَشْهَدُ

نَبِيُّ الْيَهُودِ بِفَضْلِهِ وَالرُّومِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ حَمَى عَنَا الْأَذَى
وَمَنْ الْغَوَايَةَ وَالضَّلَالَةَ أَنْقَذَا
صَلُّوا عَلَى مَنْ ذَكَرَهُ نَعَمُ الْغَدَا

وَبِمَدْحِهِ نُرْوِي الْقُلُوبَ الْهَيْمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا بِإِخْلَاصٍ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ
مَنْ قَبْلَ نَشْأَتِهِ الْمُبَارَكَةِ اشْتَهَرَ
كَمْ كَاهِنٌ عَنْهُ أَبَانَ وَكَمْ خَبِرَ

وَلَكُمْ دَلِيلٌ فِي عِلَافِهِ أَقِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ جَلَّ مَوْلَدُهُ وَعَزَّ
ضَاءَتِ قُصُورِ الشَّامِ لَمَّا أَنْ بَرَزَ
وَتَدَانَتْ الشُّهُبُ الثَّوَابِقُ كَالْخُرُزِّ

أَوْ كَاللَّاتِي نُظِّمَتْ تَنْظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صلّوا على من يوم مولده سطا
بجميع آلهة الضلالة والخطا
وهوى له عرش اللعين وأسقطا

والفرس هدّم صرحهم تهديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من ليس فظاً غالظا
لأخيه في الإرضاع كان محاظظا
فأعجب لذلك كيف كان ملاحظظا

للعدل فينا مرضعاً وفطيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من شأوه لا يدرك
صلّوا على من شأوه لا يشرك
موسى وعيسى والخليل تبركوا

بليقائه وعنّوا له تسليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من خلفه صلى الرسل
شرف على تمكين عزته يدل
فلأذن فقل هو سيدّ لهم ودل

لا تخش نوبيخاً ولا نحشima صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد سرى نحو السما
ليلاً وعاد وما برحنا نوّما
بالروح والجسم المطهر قدّ سما

قله وراغم من أبي ترغيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلوا على مَنْ قد رأى الرحمانا
بالقلب أو بالعين منه عيانا
من قاب أو أدنى مكان كانا

فخذ الفوائد واحذر التجسima صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ بالمحبة خُصصا
والقلب منه شق حتى خُلصا
من حظ إبليس اللعين وعصا

وأعيد ما إن يشتكي تثلما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من بالسيادة قد حضي
وانشق إكراماً له البدر المضي
ولكم دليل كالصباح الأبيض

فاسمع وكن بالمعجزات عليما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ كَلَّمْتَهُ ذراعُ
وبفضله كَفَّتِ المئين الصاعُ
والجدعُ حنَّ له وما الأجذاعُ

بأرق منا أنفساً وفهُوما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من مدحه لا يفرغُ
ماذا عسى مُدّاحه أن يبلغوا
فللهنا يُثني عليه ويبلغُ

فاقرأ تجده محكماً تحكيما صلوا عليه وسلموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ كَانَ يَبْصُرُ بِالْقَفَا
وَعَلَيْهِ سَلَّمَ الْجَنَادِلُ وَالصَّفَا
وَالذُّبُّ قَالَ صَدَقْتَ أَنْتَ الْمُصْطَفَى

وَشَكَا إِلَيْهِ بَازِلٌ قَدْ ضَمِيَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ شَفَى بِالرِّيقِ
عَيْنَ الضَّرِيرِ وَلَدَغَةَ الصَّدِيقِ
وَأَعَادَ طَعْمَ الْمَاءِ مِثْلَ رَحِيقِ

إِذْ مَجَّ فِيهِ الْعَنْبَرُ الْمُخْتُمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ مَجَّدَهُ قَدْ أَسَّأَا
وَالْمَاءَ بَيْنَ بَنَانِهِ قَدْ بَجَسَا
وَأَتَتْهُ إِلَيْهِ سَرَحَةٌ حَتَّى اكْتَسَى

بِفُرُوعِهَا إِذْ خِيَمَتْ تَخِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْمَلَايِكِ جَيْشَا
وَعُدَّتْ تَظَلَّلُهُ الْعِغَامُ إِذَا مَشَى
حَرَسَتْ سَمَاءَ اللَّهِ لَمَّْا أَنْ نَشَا

لِيَكُونَ سِرَّ حَبِيئِهِ مَكْتُومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ حَبَّاهُ إِلَهُهُ
بِالْكُوْثَرِ الْمُرُوي لَنَا أَمْوَاهُهُ
فِي يَوْمِ حَشْرِ الْخَلْقِ يَظْهَرُ جَاهُهُ

إِذْ يَقْدُمُ الرُّسُلَ الْكَرَامَ زَعِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلوا على من خُصَّ بالخوض الرُّوى
وكذاك خصَّص بالمقام وباللوا
نوحاً وآدم والكليم قد احتوى

وابن البتول حوى وإبراهيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صلّى عليه الله ما قُطِعَ الفُلا
صلّى عليه الله ما اجتمع المَلا
صلّى عليه الله ما انتُجِعَ الكَلا

أبدأ ، وما رعت السوام هشيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صلّى عليه الله ما هطل الحيا
صلّى عليه الله ما التمع الضيا
فلقد شفى الدنيا من الداء العيا

ولقد حمى عنا لظى وجحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

* * *

لله سيدنا النبي الأكل
لله برق جبينه المتهلل
لله جود يمينه المتهطل

أحنياً وأغنى بالنوال عديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ قد انتهت المدحة النبوية بحسب الترتيب المجاني ولا أدري هل هذه البقية منها أو من قصيدة جديدة .

لله منه ذاته وحقيقته
لله منه خلقه وخليقته
لله منه شرعه وطريقته

فلقد جلت بشموسها التغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا أمة الهادي النبي المصطفى
بالله لو كنّا نعامل بالوفا
متنا عليه حسرة وتلهفا

حتى نؤدي حقّه المحتوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما كان أولانا بطول نحينا
ما كان أوجبنا بقرط وجينا
أفستطيع الصبر عن محبوبنا

ما الصبر عن لقاءه إلّا لوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لم لا تُفيضُ على النوام دموعنا
لم لا تُقضُ من الغرام ضلوعنا
لم لا نخلي أهلنا وربوعنا

حتى نعين من ذرّاه رسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا
أو لم يكن متعطفاً مترفقا
أو لم يعالجنا بأنواع الرقي

حي اغتدى منا العليل سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

من مثله ما إن يضرُّ وينفع
من مثله يدرك العذاب ويدفع
من مثله لذوي الكبائر يشفع

من مثله بالمؤمنين رحيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا ويح نفسي كم أرى ذا صبوة
ومسامعي عن واعظي في نبوة
فعسى الرسول يُقِيلني من كبوة

فلكم رجاء عاثر فأقيموا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا رب بالهادي الرفيع المحتد
اغفر لعبدك أحمد بن محمد
فلقد توسل إذ رجاك بسيد

ما ردّ معتلق به محروما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ناشدتكم يا سامعي هذا الثنا
قولوا متى أسمعتموه تديّنا
اغفر لقائله المقصر ما جنى

بمدح خير الوري المعصوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

قلت : وإني لأسأل الله تعالى بلسان لم أعص به وهو لسان هذا المادح ،
إذ قال « يا رب بالهادي » فإني أحمد بن محمد بكّته الله أمله من غفرانه بمنته
وكرمه آمين .

رجع - ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن القاسم

الإشيلي الشهير بابن القصير ، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدمة من بعض
الوجوه ، رحم الله تعالى الجميع :

اللهُ أَكْرَمُ أَحْمَدًا تَكْرِيماً
فَغَدَا رَسُولًا لِلْعِبَادِ كَرِيماً
فَاشْكُرْ غَفوراً لِلذُّنُوبِ رَحِيماً

أَرْضَى النَّبِيَّ بِقَوْلِهِ تَعْلِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

للهِ مِنْهُ هَدَى نَبِيٍّ مَرْضِيٍّ
بِالْبَيْعِ مِنْهُ لَنَا قَضَى لَطْفَ الْقَضَا
مَلَأَتْ فَضَائِلُهُ الْمَهَارِقَ وَالْفَضَا

وَدَجَا الْوُجُودُ فَعِنْدَ مَبِيعَتِهِ أَضَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

عَجِبَتْ لَنَا مِنْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
أَنْ كَانَ بِالْإِسْرَاءِ لَيْلًا قَدْ سَمَا
وَرَقَى الْبَرَقُ بِهِ وَجَبْرِيلُ لَمَّا

قَدْ سَرَّهَ سِرًّا وَجْهَرًا سَلِمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

أَعْظَمَ بِهِ مِنْ مَرْسَلٍ قَدْ بَشَّرَا
بِوُجُودِهِ الْبَشَرِ السَّعِيدِ وَيَسَّرَا
لِلْيَسْرِ فَهُوَ أَجَلٌ مَبْعُوثٌ يُرَى

بِهَدَاهِ أُمَّتُهُ زَهَتْ بَيْنَ الْوَرَى صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مَعْجَزَةً لَهُ
أَعْيَا الْوَرَى مِنْ بَعْدِهِ أَوْ قَبْلَهُ
اللَّهُ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَ فَضْلَهُ

وأجلّ منه فرعته وأصله صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

من سبّحت صمّ الحصى في كفه
والبدر شقق نصفه عن نصفه
ليرى به إعجاز من لم يُصفه

حزناً بمعجز ذكره أو وصفه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يكفيه أن يتلى اسمه ويكرّر
مع إسم خالقه إذا ما يُذكر
هذا الذي بمقاله لا يفجر

أبدأ ولا لخلافه يتصور صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

العبد أسرف يا نبي الله
في الذنب ساه عن ثقاه لاهي
فاشفّع له من مذنب أوّاه

يرجو كريماً منك جمّ الجاه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أنأى الزّمان وصوله أو سوله
فاستصحب الأيّات منه رسوله
فأنيل بفضلك للمراد حصوله

حسبي ثناً وازنت منه فصوله صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ابن القصير أطال فيك نظامه
ليرى لذاك مسلماً إسلامه
وترى مطاوع أمره وكلامه

لا زال يُقرِّكَ الإلهُ سلامه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وما أحسن قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه الله تعالى :

فَضَّلَ النَّبِيِّينَ الرَّسُولَ مُحَمَّدَ	شرفاً يزيد ، وزادهم تعظيماً
درْ يَتِيمٌ فِي الْفَخَارِ ، وَإِنَّمَا	خيرُ اللَّآلِي مَا يَكُونُ يَتِيماً
سَادَ النَّبِيِّينَ الْكَرَامِ وَكُلُّهُمْ	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
وَاللّهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ كَرَامَةً	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

[مسدسات في مدح الرسول]

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاء الدين محمد بن عفيف الدين الأيحي الحسني الصفوي الزيني - رحمه الله تعالى - مما رتبه على حروف المعجم والترم الحرف أول الأشطار الأربعة وآخرها :

اللهُ أَحْمَدُ أَحْمَدًا إِذْ يَبْرَأُ	أَوْضَى وَضِيءُ نَوْرِهِ يَتَلَأَلُ
أَنْوَارِهِ كُلَّ الْعَوَالِمِ تَمَلَأُ	أَكْوَانُهُ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُ تُنْشَأُ
إِنْ كُنْتُمْ أَنْقَضْتُمْ لَهُ تَسْلِيماً	صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً
بَدْرٌ بَدَأَ مِنْ نَوْرِهِ يَنْطَلِبُ	بَحْرٌ بِحُورِ الْجُودِ مِنْهُ تَرْكَبُ
بِرٌّ وَبِرْهَانٌ جَلَا يَتَقَلَّبُ	بِالمُصْطَفَى مِمَّنْ صَفَا أَتَقَرَّبُ
بَادِرٌ بِمَا يَجِدِي لَكُمْ تَنْعِيماً	صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً
تَاللهِ مِثْلُ مُحَمَّدٍ لَا يَثْبِتُ	تَمَّ الْكَمَالَ الْمُنْتَهَى وَنَبُوَّةُ
تَاجُ الْعُلَا بِالمُصْطَفَى يَثْبِتُ	تَاهَتْ عَقُولٌ لِلَّذِي هُوَ يَنْعَتُ
تَحْفُ الصَّلَاةُ بِهِ عَلَيْهِ أَدِيمَا	صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

ثبت بالذي يوماً يقومُ ويُبعث	ثبة البرية بالنبي تغوث
ثبت الشفاعة للورى يتحدث	ثرة الطوائف للذي يشبث
ثبت لزوم الباب فيه مقيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
جاء النبي عوالماً يتبلج	جاء له من جاءه يتبهج
جاء ينجلي من لظى تنوهج	جاءت له الأشجار أرضاً تفرج
جاور نبي الله نلت نعيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
حقاً هو الحق المين ^١ الأوضح	حب حياة حبه يرتج
حسناته حسناته ^٢ تُسرج	حتى القلوب بحبه ترجع
حوت العلوم لذاته تكريما	صلوا عليه وسلموا تسليما
خير البرايا دينه هو ناسخ	خير له خير الخيور رواسخ
خبر الذي عن دينه هو بازخ ^٣	خال خلي عن تقائص باذخ
خذ باتباع فعاله ترسيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
دل الأنام على الإله محمد	دامت سعادة من بأحمد يسعد
دار له مأوى المحامد محمد	دان الوجود به ومن هو أحمد
داوم على باب له تخيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ذكر الحبيب أحق ما يتأخذ	ذخراً ليوم بالنواصي يؤخذ
ذاك الشفع لمن به يتعوذ	ذاك الذي بجانبه يستنقذ
ذلوا له ولبابه تغنيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : الحقيق .

٢ ق : حسناته .

٣ البازخ : المتقاصر .

رب النبي محمد هو يذكر	رتب الحبيب كتابه متذكر
رائي محيا أحمد هو ينظر	روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روح بذكره المريح ندما	صلوا عليه وسلموا تسليما
زين البرايا بالوجود معزز	زان العوالم حسنه يتفوز
زن فضله عن كلهم يتميز	زد ذكره عن زلة يتحرز
زلفي أنه بالمنى تميما	صلوا عليه وسلموا تسليما
سبق الأنام بفضله هو أنفس	ساد الجميع بسؤدد يرأس
سبحان من أسرى به يتأنس	سر الحبيب بسرّه يتقدس
سمع الكلام من الإله كليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
شمس الهدى بدر الدجى يتبشش	شرف الحبيب من الوجوه يفتش
شكراً لمولانا عليه وأبهش	شوقي إليه وافر أعطش
شغل للبك ^١ بالحبيب أديما	صلوا عليه وسلموا تسليما
صفة الكلام لذاته هو أخلص	صفة الكتاب كماله يتلخص
صفة القلوب بحبه تتخلص	صفه صبا صبّ وأتى يخلص
صل بالصلاة جنبه تكليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ضفت الفيوض من الحبيب تفيض ^٢	ضعفي إليه آملاً يتعوض ^٢
ضري وضيري كله يتقوض ^٢	ضل الذي في بابه لا ينهض ^٢
ضمن الحبيب لذاكره زعيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : لسانك .

٢ ق : يتفوض .

طوبى لمن بجيبه يتنشط	طوبى لمن بجيبه يتنشط
طال اشتياقي طيبة أتبسط	طال اشتياقي طيبة أتبسط
طوبى بمدحته يطيب نسima	طوبى بمدحته يطيب نسima
ظل الهدى بهداه قد يتحفظ ^١	ظل الهدى بهداه قد يتحفظ ^١
ظلي لظل وداده يتحفظ	ظلي لظل وداده يتحفظ
ظني به يغدو العقاب عديما	ظني به يغدو العقاب عديما
علت المعالي بالتبى وترفع	علت المعالي بالتبى وترفع
عمت عطاياه لكل ينفع	عمت عطاياه لكل ينفع
عرج الإله به إله عليما	عرج الإله به إله عليما
غوث الورى ذا المصطفى هوسايع	غوث الورى ذا المصطفى هوسايع
غمر الندى أقصى النهاية بالغ	غمر الندى أقصى النهاية بالغ
غنى نما بالمؤمنين رحىما	غنى نما بالمؤمنين رحىما
فخر وذخر بالمفاخر يشرف	فخر وذخر بالمفاخر يشرف
فتح الوجود وكل كون مردف	فتح الوجود وكل كون مردف
فاح النسيم من الحبيب جسيما	فاح النسيم من الحبيب جسيما
قسم الإله بعمره فيفوق	قسم الإله بعمره فيفوق
قمر وشمس نوره متائق	قمر وشمس نوره متائق
قطب للدائرة الوجود كرىما	قطب للدائرة الوجود كرىما
طابت به أحواله والمنشط	طابت به أحواله والمنشط
طال الإله علي طولا يسط	طال الإله علي طولا يسط
صلوا عليه وسلموا تسليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ظلمات شرك قد جلت تتدلظ ^٢	ظلمات شرك قد جلت تتدلظ ^٢
ظهري ظهيري حبه أتحمظ ^٣	ظهري ظهيري حبه أتحمظ ^٣
صلوا عليه وسلموا تسليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
عز علاه للذي هو يتبع	عز علاه للذي هو يتبع
عرش العظيم قد ارتقى يرفع	عرش العظيم قد ارتقى يرفع
صلوا عليه وسلموا تسليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
غيث الندى هو في البرايا سائح	غيث الندى هو في البرايا سائح
غزر الحيا شمس وبدر بازغ	غزر الحيا شمس وبدر بازغ
صلوا عليه وسلموا تسليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
فرد وحيد في العوالم أشرف	فرد وحيد في العوالم أشرف
فاز الفقير بلطفه يتلطف	فاز الفقير بلطفه يتلطف
صلوا عليه وسلموا تسليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
قسمت وجوه الحسن منه فيسبق	قسمت وجوه الحسن منه فيسبق
قمن بذكراه الدعاء معلق	قمن بذكراه الدعاء معلق
صلوا عليه وسلموا تسليما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : يتيقظ .

٢ تتدلظ : تسرع في مرورها .

٣ ق : أتحمظ .

كتب الإلهُ ثناءهُ ما يدرك
كلُّ الكمالِ لَهُ بهِ يستدرك
كيف كفى درَّ الثناءِ يتيما
كتبَ اسمَهُ قُربَ اسمِهِ يتبرك
كُنْهُ الكِمالاتِ التي لا تدرك
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

لمعات نورِ محمدٍ هي تَنجِلُ
لذاتِ ذِكرِ محمدٍ هي أَكَلُ
لذِ خذِ يَجدُ منك تُلُفَ حَكِيمَا
للشَّمسِ والبدرِ المُنيرِ فتَخلُمُ
لنُويِ الحوائِجِ لائِذِ مُتَكلِّفِ
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

من مثلهُ في العالمينِ معظمُ
مَنْ لِلإلهِ لَدَى اللِّقَاءِ يَكلُمُ
مَنْ الإلهُ لَدَيْهِ صارَ عَمِيمَا
من مثلهُ في العالمينِ مَكرَمُ
مَنْحاً حَبَاهُ مِنْهُ قَدْ يَتعلَّمُ
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

نور لَهُ في آدمَ يَتبينُ
نأيِ العوالمِ إِذْ أَتى مُتَعينُ
نعماءِ جَمْتٍ^١ إِذْ نَعمَ كَرِيمَا
نَقَلًا إِلى آبائِهِ يَتَعينُ
نارِ المَجنونِ تَخمَدُ تَتهَوَّنُ
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

وَجْهَ بِهِ كُلُّ الوجوهِ إِلَيْهِ هُوَ
وَوِجَاهُهُ وَجْهُ المَرامِ فُوجَّهُوا
وَجْهَهُ إِلَيْنَا نَظَرَةً تَكرِيمَا
وَجْهُ الوجاهِ بِكُلِّهِ يَتُوجَّهُوا^٢
وَجْهٌ إِلَيْكَ نَبِينَا فُتُوجَّهُوا
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

هُوَ مُصطَفَى عِندَ الإلهِ الأَوجِهُ
هُوَ إِنَّهُ وَجْهِي لِهَذَا أَوْجِهُ
هُوَ الفُؤادُ بِجَبِّهِ تَتِيمَا
هَادٍ لَنَا وَبِوَجْهِهِ مِنْ أَوْجِهِ
هِ هَتِينًا وَجْهَهُ بِالْأَوْجِهِ
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

١ ق : جلت .

٢ ق : بوجهه قد أوجهوا .

لا مثل للمختار أعلى من علا
لاذ الصفي به يتوب فأقبلا
لازم محباً للحبيب نديماً
لاقيه ناجٍ قد نجا كل البلى
لاقي النبي محمد أن يقبلا
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا أكرم الخلق الذي هو ملجئي
يده يمدُّ إليك مرتجياً وفي
عماً لذكرك يبتدي تختما
يأتي محمد العفيفي الذي
يقن بصفوته الصفي ويكتفي
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وله أيضاً رضي الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه ، وقد نظمها
بعدها نفع الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية قصده وأمنته ، وهي هذه :

أحسن بطلعة أحمد هي أضواء
أزين به لما أتى بطلا
الله قدمه بها تقدماً
أعلن بلمعته العوالم تملأ
أبين بآيات له فتنبأ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

بدأ الإله بنوره فيعقب
فيه لدي الحاجات إذ يتطلب
بل هو إلى الأرب انتفع تعميماً
بدء الذي بالمصطفى يتقلب
بدء بذكره به يستوهم
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تلت العلامات التي هي تثبت
تمت له الآيات فيك تبكت
توقيع حاجات صفوا تسليماً
تبّ العدا تبّاً وعنه تثبت
توراة موسى ناطقاً هي تنعت
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثبت الكمال له ومنه يورث
ثبت بذكرى المصطفى يتحنث
ثبت بذكر قد تراه قديماً
ثبت الوري لو لم تكن لا تحث
ثبت الذي يجنا به يتشبث
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

جاء العوالم نورهُ يتلج	جاد العوالم بحره يتوج
جاز السّموات العلّا يتعرج	جاب الجميع بسامه يتفرج
جار له جارى له تنعما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
جار العقول المدحه إذ بمدح	حيا الحياء بريّه يستروح ^١
حي له فضل به يسترجح	حي له حامى حمى فترّوح
حي الحمى الحامى تصير سليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
خلق له كل به يتشمخ	خلق له بالنقص لا يتلطخ
خلق له أحسن به هو أبذخ	خلق يحق له الثناء الأرسخ
خلق إلهي بذاك تمجما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
دار الحبيب أحق ما يتعمّد	دارت بها كل السعادة تسعد
دانت أهاليها بما هو يرشد	دار بحسن طيبة لا تبعد
دارك سكونا بالسكون مقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ذكر الحبيب محمد هو يتقد	ذكر لما ينسي رسولا يتقد
ذكر الإله ثناؤه ويلدذ	ذكراه تنفع سامعا يتلدذ
ذيل النبي خذ اعتصم تعظيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
ربّ الورى سبحانه هو أكبر	ربّ النبي محمد فيكبر
ربّ الرؤوف حبيب فيدبر	ربّي اصطفاه من الورى فأكبر
ربّ ارتجاء للمنى تدويما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما

زاد الإلهُ عُرُوجه فيبرُزْ زانَ العوالمِ إذْ أُنْهاها يبرُزْ
زادَ لأخرى حَبّه يتحرُزْ زادتْ معاليه عروجاً ينشُزْ
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً زعمَ الشفاعةَ ذاكره زعيماً

سارَ السّمّواتِ العلّا يستأنس سادَ الجميعِ إذا أتى هو أنفس
سامي ذراهُ للمُحِبِّ تؤنس سألَ الإلهَ وزادَ ما يتنافس
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً سارعُ إلى ذاك الذرا تخيماً

شرقَ لأشرقَ شرقه يتفرّش شرفَ لأمتِه بهِ يتفايش
شوقاً إليهِ قد إليهِ أجْهش شرقاً وغرباً فيهِ عقل يدْهش
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً شكراً على النعمى تزيد نعيماً

صفة عن الشيء الذي يتنقص صفة له ذات له هو أخلص
صفة شريعته النقائص تخلص صفة له حارت عقول تفحص
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً صفة له وبربه لتسدّما

ضاع الذي عن ذكره هو يعرض ضاعَ المديح لأحمد يترّوض
ضاف بذكره المُنَى يتعرّض ضاف حباه كفّه ليفضفض
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً ضاعف له الآمال صلّه مديماً

طابتْ مدائحه فطاب المغيّط طالَ العوالمِ إذْ أتى هو يقسط
طام له بحر الألى يتنشّط طالت به النعمى وطاب المنشط
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً طالب مطالب كلّها تميماً

ظهر لأمتِه ظهير ملحظ ظهر النبي وربّ [أحمد يلحظ]
ظلّ له ظلوا به يتحفّظوا ظهروا على الأمم افتخار ملحظ
صلّوا عليهِ وسلّمُوا تسليماً ظلت الظلال إذا ذكرت نديماً

عدّ المحاسن للنبي يستبج	عدّ له آياته تتنوع
عدّاه مولاه إليه فيطلع	عدّ لذكراه غداة يشفع
عدّ باب منّ بالمؤمنين رحيمًا	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
غزرت له الآيات هنّ نوابغ	غزر الحيا عزّ الورى هو سائغ
غمر الرّدا بحر الندى يترفع	غمر البلاد بذكره يستفرغ
غمر بذكراه الفؤاد وسيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
فاض الجمال وفاض منه يوسف	فاز المحبّ بذكره لا يوسف
فاضت عليه فيوضه يتزلف	فاشّ له الآيات لا يتكلّف
فاد له كلّ بهم تقدبما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
قمر بدا من أفقه هو فائق	قمرّ يحاب بذكره ويعلق
فمقام كلّ الأنبياء وسائق	فمقام جود عمّ كلّ يرفق
قم بابه مستنجحاً ومقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
كلّ به فتح الوجود ويدرك	كلّ الكمالات احتوى لا يشرك
كلّ اللسان عن البيان ويمسك	كلّىء الذي يجناه يتمسك
كيل مرتجاك إليه ثق نكرما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لمحمد هو مصطفى ومؤمل	لمحمد بن محمد ما يأمل
لمحت عليه بروقه يتحمل	لمعان نور وداده يستكمل
لم لأصيب من الحبيب شميما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
من مثل ذاك المصطفى يتعظم	من كلّ وجه للكمال ليعظم
منّ علينا من إله أعظم	منه العروج إليه وهو يعظم
من كان للربّ العظيم كليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما

نور الإله حبيبهُ يتمكن نادى الإله حبيبهُ يتمكن
نال نوالاً شرحه لا يمكن ناد له طوبى لمن يتمكن
نادى الحبيب بذكره تكليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

والله مثل محمد لا يشبه وجه الوجود بذاته وبه له
وجدوا وجاد من النجاة مقيماً وجه علا وبوجهه فتوجهوا
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

هو أكمل من كل وجه أوجه هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
[...] فأولى طبيه وأوجه هول من الأرض المكثر أوجه
هانا بنار الشوق صرت سقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لا ريب لا مثل له والله لا لاح له الآيات عرشاً قد علا
لاقى ارتقاء ربّه فتوصلا لاج به نال المنى إلى الألا
لازم لباب جنابه تقسيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا أكرماً كل إليه يلتجى يأتي محمدك العفيفي الذي
يقنا توسّل بالصفي ويحتذي يده إليك [يمد] فقرأ ترنجي
يمن افتتاح باسمه تختما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

قلت : وإنما أثبت هاتين القصيدتين في جملة ما سرده ، وإن كان فيهما
من التكلف ما لا يخفى لأوجه ، أحدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له
ويتبرك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام للملامه ،
الثاني : أنهما مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وعليه من الله أركى صلاته وأتم
سلامه ، الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه في البحر والروي والمعنى ،

١ لفظة التكلف هنا قاصرة ، إذ هذا النمط من السداسيات خارج على طبيعة اللغة ودلالات اللفظ .

لأن بعضاً من العلماء ذكر لي أنه لم يطلع في ذلك إلا على قصيدة ابن الجحنان ،
فأحييت أن أتعرض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه ، على أن القصد الأعظم ما هو إلا
التلذذ بذكر أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً المقتبس فيها قوله
تعالى ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

وقد كنت نويت أن أولف في ذلك بالخصوص كتاباً أسميته « روضة
التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإمراء والمعاينة والتكليم »
والله تعالى المسؤول في التيسير ، فلتزد عليه يسير .

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب « در الدر »^١ للشيخ
الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد^٢ بن أحمد بن أبي
بكر الططار الجزائري من جزائر بني مزغنة ، وهي المشهورة الآن بالجزائر :

أنوار أحمد حُسْنُهَا يتلألأ	المصطفى بجلى الكمال يَحْتَلَأ
الشمس تَجْجَل وهو منها أضوأ	النور منه مُقَسَّم ومجزأ
قد زان ذاك النور إبراهيمأ	صلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صلُّوا على المسك الفتيق الأطيب	صلُّوا على الورد المعين الأعذب
صلُّوا على نور ثوى في يثرب	صلُّوا عليه بِمَشْرِقٍ وبمَغْرِب
ما زال في الرسل الكرام كريماً	صلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صلُّوا على زهر الكمال النابت	صلُّوا على طود البهاء الثابت
صلُّوا على من فاق نعت الناعت	خير الورى من ناطق أو صامت
وأعزَّهم نفساً وأطهر خيماً	صلُّوا عليه وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

١ سيورده باسم « نظم الدر » بعد قليل .

٢ بن عبد . . . محمد : سقطت من ق .

صلّوا على طيب يفوح ويمكث	صلّوا على من بالهدى يتحدث
أضحى يعلمنا الهدى تعلّما	صلّوا على من عرقه يتأرج
للحضرة العلياء ليلاً يعرج	صلّوا على من حاز مجداً يبهج
وبها على العرش المجيد مقيما	صلّوا على من عرقه يتأرج
صلّوا على البدر المنير اللّاثع	صلّوا على المسك الذكي الفائح
الرشد فهمّ والهدى تفهّما	صلّوا على الهادي النبي الناصح
صلّوا على من شرعه لا ينسخ	صلّوا على من عرقه لا يفسخ
صلّوا على من بالثناء يضمخ	عليّاه عليا الكمال تؤرخ
نال المفاخر والكمال قديما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على الهادي لأعذب مورد	صلّوا على خير الأنام الأوحّد
صلّوا على بدر التمام الأسعد	بمحمد فزنا ، ومن كحمد
الله عظم قدره تعظيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على من بالنبوة يفد	صلّوا عليه فللسعادة يجذ
صلّوا على من حبه لا ينبد	أبصارنا طرأ بأحمد لوذ
في موقف ينسي الحميم حميما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
صلّوا على البدر المنير الزاهر	صلّوا على الروض البهي الناضر
صلّوا على بحر العلوم الزاخر	صلّوا على المسك الفتيق العاطر
وتنعموا بصلاتكم تنعيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على نُور يَلُوح ويبرز بمحمّد حلّ الكمال تُطرز قد نُظِّمت لِكَمالِهِ تَنْظِيمًا	صلّوا على نُور يَلُوح ويبرز بمحمّد حلّ الكمال تُطرز قد نُظِّمت لِكَمالِهِ تَنْظِيمًا
صلّوا على مَنْ بالبهاء يخطط للمصطفى بُسْطُ الكرامة تُبسط وبنوره أضْحى الزمان وسيما	صلّوا على مَنْ بالبهاء يخطط للمصطفى بُسْطُ الكرامة تُبسط وبنوره أضْحى الزمان وسيما
صلّوا على مَنْ بالنبوة يلحظ ^١ لِعُصاته نار الجحيم تغبظ صلّوا عليه وسلّموا تسليما	صلّوا على مَنْ بالمهابة يلحظ صلّوا على مَنْ بالهداية يلفظ ورضاه هَبَّ لنا وطاب نسima
صلّوا على مَنْ باسمه يُتبرك صلّوا على مَنْ للهدى يتحرك صلّوا عليه وسلّموا تسليما	صلّوا على مَنْ قدره لا يُدرَك صلّوا على مَنْ حبه لا يُترك وبه تحلى ظاعنا ومقيما
صلّوا على الروض البهيّ الأجل المصطفى الأرقى لأنزه محفل صلّوا عليه وسلّموا تسليما	صلّوا على البدر المنير الأكمل صلّوا على الهادي النبيّ الأحفل فيه تقدّم وحده تقدima
صلّوا على عَرَفٍ ذكيّ ناسم ^٢ من جوده نلنا بخير مقام ^٢ صلّوا عليه وسلّموا تسليما	صلّوا على زهر أنيقٍ باسم صلّوا عليه فهو بدرٌ مواسم أنواره قَدْ تمت تميمًا

١ ق : يحفظ .

٢ ق : صلّوا على من للمقام قاسم .

صلّوا على مَنْ بالنّبوّة زينا	صلّوا على مَنْ بالنّبوّة زينا
صلّوا على هادٍ أبانَ وبينا	صلّوا على هادٍ أبانَ وبينا
للخلقِ أرسلَ رحمةً ورحيما	للخلقِ أرسلَ رحمةً ورحيما
صلّوا على من بالكمال يخصص	صلّوا على من بالكمال يخصص
صلّوا عليه على الدوام وأخلصوا	صلّوا عليه على الدوام وأخلصوا
شمل الورى طرّاً وطاب عميما	شمل الورى طرّاً وطاب عميما
صلّوا على صبح تبليج بالرضى	صلّوا على صبح تبليج بالرضى
صلّوا على مَنْ بالنّجاة تعرّضا	صلّوا على مَنْ بالنّجاة تعرّضا
وعلا وخيم ضوءه تخيما	وعلا وخيم ضوءه تخيما
صلّوا على البدر المنير الساطع	صلّوا على البدر المنير الساطع
صلّوا على الصبح المنير اللامع	صلّوا على الصبح المنير اللامع
ووقاه في وهج المهجير مغيما	ووقاه في وهج المهجير مغيما
صلّوا على النّور الأعم السابغ	صلّوا على النّور الأعم السابغ
صلّوا على المسك الذكيّ البالغ	صلّوا على المسك الذكيّ البالغ
للواردين به غدا تميما	للواردين به غدا تميما
صلّوا على من بالتقرب يوصف	صلّوا على من بالتقرب يوصف
صلّوا على من بالعلّا يتشرف	صلّوا على من بالعلّا يتشرف
المجد فتحّم ذكره تفخيما	المجد فتحّم ذكره تفخيما
صلّوا على الروض الأنيق الرائق	صلّوا على مسك يطيب لناشِق
صلّوا على البدر الأتم الفائق	إشراقه بمغاربٍ ومشارِق
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	بادٍ تنمّ حسنه تنسيما

صلوا على الدرّ النفيس الأنفَسِ
صلّوا عليه فهو زين المجلسِ
راق النفوس شدّاً وطاب شميما

صلوا على المختار أفضل من مشى
بمحمد عرّفُ القرنفل قد فشا
يُبري الضنى أبداً ويروي الهيما

صلوا على الهادي النبيّ الأنزه
في فضله كلّ الشهادة تنتهي
في حبه أضحي الغرام غربما

صلّوا على نور بطيية قد ثوى
صلوا عليه فليس ينطق عن هوى
في موقفٍ يذرُ السليم سليما

صلوا على نور تلالاً واعتلى
صلّوا على مسكٍ يخالط متندلا
وبه المعالي خيمت تخيما

صلوا على منّ نال مجداً عاليا
صلّوا على نور تبدّى حاليا
وإذا سما المخدم زان خديما

وقد توارد في بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التي أولها :

١ ق : ختمت تخيما .

يا أمة الهادي المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمل ، والذي في ظني أن صاحب « يا أمة الهادي » متأخر عن ابن العطار فهو الذي أخذ منه ، والله سبحانه أعلم .
وتوارد أيضاً في عدة أبيات مع تخميس الكاتب أبي العباس ابن جمال الدين المتقدم ذكره وأوله :

الله زاد محمداً تعظيماً

وهما على منوال واحد ، غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس ، وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخاً ، فيحتمل أن يكون ألم بكلام ابن جمال الدين ، أو ذاك من توارد الخاطر .
ورأيت في هذا الكتاب تسديساً آخر لم يرتبه على حروف المعجم ، وجعل روي الشطرين الأخيرين حرف اللام ، فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح المصطفى عليه أجل الصلاة والسلام ، وهو :

نُورُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ	أُرِيتُ مَحَاسِنَهُ عَلَى الْأَنْوَارِ
مَرَّاهُ يُخْجَلُ بِهِجَةُ الْأَقْمَارِ	نُورٌ يُنْجِي مِنْ عَذَابِ النَّارِ
قَدْ زَانَ ذَاكَ النَّورَ إِسْمَاعِيلَا	صَلُّوا عَلَيْهِ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلَا
صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الْمَشْرِقِ	صَلُّوا عَلَيْهِ بِمَغْرَبٍ وَمَشْرِقِ
صَلُّوا عَلَى غُصْنِ الْكَمَالِ الْمَوْرِقِ	بِالْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ يَرْقِ الْأَبْرِقِ
يَهْدِي غَرَاماً لِلنَّفُوسِ دُخِيلَا	صَلُّوا عَلَيْهِ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلَا
صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَاهَى فَخْرُهُ	صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَعَاظَمَ قَدْرُهُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَأَرَجَ نَشْرُهُ	صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ تَنَاسَقَ دَرُهُ
عَقْدَ السَّنَاءِ لِمَجْدِهِ الْكَلِيلَا	صَلُّوا عَلَيْهِ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلَا

صلّوا على خير الأنام المرسل	صلّوا على خير الأنام المرسل
صلّوا على أسنى سنا المتوسل	صلّوا على أسنى سنا المتوسل
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	ظلّ علينا لا يزال ظليلا
صلّوا على من فاق عرف العنبر	صلّوا على النور الأتم الأكبر
كم زان ذكر المصطفى من منبر	صلّوا عليه فهو أصدق مخبر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	وأراح من داء الضلال غليلا
صلّوا على من فاق كل مبشر	صلّوا على النور الأتم الأنور
صلّوا على بدر يرى في المحشر	صلّوا عليه هديتم من معشر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	حاز الجمال فلا يزال جميلا
صلّوا عليه بيمشرق وبمغرب	صلّوا على النور البهي المغرب
بالفكر يشرب ويع من لم يشرب	صلّوا على الورود الشهي المشرب
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	منه ، وينفع بالورود غليلا
صلّوا على من في النجاة يفكر	صلّوا على من فخره لا ينكر
صلّوا على من بالهداية يشكر	صلّوا على من بالنبوة يُذكر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	شكراً على مر الزمان حفيلا
صلّوا على من في الكمال تقسّم	صلّوا على من بالسيادة قد سما
صلّوا على طيب سرى وتنسّم	صلّوا على صبح بدا متبسّم
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	وغدا وراح معطراً ولبليلا
صلّوا عليه سرى وفاح وما انبرى	صلّوا على مسك يخالط عنبرا
ليس الجمال مطرزا ومحبرا	صلّوا عليه حوى الكمال الأكبر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا	وبذاك قد خص الجليل جليلا

صلّوا على من بالنبوة تُوجّا	صلّوا على صبح بدا وتبلجا
صلّوا عليه لقد أضاء وأبهجا	وعا برونق نوره ظلّم الدجى
نور يعود الطرف منه كليلّا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا
صلّوا على نورٍ تبلّج لاثحا	صلّوا على نورٍ تبرّج واضحا
صلّوا على مسكٍ تارّج فاثحا	وبطيه ملاً الوجود روائحا
وبجته يستوجب التبجيلا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا
صلّوا على من نوره ملاً الفضا	صلّوا عليه لقد أضاء وما انقضى
صلّوا على من خصّ حقاً بالرضى	لنجاتنا خير الأنام تعرضا
وهدى إلى نيل الرشاد سبيلا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا
صلّوا على بدرٍ يدوم كماله	باقٍ على مرّ الزمان جماله
صلّوا على من قد تعاظم حاله	ودنا إلى ورد الرضى ترحاله
وإلى الورود به أجدّ رحيلّا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا
صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى	صلّوا على بدر يزين المشهدا
صلّوا عليه فمن رآه تشهدا	صلّوا عليه به الرشاد تمهدا
أرضى التزيل ويّين التزيلا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا
صلّوا على من قد تأثّل مجدّه	فسما به غور الحجاز ونجدّه
ما زهره لولاه أو ما وردّه	بالمصطفى المختار يعذب وردّه
في تربه ما أعذب التقيلا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا
صلّوا على محبوبنا مطلوبنا	صلّوا عليه فهو روض قلوبنا
صلّوا عليه فهو عطر جيوبنا	صلّوا على مطلوبنا محبوبنا
لا نرتضي عن حبه تبديلا	صلّوا عليه بكرة وأصيلّا

١ ق : تأمل .

صلّوا على خير الأنام الأطهر صلّوا على النور الأتم الأزهر
 صلّوا على الصبح المنير الأشهر صلّوا عليه باتصال الأشهر
 الله فضّلنا به تفضيلاً صلّوا عليه بكرة وأصيلاً
 صلّوا على من قد تناهى في العلا صلّوا على من كان أكل أجلاً
 صلّوا على درّ تزان به الحلي المجد ألبسه الكمال مكملاً
 والله كمل مجده تكميلاً صلّوا عليه بكرة وأصيلاً

وأظن أنني رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي ، وهو متأخر .

[قصائد ومقطعات في مدح الرسول]

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربي ، وهي :

أهدت لنا طيب الروائح يثرب فهبوبها عند التنسم يطرب
 رقت فرقاً من الصباية والأسمى قلب بنيران البعاد يعذب
 شوقاً إلى أسنى نبي حبه يحلو على مر الزمان ويعذب
 المصطفى أعلى البرية منصباً قد جل في العلياء ذاك المنصب
 فزنا به بين الأنام بديمة أبداً علينا بالأمانى تسكب
 حاز السيادة والكمال محمد فإليه أشنات المحامد تُنسب
 محبوبنا ونبيّنا وشقيعنا يُدني إلى ورد الرضى ويقرب
 بضياؤه الملتاح أشرق مشرق وبنوره الوضاح أغرب مغرب
 وبه وردنا الأمن عذباً صافياً وبه ترقى في المعالي يشجب

١ ق : من نبي أنور .

٢ ق : صلّوا عليه فما أتم وأجلاً .

صبح الهدى أنواره بنيينا
 إن طابت الأنفاس من زهر الرئي
 صيرت أمداح النبي المصطفى
 فعلي من أمداح أحمد خلعة
 وبمدحه شمس الرضى طلعت على
 أترى يبشرني البشير بقربه
 ويقال لي بشراك قد نلت المنى
 هذا مقرر الوحي هذا المصطفى
 رد ورد طيبة واشف من ألم النوى
 كم ذا التواني عن زيارة مورد
 منا السلام على النبي محمد
 صباحاً تروق الناظرين وتعجب
 ريتاه أذكي في النفوس وأطيب
 لي مذهباً يا حبيذاك المذهب
 موشية لها طراز مذهب
 أفقي تضيء ونورها لا يغرب
 وأبث أشواق الفؤاد وأندب
 يا مغربي إلى متى تتغرب
 هذا الذي أنواره لا تحجب
 قلباً على جمر الأسى يتقلب
 عذب المقام به ولذ المشرب
 ما أسفرت شمس وأشرق كوكب

وقد سمي هذا الكتاب بـ « نظم الدرر في مدح سيد البشر » و « الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » وليس هو بـ ابن العطار المشرقي الذي كان معاصراً لابن حجة الحموي ، فإن ذلك متأخر عن هذا ، وهذا مغربي وذاك مشرقي ، فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان ، سوى اشتراكهما في الشهرة بابن العطار .

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته : ممّا أنشأه الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف العطار ، رواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهري ، قرأت هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة

١ يعني بابن العطار المشرقي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدنيسري ، وله في المدائح النبوية « عنوان السعادة » (الدرر الكامنة ١ : ٢٨٧) .

بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية - حُرِسَتْ - في دُولٍ متفرقة ، وآخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة أو آخر عام سبعة وسبعمائة ، ونَصُّ ما كُتِبَ على نص قراءتي عليه : صحيحٌ ذلك ، وكتبه محمد بن عبد الله ابن محمد بن محمد بن العطار ، والحمد لله رب العالمين ؛ انتهى .

ورأيت أثر ما تقدم بخط الأقسهري ما صورته : سمع من لفظي جميع « نظم الدرر في نسب سيد البشر » لجامعه ، القاضي المذكور أعلاه القاضي شمس الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشبيبي وولده أبو محمد عبد الدائم وابن أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفص ابن أبي بكر البوري وغيرهم ، نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطار سنة سبع وسبعمائة ، قاله راسمه الأقسهري ؛ انتهى .

ومن قصائد هذا الكتاب قوله :

أبدأ تشوقك أو تروك يثربُ	فلما متى يقصيك عنها المغربُ
هي جنة في النفس يعذب ذكرها	والقرب منها والتداني أعذبُ
المسك معترف بأن نسيمها	أسمى وأسرى في النفوس وأطيبُ
والعنبر الوردي دان لطيبها	منه التعطر والتأرج يطلبُ
جيش الصباية شن غارات الأسمى	من بعدها فالصبر منها ينهبُ
والشوق يشننا إليها كلما	وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
حتى التسيم إذا سرى من ربعا	يثني من الروض الغصون ويضطربُ
حيًا فأحيا المستهام بطيبه	فتفوسنا بهوبه تتطيبُ
يا حبذا في رُبَّ طيبة وقفة	بين الركائب والمدامع تُسكبُ

١ ق : أبي حفص .

حتى يرقَّ للوعتي وصابتي
 شوقاً لمن زان الوجود ، وجهه
 ساد الأنام المصطفى بكماله
 بالنور زان حلّى علا آياته
 الشمس يغرب نورها وضياؤها
 الله أرسله إلينا رحمة
 بمحمد فزنا بإدراك المني
 خير الورى محبوبنا ونيّنا
 روض النفوس محمد ونعيمها
 شرف تقادم قبل آدم عهده
 منا عليه مدى الزمان تحية

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

طلعت ، وقارنها البهاء ، بدور
 من نور أحمد يستمد ضياؤها
 ويزيد ذاك النور حسناً فائقاً
 محبوبنا أسمى البرية منصباً
 فزنا بخير العالمين محمد
 لاحت لنا أنواره فزماننا
 بالمصطفى المختار قابلنا الرضى
 الله فضله على كل الورى
 القرب خصّصه وعظم قدره
 خير النيّين الكرام نيّنا

أبداً على قطب السعود تدور
 وبهاؤها ، يا حيّذاك النور
 يوم القيامة والأنام حضور
 يوم النشور لواؤه منشور
 وجرى بوفق مرادنا المقدور
 نور ، وأنس دائم وسرور
 بين الأنام فسعيناً مشكور
 فهو الحبيب ، وفضله مشهور
 فسمّا يبهجة نوره ناحور
 بالنور في العرش اسمه مسطور

يا صاحبي نداء صب مغرم
عوجا علي بوقفة وبعطفة
إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى
نيران قلبي بالبعد توقدت
فمن الفراق الحتم نيران لها
فمنى أفوز بوقفة في طيبة
ويقال لي إنزل بأكرم منزل
إن جاد دهري بالوصول لطيبة
هي جنة من حلها نال المني
حتى النسيم إذا سرى من نحوها

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أما النسيم فقد حيّاك عاطره
خاطر بروحك في نيل الوصال فكم
زهر الربى باسم تندي كائمه
ما حل روض المني الغض الجنى دنف
والنهر أبرز للبدر الأتم حلى
والغصن تلعب أنفاس الرياح به
والليل قد رقت بالشهب حله
والنور مخض جنى فوق الندى درر
وملبس الروض قد زانته خضرته
والصبح سل على جيش الظلام طبى

وبارق المنحى أحيّاك ماطره
من نازح نال طيب الوصل خاطره
رق النسيم بها إذ راق ناظره
فاستضحكت فيه من عجب أزاهره
والبدر طرز ماء النهر زاهره
والطل قد نثرت منه جواهره
والبرق يسم في الظلماء ساهره
وعقدها زين الأغصان دائره
والليل بالفجر قد شابت غدائره
وعندما سلها ولت عساكره

الزهر سرٌ وعَرَفُ الروض فاضحه
هل زار طيبة ذاك العرفُ حين سرى
طابت بطيب رسول الله فهي به
به معدةٌ تسامى للعلا ، وبه
أسنى النبيين قدراً نوره أبداً
وأفضلُ الخلق من عُرْب ومن عجم
إن كان للرُّسل عقدٌ وهو آخرهم
روضٌ من الحلم غصنٌ راق منظره
إن جاد صاحٍ بلبقياهُ الزمانُ فمِلْ
وصِفْ له حال صبٍ مفرمٍ دثفٍ
واذكر هناك بعيدَ الدار غربةً
أهدى السلام بلا حدٍ ولا أمدٍ

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أُنزلنا جادت ثراك السحابُ
ووشاكٌ وسَمِي الغمام بدره
وحياً نسيمُ الريح بالجزع أنسا
فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائدُ
وهل راجعٌ عصرُ الشباب الذي انقضى
وهيهات أن يقضى لنا برجوعه
وقد سلب الدهرُ المفرق أنسنا
فما وهبَ الإيناس إلا مغالطاً
أطالبُ أيام العقيق بعودة
فيا صاحبي كن مُسْعدي في صبابتي

والمسكُ إن فُضَّ لا تخفى سرائره
فترها أبداً مسكٌ يخامر
سمتٌ وراقت بمن فاقت مفاخره
حازَ المكارمَ واعتزت عشائره
يزيدُ حسناً على الأعمار باهره
أربتُ على الرمل أضعافاً مآثره
نظماً فقد زان عقدَ الرُّسل آخره
بحرٌ من العلم عذبٌ فاض زاخره
إلى مقامٍ حبيب أنت زائره
رامَ الدنوا فاقصته جرائره
غربٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
إلى محلٍ رسول الله عامره

وإلا فجادته الدموعُ السواكبُ
وحلتي محلاً حلٌ فيه الحبابُ
فما عاب ذاك الأنس بالجزع عائب
ويا أنسنا بالجزع هل أنت آيب
وقد شيت سودَ الشعورِ الشوايبُ
كما كان غصناً مورقاً وهو ذاهبُ
وأودى به الدهرُ للأنس سالبُ
وأي بخيلٍ للنفائس واهبُ
وقد عزَّ مطلوبٌ له أنا طالبُ
وإلا فما أنت الصديقُ المصاحبُ

إذا ما بدا برقُ الحجازِ فأدعني
أعائبُ أيامِ البعادِ ، وقلّما
وأبخلُ بالصبرِ الجميلِ ، وإنّه
ولمّا بدتْ أعلامُ طَيِّيةٍ قصّرتْ
وقفنا وسلمنا وفاضتْ دموعنا
نزلنا وقبّلنا من الشوقِ ترهبنا
فللعينِ من تلكِ المعاهدِ نزهةٌ
حوّتْ سيدَ الرسلِ الذي جلّ قدره
بهِ غالبٌ حازَ المفاخرِ سالفاً
بهادي الوري طراً مناصبه سَمَتِ
محمدٌ الهادي بإشراقِ نوره
ترقى إلى السبعِ الطباقي وما بدا
وخطبه في حضرةِ القدس ربّه
نبيٌ بدتْ أنواره وتلألأتْ
لقد أشرقتْ شمسُ النهارِ بنوره
أعلّلَ قلبي بالوصولِ لقبره
وإنّي أناديه وإن كنتَ نازحاً
إذا كنتَ لي يا سيدَ الرسلِ شافعاً
بمدحك يا من جلّ قدرُ وحظوة
فيا معشرَ الأحياءِ إنّ نبيّنا
ألا فاذكروه كلّ حينٍ وسلّموا
وقوموا على أقدامكم عند ذكره

تفيض إلى الوراد منها المشارب
يردُّ حرَّ الشوقِ بالعتبِ عاتب
لينهبه من وارد البين ناهب
من الشوقِ ما قد طولته السباب
وحنّتْ إلى ذاكِ الجنبِ الركائب
وطابتْ بذاكِ الربِّ منّا الترائب
وللقلبِ في تلكِ الرسومِ مآرب
له في مقامِ القربِ تقضى المطالب
ولا شرفٌ إلا الذي حازَ غالب
ورافتْ بخيرِ الرسلِ تلكِ المناصب
تمزقَ من ليلِ الضلالِ غياهب
له في ترقّيه من الحجبِ حاجب
وأدناه في حالِ الخطابِ المخاطب
فمنها تضيئُ النيراتُ الثواقب
وبدرِ الدجى لمّا بدا والكواكب
وإن غبتُ ما قلبي وحقّك غائب
نداءِ غريبٍ غربته المغارب
فما أنا من نيلِ السعادة خائب
وجاهاً وتمكيناً تُنالُ المواهب
إلى فوزنا داعٍ وساعٍ وخاطب
عليه ، بذاكِ الذكرِ تسمُّ المراتب
فلذلكِ في شرعِ المحبة واجب

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل
من وجه عبد الله كان ظهورها
خلعت على الآفاق أشرف ملبس
فالنيران المشرقان كلاهما
فالشمس لما أن بدت أنواره
والبدر قابله بحسن كامل
وليلة الإسراء أجمل منظر
فضلت على الأيام من شرف لما
وبدا بها نور النبي المصطفى
إذ جاءه الروح الأمين مسلماً
فسرى إلى أسنى محل وارتقى
رفعت له حجب الجلال بأسرها
حتى انتهى الروح الأمين لحده
ناداه لما أن ترقى وحده :
ارقا إلى الأفق المبين مشاهداً
واسعد بزورة من تعظم ملكه
فسما فشاهد حضرة القدس التي
وبدا الكمال له ونودي مقبلاً :
أنت المراد لسرنا ولوحينا
والبس بحضرة قدسنا خلع الرضى
ولك الوسيلة يا محمد عندنا
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى
ودحت دجى ليل الضلال المسبل
للخلق طراً في ربيع الأول
وبدت فأى دجنة لم تنجل
للمصطفى اعترفا بعجز مجمل
أومت إليه بالسلام الأحفل
فانشق للبدر الأتم الأكمل
بجمال إسراء الحبيب الأجمل
حازته من شرف النبي الأفضل
وبدت لنا نار الكليم المصطفى
ومبشراً بورود أعذب منهل
والخفن منه بنومه لم يكمل
فرأى جلالاً لم يكن بمثل
وبحث يذهل عقل من لم يذهل
لك يا محمد ذا التقرب ليس لي
واترك حظوظك بالحضيض الأسفل
واصعد إلى عرش الحبيب الأول
سبحاتها تغشى حجى التأمل
أهلاً وسهلاً بالحبيب المقبل
أقبل إلينا يا محمد تقبل
منا وجراً الذيل منها وارفل
وبها نجيب وسيلة المتوسل
وانزل بأنوار الكتاب المترل

فيه شفاء للصدر فبرؤها
 يا نفس هل تشفيك زورة طيبة
 ولتى زمانك في التصابي والمنى
 يا قلب ، روعات الجوى هل تنقضي
 وأزور قبر الهاشمي محمد
 إني وإن بخل الزمان بقربه
 أسقي الثرى تسكابها ، فمعينها
 لهفي على بعد المزار متى أرى
 ومتى أبشر بالمنى ، ويقال لي :
 ونهب تلقائي نواسم طيبة
 فلقد بليت بلوعة وبدمعة
 خيلت قريبك برة داء صباي
 شوقاً إلى خير الأنام بأسرهم
 فيه أنا متوسل في مقصدي
 ويجاهد عند الأنام مآربي
 وبه الأمانى قد حللن بساحتي
 بشراك نفسي فالأمانى أعجلت
 بمدحجه أضحى الزمان مسالي
 فيه إلهي قد رجوتك راغباً
 وإليك ربتي رغبتي وتوسلي

بمفصل منه وغير مفصل
 فرسومها برة لكل مقبل
 فدعي التصابي والأمانى وارحلي
 غني ؟ ولوعات الجوى هل تنجلي ؟
 قبل الرحيل وقبل عدل العدل
 فبلوعي وبدمعي لم أبخل
 يهي ، ونار صباي ما تأتلي
 يقضي الزمان بقرب ذاك المترل ؟
 هذا مقرر الوحي دونك فانزل ؟
 إني أجود بها إليك وحق لي
 وهوبك الأزكى شفاء المبتي
 ضمن البعاد به فطال تحبلي
 سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي
 أسنى التوسل بالرسول المرسل
 ووسائلتي تفضي وإن لم أسأل
 وحوادث الحدثن صرن بمعزل
 نحوي تبشرني بخير معجل
 تندى أسرة وجهه المتهلل
 دون الأنام فباب جودك موثلي
 وعليك في كل الأمور توكلي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته : قال محمد بن عبد الله بن محمد بن
 محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم : كان الفراغ من
 إكمال هذا الفصل وإتمامه ، حسب نثره ونظامه ، ضحوة يوم الجمعة الثاني من

شعبان المكرم سنة ست وتسعين وستمائة ، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها ،
فإنها تقدمت على إنشائه ، أودعتها فيه ، والله سبحانه المستعان ، وذلك بمدينة
الجزائر - جزائر بني مزغنة - من أقصى إفريقية من أرض متيجة ، صانها الله
تعالى ؛ انتهى .

ونبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصّه : تأليف الفقيه العالم الأديب
البارع أبي عبد الله محمد بن العطار الجزائري ؛ انتهى .
وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر ، فالله تعالى يجازي صاحبه
أفضل الجزاء ، بمنه وكرمه .

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة
على ما ذكر هنا فنقول : قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب « مطالع
الأنوار ومنايع الأسرار » :

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي	يَجِبُكَ قُرْبَةً نَحْوَ الْإِلَهِ
جَرَتْ أَمْوَاهُ حَبْكُ فِي فَوَادِي	فَهَامَ الْقَلْبُ فِي طِيبِ الْمِيَاهِ
فَصُرْتُ أَرَى الْأُمُورَ بَعِينَ حَقٍّ	وَكُنْتُ أَرَى الْأُمُورَ بَعِينَ سَاهِي
إِذْ شَغَفَ الْفَوَادُ بِهِ وَذَادَا	فَهَلْ يَنْهَاهُ عَنْ ذِكْرِهِ نَاهِي ؟
يَهِيمُ بِذِكْرِهِ وَيَحْنُ شَوْقًا	حَنِينَ الْمُسْتَهَامِ إِلَى الْمَلَاهِي
يَخَامِرُهُ ارْتِيَاخٌ مِنْهُ حَتَّى	يَقُولُ أُولُو الْجَهَالَةِ : ذَاكَ لَا هِي
وَمَا هُوَ حَقٌّ فَضْلٍ قَدْ رَأَاهُ	فَصَارَ يَجِدُ فِي طَلَبِ الْمَلَاهِي
فَسَوْفَ يَنَالُ فِي الدُّنْيَا سُرُورًا	وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كُلَّ جَاهٍ
وَيُعْطَى مَا تَمْنَى مِنْ أَمَانٍ	كَمَا قَدْ حَبَّ مَحْبُوبَ الْإِلَهِ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يَا عَاذِلِي فِي طَلَابِي	دَعْنِي مِنَ الْعَذْلِ دَعْنِي
سَاعِمِلِي الْعَيْسَ شَوْقًا	بِالْعَزْمِ دُونَ التَّائِنِي

مصدق حسن ظني	إلى ضريح رسول
حين الحمام يغني	أشدو على كل فج
بذلتي عبد قين	يا أظهر الخلق لاني
وانظر بعطفك مني	فاعتق اليوم رقي
إياك إياك أعني	فأنت أنت ملاذي
ما غبت عن عين ذهني	إن غبت عن عين جسمي
أشرف من كل جن	لولاك كنا أناساً
فخير فضل ومن	فإذ بعثت رسولا
عساه يصفح عني	لله خالص شكري
قلبت ظهر المجن	فلأني عبد سوء

وقال في خاتمة ذلك الكتاب :

ما لاذت الأرواح بالأجساد	صلّى الإله على النبي الهادي
فكسا محيا الأفق برّد حداد	صلّى عليه الله ما اسود الدجى
فابيض وجه الأرض بعد سواد	صلّى عليه الله ما انبلج السنا
فسقى البلاد برائح أو غادي	صلّى عليه الله ما همع الحيا
وشدا على فني الأراكة شادي	صلّى عليه الله ما هفت الصبا
جفن فخامره للذيد رقاد	صلّى عليه الله ما ألف الكرى
ما استمسكت نار بطي زناد	صلّى على المختار أحمد ربّه
من خصه بالنور والإرشاد	صلّى على خير الأنام محمد
حشير الأنام لديه في الميعاد	صلّى الإله على رسول حاشر
في الدهر وهو بفضله كالهادي	صلّى الإله على رسول عاقب

١ ق : وقوله رحمه الله تعالى . . . الباب .

صلى الإله على رسولٍ خاتمٍ	ختمَ النبوةَ بالكتابِ الهادي
صلى الإله على المقفى ما اقتفى	بشرُ نبوتهُ بغيرِ عنادٍ
صلى على ماحي الضلالِ إلهُ	ما غردتْ طيرٌ على الأعوادِ
صلى الإله على رسولٍ فاتحٍ	فتحَ الظلامَ بنورهِ الوقادِ
صلى الإله على نبيٍّ راحمٍ	بالملةِ الغراءِ ، بعدِ فسادِ
صلى الإله على نبيٍّ طالعٍ	رحمَ الإلهُ بهِ من الإبعادِ
صلى الإله على نبيٍّ طالعٍ	بملاحمٍ قصمتْ فؤادَ العادي
صلى عليه الله فهو نبيُّه	ناداهُ بالإرشادِ خيرُ منادِ
صلى عليه الله فهو رسولهُ	أعطاهُ رايةَ عزمةٍ ورشادِ
صلى عليه الله فهو خليلُه	أسدى إليه منه كلَّ سدادِ
صلى عليه الله فهو صفيُّه	صفى سريره من الأحقادِ
صلى عليه الله فهو وليُّه	والاهُ في الإصدارِ والإيرادِ
صلى عليه الله فهو المصطفى	من كلِّ حضارِ العبادِ وبادي
صلى عليه الله فهو المجتبي	يُجنى إليه الخيرُ دونَ نَفَسِ
صلى عليه الله فهو المتقى	نورُ الزمانِ وواحدُ الآحادِ
صلى عليه مَنْ براه مطهراً	واختاره طوداً من الأطوادِ
صلى عليه من براه بفضله	وأعاده حياً لغيرِ معادِ
صلى عليه مَنْ أراه جلاله	وأناله من ذاك كلِّ مرادِ
صلى عليه من أحلَّ فؤاده	في ظلِّ عرشٍ ثابتِ الأوتادِ
صلى عليه مَنْ غذاهُ بنعمةٍ	فتضاعفتْ كتضاعفِ الأعدادِ
صلى عليه مَنْ كساه عوارفاً	واختصه منه بخيرِ أبادِ

وقال الشيخ أبو عبد الله ابن عمران مادحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب ، كما تقدم :

ألف : أيا خيرَ البريةِ هذي	مِدَحِي ، وما أنا في مقالي هاذي
باء : بها أظهرتُ صدق محبتي	وبذلك الجاه الكريم ليأذي
تاء : اتخذتُ وسيلةً ما حكتهُ	وجعلتهُ يومَ المعادِ عيأذي
ثاء : ثنائي ليس بمحصرُ فضلكِ إلـ	زاهي ولا يحويه باستحواذِ
جيم : جلالك جلُّ طورٍ فخاره	عن شبهٍ مثلٍ أو لحاقٍ مُحاذي
حاء : حيثُ بمعجزاتٍ ذكرها	يولي ذوي الإيمانِ كلُّ لئاذِ
خاء : خصصتُ بها بفضلِ عنايةِ	منها لجأتُ إلى أجلِّ ملاذِ
دال : دحضتُ بحقها مستقرباً	إبطالَ زورٍ مشعوزٍ ملاذِ
ذال : ذراع الشاة أفصحَ غبراً	عماً يحاذرُ ضره بنفاذِ
راء : رميتُ عصائباً قد ألّبوا	فعموا ولما يُنصروا بلواذِ
زاي : زعيم بالوجهة أنت إذ	كلُّ يجاهك عاذ كلُّ عياذِ
طاء : طلابهم لديك شفاعةُ	فيها بذدتِ الجمعَ أيّ بذاذِ
ظاء : ظمأؤهم بحوضك سؤغوا	رياً كأنَّ به مذاقةَ ماذي
كاف : كفلتُ بما ثلثه (والضحى)	لجماعةِ الجارين باستنقاذِ
لام : لدعوتك المجابة أسبلت	ثرواتُ هتّانِ الحيا بهماذِ
ميم : متعين يدك إذ غلب الظنُّ	أروى الورى من توأمٍ وفذاذِ
نون : نجّارك أصلهُ متخيرٌ	من بطنِ ذاتِ علاٍ وأطهرَ حاذي
صاد : صعدت ذرا الموقف زلفة	ترك السعود مقطعَ الأفلاذِ
ضاد : ضويت إلى جلالِ كافلِ	لك بالرضى درَّ الجلالةِ غاذِ
عين : علا ذكر افتخارك وارتقى	عن غمزٍ مغتابٍ وزورٍ الباذي
غين : غمام قد علاك مظلاً	يمشي بمشيكٍ دائماً ويحاذي

فاء : فصاحتك البليغة أعجزت
 قاف : قواعد صرح كسرى زلزلت
 سين : سبقت بكل فضل يغندي
 شين : شأوت مفاخر أكل الوري
 هاء : هتفت على تنائي شفتي
 واو : ولواني استطعت لسابقت
 لا : لا أكيف قدر شوق باعث
 ياء : يميناً لو قدرتُ إذن لما
 دامت عليك صلاة ربك ما همت
 للقوم من قربي ومن شدّاذ
 لولادة أو هت قوى ابن قباذ
 جفنُ المعالي منه ليس بقاذ
 وتركنتهم غرقى بلجة آذي
 بعلاك هذي ، ما نخلتك هذي
 قلبي خطأ قدمي بالإغذاذ
 لعزائي مستنهض شحاذ
 أخرتُ سعي مبادر حذحاذ
 ديم بوبل هساطل ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبي عبد الله ابن الجنان الأندلسي :

قال - تقبل الله تعالى منه - يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يا مَنْ تقدّس عن أن
 ومنّ تعالى جلالاً
 ومنّ قبولُ ثنائي
 صلى على مَنْ تبدّى
 ومنّ علا الفخر لما
 محمدٌ خيرُ هادٍ
 محمدٌ خيرُ داعٍ
 محمدٌ خيرُ مُبدٍ
 أكرمُ به من نبي
 أعزّز به من رسول
 وخصّه الله منه
 يحيط وصف بذاته
 عن مُشبه في صفاته
 إليه أسنى هباته
 نور الهدى من سماته
 نعى إلى معلواته
 بحلمه وأناته
 بالصدق من كلماته
 لنا سنا معجزاته
 همت سما مكرماته
 سمّت علا درجاته
 بالفضل من تكرماته

لما جاء بأوفى صلاته في صلاته

وقال :

يا ربّ بلغْ سلامي	لأحمدِ ذي الشفاعة
لخاتمِ الرُّسلِ أعني	إمام تلك الجماعة
لأبهر الخلق مجداً	يحكي الصباح نصاعه
لمن صفاتُ علاه	تُعجزُ أهل البراعة
لسيدِ لسنّاه	يزهى السنا والبراعة
لمرشدٍ بهداه	قد فاز عبدٌ أطاعه
شمسُ النبوةِ مُعط	شمس السماء شعاعه
وناظم الحسنِ نظماً	قد ضمّ منه شعاعه
وسرّ سرّك يا مَنْ	أرى العيون اطلّاعه
ومَنْ جبا بذكاء	خلاله وطباعه
ومدّ في كلّ فضل	لصفوة الرُّسلِ باعه
فزده يا ربّ فخراً	وزدْ محبّيه طاعه

وقال أيضاً غيره :

لقد رفع الإله عن البرايا	يبحث محمدٌ مِحَنَ الصروفِ
أتى والناسُ في الآفاقِ نهبٌ	لُسُمرِ الخطِّ أو بيضِ السيوفِ
فأنقذهم ، ولولاهُ لكانوا	لَقَى بين الضلالةِ والحتوفِ
نبيٌّ لا يغلُّ عليه إلا	سخيفُ العقلِ ذو رأيٍ مؤوفِ
كأعمارِ اليهودِ أو النصارى	أو الفلكيِّ أو كالفيلسوفِ
فبعضٌ للتجاهلِ والتعامي	وبعضٌ للتحيُّرِ والوقوفِ
زعانفٌ لا يهلكُ لها رُواء	فإنَّ الجَهْلَ مائحةُ الظروفِ

إذا جرى بمختلٍ ضعيفٍ فإنَّ صحاحنا فوقَ الألوفِ
 فبرهانُ النبوةِ مستفيضٌ ندلُّ بهِ على رغمِ الأنوفِ
 شقوفُ الرُّسلِ متضخٌّ ولكن لأحمدِ الشقوفُ على الشقوفِ
 حروفُ الخطِّ أصلٌ للمعاني وللألفِ التقدُّمُ للحروفِ

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى :

لولا النبيُّ محمدُ هلكَ الوري في سوءِ حاله
 أعلى الوري قدراً وأكبرَ خمَ الإله بهِ النب
 واختصَّه دونَ البرِ بدرُ الرسالةِ والصحا
 قدَفَ الحصى في أعينِ الكُفَّارِ فاعتنقوا الجداله
 وتدرعوا ثوبَ الكا بهِ بعد إظهار الجزاله
 فأضخَّ إلى أنبائه تعلَّم بأنَّ المنتهى له
 وإذا ابتغيتَ وسيلةً وملحتُ وملحتَ آله
 فاقطعْ بأنك آمنٌ يومَ القيامةِ لا محاله

وقال أبو القاسم سعد بن محمد رحمه الله تعالى :

أطلقْ لسانك بالصلاة على النبيِّ الأبطحيِّ الهاشميِّ محمد
 واجعلْ شعلوك ذاك تنجُ بهِ غداً إنَّ النجاةَ بذكرِ يومٍ للغدِ

ولأبي اليمن ابن عساكر رحمه الله تعالى :

يا ربِّ صلِّ على النبي وآله
واخصص ختم سلامنا بجانبه
واحرس شريعته وأوضح سبلها
وأدم كرامته وأعل مناره
وارفع له الدرجات في رتب العلا
وأقمه بين يديك زلفى موقف
وأئل شفاعته وأورد حوضه
يشتاقه ويعوقه علق به
فيه إليه غلة ما تشفى
وله عليه في الأصائل والضحي
وبه إلى تقيل موطىء نعليه

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

ألا إن الصلاة على الرسول
فصل عليه ؛ إن الله صلى
وصل عليه قد صلت عليه
ألا إن الصلاة عليه نور
وتثقل لميزان خفيف
إذا صليت صلى الله عشرين
وتحظى بالشفاعة يوم تضحى
فاكثر أو أقل فانت تجزى
فصل عليه تجزى جزاء ضعف
وأولى الناس أكثرهم صلاة

شفاء للقلوب من الغليل
عليه ولا تكونن بالبخيل
ملائكة السماء يجبرئيل
لدى الظلمات في اليوم المهول
وتخفيف من الوزر الثقيل
بواحدة عليك على الرسول
وما لك من مقيل أو منيل
بذلك من كثير أو قليل
وتجز مضاعف الأجر الجزيل
عليه به وأحرى بالقبول

وأنجاهم من الأهوال عبد
 فكن لهجاً بذكره حفيماً
 وصل صلاة مشتاق إليه
 وصل مدى الزمان على رسول
 وصل على حبيب فاق فضلاً
 فصلّى الله أفضل من يصلّي
 وآتاه الوسيلة مستجيباً
 وأزلفه وشفّعه ليأوي
 وأطدّ شرعه وحمى حماه
 وشرّفه ولم يبرح شريفاً
 وزاد عبّه شرفاً وفخراً
 وزاد علاه منه بطول عمر
 وأوردنا عليه الخوض وفداً

بها لهجٌ بدّل^١ قال وقيل
 بليّاه ومنصبه الخليل
 ودأب بذكره سقم العليل
 كريم مصطفى برّ وصول
 مدى شأو الكليم مع الخليل
 عليه في الصباح مع الأصيل
 وبلغه نهاية كلّ سؤل
 إليه الناس في ظلّ ظليل
 وأبّده بواضحة الدليل
 فيجمع جملة المجد الأثيل
 بتفضيل وتزويل جزيل
 قصي من مواهبه طويل
 لنروى بالروى من سلسيل

وله رحمه الله تعالى :

آدم الصلاة على النبي المصطفى
 وتولّ إقبالاً عليها كلّما
 فالفخر أجمعه له فتلقه
 تخلص بذاك من الجحيم ونارها
 هتف المؤذن مشعراً بشعارها
 من نوبة الأسحار فوق منارها

فهذه عدة قصائد في مدحه صلّى الله عليه وسلّم ، أرجو من الله سبحانه أن
 تكون مكفرة لما ارتكبتها على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللغو ، فإن ذلك والله
 قول لا فعل له ، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر

١ كذا بالتسكين ، وفي هذه القصائد تماح أحياناً في اللغة والإعراب لم نشر إليه .

وغير واحد ممن ألف في الأدب وجمعه .
 ولا بأس أن نعرزها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحق لمن توسل
 بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن لا تضيع وسائله ، وكيف وهو صاحب
 المقام المحمود والشفاعة والسيادة ، فمنها قول ابن الجنان المذكور آنفاً رحمه الله
 تعالى :

إلى أحمد المختار نهدي تحية	تفاح روض الحزن بالله المزن
إذا نافحت مغناه زاد تأرجاً	وإن لثمت يمناه قابله اليمن
أسير أشواقى رسولا بعرفها	لتسعدنا منه العوارف والمن
وأرجو لديه الفضل فهو منيله	وما خاب لي فيه الرجاء ولا الظن
عليه اعتمادى حين لا لي حيلة	إليه استنادى حين ينو بي الركن
به وثقت نفسي الضعيفة بعدما	أضر بها من ضعف قوتها الوهن
إليه صلاتي قد بعثت مشفعاً	سلاماً به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى :

أيزهـبُ يومٌ لم أكفر ذنوبه	بذكر شفيـعٍ في الذنوب مشفع
ولم أفض في حق الصلاة فريضة	على ذي مقام في الحساب مرفع
أرجي لديه النفع في صدق حبه	ومن يرجع المختار لا شك ينفع
وأهدي إلى مثواه مني تحية	إذا قصدت باب الرضى لم تدفع

وقوله رحمه الله تعالى :

يا أرحم الخلق يوم الحشر والندم	أرحم عبيدك يا ذا الطول والنعم
لاني توسلت بالمختار ملجأنا	الظاهر المجتبي من خيرة الأمم
إليك من سيناتي إنها عظمت	يا واحداً لم يزل فرداً ولم يتم
عليه منه صلاة كلما طلعت	شمس وما خط في الأوراق بالقلم

فهو الشفيع الذي أرجو النجاة به من الجحيم إذ الكفار كالحمَمِ .
وقوله أيضاً رحمه الله تعالى :

بحبيب القلوب معتمد الخلا
قد تشفعت من ذنوبي إلى ذي ال
فاشفع اشفع يا خاتم الرسل يوم ال
لظلم لظلم لنفسه قد تناهى
فلذا ما تذكر الذنب فاضت
لا تخيب رجاءه إنه من
وعليك الصلاة بدءاً وعوداً
ق أبي القاسم النبي الشفيع
عزة الواحد العلي السميع
حشر والمشهد العظيم القطيع
في الخطايا وكل فعل شنيع
مقلته واغرورقت بالدموع
ربه خائف كثير الخشوع
ما أضاعت ذكاء عند الطلوع

وقوله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

يا رب إن شفيعي من ذنوبي في
محمد خاتم الرسل المبلغ لا
عليه مني صلاة كلما سجع ال
وبعد ذلك أعداد الجبال ورم
كذلك أيضاً سلامي طيب عطر
الله وهو كئيب خائف وجيل
يوم القيامة خير الخلق والنسم
لدين الحنفي والإسلام للأمم
حمام فوق غصون البان والسلم
ل الأرض والطير والحيتان والنعم
عليه ما قام عبد في دجى الظلم
من الذنوب حزين القلب ذو ألم

وقول الشيخ الإمام أبي زيد الغازي رحمه الله تعالى :

كملت بنيت محمد خير الورى
واختص دون الأنبياء بدعوة
فاضت على الثقلين منه أشعة
فالإنس تعلم أنه مقصودها
غرر القصائد كلها وحجوها
وسع العباد عمومها وشموها
طلعت وما عقب الطلوع أفوها
والجن توقن أنه مأموها

كم آية بالصدق كان ظهورها
وكفاك هذا الوحي فهو شهادة
جمع الإله المكرمات لأمة
كم آية بالسبق كان نزولها
لمحمد لزم العباد قبولها
هذا النبي الهاشمي رسولها

وقوله رحمه الله تعالى :

أي نور كشف الله به
نعم الله به أنواره
وأنا دليل بين
فهو للناس جميعاً مرشد
تركت دعوته وهو الرضي
فأعبد أنبائه فهو مني
والذي يهدي إلى شرعته
والذي يرغب عن سنته
سُدَف الباطل عنا أجمعين
عندما أكمل سن الأربعين
عجزت عنه دواعي المدعين
وهو بالله تعالى مستعين
سائر الخلق إليها مهطعين
أنفس القائل والمستمعين
فهو محتاج من العذب المعين
فهو من شيعة إبليس اللعين

وقوله وهو كما قبله لزومي :

أصغ فلخير العالمين مناقب
أني والوري أسرى فكان غياهم
وعقَى رسوم الكافرين وأهلها
تقدّم كلّ العالمين إلى مدّي
وخصّ بتشريف على الناس كلهم
ترقى إلى السبع الطباق ترقياً
وبالجسم أسرى الله وهو دلالة
فسبحان من أسرى إليه بعده
وكم عجب أوحى إلى عبده به
تدل على التمكين والشرف الأسرى
بنور سماء ينقلوه عن الإسرا
فلا يقصر من بعد ذلك ولا كسرى
تظلّ به الأوهام ظالعة حسرى
ومن لم يقل هذا تقوله قسراً
حقيقاً ولم يعبر سفيناً ولا جسراً
يمحلها من لا يُيسّر لليسرى
وبورك في الساري وبورك في المسرى
فدونك تجميلاً ولا تطلب الفسرا

وقوله رحمه الله تعالى :

هاك عن هذا النبي المصطفى	خبراً يقبله من سمعة
سبحت صم الحصى في كفته	ثم في كف الهداة الأربعة
وإذا أبدى نبي عبدة	فهو لا ينكر فيمن تبعه
أي نطق قد روى إعجازه	عن سماع كل من كان معه
حجج الرسل التي قد سلفت	أصبحت في أحمد مجتمعة
فاعتقد صحتها واعمل بها	فدعواوى ضدها منقطعة
ممكّنات العقل لا يجحدها	غير أهل الطبع والمبتدعة

وقوله رحمه الله تعالى :

إذا أملت من مولاك قرباً	فجدّد ذكر خير الأنبياء
وصل عليه أول كل قول	وأخره بصبح والمساء
فإن محمداً أعلى البرايا	معلّماً في السيادة والعلاء
لواء الحمد في يمين يديه	وكل الناس من دون اللواء
فحدث عن دلائله فقيها	شفاء للنهي من كل داء
ولست بناقل للعشر منها	وهل تقضى الزواجر بالدلاء
فقل للسامعين قنوا فهذا	محال ليس يحصر بانتهاء
براهين البسيطة ليس تحصي	فلونكم براهين السماء

وقوله رحمه الله تعالى :

أما يمين محمد	ويساره فهما سماء
كلتاها إن صوّح الـ	مرعى لنا طعم وماء
وإذا أضرب بنا السقا	م وغيره فهما شفاء

فأعجب لكف في الوري	فيها عن المزن اكتفاء
فأقطع بأنَّ محمدًا	في الخلق ليس له كفاء
فإذا أصبحت لآية	فالنورُ فيها والضياء
هذا الصباحُ الهاشم	يُ بدا فليس به خفاء
فالأرض قد فتحت بم	عنه وفتحت السماء
سبق القضاء بسبقه	والله يفعل ما يشاء

وقوله رحمه الله تعالى :

بركاتُ رسل الله غير خفية	ومحمدٌ خيرُ البريةِ أبركُ
هذا النبيُّ الهاشميُّ هو الذي	هُدِيَ الأنامُ به وبان المسلك
كم آيةٌ لمحمدٍ كم حجة	عزَّ الوليُّ بها وذلَّ المشرك
دعواته مسموعةٌ مرفوعةٌ	والحسن ليس يصح فيه تشكك
لا شيء أعجب من دليل واضح	يحيا به بعضٌ وبعضٌ يهلك
أمسك بحبل محمد خير الوري	تظفر بقصدك أيها المستمسك
وإذا عجبت لغايةٍ في رفعة	فمحلُّ أحمدٍ غاية لا تدرك

وقوله رحمه الله تعالى :

قَبَّحَ الإله الملحدِين	فإنهم جحدوا الضرورة
والمعجزاتُ تواترتُ	عن أحمدٍ في كلِّ صورة
والله أعلى كعبه	في خلقه وأتمَّ نوره
كثر الطعامُ مع الشرا	ب يكفه عند الضرورة
وتكثَّفَتْهُ عناية	من ربه أعلتُ أموره
نادى البريةَ فالقلو	بُ إلى إجابته مَصورة

وحى الشريعة بالدلي
قل للمشكك حين يي
بيني وبينكم الكتا
لـ فدع معاندها وزورة
لدي في تشكبه قصوره
بـ فدونكم فأتوا بسوره

وقال رحمه الله تعالى :

إذا بهرت للهاشمي دالة
فكم مرة آتى الغنى كف سائل
له تحت أستار الغيوب شهادة
يحدث عما كان أو هو كائن
إذا الصديق لم يعوزك في غلواته
وحسبك في الأنباء بالغيب أنه
فكم حجج في طيها ودلائل
وكم مرة أعطى المتى فكر سائل
معدلة لم تبقي قولاً لقائل
فقس آخراً من صدقه بالأوائل
فلا شك في تصديقه بالأصائل
ستمعها بالنقل من قول قائل

وقوله رحمه الله تعالى :

يا ذا المعنى بهذا الذكر تسمعه
هذا النبي ، ومن آيات أثرته
قد انقضت معجزات الغيب وافية
وهاك نوعاً من الإعجاز منتزهاً
لا نعدم النقل عن آثار سيدنا
تنقل الأنف في النوار ينشق
إن القلوب إذا اعتلت خواطرها
في المدح تأثره في سيد الناس
في الطيب والطول لا تجري بمقياس
صحيحة باستفاضات وإحساس
عن نقد منتقد أو صفح قرطاس
فلنما نحن فيها بين أعراس
من ياسمين إلى ورد إلى آس
فذكر أحمد فيها المبرىء الآسي

وقوله رحمه الله تعالى :

تأدب إذا ذكر المصطفى
فلن التأدب عند السماع
بصمت اللسان وغض البصر
يفهم في النطق أو في النظر

وردُّدُ أحاديثها إنها
وصلُّ عليه مدى ذكره
ولا تستربُّ في براهينه
فكم آية ظهرت للنبي
ومن شك في نور برهانه
فكبر على عقله أربعاً
دليل على صدق خير البشر
فذلك أفضل ما يدخر
فتسلك مسلك قوم آخر
وكم أثر عنده قد ظهر
على أن برهانه قد بر
وقل فوق طورك هذا الخبر

وقوله رحمه الله تعالى :

اعمل بآثار النبي
واقبل نصيحتها فقيه
واشدد يمينك بالشر
خير البرية أحمد
ذو قوة عند الإله
زان النبيون الوري
هاد إلى طرق النجا
والهج بمدح الهاشم
ولئن فعلت فلن تفو
ي فإنها النور المبين
ها العز والشرف المكين
مة إنها السبب التين
والحق يصحبه اليقين
م مقرب منه مكين
ومحمد لهم مزين
ة مؤيد فيها أمين
ي فإنه الحصن الحصين
تلك بعد ذا دنيا ودين

وهذا تسديس جعلته للكتاب مسك الختام :

وللتاس أعمالٌ فخيرة وضده
والآ فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له ، وفيها النثر والنظام ، زاده الله شرفاً
وحياه أفضل الصلاة وأزكى السلام .
وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجل أبي الحاج يوسف بن موسى
المتشاقري الأندلسي - نفعه الله تعالى بنينه ، وبلغه غاية أمنيته - وترتيبها على

حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم ،
وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً ، وهذا نصه بحروفه ما عدا حرف
الواو فإنه لم أجده وكملمته على منواله :

حلّ في طيبة رسول كريم	فعليه الصلاة والتسليم
صفوة الخلق خاتم الأنبياء	مرشد الناس للطريق السواء
والعماد الملاذ في الأواء	وشفيح العصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاه عظيم	فعليه الصلاة والتسليم
أذهب الغي نوره والغياب	فأضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحق غالباً للأكاذب	وبدت منه للأنام عجائب
صدق أقواله بها معلوم	فعليه الصلاة والتسليم
لبراهين صدقه معجزات	حيثما حلّ حلت البركات
وسمت أربع به وجهات	فيه قد تعرفت عرفات
وبه ناه زمزم والحطيم	فعليه الصلاة والتسليم
لم يزل هادياً صدوق الحديث	ووفياً بالعهد غير نكوث
ومجيباً لدعوة المستغيث	وكرماً نداه فوق الغيوث
ويده بالجلود جود سجوم	فعليه الصلاة والتسليم
بهج الحق أوضح الابتهاج	سيد نوره أضاء الدياجي
خصه الله ليلة المعراج	باصطفهاء ورفعة ونتاج
وبتكليمه له التكريم	فعليه الصلاة والتسليم

مصطفى مجتبي كريم صفوح	للتبيين جباهه منوح
فلاكرامه أجبر الذبيح	ونجما آدم وخلص نوح
وكذاك الخليل إبراهيم	فعليه الصلاة والتسليم
كل دين بدينه منوخ	فسوى ما قضى به مفوخ
لهده بكلمة قلب رسوخ	فالورى مادح له ومصبخ
كلهم في هوى النبي يهيم	فعليه الصلاة والتسليم
بعثه كان رحمة للعباد	دلهم بالهدى طريق الرشاد
ونفى كل باطل وعناد	ودعا للإله دعوة هادي
فإذا الحق واضح مستقيم	فعليه الصلاة والتسليم
أمة بالشكاة ظبي أخيد	مستجيراً بحسامه يستيد
وبه كانت الوحوش تلوذ	وله خاطب الذراع الحنيد
لا تذقتي فلاني مسموم	فعليه الصلاة والتسليم
أشبع الجيش والطعام يسير	ودعا نخلة فجاءت نصير
وهوى من يديه عذب نمير	وله البدر شق وهو منير
معجزات تحار فيها الفهوم	فعليه الصلاة والتسليم
حجب النور في السموات جازا	فاحتوى الفضل والعلاء وحازا
فيه في غد نال المفازا	وكفى أمة الرسول اعترازا
أن تمنى يكون منها كلم	فعليه الصلاة والتسليم

لأنما الحكمُ منه عدلٌ وقسطٌ لم يجرُ في القضاء والحكم قطُّ
جبه في بلوغ قصدي شرطٌ وبأمداحه ذنوبي تحطُّ
ويزولُ العنا وتجلي الهمومُ فعليه الصلاة والتسليمُ
قد حمى ديننا برعيٍ ولحظٍ ونقى روعنا بأمنٍ وحفظٍ
وحبانا بما لدى الربِّ يحظي هادياً راحماً لنا غيرَ فظٍّ
مثل ما نصَّه الكتاب الكريمُ فعليه الصلاة والتسليمُ
نور برهانه جلا كلَّ شركٍ وهده أجار من كلِّ هلكٍ
أخيرُ العالمين من غير شكٍّ فلکم رامةُ العداة بشكٍّ
وهو في كلِّ حالةٍ معصومٌ فعليه الصلاة والتسليمُ
ما نجيرُ الأنام منهم عديلٌ لأنه مجتبي نبيِّ رسولٍ
ما عسى مادح الشفيع يقولُ وبأمداحه أتي التتريلُ
وثناهُ خلاله مرسومٌ فعليه الصلاة والتسليمُ
نحن لولا اتباعه لشقينَا نورُ برهانه أَرانا يقينا
وغدا ما نخاف منه يقينا وكووساً بحوضه قد سقينا
من رحيقِ مزاجهُ مختمٌ فعليه الصلاة والتسليمُ
أحمد عند ربه ذو اختصاصٍ جاهه كاملٌ بغير انتقاصٍ
عدة للمسيء يوم القصاصِ وشفيعٌ لكلِّ جانٍ وعاصي
يوم يحفرُ الحميم فيه الحميمُ فعليه الصلاة والتسليمُ

ويجازي الذي أجاز وأمضى	بيديه حوائج الكل ^١ تُقضى
سوف نعطيك ما تحب وترضى	وينادي الحبيب أنتَ المرضى
فعليه الصلاة والتسليم ^٢	فتحكّم يمضى لك التحكيم ^٣
إن فيه بدا الجلال الرفيع	فاق بالمولد السعيد ربيع
فملاذ للمذنين شفيع	من هو الذخر والعماد المنيع
فعليه الصلاة والتسليم ^٢	ورؤوف بالمؤمنين رحيم ^٤
بيّن الوحي للأنام وبلغ ^٥	أفصح الناس في حديث وأبلغ ^٦
ولكم ^٧ نعمة من الله سوغ ^٨	طيب الحل قد أباح وسوغ ^٩
فعليه الصلاة والتسليم ^٢	فإحسانه علينا عميم ^{١٠}
أجود الناس بالندى موصوفا	كان بالحق والهدى معروفا
هادياً مرشداً رسولاً شريفاً	شرف الله قدره تشريفا
فعليه الصلاة والتسليم ^٢	مجده في العلاء مجد صميم ^{١١}
مجده في صميمه الأصل أعرق ^{١٢}	وجهه ^{١٣} بالبها أضاء وأشرق ^{١٤}
باصبع قد أشار للبدر فانشق ^{١٥}	مس ^{١٦} في كفه قضيباً فأورق ^{١٧}
فعليه الصلاة والتسليم ^٢	ثم ^{١٨} قد عاد وهو بدر سليم ^{١٩}
بلغ الأمر لا تخف من باس	جاءه الوحي أنت خير الناس
واحمهم من مكاييد الوسواس	وخذ العفو للأنام وواس

١ هذا البيت واثنان بعده سقطت من ق .

فعلبك البلاغ والتعليم	فعلبه الصلاة والتسليم
كان في الله أثبت الناس جاشا	ليس من غيره يخاف ويخشى
فبكف من الحصى قل جيشا	وعيون العداة بالترب أعشى
فنجا المصطفى وخاب الظلوم	فعلبه الصلاة والتسليم
قد سما قدره بغير تناهي	وعلا جاهه على كل جاه
أمر بالتقى عن الشر ناهي	من يطعه ينل ثواب الإله
وله عنده النعيم المقيم	فعلبه الصلاة والتسليم
عمدة الخلق للمفاخر حاوي	بحماه يلوذ كل وياوي
مبلغ المعطي الذي هو ناوي	كيف يحصي ثناء أحمد راوي
وعليه أثنى الكتاب الحكيم	فعلبه الصلاة والتسليم
حسنه كالصباح بل هو أجلى	وندى كفه من الشهد أحلى
واعتلا قدره من السبع أعلى	مدحه في الكتاب ما زال يتلى
فله الفخر والثناء العظيم	فعلبه الصلاة والتسليم
خصه الله من رسول نبي	في جميع الورى بقدر علي
وحباه منه بنور بهي	فهدى الخلق للصراف السوي
وصراف الهدى سوي قوم	فعلبه الصلاة والتسليم

[خاتمة الكتاب]

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقرئ المالكي ، وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب ، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى

الإصر والعتاب : هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذي يكون إلى ما وراءه من الطُرف الأدبية خير دليل ، ووضعت والقلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة ، وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجي سواه ، أن يجعل بناءه ثابتاً بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه ، وأن يكون ما جليته فيه من الهزل بالحد المذكور فيه مكفراً ، وأن ينفع به من وجهه إليه وجهته ، فلإني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف القرا .

يا مَنْ عليه اتكالي ومن إليه متابي
جُدْ لي بعفوك عني إذا أخذتُ كتابي

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر ، وفيه من حكايات الأولياء والعلماء ، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك . وفيه من الوعظ والاعتبار ، ما لم ينكره المتصف عند الاختبار ، وكفاه أنه لم يُر مثله في فنه فيما علمت ، ولا أقوله تركية له ، ويعلم الله تعالى أنني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ، ولو لم يحُز من الشرف إلا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة ، ذات الظلال الوريقة ، لكان كافياً شافياً ، وها أنا أجعل آخره تيسيراً لليب ، قول ابن حبيب :

يا خير مبعوث له طلعة نور الهدى منها أقر العيون
جئتُ إلى ناديك أرجو القري من غيث كفيك المغيث الهتون
كن لي شفيعاً فارتكاب الهوى أوقعني بين الشجا والشجون
صلّى عليك الله سبحانه ما هزّت الريح قُدود الفصون

وقول النواجي :

لقد أفرطت في حسن ابتداء ورمتُ تخلّصي يوم الزحام
فبالمختار أرجو عفو ربي ليرشدني إلى حسن الختام

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسفر صباحها عن السابع والعشرين
لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف ، بالقاهرة المحروسة ، والحمد لله وكفى ، وسلام
على عباده الذين اصطفى ، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها ؛ فيكون جميعه
آخر الحجة تامة سنة تسع وثلاثين وألف ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى
آله وصحبه وسلم ، دائماً أبداً إلى يوم الدين ، آمين .

وجاء في ختام النسخة « ق » :

قال محرر هذه النسخة المباركة عبد الفقير ، الضيف الحقير ، الراجي من الله سبحانه العفو والفران ،
أحمد بن محمد الحموي الطار ، غفر الله ذنوبه ، ومو في الدارين عونه ، كان الفراغ من كتابته
عشية يوم الأربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين للذي القعدة الحرام من
شهور سنة ثلاثين ومائة وألف ، حامداً لله مسلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم طالباً
لمؤلفه المغفرة ورحمة الله تعالى ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين وعن الأربعة الأئمة المجتهدين
وعن مقلليهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا وعن والدينا ومشايخنا ، ومن علمنا ومن هدانا ومن أسدى
إلينا معروفاً ، وعن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، من أهل
السياسة والجماعات ، إنه فقور رحيم ، شكور حلیم ، . . . وقد تمت هذه النسخة الميمونة المباركة
المصونة بعون الله وإرادته القادرة ومشيئته الصادرة برسم انتصار السادة الأشراف . . . مولانا وصيونا
السيد محمد عاصم أفندي ابن المرحوم السيد عبد المظي أفندي الشهر نصبه بلقلاص . . . وذلك بمنزلي
العامر الكائن بمحلة التيمرية من دمشق الشام (ثم قصيدة قلها الناسخ في تقریظ الكتاب مؤرخاً :
قل ثم عرف الطبيب أنجز به وعدي : ١١٣٠) .

انتهى المجلد السابع وبه تم الكتاب

وبليه المجلد الثامن في القاهرة العامة

محتويات المجلد السابع

الباب الخامس

(تتمة)

٩٦-٥

موشحات لسان الدين

٥	[فصل في تاريخ الموشحات والأزجال عن ابن خلدون]
١٧	[ترجمة ابن باجة من القلائد]
٢٤	[ثناء الفتح على ابن باجة في مصدر آخر]
٢٦	[ترجمة محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آثي]
٢٧	[رجوع إلى أخبار ابن باجة]
٢٩	[ترجمة الفتح بن خاقان عن الإحاطة]
٣٣	[ترجمة الفتح بن خاقان عن المغرب]
٣٦	[وسائل للفتح بن خاقان]
٣٨ - ٦٠	[نماذج من تراجم المطمح]
٣٨	١ - أبو بكر الزبيدي
٤٠	٢ - عز الدولة ابن صمادح
٤٣	٣ - رفيع الدولة ابن صمادح
٤٥	٤ - أبو الوليد ابن حزم
٤٦	٥ - أبو بكر الفسافي
٤٦	٦ - أبو علمر ابن عقال
٤٨	٧ - أبو مروان الطنجي
٤٩	٨ - أبو عمر أحمد بن عبد ربه
٥٣	٩ - أبو القاسم المنشي

٥٥	١٠ - أبو الحسن البرقي
٥٧	١١ - أبو الحسن علي بن جودي
٦٠	نص خطبة «المطح»
٦١	عود إلى الموشحات
٦١	[موشة ابن سهل ومعارضتان لها]
٦٥	رجع إلى موشحات ابن الخطيب
٦٩	[موشة لأبي الفضل ابن عماد المقاد]
٧٠	[موشة لبعض المراكشيين]
٧٢	[موشة للسلطان المنصور الفهري]
٧٢	[موشة أخرى للمنصور الفهري]
٧٤	[من مقطعات المنصور]
٨٢	رجع إلى التوشيح
٨٢	[موشة لبعضهم في ملح المقري]
٨٦	وجع إلى موشحات لسان الدين
٨٦	[موشة لابن فيانة]
٨٨	[موشة للبلي]
٨٨	[موشة لمقري عارضها البلي]
٨٩	[موشحات للشهاب الغزالي]
٩٤	[موشة للسوسلي]
٩٥	[موشة لابن بقي]

الباب السادس

٩٧ - ١٤٤ في مصنفاته ومؤلفاته

٩٧	سرد أسماء مؤلفات لسان الدين في الإحاطة
٩٩	ما تأخر تاريخه عن الإحاطة
١٠٢	معلومات عن كتاب الإحاطة

١٠٨	[ترجمة ابن الحاج النبري]
١٢١	[قصائد في ملح تلمسان وفاس]
١٢١	قصيدة لمحمد بن يوسف الثفري في ملح تلمسان
١٢٣	» لابن أجروم في ملح فاس
١٢٥	» للثفري في ملح تلمسان
١٢٥	» للثفري في ملح تلمسان أيضاً
١٢٨	» للمزدغي في ملح فاس
١٢٩	» للسان الدين في ملح تلمسان
١٢٩	» للتلالي في ملح تلمسان
١٣١	» لابن خميس في ملح تلمسان
١٣٣	[تعريف بتلمسان]
١٣٦	[ترجمة أبي ملين]

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته ١٤٥ - ٢٨٨

١٤٥	١ - أبو عبد الله ابن زمرك - ترجمته عن الإحاطة
١٦٠	[تعليقات ابن لسان الدين على الترجمة]
١٦٢	[ترجمة ابن زمرك من كتاب البقية والمذكور لابن الأحمر]
١٧١	[شيء من نظم منقول من الكتاب المذكور]
٢٤٠	[موشحات ابن زمرك]
٢٦٦	[ترجمة الولي أبي العباس السبي]
٢٧٩	رجع إلى ابن زمرك
٢٨١	٢ - ابن المهنا الطيب العالم
٢٨٢	٣ - أبو بكر ابن جزي
٢٨٢	٤ - أبو عبد الله الشرابي
٢٨٢	٥ - أبو محمد عطية بن يحيى المحاربي

الباب الثامن

٢٨٩ - ٥١٩

في ذكر أولاده

٢٩٠	ترجمة عبد الله بن لسان الدين نقلاً عن الإحاطة .
٢٩٩	أشعار لسان الدين في مخاطبة ابنه عبد الله .
٣٠١	علي بن لسان الدين وتعليقاته على الإحاطة .
٣٠٢	[نماذج من تعليقاته في ترجمة ابن جابر] .
٣٠٣	[رجع لتكميل ترجمة ابن جابر عن الإحاطة] .
٣٠٥	[استطرد بأشعار ابن جابر] .
٣٢٣	[قصيدته في التنويرية يسود القرآن] .
٣٢٦	[معارضات لقصيدته في السور] .
٣٣٣	[خطبة منسوبة لفياض يوري فيها بأساء السور] .
٣٣٥	[خطبة على مثالها للطنجالي] .
٣٣٧	[عود إلى نظم ابن جابر] .
٣٣٩	رجع إلى أولاد لسان الدين .
٣٤٠	[خطبة للكفعمي في تفضيل أسماء السور] .
٣٤١	[قصيدة مشابة للكفعمي] .
٣٤٣	[ترجمة الكفعمي] .
٣٤٧	[رجع إلى نظم ابن جابر] .
٣٤٧	[من شعر رفيق ابن جابر] .
٣٤٩	[عود إلى شعر ابن جابر] .
٣٧١	[من شعر رفيق ابن جابر] .
٣٧٧	رجع إلى أولاد لسان الدين - رسائل لعلي
٣٩١	وصية لسان الدين لأولاده .

٤٠٦	[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]
٤١٥	[ترجمة ابن الجنان]
٤٣٢	[مخمسات من المدائح النبوية لابن الجنان وغيره]
٤٥٩	[مدائح أخرى منقولة من منتهى السؤل]
٤٧٠	[مسلّمات في مدح الرسول]
٤٨٨	[قصائد ومقطعات في مدح الرسول أيضاً]
٥١٢	[مسدسة للمتشاقري هي مسك الختام]
٥١٧	خاتمة الكتاب

